ابنُ القريَة والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة

الدكتور يوسف القرضاوى

دار الشروق



الجزء الأول

إبْنُ القريَة والكُتّابْ

ملامح سيرة ومسيرة


النادي الشبابي



الطبعـة الأولى
١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م
الطبعـة الثانيـة
١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

الدكتور يوسف القرضاوى

إبْنُ القريَةَ والكُتّابْ

ملامح سيرة ومسيرة

دار الشروق

من الدستور الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ (الأحقاف: ١٥).

من مشكاة النبوة

«اللهم إني أستعينك، وأستهديك، وأستغفرك، وأتوب إليك، وأؤمن بك، وأتوكل عليك، وأثني عليك الخير كله، نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، إن عذابك الجد بالكفار ملحق».

قنوت ابن مسعود رضي الله عنه.

«اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر، فأتم نعمتك عليّ وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة.

اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر».

«يا رب لك الحمد، كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك».

«سبحانك اللهم وبحمدك، عدد خلقك، ورضا نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك».

من الأذكار النبوية المأثورة.

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تتنزل الخيرات، وبتوفيقه تتحقق الغايات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وأزكى صلوات الله وتسليماته على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، البشير النذير، والسراج المنير، الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وهداهم إلى صراط الله المستقيم، ومَنَّ به على المؤمنين، ليتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. ورضي الله عن آله وصحبه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون، وعمن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فلم يكن في نيتي ولا في تفكيري إلى وقت قريب: أن أكتب شيئا خاصا عن حياتي، وسيرتي ومسيرتي، وذلك لعدة أسباب:

أولا: أن كتابة السيرة والمسيرة إنما هي من الحديث عن النفس، والحديث عن النفس لا بد أن يتضمن لونا ما من تزكية النفس، وتمجيد الذات، وتزيينها في أعين القراء، وهو أمر مذموم شرعا وخُلُقًا. والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ (النجم: ٣٢)، ويتحدث عن اليهود في معرض الذم فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ (النساء: ٤٩).

وقد سئل أحد الحكماء: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه. أي وإن كان ثناؤه في ذاته حقا وصدقا.

إن كلمة «أنا» حين تصدر من المخلوق: كلمة بغيضة، وأول من قالها شر الخلق إبليس. قالها في معرض الرفض والتحدي والاستكبار، حين أمره الله بالسجود لآدم، فأبى واستكبر، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ (الأعراف: ١٢).

كانت «أنا» الإبليسية أول كلمة في تمجيد الذات عبر بها مخلوق شرير عن نفسه أمام ربه. مع أنه اعترف بخلقه له ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ فما دمت مخلوقا فلم تتمرد على خالقك؟ ولماذا تعجب بنفسك، وتنسى فضل ربك؟!

ولهذا حذر أهل السلوك من «العُجْب»، وعَدُّوا الإعجاب بالنفس من المهلكات، كالشح المطاع، والهوى المتبع. بل إن العامة عندنا يقولون: لا يمدح نفسه إلا إبليس. أخذوا هذا القول من القرآن.

إن «أنا» المعجبة المغرورة يجب أن تختفي فيما يقوله الدعاة إلى الله بألسنتهم، أو فيما يخطونه بأقلامهم، فليس هناك إلا «أنا» واحدة هي التي تصدر من الربوبية الخالقة والحاكمة لهذا الكون، والتي تتجلى في مثل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾ (الأنبياء: ٢٥). وقوله تعالى لنبيه وكليمه موسى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤)﴾ (طه: ١٣، ١٤).

والسيرة الذاتية تضطر الإنسان إلى أن يقول: أنا فعلت، وأنا قلت، وأنا سوَّيت.

ثانيا: أني لست من زعماء السياسة، الذين يجد الناس في حياتهم «مطبات» خطيرة، أو أسرارا رهيبة، أو مفاجآت تروعهم، وأحداثا غريبة تذهلهم. فالواقع أن حياتي ليس فيها مفاجآت مذهلة، ولا وقائع خارقة، إنما هي حياة عادية، تمضي على سنن الله المعتادة، ومعظم ما فيها من محطات انتقال من مرحلة إلى أخرى،

إنما صنعها القدر الأعلى لي، ولم أصنعها لنفسي. وأعتقد أن ما اختاره الله لي هو خير مما كنت اختاره لنفسي لو خيرت. وأحمد الله على ما انتهيت إليه، وأدعوه تعالى أن يجعل يومي خيرا من أمسي، وغدي خيرا من يومي، وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه.

ثالثا: أني لم أكتب شيئا مما مرَّ بي من أحداث في حينه، ولم أسطر أي ذكريات. وكثيرا ما طلب مني بعض الإخوة القريبين مني: أن أسجل مذكرات عن رحلاتي المختلفة في أنحاء العالم، فلم ينشرح صدري لذلك.

وعلى هذا الأساس سأعتمد فيما أكتب على ذاكرتي لا على مذكراتي. فلست مثل الإمام أبي الحسن الندوي، الذي كان يسجل كل فقرة من حياته، ثم جمعها بعد ذلك وأضاف إليها في «مسيرة الحياة» في ثلاثة أجزاء.

وإذا كانت الذاكرة هي المصدر الأول، فالذاكرة قد تخون الإنسان، والحزم أن يدع الإنسان ما لا يستيقنه مائة في المائة.

هذه هي الأسباب التي أبعدت عن ذهني التفكير في كتابة مسيرة الحياة. مكتفيا بالحوارات التي أجراها معي بعض الإخوة من الصحفيين ومن غيرهم. مثل ما أجراه معي: الأخ الدكتور حسن على دبّا منذ سنوات، ونشر جزءا منه في مجلة «الأهرام العربي» في القاهرة. وقبل ذلك: الأخ الصحفي مجاهد خلف، ونشره في جريدة «الشرق القطرية» في أحد الرمضانات. وكذلك ما أخذه مني: الأخ عصام تَلِّيمة سكرتيري الخاص، ولم ينشره بعد.

ولكن إخوة أحبة ممن أعتز بهم وأقدرهم، وأشعر بخالص مودتهم: طلبوا مني، وألحوا علي في الطلب أن أكتب هذه المسيرة بقلمي، وزعموا أن فيها خيرا كثيرا للقراء، وخصوصا للأجيال الواعدة الصاعدة من أبناء الأمة، وأنهم - على رغم فكرتي عن نفسي - يجدون في سيرتي ومسيرتي ما يستحق التسجيل والرصد والنشر، ليتخذ منه الناس عبرة، ويتخذ منه الشباب حافزا للعمل، وباعثا للأمل. وقالوا: إنك إذا لم تكتبها بقلمك سيحاول الآخرون أن يكتبوها، ولن تكون مثل كتابتك أنت.

وفي العام الماضي كنت ألقي محاضرة في مركز الدراسات الدولي بالقاهرة عن: «المسلمون والعولمة»، وبعد المحاضرة علق عدد من الحاضرين، وكان منهم الأخ الكريم الباحث الداعية الأديب الناقد، الأستاذ الدكتور جابر قميحة أستاذ الأدب العربي في جامعة عين شمس، فناشدني الله، وشدد المناشدة أن أكتب سيرتي بيدي وقلمي، وأني بمجرد أن أمسك بالقلم سيفتح الله علي، وأكد هذه الرغبة إخوة كثيرون من أقطار شتى.

وسبحان مقلِّب القلوب، فمنذ وقت قريب شرح الله صدري للكتابة، وقلت: أبدأ على بركة الله، معتمدا على ما أستيقنه مما أتذكره، وما لم أستيقنه أستبعده أو أذكره على التشكيك، أداء للأمانة، محاولا أن أكون موضوعيا ما استطعت، لأني أكتب سيرة ذاتية، فكيف يكون الذاتي موضوعيا؟ وكيف يكون الإنسان محايدا مع نفسه؟

هذا يحتاج إلى نفس انتصرت على هواها، واستعلت على رغباتها، وفنيت عن ذاتها. وأنا لا أدعي أني وصلت إلى هذه الدرجة، ولكني سأجتهد ما استطعت أن أقول الحق، وأتحرَّى الصدق، وأكون قواما بالقسط شهيدا لله ولو على نفسي، وألا يجرمني شنآن قوم على ألا أعدل، مستعينا بالله تعالى، معتصما بحبله، لائذا بجنابه، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

وسيجد القارئ الكريم الجزء الأول من حياتي أكثر إسهابا من الأجزاء الأخرى، لأني أتذكر هذا الجزء بتفاصيله جيدا، بخلاف الأجزاء الأخيرة برغم قرب زمانها، ولكن الذاكرة في الأخير قد شاخت، ولم تعد كما كانت في الزمن الماضي.

كما أني أحاول أن أركز على الإيجابيات، لتحسن القدوة بها والأسوة فيها. ومع هذا لا أغفل السلبيات، بل أذكرها لنأخذ منها العبرة، ولئلا نقع في مثلها، ولكي نكون منصفين مع أنفسنا، ومع الأجيال القادمة بعدنا، فإنما نحن بشر غير معصومين، نجتهد في خدمة الإسلام، ونصرة قضاياه. وربما كان اجتهادنا خاطئا، ومع هذا فنحن معذورون، بل مأجورون أجرا واحدا، كما صح في الحديث. فلا يضرنا أن نعمل ونخطئ، بل يضرنا أن نتقاعس ونقعد، وقد رفع الله الجناح عن

المخطئين ولم يرفعه عن القاعدين. قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٥)

لكنه سبحانه لم يعذر القاعدين المتخلفين، قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٨٧) ﴾ (التوبة: ٨٦، ٨٧).

هذا، وأرجو من الإخوة الذين كان ينبغي أن تذكر أسماؤهم في بعض المواقف: أن يسامحوني إذا أغفلتهم، فلست بمؤرخ يستقصي. ثم إني أعتمد على الذاكرة، وهي غير مأمونة على التفاصيل.

كما أرجو من الإخوة الذين كانت لهم مشاركة في بعض الأحداث التي ذكرتها: أن يصححوني إذا أخطأت.

وأستغفر الله سبحانه من كل خطإ أو تجاوز أو إعجاب بالنفس، فما أنا إلا بشر يخطئ ويصيب، فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطإ فمني ومن الشيطان.

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

قرية رمسيس

الساحل الشمالي بمصر

جمادى الأولى ١٤٢٢هـ

آب (أغسطس) ٢٠٠١م

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي


شباب
النادي الشبابي

(١)
صورة قريتي في عهد صباي

صورة قريتي في عهد صباي

قرية صفط تراب:

لم يشأ لي القدر أن أولد وأنشأ في مدينة كالقاهرة كما نشأ أحمد أمين، أو كدمشق كما نشأ على الطنطاوي، لأتحدث عن مدينتي وخصائصها وروائعها، ولكني ولدت ونشأت في قرية متواضعة من قرى الريف المصري، بعيدة عن كل أسباب المدنية الحديثة؛ فلا ماء ولا كهرباء ولا شوارع مرصوفة، ولا أندية ولا مكتبات ولا متاحف، ولا غير ذلك، مما تزخر به المدن العريقة عادة.

بين مدينة طنطا عاصمة مديرية (محافظة) الغربية ومدينة المحلة الكبرى أشهر مراكز مديرية الغربية، تقع قريتنا «صفط تراب» على بعد نحو ٢١ كيلو مترا من طنطا، ونحو ٩ كيلو مترات من المحلة.

وكثيرا ما سألت نفسي - وسألني الناس كثيرا - عن معنى كلمة «صفط». والمفهوم أنها كلمة غير عربية، وهي من الكلمات الموروثة مما قبل الإسلام، لعلها من اللغة الهيروغليفية، أو اللغة القبطية، ولعل بعض الباحثين المهتمين باللغات يفيدنا في معنى «صفط» وأمثالها من الكلمات التي تذكر مضافة إلى كلمات أخرى، مثل كلمة «شبرا» في «شبرا مصر» و«شبرا خيت» وغيرهما، ومثل كلمة «ميت» في «ميت غمر» و «ميت عقبة».

وكذلك مثل كلمة «صفط» وفي مصر عدد من القرى تسمى «صفطًا» وتضاف إلى اسم آخر مثل «صفط العنب» و«صفط الملوك» و«صفط الحنة» و«صفط البصل» و«صفط جدام» وغيرها.

ويبدو أن كلمة «صفط»[1] كانت تنطق وتكتب قديما بـ «السين» لا بـ «الصاد» هكذا (سفط)، وهذا ما ذكره ياقوت الحموي في «معجم البلدان» فذكر بلادا ثلاثة في مصر تسمى «سفطا»: (سفط أبي جرجا) و(سفط العرفا) وكلتاهما في صعيد مصر، و(سفط القدور) في أسفل مصر، أي في الوجه البحري بتعبيرنا الحديث.

و«سفط القدور» هذه هي قريتنا، بدليل أنها القرية التي دفن فيها الصحابي عبد الله بن الحارث، كما سيأتي الحديث. وهذه ليست مجرد دعوى أو شائعة من شوائع العوام، كما في كثير من القرى والبلدان، التي يدعون فيها وجود صحابة عندهم، ولا يوجد دليل على ذلك يعتمد عليه. بل هي حقيقة علمية نصَّ عليها المؤرخون والحفاظ من مؤرخي الصحابة رضي الله عنهم. ذكر الإمام أبو جعفر الطحاوي أن وفاته كانت بأسفل أرض مصر بالقرية المعروفة بسفط القدور. ونقل الحافظ بن حجر في التهذيب عن الإمام الطبري: أنه كان اسمه «العاصي» فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم: عبد الله. وقال ابن منده: هو آخر من مات بمصر من الصحابة رضي الله عنهم[2].

ولا أدري متى تغير اسمها من «سفط القدور» إلى «صفط تراب». وقد قرأت في بعض المراجع التي لا أذكر اسمها الآن: أنها كانت تسمى «صفط أبي تراب»، ثم حذفت كلمة «أبي» واستقرت على هذا الاسم الأخير الذي عرفت به، وهو صفط تراب.

وقد ذكر صاحب القاموس أسماء سبع عشرة قرية بمصر اسمها سفط، وأضاف إليها الزبيدي شارحه في تاج العروس: أسماء ستة أخرى. وكان من السبع عشرة:

---

(١) ذكر شارح القاموس في فصل الصاد باب الطاء أن (صفط) لغة في (سفط)، كما ذكره الحافظ في التبصير، وقال هكذا ينطقها أهل مصر.

(٢) انظر ترجمته في «الإصابة» ج٢ الترجمة (٤٥٩٨) وأسد الغابة (٣/ ١٣٧) وتهذيب الكمال ج١٤ ترجمة (٣٢١٢) وتهذيب التهذيب (٥/ ١٧٨) وغيرها.

سفط القدور. قال الزبيدي: هي المعروفة بسفط عبد الله بالغربية، وبها توفي عبد الله بن جزء الزبيدي، وهو آخر من مات من الصحابة بمصر، وقبره ظاهر بها زرته مرارا رضي الله عنه. اهـ. وذكر القاموس من «السفوط» «سفط أبي تراب» وقال شارحه: بالسمنودية. ولا يوجد بسمنود ولا ما حولها بهذا الاسم غير قريتنا، فهي قريبة من سمنود نسبيا، وإن كان الأولى نسبتها إلى المحلة الكبرى.

وفي اللغة العربية توجد كلمة «سفط» بالسين لا بالصاد، وبالفاء المفتوحة ومعناها: السلّة ونحوها مما يوضع فيه الطيب وأدوات النساء كالجوالق أو كالقفة.

تتميز قرية «صفط تراب» بأنها قرية عريقة قديمة. ومن دلائل عراقتها: وجود قبر الصحابي الجليل سيدنا عبد الله بن الحارث بن جزء بن عبد الله بن معد يكرب الزُّبَيْدي، أبي الحارث، نزيل مصر، الذي روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث أخرجها له: الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

وكان عبد الله بن الحارث من شباب الصحابة الفاتحين الذين قدموا إلى مصر، مع القائد عمرو بن العاص فاتح مصر في عهد أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وفتحُ مصر بالإسلام وللإسلام: قصة يجب أن تعرف، فليس يتصور أن يفتح جيش من أربعة آلاف شخص، أمدوا بعد ذلك بأربعة آلاف مثلهم: أن يفتحوا بلدا احتله الرومان واستعمروه لعدة قرون، لولا أن الشعب المصري نفسه، كان مرحبا من أعماقه بالفاتحين الجدد، الذين نظر إليهم نظرة المنقذ من ظلم الرومان الذين كانوا يوافقونهم في دين النصرانية، وإن خالفوهم في المذهب.

على كل حال، لم يفتح الإسلام - في الواقع - مصر بالسيف، إنما فتحها بإقامة العدل ونشر مبادئ الحق والخير. على أن السيف قد يفتح أرضا، ولكنه لا يفتح قلبا، إنما تُفتح القلوب بالدعوة والحكمة، والحوار بالتي هي أحسن، وبالأسوة الحسنة.

هذه جملة استطرادية، اقتضاها الموقف بمناسبة الحديث عن الصحابي الفاتح عبد الله بن الحارث ساكن صفط تراب.

بعد انتهاء الفتح والصدام مع جيش «المقوقس» حاكم مصر من قبل الإمبراطورية الرومانية البيزنطية، ورحيل الرومان عن مصر وهدوء الأحوال، رجع من رجع من الصحابة الفاتحين مثل: عمرو بن العاص، والزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت وغيرهم إلى جزيرة العرب، وبقي عدد آخرون من الصحابة وتلاميذهم في مصر، وتفرقوا في مدنها وقراها.

وكان من حظ قريتنا أن يستوطنها ويستقر بها هذا الصحابي الشاب، عبد الله بن الحارث الزبيدي، وأن يظل في هذه القرية ويتزوج بها وينجب حتى وافاه أجله، ومات بها، ودفن بها سنة ٨٦هـ، وقبره معروف بها.

هذا، وقد كان لي أبيات قلتها في مديح سيدي عبد الله بن الحارث، الذي كان لقريتنا «صفط تراب» الحظوة به دون سواها، وهي أبيات لم تنشر من قبل، وهذه مناسبة لأسجلها هنا، وأنا أعطي صورة عن القرية. قلت:

بعبد الله أشرقت الرَّوابي

وبوركت السهول مع الهضاب

صحابيّ الرسول، جُزيت خيراً

عن الإسلام، يا نعم الصحابي

شرفت بصحبة المختار دهراً

تلقّى من مناهله العِذاب

وتسمع منه قول الحق صفوا

وتشهد فعله وبلا حجاب

وجـئت لـمـصـر تحمل خـيـر دين

مع ابن العـاص في شـرخ الشـبـاب

ورحَّب شـعبُ مـصـر بكم، وأصـغى

لـدعـوتكـم، وفـتَّـح كـل بـاب

دعـوتم مـصـر بالـحـسنى فـلبّت

نـداء اللـه، لا بشَـبَـا الـحِـراب

بسـيف الـحب والـعـدل انتـصـرتم

ولـيس ببطش ذي ظـفـر وناب

وأمـست مصـر للإسـلام حصنا

ودرعـا للـسـان ولـلـكـتـاب

وأنقـذتم مـن الـرومـان شـعـبـا

غـدا لهـمـو كـأبقـار الـحِـلاب

وأسلـم أهـل صـفط عـلى يديكـم

ودانَـوْكـم بـصـهـر واقـتـراب

وعـشت بهـا، ومـت بهـا، هنيـئـا

لَهـا بك مـن جـوار مسـتطاب

وحُـقَّ لـصـفطنـا بك أن تُسـمَّى

بصـفط التِّـبْـر لا صـفط التُّـراب!

ولا بد لي قبل أن أتحدث عن سيرتي ومسيرتي: أن ألقي شعاعا من ضوء على البيئة التي ولدت فيها، ونشأت بها، وخطوت في ربوعها ومرابعها خطواتي الأولى.

سأحاول أن أعطي القارئ الكريم وخصوصا في البلاد العربية والإسلامية: صورة بينة الملامح، واضحة التقاسيم عن قريتي، في جوانبها الدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية. كما ألقي بعدها شعاعا على أسرتي التي ربيت في ظلها، حتى تتكامل الصورة أمام القارئ الكريم.

وستتحدث فيما يلي عن:

أ ـ الجانب الديني في القرية.

ب ـ الجانب الاقتصادي في القرية.

ج ـ الجانب الاجتماعي في القرية.

د ـ الجانب الثقافي في القرية.

هـ ـ الجانب السياسي في القرية.

(أ) الجانب الديني في القرية

كان الدين في قريتنا ـ كما كان في قرى مصر بصفة عامة ـ هو المؤثر الأول في حياة الناس.

كان الموجِّه الأول لتفكير الناس، والمصدر الأول لتثقيفهم كما سنرى بعد، والمؤثر الأول في سلوكياتهم.

الدين محور الحياة:

المولود يولد على اسم الله، وعلى أنه نعمة من نعم الله سبحانه.

والزواج يتم على كتاب الله وسنة رسول الله، وعلى مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، كما يقول مأذون البلد باستمرار.

والميت يموت على ملَّة رسول الله، ويُغسل ويكفن ويُصلَّى عليه ويُدفن في مقابر المسلمين على شرع الله.

والإنسان حين يأكل يبدأ باسم الله، وحين يفرغ من أكله يختم بحمد الله.

وكثيرا ما نسمع منهم هذه الكلمة حين يأكل بعضهم ويشبع من الطعام العادي: اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال.

وكانوا يحترمون الخبز، ويسمونه «النِّعمة»، وإذا وجد أحدهم لقمة خبز ساقطة في الطريق التقطها وقبَّلها، حتى لا يدوسها الناس بأقدامهم، فيكون ذلك كفرانا بنعمة الله.

وكل الظواهر والأشياء تفسر باسم الله، وتقترن بذكر الله.

حين يعطس الإنسان يقول: الحمد لله، ويشمته صاحبه فيقول: يرحمك الله.

وحين يودع صاحبه يقول له: في أمان الله، وبسلامة الله.

وحين يعود من السفر يقال له: الحمد لله على السلامة.

وحين يعود المريض يقول له: أجر وعافية إن شاء الله.

وحين يخسر في صفقة أو يضيع منه شيء يُقال له: العوض على الله.

ويقول بعض من خسر: الله جاب (أعطى) الله أخذ، الله عليه العوض.

وإذا نزلت بأحدهم مصيبة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وإذا عزَّاه أحدهم يقول له: ربنا يجبر مصيبتك ويعوضك خيرا.

وإذا قيل لأحدهم: كيف أصبحت؟ أو كيف أمسيت؟ أو كيف حالك؟ فإن رده دائما: بخير والحمد لله.

إذا اغتنى أحدهم قال: هذا بفضل الله.

وإذا افتقر قال: بقدر الله.

وبهذا نرى الناس في القرية مخلوطين ومعجونين في الدين.

مساجد القرية:

كان أهم مؤسسة في القرية هي «المسجد»، وأهم شخصية مؤثرة في القرية هي شخصية «عالم الدين».

وكان في قريتنا خمسة مساجد، ثلاثة كبيرة، واثنان صغيران، والمسجد الصغير يسميه الناس زاوية.

وكانت المساجد - على عادة القرى في مصر - تسمى بأسماء مشايخ مدفونين فيها. ولا أدري هل بني المسجد أولا ثم دفن الشيخ أو العكس؟

في القرية مسجد سيدي عبد الله بن الحارث الصحابي، ومسجد سيدي سليمان، وزاوية سيدي صالح، وزاوية سيدي عبد الغني، ومسجد المتولي، وهو مسجد ناحيتنا، ومن فضل الله عليّ أنه لم يكن فيه ضريح لشيخ، وإن كان الناس يقولون: مسجد سيدي المتولي، على العادة. ويبدو أن كلمة المتولي تعني: متولي أمر البلدة، أي مسجد الحكومة. ويوجد مسجد المتولي بمدينة المحلة، وبالقاهرة أيضا.

بعض النساء اللاتي لا يصلين، وبعض الرجال الذين لا يصلون، كانوا يحافظون على الصلاة في شهر رمضان. فقد كان لرمضان حرمة عظيمة في نفوس المسلمين، وكانوا يلتمسون فيه مغفرة خطاياهم طوال العام. وكثير من الناس الذين أضاعوا الصلوات، واتبعوا الشهوات، لم يجرؤوا على إفطار رمضان، فكان هذا الشهر يجبرهم على احترامه، ويحفزهم على صيامه.

وكثير من النساء كن يصمن رمضان كله، حتى إنهن لا يفطرن أيام الدورة الشهرية (الحيض)، مع أن الصوم في هذه الأيام حرام، ولا يقبل منها. ولكن الجهل الشائع لدى النساء أدى إلى هذه النتيجة.

كان شهر رمضان كل عام موسما للطاعات، ومتجرا للصالحين والصالحات. وكان الناس يجددون فيه إيمانهم بحق. بصيام نهاره وقيام ليله، والانتفاع بدروسه،

ولذا سميته في بعض ما كتبت : «ربيع الحياة الإسلامية» تتجدد فيه القلوب بالإيمان والصيام والقيام، والعقول بالمعرفة والعلم، والأسرة بالالتقاء على الفطور والسحور، والمجتمع بقوة الترابط والتزاور، والإحسان إلى الفقراء.

وكان فرصة لتلاوة القرآن وذكر الله تعالى وتسبيحه والدعاء والاستغفار له، وخصوصا عند الإفطار، حين يفطر الصائم، ويقول: اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت.

ولقد كتب أحد كبار المبشرين في مصر تقريرا في أوائل هذا القرن: كيف فشلت الحملة التبشيرية على مصر؟ فذكر أن من أسبابها «أربعة أمور» تحطمت عليها محاولات التنصير في مصر المسلمة: الأول: القرآن، والثاني: الأزهر، والثالث: اجتماع الجمعة الأسبوعي، والرابع: مؤتمر الحج السنوي.

وقد علَّقت على هذا القول بأن هذا المنصِّر نسي أن يذكر أمرا خامسا، وهو الموسم السنوي العظيم شهر رمضان، وما له من إيحاءات وثمرات في الأنفس والحياة بصيام أيامه، وقيام لياليه، ودروسه وعظاته.

وهناك فريضة دينية، وشعيرة إسلامية، وركن ركين من أركان الإسلام، لم يكن له أثر ملموس في الحياة الإسلامية، كما شهدتها في صباي، وأعني به: فريضة الزكاة. وركن الزكاة، هو الركن المالي الاجتماعي الاقتصادي من أركان الإسلام، وهو الذي قرنه القرآن مع الصلاة في ثمانية وعشرين موضعا، والذي قال فيه أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

ويبدو لي أن سبب اختفاء هذا الركن وعدم ظهوره بوضوح، يرجع إلى عدة أسباب:

أولها: أن جمهرة الناس في القرية كانوا فقراء لا يملكون النِّصاب.

ثانيا: أن كثيرا من الذين يملكون النِّصاب، وتجب عليهم الزكوات، كانوا يخرجونها دون إعلان لأقاربهم وجيرانهم.

ثالثا: غلبة الشح وحب الدنيا على كثير من الناس، حتى نسوا إقامة هذا الركن العظيم.

رابعا: عدم وجود من يطالبهم بالزكاة، لا من الدولة، ولا من هيئات شعبية.

ولكني لاحظت أن بعض الفلاحين ـ ومنهم عمي ـ كانوا يخرجون إذا اجتمع لهم خمسون كيلة مصرية من الحبوب (القمح أو الذرة أو غيرهما) كيلتين ونصفا منها، زكاة للفقراء، نصف عشر ما خرج من الأرض، حيث كانت الأرض تسقى بالسواقي ونحوها من الآلات، وليس بماء السماء.

وكان الملاحظ: أن الفلاحين المحدودي الدخل هم الذين يحرصون على أداء الزكاة، لا كبار الملاك الزراعيين.

رمضان موسم ديني سنوي:

في شهر رمضان يصلي إمام مسجدنا الشيخ أحمد مولانا التراويح بعشرين ركعة غير الشفع والوتر، يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة: آية أو بعض آية من أوائل أرباع سورة البقرة، وعدد أرباعها: عشرون. فإذا كانت الآية قصيرة أكملها، وإن كانت طويلة نسبيا قرأ جملة منها، مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ (البقرة: ٢٦) ويكتفي بذلك، أو قوله سبحانه: ﴿**لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**﴾ (البقرة: ١٧٧) ويكتفي.

وبين المغرب والعشاء، بعد الإفطار السريع، يعقد درس في المسجد يقوم به أحد المشايخ، وهو مأذون البلدة، ومعظمه في الفقه على مذهب الشافعي، ويطيل في هذه الدروس، التي تتحدث غالبا عن الطهارة: المياه وأحكامها، والاستنجاء وشروطه وآدابه، والوضوء وأركانه وشروطه وسننه ونواقضه، والتيمم والحيض والنفاس إلخ.. ولقد علقت على هذه الدروس يوما، فقلت: إن الشيخ حفظه الله يمضي في دروسه هذه ثلاثين ليلة، ولا يخرج من دورة المياه!

والعجب أنه يكرر هذه الدروس في رمضان كل سنة . ولا يجدد نفسه . وقد تركت هذه الدروس بعض الآثار السلبية في نفسي إلى اليوم . فمما سمعته وتأثرت به وحاولت تطبيقه بشدة : ما سمعته من الشيخ في أحد دروس العشاء في رمضان عن شروط النية ، وقول الناظم فيها :

يا سائليّ عن شروط النية

القصد والتعيين والفرضية

وقد شرح هذه الشروط وضرورة استحضارها عند تكبيرة الإحرام بين الهمزة والراء . وقد جاهدت واجتهدت حتى تعلمت ذلك ، وبعد ذلك علمت أن هذا الجهد الجاهد ليس من الدين في شيء ولا لزوم له . ولكني كثيرا ما أنوي وأتوقف قبل تكبيرة الإحرام إلى اليوم ، حتى أستحضر هذه النية المزعومة ! !

الشيخ عبد المطلب البتة:

وظل مسجدنا على هذه الوتيرة حتى ظَهَر «عالم جديد» هو الشيخ عبد المطلب البتة الذي تخرج في كلية الشريعة بالأزهر ، وكان أول دفعته ، وهو عالم نشيط ذو روح قوية ، وهمة عالية ، وشجاعة في قول الحق ، مع خفة ظل ، وقبول عند الناس .

بدأ الشيخ عبد المطلب بخطب الجمعة ، فقلبها رأسا على عقب ، أصبح يرتجل الخطبة ارتجالا ، ولا يقرؤها من ورقة ، كالخطباء من قبله ، وأصبح يحضر خطبته تحضيرا جيدا ، ويحدد لها موضوعا معينا ، يعده ويهيئ له أعمدته من الآيات والأحاديث ، والأقوال المأثورة ، فشد الناس إليه ، وانتفع الناس به .

وقد عالج الشيخ عبد المطلب في خطبه أمراض المجتمع من الغش والكذب والخيانة ، وعقوق الوالدين ، وقطع الأرحام ، وغيرها ، وحارب البدع المنتشرة في المجتمع ، وأمسى هو الموجه الأول للناس .

وفي رمضان ابتكر الشيخ درس العصر، ولم يكن موجودا قبله، يفسر فيه آيات من القرآن، أو يشرح أحاديث من الأحاديث النبوية، مثل أحاديث (الأربعين النووية). وكان للشيخ عبد المطلب تجديدات في دروسه لا يجدها الناس في غيره، يريد أن ينشط بها الناس، ويجذب انتباههم، مثل دعوته الحاضرين إلى أن ينشدوا معه في كل درس، هذه الأبيات:

يا رجال الله هبُّوا ... ليس غيرَ الله رب

إن في القرآن آية ... وهي للعشاق طب

لن تنالوا البر حتى ... تنفقوا مما تحبوا

يقصد: «مما تحبون» كما هو لفظ الآية، ولكن حذفت النون لضرورة القافية. ولا أدري هل يجوز هذا في القرآن الكريم؟

كان الشيخ عبد المطلب البتة مثالا حيا للعالم القوي في علمه، القوي في روحه، الحريص على أداء رسالته، ونفع أهل قريته. وأشهد أني انتفعت بالشيخ البتة، ولزمت دروسه بعد العصر في مسجد المتولي، حتى كدت أحفظها، بل كنت ألزمه في صلاة التراويح، حيث كان يصليها في مسجد صغير يسمى مسجد سيدي عبد الغني. وكان يصلي التراويح عشرين ركعة كالعادة، ولكنه خالف أوائل أرباع سورة البقرة في كل ركعة، واخترع طريقة أخرى لضبط العدد، وهو أن يقرأ سورة الضحى مرتين، وهي إحدى عشرة آية. ولكنه يقرأ في الركعة الأولى: والضحى. والليل إذا سجى. ثم في كل ركعة آية.

وقد ظل الشيخ عبد المطلب يخطب أكثر الجمع بمسجد المتولي، حتى عين مدرسا بمعهد شبين الكوم الديني. وكان خريجو الأزهر لا يجدون عملا لهم في تلك المرحلة من الزمن، ولكن لأن الشيخ البتة كان أول فرقته، فقد عين مدرسا بالمعاهد الأزهرية. ولكنه كان يعود إلى الخطابة بالمسجد في فترة الإجازة الصيفية، ومن حسن الحظ أن رمضان كان يأتي في إجازة الصيف، فلم ينقطع عن درسه فيه.

علماء القرية الآخرون:

وكان شقيق الشيخ عبد المطلب هو الشيخ أحمد البتة (وهو واعظ بالأزهر) يخطب أحيانا إذا زار القرية، أو يلقي درسا بعد الصلاة، وكان واعظا مجيدا ومؤثرا، وقد توفي مبكرا، رحمه الله.

وكذلك الشيخ أحمد محمد صقر المدرس بكلية أصول الدين من علماء القرية المرموقين، وكان يخطب الجمعة أو يلقي درسا في المسجد إذا زار القرية، وقد كان مقيما بالقاهرة، وكان من أحسن الناس تلاوة للقرآن، وقد تأثرت بتلاوته كثيرا.

ومثل الشيخ أحمد صقر: ابنه العالم المحقق الشيخ السيد أحمد صقر، الذي خطب في مسجد المتولي مرة أو مرتين، والشيخ أحمد عبد الله المدرس بكلية الشريعة بالأزهر، وقد كان يلقي درسه بانتظام في مسجد سيديَ سليمان، القريب من بيته، وقد حضرت بعض دروسه في رمضان، وكان عبارة عن أحاديث نبوية يختارها غالبا من شرح النووي على صحيح مسلم، ويعلق عليها تعليقا خفيفا.

أما مسجد سيدي عبد الله بن الحارث - وهو مسجد الصحابي الجليل دفين القرية - فقد كان قليل الحظ من الخطباء والعلماء، حتى عين فيه الشيخ عبد المطلب غانم، من قبل وزارة الأوقاف، فأخذ ينظم خطبه ويعدها إعدادا طيبا، واستمر بالمسجد، حتى أحيل على التقاعد رحمه الله.

وكان بعض الأزهريين من طلاب المعاهد الثانوية، والكليات الأزهرية، يشاركون في الخطابة في مساجد القرية، وأذكر أن أحدهم خطب مرة خطبة عنَّف فيها أهل القرية ووبخهم، وكان من عباراته التي حفظها الناس ورددوها: أو كلما سافرت من القرية وعدت إليها وجدتكم كالأنعام أو أضل سبيلا؟! مما جعل أهل المسجد يردون عليه ويشتمونه، وهو فوق المنبر! ولهذا ينبغي أن يكون الخطيب عَفَّ اللسان، حكيما في تعبيره، بحيث لا يجرح مشاعر الناس، ولا يهوّن من شأنهم.

الطرق الصوفية في القرية:

لم يكن للطرق الصوفية الشهيرة والكبيرة في قريتنا نفوذ وأتباع، إلا أفرادا قليلين كانوا من أتباع الطريقة الشاذلية، ممن كانوا يعملون في مصانع شركة الغزل بالمحلة الكبرى. ولكن كان هناك أتباع للطريقة «البيومية» وهم مشهورون بالذكر الجماعي، الذي كثيرا ما يتم على نشيد المنشد وأنغام «السلامية» ويتراقصون في ذكرهم بطريقة رياضية قوية، تحتاج إلى جسم مرن قادر على هذه الحركات والالتواءات.

وكان من المشايخ الذين لهم صلة بالقرية: الشيخ محمد سليمان العناني، الذي كان يأتي من طنطا إلى القرية، والذي يعتقد أهل القرية أنه من أولياء الله الصالحين، وكان رجلا مشرق الوجه، يبدو على وجهه نورانية تجذب الناس إليه، وقد رأيته مرة ورأيت ازدحام الناس عليه.

وكان من الطرق الشهيرة في مصر في ذلك الوقت: «الطريقة الخليلية» التي أسسها الشيخ إبراهيم أبو خليل في الشرقية. وكان رجلا أميا، ولكن يحكون عنه من الكرامات والخوارق الشيء الكثير، وكنت أسمع هذه الحكايات من زوج خالتي الحاج محمد الرياشي الحاروني، الذي أخذ عهدا على الشيخ «أبو خليل» نفسه، وكان دائم الذكر والتسبيح. وكان الحاج رياشي رجلا صالحا في نفسه، صادقا في قوله، أمينا في عمله، مستقيما في أخلاقه.

وقد نشأت في قريتنا طريقة مستقلة انبثقت من الطريقة الخليلية، وهي طريقة الشيخ «محمد أبو شادي»، الذي كان خليليا في أول أمره ثم استقل بطريقته الخاصة، التي كان قوامها الذكر والدعاء والاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قراءة فصل من كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي. فجمعت بين العلم والعمل، أو بين الثقافة والسلوك. وكان لها شعار اتخذته يحفظه أتباعها يقول: «من جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده، فإن كان ولا بد من ذكر غيره، فليذكر الآخرة، وليذكر الصالحين» فعَدَّ ذكر الآخرة مقابلا لذكر الله! والصواب أنه جزء من ذكر الله، أي ذكر لقائه وحسابه.

وهذا يشبه ما قاله بعض مشايخ الصوفية المتقدمين حين قرأ قوله تعالى عن الصحابة في غزوة أحد: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ (آل عمران: ١٥٢)، فصرخ الشيخ وقال: فأين من يريد الله؟

ورد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية بأن من أراد الآخرة فقد أراد الله، إذ لا يعقل ألا يكون في الصحابة من أهل أحد: من لا يريد الله!

وقد عرفت هذه الطريقة من أحد أتباعها المخلصين، وهو جارنا الفاضل الشيخ بيومي العزوني، الذي أخذني إلى إحدى جلساتهم - أو حضرتهم - في إحدى الليالي، ولكني لم أستمر معهم، إذ كان مزاجي منذ الصبا مع المنهج الوسط.

وقد كان من أتباع الشيخ أبي شادي بعض علماء الأزهر المرموقين، منهم العالم الجليل الشيخ عبد الحليم قادوم شيخ معهد الزقازيق، وأحد الصالحين من علماء الأزهر، وقد شهدته بنفسي حين قدم إلى القرية، وزار قبر شيخه أبي شادي، وألقى درسا في «أدب الأكابر».

وقد استفدت من هذه الطريقة شيئا مهما، مما كان له تأثير في حياتي، وهو التعرف المبكر على حجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي، وذلك عن طريق كتابه «الإحياء» الذي كان جارنا الشيخ بيومي العزوني يقتنيه، بحكم التزامه بالطريقة التي ترى أن قراءة «الإحياء» أحد ركنيها.

وكان الشيخ بيومي يعمل كاتبا في إحدى الدوائر الزراعية في القرية، وكان رجلا ذكيا له قراءة في فقه الشافعية، واطلاع على «الإحياء»، وكان يحبني ويعتز بي ويناديني دائما بكنية التزمها، كلما جاء إلى دارنا ونادى من بعيد: يا أبا يوسف. قلت له: أنا يوسف ولست أبا يوسف! قال: ولكني أناديك بهذا وأقول لك ما قاله أبو حنيفة لصاحبه أبي يوسف: لتأكلن الفولاذج على مائدة الملوك!

وكنا نلتقي - منذ التحقت بالمعهد الديني - بعد عصر كل يوم، لنقرأ فصلا، أو أكثر من كتاب «الإحياء» أو بالأحرى من «كتب الإحياء»، فالإحياء ليس كتابا واحدا في

الواقع، بل هو أربعون كتابا في كتاب، مقسمة إلى أرباع أربعة، وكل ربع فيه عشرة كتب؛ ففيه ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات، وكل ربع منها عشرة كتب.

فكنا نختار بعض الكتب ـ ولا سيما من المهلكات أو المنجيات ـ لنقرأ فيه. وكثيرا ما كنت أختلف أنا والشيخ بيومي في بعض المواضع، فقد كنت أعترض على بعض النقاط في الكتاب، بحكم ما فطرني الله عليه من كراهية الغلو والمبالغات، وحب التوسط والاعتدال، وهو كان يقبلها بحكم نشأته الصوفية، وتعظيمه الشديد للإمام الغزالي، الذي كاد يصل إلى حد التقديس، فكان يسيغ ما ذكره الإمام الغزالي في كتاب «التوكل» وفي كتاب «الزهد» مما يتعارض مع ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومع ما يدعو إليه القرآن من الجمع بين حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، والدعوة إلى العمل، والأخذ بالأسباب، ومراعاة السنن التي وضعها الله ليقوم عليها نظام هذا الكون.

كما لاحظت أن في الكتاب أحاديث كثيرة يرفضها عقلي، ثم اكتشفت أن «الإحياء» يحتوي معه كتابا آخر للحافظ العراقي، سماه: «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأحاديث والأخبار» وهو يعلق على كل حديث يرويه الإحياء، ويذكر من رواه، ويبين أنه حديث صحيح أو حديث حسن أو ضعيف أو ضعيف جدا، أو لا أصل له أو موضوع. فكان هذا الكتاب نافعا لكل من قرأ «الإحياء» بل ضروريا له.

وهذان المأخذان على «الإحياء» لم يسقطا اعتباره، ولا اعتبار الإمام الغزالي عندي. وهذا مما أحمد الله تعالى عليه: العدل والاعتدال مع الناس، وخصوصا مع العلماء، فلا أغلو في حب بعضهم إلى درجة التقديس، ولا أتطاول على كبرائهم، لمجرد أنه أخطأ، فكل بني آدم خطاء. ولكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة. ثم ما يدريني لعل ما أظنه صوابا هو الخطأ بعينه، ولا سيما في الأمور الاجتهادية. والغزالي إمام أي إمام، وقد أضفت عليه الأمة لقب «حجة الإسلام».

وفي ضوء هذا لم يؤثر اختلافي مع الشيخ بيومي في المودة التي بيننا، وعلى رغم فرق السن بيني وبينه، فقد كان يكبرني بنحو ثلاثين سنة.

وبعد مدة ترك لي كتاب «الإحياء» هدية منه إلي، فضممته إلى كتاب آخر للغزالي كنت قد أخذته من مكتبة زوج خالتي الشيخ طنطاوي مراد، وهو كتاب «منهاج العابدين» وهو كتاب مختصر مفيد في علم السلوك، وإن لم يخل من مبالغات الصوفية في الزهد والتوكل ونحوهما.

وأذكر أني عندما اعتقلت لأول مرة سنة ١٩٤٩م مع الإخوان، كنت أصطحب معي كتابين: أحدهما: «إحياء علوم الدين»، والثاني: أجزاء من «العقد الفريد» في الأدب.

ظاهرة الموالد:

وكان من آثار التصوف في قريتنا: الاهتمام بـ «موالد الأولياء». وأهمها وأبرزها: مولد السيد «أحمد البدوي» بمدينة طنطا القريبة منا (على بعد نحو عشرين كيلو مترا) من القرية، والتي هي عاصمة مديريتنا، والذي كان يُحتفل به كل سنة لمدة أسبوع كامل تحتشد فيه عشرات الألوف بل مئات الألوف من مديرية الغربية وغيرها من مديريات الوجه البحري، بل يأتي إليه ألوف من الصعيد. وتنصب الخيام في ضواحي طنطا (قرية سيجر وما حولها)، ويأتي الناس محملين بالزاد معهم، مصطحبين معهم الخِراف التي نذروها للمولد أو للسيد.

وتكون هذه فرصة سنوية لأهل القرية ليخرجوا في إجازة إجبارية من أعمالهم المنهكة، ومن قريتهم ليعيشوا في المدينة، وقد تبهرجت وتزينت، ولبست أبهى حللها، وجاء أصحاب الألعاب المختلفة ليعرضوا ألعابهم، وكثير من «النصَّابين» كذلك ليستغلوا سذاجتهم ويسلبوا منهم أموالهم.

وفي آخر ليلة من الأسبوع (ليلة الجمعة) تطلق الصواريخ إيذانا باستكمال

الاحتفال، وتسمّى «الليلة الكبيرة». وفي يوم الجمعة وبعد الصلاة تكون «ركْب الخليفة». والخليفة هذا هو أحد ورثة المحتفى بمولده، وهو يركب حصانا، ويلبس ثيابا تاريخية خاصة، وعليه عمامة كبيرة، ويطاف به في الشوارع الكبرى بالمدينة وأمامه أصحاب المهن والصناعات المختلفة في عربات مزوقة ومزخرفة. وفي الطريق على الجانبين: الناس الذين اصطفوا بكثافة وغزارة، وفي ازدحام شديد حيث يختلط الرجال بالنساء، متماسين متلاصقين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبانتهاء «زفة الخليفة» ينتهي المولد، ويعود الناس إلى قراهم وبلدانهم، وق حملوا معهم «الحمص والحلاوة» من ذكريات المولد. ومن لم يستطع أن يعود بشي من ذلك قال الناس عنه: رجع من المولد بلا حُمُّص! وهي كلمة أصبحت مث شائعا.

وبعد مولد السيد البدوي بقليل يبدأ مولد آخر لولي شهير آخر، في مدينة دسو التي كانت تتبع مديرية الغربية أيضا. وهو مولد سيدي «إبراهيم الدسوقي» دف مدينة دسوق، وهو أحد الأولياء المشهورين عند العوام، ويقول عنه الناس: إنه أ «الأقطاب الأربعة» الذين وكَلَ الله إليهم التصرف في هذه الأرض، كل منهم ربعها. فأحدهم: أحمد البدوي، والثاني: إبراهيم الدسوقي، والثالث عبد القادر الجيلاني، والرابع: أحمد الرفاعي!

وهي بالقطع خرافة لا أساس لها من دين الإسلام، وهي تنافي عقيدة التوحيد التي جعلت الأمر كله لله، فلا يملك نبي ولا ولي أن يتصرف في الكون في حيات فما بالك بعد مماته؟ ولقد قال الله تعالى لخاتم رسله وصفوة خلقه: ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)**﴾ (الأعراف: ١٨٨).

وفي قريتنا كان يقام مولدان: أحدهما مولد سيدي عبد الله بن الحارث الصحابي، والثاني: مولد سيدي سليمان، وكلاهما صورة مصغرة من الموالد الكبرى. أي هو مولد على مستوى القرية، وإن كان مولد سيدي عبد الله أهم وأكبر.

وكل ما كان يهمني من هذه الموالد في صباي هو اللهو واللعب، والتمتع بشراء الأشياء من المولد، إذا استطعت ذلك، فكثيرا ما كان ضيق ذات اليد، وقلة النقود تحول بيني وبين ما أشتهي، والله تعالى يقول: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾ (الطلاق: ٧).

رأي في الموالد:

ولي رأي في هذه الموالد، أقوله بعد تأمل طويل وتحليل لهذه الظاهرة الشعبية المنتشرة في أكثر العالم الإسلامي، وأرجو ألا يُغضب هذا الرأي إخواننا المتشددين في أمر الموالد.

الذي أراه: أن هذه الموالد ليست إلا «مهرجانات شعبية» وأفراحا عامة للجماهير، تنفس بها عن ذاتها، وتعبر بها عن مشاعرها، وتعطي أنفسها إجازة من عملها المضني طوال العام، الذي تكِد فيه اليمين، ويعرق الجبين، لتمرح وتلهو مدة أسبوع من الزمان.

ونظرا لأن مجتمعاتنا مجتمعات دينية وكل شيء في حياتها موصول بالدين، فقد مزجت هذه المهرجانات بالدين، وأضفت عليها طابعا دينيا، أو شكلا دينيا، أو عنوانا دينيا. وهي - في الحقيقة - مهرجانات دنيوية محضة، وكل ما فيها دنيا: مرح ولهو ولعب وأسواق وبيع وشراء.

فلو قيل عن «مولد السيد البدوي»: مهرجان طنطا السنوي الشعبي، لكان هذا قولا حقا، ولعبر عن واقع الحال بصدق.

وكذلك يقال عن «مولد الدسوقي»: مهرجان دسوق السنوي.

وكذلك مولد قريتنا: «مهرجان صفط تراب» السنوي الأول، والثاني.

واعتقادي أن ٩٩٪ من الذين يذهبون إلى هذه الموالد لا يخطر في بالهم فكرة

التعبد لله تعالى بالذهاب إلى المولد، ولكن الدافع لهم هو: الفسحة والترويح والترفيه.

وفي هذه الحالة ينبغي أن نضبط هذه الموالد بما نضبط به كل المهرجانات الشعبية الكبرى: من حيث الإعداد وحسن التنظيم، والمحافظة على الصحة والنظافة، ورعاية الآداب العامة، وحماية عوام الناس من النصابين، إلى غير ذلك مما لا بد منه في مثل هذه التجمعات الكبيرة، درءا للمفاسد، وجلبا للمصالح. كما لا بد من تهيئة توعية دينية نيرة لهذه الجماهير الغفيرة المحتشدة في هذا المهرجان، لتصحيح عقائدهم وعباداتهم، وضبط سلوكهم وفق معايير الشرع، وتحرير معتقداتهم من الشركيات، وعباداتهم من المبتدعات، وأخلاقهم من السلبيات.

مواسم دينية في القرية:

وكان من تأثير الدين في القرية وأهلها: أن هناك عدة مواسم سنوية يحتفل الناس بها، تذبح فيها الذبائح، ويوسع الناس فيها على أنفسهم وأسرهم.

فقد كانت القرية لا تذبح فيها الذبائح، وتباع اللحوم بشكل واسع إلا في يوم الأربعاء من كل أسبوع، وهو موعد سوق القرية. وذلك باستثناء أيام هذه المواسم المعروفة.

أول هذه المواسم: يوم «عاشوراء» وهو اليوم العاشر من محرم من كل عام. وقد روي في هذا حديث ذكره الحافظ المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب» يقول: «من وسع على عياله في عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته» قال المنذري: وقد قال بعض العلماء المتقدمين: جربناه فوجدناه صحيحا! ورد عليه بعض المحققين: أن الأحاديث لا تصحح بالتجارب! وقد ذكر ابن تيمية: أن الحديث موضوع.

وفي ظني: أن هذا الحديث وضعه بعض أهل السنة، ردا على ما يصنعه الشيعة عادة في هذه المناسبة، من نياحة وعويل وضرب للصدور إلى حد إسالة الدماء، من

أجل استشهاد الحسين بن علي رضي الله عنهما في كربلاء في ذلك اليوم. فعَدُّوا هذا اليوم يوم حزن وحداد، فقاومهم غلاة أهل السنة، وعَدُّوه يوم احتفال وتوسعة. وكلا الأمرين مرفوض. ونحن نأسى كل الأسى على استشهاد الحسين مظلوما، كما نأسى لاستشهاد أبيه من قبله، ولكنا لا نجعل يوم الاستشهاد يوم لطم للخدود، وشق للجيوب. كل ما جاء في عاشوراء هو الترغيب في صيامه، وكذلك في صيام اليوم التاسع من قبله.

وفي الصحيح: أن النبي صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة، وجد اليهود يصومون عاشوراء، فسألهم عنه، فقالوا: هذا يوم نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل، فقال لهم: «نحن أولى بموسى منكم». وصامه وأمر بصيامه[1].

المولد النبوي:

ومن المواسم السنوية: يوم «المولد النبوي». وقد اشتهر أنه اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول. وقد جرت عادة القرية بالاحتفال بهذا الموسم ابتداء من أول ربيع، حيث تنصب الزينات، وتضاء المساجد، وتقرأ قصة المولد كل ليلة، وتوزع الحلوى والشربات، إلى أن تأتي الليلة الكبيرة، ليلة الثاني عشر، فيكون الاحتفال بها أكبر، والتجمع أعظم، والحلويات أكثر وأكثر. وكنا ـ ونحن صغار ـ نفرح بهذه المناسبة وما يوزع فيها من حلوى وشربات، وما نسمعه من شيخ المسجد كل ليلة من قصة المولد المكتوبة بشكل مسجوع، والتي تتلى بطريقة منغمة، وفيها فقرات، يفصل بينها بدعاء يتلى ملحنا بطريقة جماعية، وصيغته: اللهم عطر قبره بالتعظيم والتحية، واغفر لنا ذنوبنا والآثام. وكان هناك قصتان أو كتابان مشهوران لقراءة المولد، أحدهما «مولد المناوي» والآخر «مولد البرازنجي».

وقد عرفت بعد ذلك: أن معظم ما يذكر في هذه الموالد من أحداث وقصص لم يصح به حديث، ولا قام عليه دليل من عقل أو نقل، سواء ما حدث في حالة حمله

(١) رواه البخاري (٢٠٠٤) ومسلم (١١٣٠) وأبو داود (٢٤٤٤) عن ابن عباس.

صلى الله عليه وسلم، وما حدث عند ولادته. وكان خيرا من هذا لو ذكرت جوانب صحيحة من سيرته صلى الله عليه وسلم، أو جوانب من عظمة شخصيته، مما فيه أسوة للناس، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)﴾ (الأحزاب: ٢١).

وقد عرفت بعد نضجي وتجوالي في العالم: أن المسلمين في آسيا وإفريقيا، وفي أوربا وغيرها من أقطار العالم، يحتفلون بالمولد النبوي، ويعدون ذلك من باب المحبة والتكريم والتعظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ووفاء ببعض حقه على أمته.

وقد انقسم العلماء إزاء هذه القضية إلى طرفين وواسطة:

أولهم: ينكر هذه الموالد، ويرفضها رفضا كليا، وحجته أنها من المحدثات، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وأن الرسول وأصحابه لم يفعلوا ذلك ولا دعوا إليه ولا شرعوه، وأنه من محدثات الفاطميين الغُلاة، الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله.

والطرف الثاني: ويمثل أغلب المسلمين، يرون ذلك مظهرا من مظاهر الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويستدلون على ذلك بأنه من باب ذكر النعم، وقد قال تعالى في كتابه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ (المائدة: ١١) وتكرر هذا في القرآن. ولا شك في أن ميلاد الرسول نعمة، أو هو من لوازم النعمة، وهي بعثته صلى الله عليه وسلم.

كما أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن صيام يوم الاثنين، وحرصه على ذلك، فقال: «ذاك يوم ولدت فيه، وبعثت فيه، وأحب أن يرفع عملي وأنا صائم». فأشار إلى أهمية الولادة في ذلك اليوم، مما يوحي بتعظيم يوم ولادته. وهؤلاء يقرون المولد بعجره وبجره، وما يشتمل عليه من مبالغات وخرافات. وهناك من علماء الأمة السابقين من أيد هذا الاتجاه، مثل ابن حجر والسيوطي والمناوي وغيرهم.

والرأي الثالث: وهو الوسط بين هذين الأمرين، وهو انتهاز هذه المناسبة، وكل المناسبات الإسلامية المتعلقة بالسيرة النبوية (مثل هجرته عليه الصلاة والسلام، وإسرائه ومعراجه، وغزوة بدر الكبرى، وفتح مكة، وغزوة خيبر ونحوها من المناسبات والذكريات المحمدية) للحديث عن السيرة المحمدية، وعن الرسالة الإسلامية، وربط الناس بهما، وتقديم صورة مشرقة عن سيرة محمد، وعن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومما لا ريب فيه: أن الصحابة رضي الله عنهم، ومن اتبعهم بإحسان، في خير قرون الأمة، لم يحتفلوا بالمولد ولا بغيره من الذكريات المحمدية. ربما لأنهم لم تكن لهم حاجة إلى ذلك، فقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام حيا في ضمائرهم، حاضرا في حياتهم، حبه في قلوبهم، وسيرته نصب أعينهم، وسنته ماثلة لهم. حتى إن أحدهم عندما حضره الموت، وسمع امرأته تقول: واكرباه، فقال لها: بل قولي: وافرحاه، غدا ألقى الأحبة، محمدا وصحبه!

وقال سعد بن أبي وقاص: كنا نروّي أبناءنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نحفظهم السورة من القرآن.

فلما بعد العهد، وخبت جذوة الشوق والحب، وقل نصيب الناس من استحضار الأسوة النبوية، ربما أصبحوا في حاجة إلى ما يذكرهم بالرحمة المهداة، والنعمة المسداة، بالبشير النذير، والسراج المنير، صاحب الخلق العظيم، والمبعوث بالرسالة الخالدة وبالرحمة العامة، ليتمم مكارم الأخلاق، ويكمل الله به الدين، ويتم النعمة على المسلمين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣). وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

ومما يؤكد هذا في عصرنا: أن الناس أمسوا يحتفلون بميلاد ملوكهم ورؤسائهم وعظمائهم، بل كثيرا ما يحتفلون بميلاد أولادهم، بل بميلاد أنفسهم، فلماذا لا

يحتفلون بمولد من أنقذهم الله تعالى على يده، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وهداهم إلى صراط مستقيم؟!

فإذا حولنا احتفالات هذه الموالد إلى ندوات أو مؤتمرات سنوية للحديث عن الرسول العظيم وشخصيته وسيرته ورسالته، فقد كسبنا من وراء ذلك كسبا عظيما، وأبلينا في سبيل دعوة الإسلام بلاء حسنا.

ليلة الإسراء والمعراج:

ومن المواسم السنوية: الاحتفال في أواخر رجب من كل عام بذكرى الإسراء والمعراج (ليلة السابع والعشرين منه). ورحلة الإسراء: هي الرحلة الأرضية التي ذكرها القرآن، وافتتح بها السورة التي سميت باسم هذه الذكرى (الإسراء)، وقال فيها ربنا عز وجل: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)** ﴾ (الإسراء: ١). وقد ربطت الآية بين مبدإ الإسراء ومنتهاه (المسجد الحرام والمسجد الأقصى) لحكمة استشرفناها بعد ذلك، ليرتبط المسجدان المقدسان في ضمير المسلم، ويؤمن بأن من فرط في أحدهما يوشك أن يفرط في الآخر.

وأما «المعراج» فهو «الرحلة السماوية» التي ابتدأت من المسجد الأقصى إلى السماوات العلا، إلى سدرة المنتهى، كما قال شوقي:

حتى ارتقيت سماء لا يطار لها

على جناح ولا يسعى على قدم

وهي التي أشار إليها القرآن في سورة «النجم»: ﴿ **عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)** ﴾ (النجم: ١٤-١٨).

وهذه الليلة ليس لها مراسيم معينة، ولا تقرأ فيها قصة، وليس فيها صيام ولا قيام، إلا ما فيها من التوسعة بطيب الطعام والشراب.

وشهر رجب ليس فيه شيء غير هذه الليلة. على أنها غير مؤكد وقوع الإسراء فيها، إذ لم يكن الصحابة يهتمون بهذه التواريخ، خصوصا أنه لم تشرع فيها عبادة، لا صيام ولا قيام ولا ذكر معين. كل ما جاء في شهر رجب: أنه واحد من الأشهر الحرم التي نوه الله بها في كتابه في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ (التوبة: ٣٦).

وهو الشهر الذي وقعت فيه الحادثة مع المشركين ونزل فيه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ٢١٧).

وقد جاء في الحديث الحث على صيام الأشهر الحرم بصفة عامة، ولم يثبت في شهر رجب بصفة خاصة شيء، وإن كان الوضاعون قد وضعوا أحاديث في فضل رجب، وفي أول ليلة منه، وابتدعوا صلاة فيها سموها «صلاة الرغائب» وهي صلاة مكذوبة على رسول الله كما بين المحققون من العلماء.

وشاع بين الناس حديث طالما سمعته في صباي من خطيب مسجدنا: «رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي». وهو حديث غير ثابت.

وشاع بين الناس المثل القائل: «لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب». ولم يثبت شيء في صيام رجب خاصة إلا أنه من الأشهر الحرم.

ومع هذا وجد في قريتنا من كان يصوم رجب كله، وشعبان كله، ورمضان كله بالطبع، والأيام الستة عقب عيد الفطر، وكانت جدتي أم أمي رحمها الله من هذا النوع من الناس. وكانت تَعُدُّ عيدها يوم الثامن من شوال، بعد أن تكون قد صامت

الأشهر الثلاثة والستة الأيام البيض كما يسميها المصريون. ولا أدري لماذا سموها بيضا؟ وهي في أول الشهر وليست وسطه، والمعروف أن الأيام البيض هي الأيام القمرية في وسط الشهر. والخليجيون يسمون أيام شوال الستة «الصبريات» وأحسبها مأخوذة من الصبر، على تقدير أن الصوم نصف الصبر.

وصيام الأشهر الثلاثة متصلة لم تثبت بها سنة عن الرسول الكريم ولا عن أحد من أصحابه ولا من اتبعهم بإحسان. وكان أكثر شهر يصوم فيه الرسول بعد رمضان هو شعبان، ولكن الصحيح أنه لم يصمه كله، بل لم يصم شهرا كاملا غير رمضان. أما شهر رجب، فلم يثبت عنه أنه صامه أو صام فيه أياما بخصوصها، إلا ما كان يصومه في الشهور الأخرى مثل أيام الاثنين والخميس أو الأيام البيض، أو نحوها، ولا سيما أنه من الأشهر الحرم.

والمطلوب في العبادات: أن نقف عند ما ورد. فالأصل في العبادات وشئون الدين: التعبد والاتباع، والأصل في شئون الدنيا: الابتكار والابتداع. وهذا ما كان عليه سلف الأمة في خير القرون وأزهى العصور: اتبعوا في أمور الدين، وجددوا وابتكروا في أمور الدنيا. فلما ساء حال المسلمين وتراجعت مسيرتهم وحضارتهم: عكسوا الآية، فاخترعوا وابتدعوا في أمور الدين، وجمدوا وقلدوا في أمور الدنيا، فأضاعوا الدين والدنيا معا.

ليلة نصف شعبان:

ومن المواسم الدينية الشهيرة: موسم ليلة النصف من شهر شعبان، وهي ليلة لها مراسم كثيرة وعجيبة وغريبة.

ذلك أن الناس يجتمعون ليلتها بكثافة في المسجد بعد صلاة المغرب، ويقرءون سورة يس، ثم يصلون ركعتين بنية «طول العمر»! ثم يقرءون يس مرة أخرى، ويصلون بعدها ركعتين بنية «الغنى عن الناس»!

ولا أدري إلى اليوم من أي مصدر جاءوا بهاتين الصلاتين الغريبتين: طول العمر، وهو أيام معدودة، وأنفاس محدودة، لا يزيد ولا ينقص، ولم يشرع مثل هذا في القرآن ولا في السنة. وكذلك الغنى عن الناس، وظاهر هذا العنوان مستنكر، إذ لا يستطيع أحد أن يستغني عن الناس، كما لا يستطيع الناس أن يستغنوا عنه، وقد قال الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة

بعض لبعض وإن لم يشتروا خدم!

وقد سمع أحد العلماء رجلا يسأل الله الغنى عن الناس، فقال له: إذن أنت تطلب الموت. فالمرء ما دام حيا سيحتاج إلى الناس.

وصدق هذا العالم، فقد قال الشاعر:

نروح ونغدو لحاجاتنا

وحاجات من عاش لا تنقضي!

تموت مع المرء حاجاته

وتبقى له حاجة ما بقي!

وبعد ذلك يجلس الجميع ليدعو بصوت واحد بدعاء نصف شعبان المشهور، ومما جاء فيه:

اللهم يا ذا المن ولا يمن عليه، يا ذا الجلال والإكرام، ويا ذا الطول والإنعام. اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيا أو محروما أو مطرودا، أو مقترا علي في الرزق، فامح اللهم بفضلك شقاوتي وحرماني وطردي وإقتار رزقي، وأثبتني عندك في أم الكتاب سعيدا مرزوقا موفقا للخيرات كلها، فإنك قلت - وقولك الحق - في كتابك المنزل على لسان نبيك المرسل: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾ (الرعد: ٣٩).

إلهي بالتجلي الأعظم، في ليلة النصف من شهر شعبان المكرم، التي يفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم: أن ترفع عنا من البلاء ما نعلم وما لا نعلم، وما أنت به أعلم.

وفي هذا الدعاء الذي يحتفي به الناس ويحتشدون له: عدة مخالفات شرعية.

الأولى: أنه قائم على التشكيك والترديد في الدعاء، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له»[1].

وهذا يقول: اللهم إن كنت كتبتني، فامح وأثبت.

الثانية: أن فيه غلطا واضحا، فآخره يناقض أوله، فهو يقول: إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيا أو محروما إلخ، فامح اللهم شقاوتي وحرماني، وأثبتني عندك في أم الكتاب سعيدا مرزوقا.. ويستدل على ذلك بالآية الكريمة ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** (٣٩)﴾ (الرعد: ٣٩) ومعنى الآية: أن أم الكتاب لا محو فيها ولا إثبات، فكيف يقول: امح شقاوتي وحرماني من أم الكتاب، وأثبتني في أم الكتاب سعيدا مرزوقا، ويستدل بالآية الكريمة التي تناقض دعواه؟

الثالثة: أن الدعاء وصف ليلة النصف من شعبان: أنها الليلة التي «يفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم»، وهذا ما وصف الله به ليلة القدر، حيث قال في سورة الدخان: ﴿**حم** (١) **وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ** (٢) **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ** (٣) **فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** (٤) **أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** (٥)﴾ (الدخان: ١ - ٥). فهذه الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي الليلة التي أنزل فيها القرآن وهي ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** (١)﴾ (القدر: ١). ومعلوم بالتواتر أنها في شهر رمضان، فهي ليلة واحدة وليست ليلتين.

وقد تنازع العلماء حول ليلة النصف من شعبان، وهل ورد في فضلها أحاديث؟ ومن العلماء من رد ما جاء فيها من أحاديث وحكم عليها كلها بالضعف.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٣٩) ومسلم (٢٦٧٩) عن أبي هريرة.

ومنهم من حسَّن بعض ما جاء فيها. على أن أصح ما جاء فيها قوله عليه السلام: «يطلع الله إلى جميع خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه، إلا لمشرك أو مشاحن»[1] والمشاحن: من كان في قلبه شحناء وعداوة لأخيه.

نظام الحياة اليومي:

كان نظام الحياة اليومي في القرية مرتبطا بالصلوات الخمس، ومنضبطا بها. فقد كان الناس ينامون عادة بعد صلاة العشاء، لا يعرف عامتهم السهر، إلا في مناسبات خاصة كالأعراس، فقد يسهرون قليلا للغناء للعروسين، وخصوصا في بيت العروس (المرأة) قبل الزفاف.

ويستيقظ الناس مبكرين لصلاة الفجر، وبعد أن يتناولوا شيئا من الطعام، يذهبون إلى حقولهم مع شروق الشمس، مرددين قولهم: البركة في البكور، أخذا من الحديث الشريف: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»[2]. فهم يتناولون الصباح طاهرا نظيفا قبل أن تلوثه أنفاس العصاة، الذين ينامون عادة إلى الضحى أو الظهر! وقد قال عليه الصلاة والسلام في رجل نام حتى أصبح (أي طلعت عليه الشمس): «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه»[3]. وما أكثر الذين يجعلون من آذانهم «مباول» للشيطان!

وبعد صلاة الظهر يتناولون ما تيسر لهم من الغداء، قد يحملونه معهم في «مناديلهم»، وقد تأتي به إليهم نساؤهم أو أبناؤهم، ثم يخلدون إلى شيء من القيلولة تحت الشجر إذا كانوا في الحقل، أو في المنزل إذا كانوا في البيت.

وقبيل المغرب يعودون إلى بيوتهم، ليصلوا المغرب في المسجد، ثم يعودون إلى

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع»: رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن معاذ، ورجالهما ثقات (٨/ ٦٥) ورواه ابن حبان في صحيحه أيضا (٥٦٦٥) وقال محققه: حديث صحيح بشواهده، أي أنه صححه لغيره.

(٢) رواه الترمذي (١٢١٢) وحسنه، وأبو داود (٢٦٠٦) وابن ماجه (٢٢٣٦) عن صخر الغامدي.

(٣) رواه البخاري (٣٢٧١) ومسلم (٧٧٤) عن ابن مسعود. وانظر: اللؤلؤ والمرجان (٤٤٢).

البيت ليتناولوا العشاء، وهو الوجبة اليومية الرئيسية، التي يجتمع عليها غالبا جميع أفراد الأسرة. ثم يصلون العشاء في المسجد، ليستعدوا للنوم.

الاهتمام بالقرآن والصدقة:

وكان من تأثير الدين في أهل القرية: اهتمامهم بالقرآن الكريم وحفظه، وكان في القرية أربعة كتاتيب: كتاب في غربي القرية (الشيخ دسوقي) وكتاب في شرقيها (الشيخ نور الدين) وكتابان في وسطها (كتاب الشيخ حامد) ـ وهو كتابي الذي تعلمت فيه ـ وكتاب (الشيخ يماني مراد). وكان في القرية نحو مائة حافظ للقرآن، أو أكثر.

وكانت حلقات للقرآن الكريم تقام في المساجد يوم الجمعة في مسجد سيدي عبد الله، أو يوم السبت في مسجد المتولي (وهو مسجدنا) وتسمى «السبتية» ويهيئ الناس له ـ متطوعين ـ صواني العشاء والأرز باللبن.

ويعتقد الناس: أن البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن كل يوم يكون كالبيت الخَرِب، ولذا كانوا يرتبون أحد القراء، ليمر كل يوم بالبيت ويقرأ «ربعا» من القرآن يكون رحمة للأموات، وبركة على الأحياء. ويعطونه في كل موسم حصاد ما تجود به أنفسهم من القمح أو الذرة.

وكانوا يعتقدون أن كل بيت لا بد أن تخرج منه كل يوم صدقة، يسمونها «حسنة» ويأسفون إذا لم يمر سائل في يوم يطلب حسنة، ويخرجونها مضاعفة في اليوم التالي.

وأكثر ما تكون الحسنة رغيفا من الخبز، فقد كانت النقود عزيزة، والجود من الموجود.

وبعض الناس يعطون أكثر من حسنة، وآخرون يعطون حسنة واحدة كل يوم، ولهذا لو جاء سائل بعد آخر، قالوا للثاني: طلعت، يعني: جئت بعد فوات

الأوان، والغالب أن الذين كانوا يسألون، كانوا يسألون من حاجة، وقليل منهم من احترف السؤال والتسول.

المعاصي في القرية:

وكانت المعاصي قليلة في القرية. أعني الكبائر، أما الصغائر فقلما يسلم منها أحد، وهي على كل حال يكفرها الصلاة والصيام والصدقة وسائر الحسنات: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود: ١١٤)، كما تكفرها المصائب التي تنزل بالمسلم من النصب والوصب والغم والحزن والأذى حتى الشوكة يشاكها، يكفر الله بها من خطاياه. بل ذكر القرآن أن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ (النساء: ٣١).

وربما وقعت الكبيرة في السر، ولكن المعاصي إذا استتر الناس بها لم تضر جماهير المجتمع، إنما تضر وتؤذي حقا إذا شاعت واشتهرت وتبجح بها مرتكبوها. كما في الحديث الصحيح: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين»[1].

قد يوجد الزنى، ولكن في خفية وإسرار، ولا يجاهر به إلا فاجر أو فاجرة.

ولم تكن الخمر معروفة في القرية، ولا يعرف بها أحد من أهل السُّكْر.

وقد وجد بعض الناس يستعملون «الأفيون» ولكن المخدرات الأخرى لم تكن معروفة. وقد سمعت في صباي عن رجل قبضوا عليه لأنه يتعاطى «الهيروين» وهي أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة.

ولكن جريمة «القتل» كانت تقع بين الحين والحين، قتل الغيلة، من أجل صراعات بين العوائل بعضها وبعض، وهي عادات جاهلية، وأحيانا تستأجر العائلة من يقتل غريمها.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، ومسلم في الزهد والرقائق عن أبي هريرة. اللؤلؤ والمرجان (١٨٨٣).

وقد تستفحل هذه الخصومات، فتفضي إلى فساد كبير، من سَمِّ البهائم، وقلع الزرع، وإحراق المنازل، وغير ذلك من ألوان الفساد في الأرض.

خلل في الفهم والسلوك:

ومع هذا الاستغراق في الجانب الديني، كان هناك خلل كثير فيه: خلل في الفهم والتفكير، وخلل في السلوك والعمل.

كان تصوف القرون الأخيرة هو الغالب على تفكير العامة، بما فيه من سلبيات يعرفها الدارسون، مثل: الجبرية في العقيدة، حتى يكاد الإنسان يكون مُسَيَّرا لا مخيرا.

ومثل الشركيات التي شابت التوحيد، مثل التبرك بالأحجار، واستخدام التمائم والأحجبة، والمبالغة في تعظيم الأولياء والصالحين، والاستغاثة بهم، والطواف بقبورهم كما يطاف بالكعبة، والنذر لهم، والذبح لهم. ومثل الذهاب إلى الكهنة والعرافين والمنجمين والرماليين وأمثالهم، ممن يدَّعون أنهم يكشفون أستار الغيب.

ومثل الخرافات التي انتشرت عن السحر والجن والعفاريت.

ومما لاحظته من قديم - وما زلت ألحظه إلى اليوم - أن الناس عندما يخفقون في أمر، كأن تخفق المرأة في المحافظة على حب زوجها لها، أو يخفق الرجل في الاحتفاظ بقلب امرأته، لا يفتش أحدهم فيما عسى أن يكون قد قصر فيه، وأهمله من سنن الله، بل يحمل هذا الإخفاق والفشل على عمل سحري عمل له، من قبل حساده وخصومه، وهذا تفسير مريح يعفي الإنسان من تحمل أي مسئولية، ويعلق الوزر على هذا السبب (أو هذه الشماعة): السحر والعمل.

ومثل ذلك كثير من النساء المصابات بأمراض عصبية معينة، وبعض تشنجات، ويدعين أن عفريتا ركب إحداهن، وهكذا تذهب إلى الكاهن أو الساحر أو الدجال، ليزعم لها أن جنا ركبها، وأنها في حاجة إلى وصفات كذا وكذا، ومن

هذه الوصفات إقامة ما يسمى «الزار» وهي حفلة رقص وغناء وموسيقى، فيخرج الجني أو تساعد على إخراجه من جسد المرأة. وكل هذه نفقات وتكاليف باهظة تتحملها المرأة إن كانت ذات مال أو يتحملها زوجها المسكين، وهي لا تكاد تنتهي، فمن حفلة إلى حفلة، ومن دعوة إلى دعوة، ومن مطلب إلى آخر، حتى ينفد آخر ما عند المرأة، ولذا قال القائل:

ثــلاثــة تشــقى بهــن الــدار

العــرس والمــأتــم والــزار!

كما أن هذه الحفلات لا تتقيد بضوابط الشرع في شيء، ففيها الاختلاط، وفيها المجون، وفيها التبرج.

وبعضهن يذهبن إلى بعض المشايخ ليقرأ عليها تعويذات معينة، ليخرج من جسدها العفريت الذي يسكنها. والمعتاد أن المرأة يسكن جسدها جني، أما الرجل فيسكن جسده جنية.

وكان شيخنا الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ينكر هذا الهوس، وقال للرجل الذي جاءه يشكو إليه، وقال له: أنا مسكون. فقال له: وما سكنك؟ قال: جني. قال له: ولماذا لم تسكنه أنت، وأنت ما شاء الله شحط طويل عريض؟! ولماذا لم يسكن هذا الجني الخواجات في أوربا وأمريكا؟!

قلت له مرة: يا مولانا، يبدو أن العفاريت استضعفت المسلمين، فاحتلت رءوسهم أو نفوسهم، كما أن المستعمرين من قبل استضعفوهم فاحتلوا ديارهم!

وإني لأعجب حقا، كيف يسلط الله الجني على الإنسان إلى هذا الحد، الذي يتحكم فيه، ويدخل في بدنه، ويتصرف فيه، وينطق على لسانه، ويصبح الإنسان مسخرا له؟ فأين كرامة الآدمي الذي قال الله فيه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، وهل هذا هو خليفة الله في الأرض، الذي قال الله في شأنه ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)؟!

وإذا كانوا يحتجون بقوله تعالى في شأن آكل الربا: ﴿ لا يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، فالمسُّ ـ لو فسرناه تفسيرا حسيا دنيويا ماديا ـ غير ما يزعمه هؤلاء من ركوب الشيطان للإنسان وسيطرته عليه وتصرفه فيه!

أولى ما يفسر به المسُّ ما كان على نحو ما جاء على لسان أيوب عليه السلام: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (ص: ٤١)، والمس هنا ضرب من الوسوسة والدعوة لإغراء الإنسان وإغوائه، وليس للشيطان سبيل على الإنسان أكثر من هذا كما قال كبير الشياطين يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (إبراهيم: ٢٢).

وقد كان حديث أهل القرية عن الجن والعفاريت والغيلان ونحوها، والقصص التي تحكي عن ظهورها في الليل لفلان وفلانة، كان هذا الحديث يملأ قلوبنا رعبا وخوفا. حتى إن أهل حارتنا كانوا يحكون عن عفريتة خاصة بالحارة، تظهر بالليل قبل الفجر، اسمها «أم جلاجل»، وهي تسكن في «بدروم» المدرسة التي نتعلم فيها بالنهار، وهو عبارة عن دورة مياه. ويقول أهل حارتنا: إن هذه الجنية ظهرت بالليل لفلان وفلان! وهذا ما جعلني من بعد صلاة المغرب عندما أمر على هذه المدرسة أركض ركضا، وأجري كالريح خوفا من أن تطلع علي أم جلاجل. وكلها تهاويل وخرافات، وكما عبر عن ذلك المثل: «اللي يخاف من العفريت يطلع له». أي حالته النفسية تخيل إليه أنه ظهر له العفريت، فيرى الكلب قد كبر حتى أصبح كالحمار أو البغل. والحقيقة أنه لم يزل كلبا.

ومثل ذلك: عفريتة المقتول، التي تظهر لمدة أربعين يوما، في المحيط الذي قتل فيه، وهكذا.

وهناك خلل في السلوك، فهناك عدد من الناس لا يؤدون الصلاة، صحيح أنهم مكروهون من الناس محتقرون من قبلهم، ولكنهم موجودون.

كما أن كثيرا من النساء لا يعرفن الصلاة، ويعشن ويمتن ولم يركعن لله ركعة واحدة، مع أن آباءهن يصلون، وأزواجهن يصلون، وأبناءهن يصلون.

وكان كثير من النساء في حارتنا لا يصلين، لغلبة الجهل عليهن، حتى امرأة عمي ماتت دون أن تصلي. على حين كانت عمتي وخالاتي جميعا محافظات على الصلاة.

وأعتقد أن هذا كان من ثمرات حرمان المرأة من المسجد، فقد شدد الفقهاء في منع المرأة من صلاة الجماعة، وصلاة الجمعة في المسجد، خوف الفتنة، على الرغم من أن المرأة في عصر النبوة كانت تؤدي الصلوات الخمس في المسجد، حتى العشاء والفجر. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» متفق عليه.

ولكن هناك كلمة قالتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إنكارا على بعض نساء زمنها، إذ قالت: «لو علم رسول الله ما أحدثن بعده لمنعهن من الخروج»[1]. فكانت هذه الكلمة تكأة للفقهاء في منعها.

وكان الفقهاء في بعض الأزمنة يمنعون المرأة الشابة، ويسمحون للكبيرة، ثم جاء الفقهاء المتأخرون، ومنعوا الشابة والعجوز، وقال قائلهم:

لكل ساقطة في الحي لاقطة

وكل كاسدةٍ يوما لها سوق

والعجيب أنهم قالوا: تصلي في بيتها، وعلى أبيها أو زوجها أن يفقهها في الدين. ولكن إذا كان الأب أو الزوج نفسه في حاجة إلى من يعلمه أو يفقهه في الدين، فكيف يفقه غيره، وفاقد الشيء لا يعطيه؟! وقد ضل من كانت العميان تهديه!

---

(١) رواه البخاري (٨٦٩) ومسلم (٤٤٥) وأبو داود (٥٦٩) وابن خزيمة (١٦٩٨).

(ب) الجانب الاقتصادي في القرية

كانت الأشياء في قريتنا - في الثلاثينيات من القرن العشرين، وهي التي بدأت فيها أعي ما حولي، رخيصة جدا. كان المليم (وهو واحد من عشرة من القرش صاغ) عملة متداولة له قيمة، يأخذه الطفل الواحد - الذي يكون أبوه في سعة ويسر - مصروفا له فيشتري به من الحلوى ما يشبعه. وكنت أشتري به «الطعمية» فيكفي لإفطاري أو عشائي. وفي بعض الأحيان آخذ مع المليم بيضة لبائع الطعمية - وهو صانعها - أيضا فيعمل لي بالبيضة عِجَّة، ويكون هذا من الرفاهية.

بل كان هناك نصف المليم، يسمونه «عشرين خردة» ولا أدري ما الخردة هذه؟ وكانت تستعمل ويشترى بها، إما وحدها، أو كسرا مع الملاليم. وكانت هذه الملاليم تصنع من النحاس، فتظهر أول ما تظهر لامعة براقة، ثم تنطفئ بالاستعمال.

وكان هناك عملة بمليمين يسمونها النِّكلة، وعملة أخرى بمقدار مليمين ونصف يسمونها «عشرين تعريفة». ثم نصف القرش ويسمى «قرش تعريفة» ثم «القرش صاغ» وهي عملة محترمة. وهذه العملات كلها من النيكل الأبيض.

ثم تأتي عملة بقرشين صاغ، وهي عملة صغيرة من الفضة، وتسمى في عرف الناس «نصف فرنك» إذ الفرنك (وهو عملة فرنسية) كان يقارب أربعة القروش. وهناك الـ «خمسة قروش» والـ «عشرة قروش» وتسمى «البريزة» والـ «عشرون قرشا» وتسمى «الريال»، وكلها عملات فضية.

وبعد ذلك الجنيه، وهو عملة ورقية، ولم يكن هناك عملة ورقية إلا الجنيه ومضاعفاته، الخمسة والعشرة الجنيهات، ولم تكن هناك عملة أكثر من عشرة جنيهات. وقد أخبرني الأخ د. عبد العظيم الديب: أنه كان هناك عملة من فئة «مائة جنيه» ولكني لم أرها. ولم أدرك عصر الجنيهات الذهبية.

والذي أذكره في تلك الفترة: أن العملة كانت قليلة جدا بين الناس، ولا يكاد

أحد يجد النقود في جيبه إلا الموظف الذي يقبض راتبه كل شهر. أما الفلاح فلا يكاد يجد النقود إلا عندما يبيع القطن، أو يبيع القمح أو الذرة، وهو لا يبيع منهما إلا ما فاض عن قوت العائلة، فالناس يخزنون أقواتهم من القمح خاصة في «زواليع» يصنعونها من الطين، ويضعون فيها القمح - أو الغلة كما يسمونها - ليقوها من التسوس.

وأذكر أن فلاحا تخاصم مع جار له كان موظفا ببلدية المحلة، ويتقاضى راتبا كل شهر مقداره جنيه مصري واحد، فقال له الفلاح: من حقك أن تتطاول علي، ما دمت تعمر جيبك في أول كل شهر بجنيه مصري كامل! ورد عليه الآخر قائلا: أعوذ بالله من الحسد، يا ناس يا شر، كفاية قر!!

وكثيرا ما كان الناس يشترون حاجاتهم بالبيض أو بالذرة، ونحو ذلك، لعزة النقود بينهم.

وكثيرا ما كانوا يدفعون الأجرة لبعض الناس من الحبوب ونحوها من المزروعات، مثل الحلاق (أو المزيِّن كما كان يسمى) فهو يأتي إلى البيوت ليحلق لأفراد العائلة بصفة دورية كل شهر أو أسبوعين أو أسبوع حسب الاتفاق. ويدفعون له في موسم القمح وفي موسم الذرة.

وكذلك القارئ الراتب، الذي يأتي كل يوم إلى البيت ليقرأ فيه ربعا من القرآن أو ما تيسر له، يأخذ أجره من حصاد كل موسم.

حتى الشحاذون، كانوا يأخذون صدقتهم من الطعام، وخصوصا الخبز، ولا يطمعون في أن يعطوا نقودا، فهي لم تكن ميسورة لعموم الناس.

وكان فقيه الكُتَّاب يأخذ من أولياء تلاميذه من المواسم الزراعية أيضا، فضلا عن قرش التعريفة الذي يدفع له كل أسبوع.

كانت الحياة الاقتصادية تقوم أساسا على الزراعة، فلو أصابت الزراعة آفة، مثل «الدودة» التي كانت تأكل القطن أحيانا، وتدع أرضه سوداء، ففي هذه

الحالة تكون السنة «سوداء» على الناس، ولا سيما المستأجرين للأرض منهم، الذين يطالبهم المالكون بأجرتها، وهم لم يحصّلوا منها نقيرا ولا قطميرا. وكان ملاك الأرض متجبرين على الفلاحين، لا يرحمونهم في تلك الحالة، ويراعون ما نزل بهم من «جوائح»، بل يطالبونهم بأن يدفعوا، المهم أنهم سلموهم الأرض، ولا عليهم أنتجت أم لم تنتج. وأقصى ما يفعله الرحيم منهم أن يقسط الأجرة على عدة سنوات.

وهذه المشاهد التي رأيتها في القرية هي التي جعلتني أرجح المذهب الذي يمنع «إجارة الأرض البيضاء بالنقود» وأفضل عليها «المزارعة» التي يشترك فيها الطرفان في المغنم والمغرم. فإن كان ولا بد من الإجارة، فلتكن مصحوبة أو مشروطة بوضع «الجوائح» إذا نزلت بالزرع.

كان الغنى في القرية يتمثل في ملكية الأرض الزراعية، وهي التي يسميها الناس «الأطيان» جمع طين، فبقدر ما يملك من هذا الطين يكون غناه. وفي قريتنا أرض مملوكة لبعض الباشوات (مثل أرض رياض باشا)، وبعضها مملوكة لآل خضر من أعيان البلد، ولآل نوير من أعيانها أيضا، أو لبعض الأعيان من بلاد مجاورة، مثل أرض «الدبور» و «أرض البنك» وله عزبة قريبة من القرية تسمى «عزبة البنك». وكان حول قريتنا عدد من «العزَب» تتبع القرية، ومعظم أهلها يعملون مزارعين عند المُلاك الكبار، أو عمالا لهم.

وملكية الأرض تعني ملكية عدد من المواشي والأنعام تدل على مقدار الثراء والنعمة. وكانت منازل الناس ومراتبهم في القرية تتفاوت علوا وهبوطا، بمقدار ما يملكون من الأطيان، لأن الذي لا يملك الطين لا بد أن يعمل مستأجرا لأرض غيره، أو عاملا بالأجرة في أرض غيره.

فكان رأس مال الفلاح أرضه وبهائمه، وأكثر الفلاحين يملك جاموستين أو جاموسة وبقرة وحمارا، لأن المحراث تجره ماشيتان فهو محتاج إلى ثنتين لا واحدة.

وكان موت الجاموسة يشكل «مأتما» عائليا، لمن ابتلي به، فالجاموسة رأسمال، لا يستطيع الفلاح بسهولة أن يعوضه. وأذكر في صغري أن أسرتنا ابتليت بذلك أكثر من مرة، ولا سيما في فصل الربيع، وكان الناس يعزونهم في تلك المصيبة.

وكانت أطعمة الناس في عمومها من زراعتهم. فخبزهم الغالب من الذرة، وأحيانا من القمح، وكذلك الفطائر والقرص والعصائد والكنافة والكعك والبسكويت، ونحوها كلها من القمح. وكان الكعك وما تفرع عنه من الغريّبة وغيرها لا يستعمل إلا في عيد الفطر، وفي الأعراس خاصة.

كان الخبز هو القوت اليومي والطعام الرئيس للناس، وأحيانا يكون الأرز. ولما ظهرت المكرونة بدأ بعض الناس يستعملونها على قلة. ولذلك يسمي الناس الخبز «العيش» أي الحياة، لأنه أساس معيشة الناس وحياتهم.

وأما ما يطهوه الناس من إدام لهم، فكان معظمه من نتاج الزراعة: البامية والملوخية والباذنجان والكوسة واللوبيا والرجلة والخبيزة ونحوها، وكلها من إنتاج مزارع القرية.

ومن البقوليات المنتشرة: الفول والعدس واللوبيا الجافة، وكان الفول يستعمل «مدمسا» ويستعمل «بصارة» ويستعمل «نابتا» ويستعمل «طعمية» ويؤكل أخضر بالجبنة، ويطبخ أخضر أيضا.

كما كان الناس يستخدمون الخضراوات طازجة من الحقل: مثل الفجل والكراث والبصل والفلفل الأخضر والخس، والسريس والجعضيض، والطماطم والخيار والقثاء وغيرها.

أما اللحم فلم يكن معظم الناس يعرفونه إلا مرة كل أسبوع، يوم الأربعاء، وهو يوم سوق القرية، حيث تكون معظم الذبائح من الجاموس الكبير وهو لحم أكثر الناس، وبعضه من الصغير، ويسمونه «الكندوز» وأحيانا من البقر، وقليل من اللحوم يكون من الغنم (الضأن والمعز) ومن العجول الصغيرة (البتلّو). وكانت

اللحوم لا تباع لجمهور الناس إلا يوم السوق. أما في خلال الأسبوع، فكان بعض الجزارين (اثنان أو ثلاثة) يذبحون مرتين أو ثلاثة للموسرين من أهل القرية، وفي العادة يذبحون الخراف أو «البتلو» وهي العجول (اللبانية) الصغيرة، وهي التي تذبح بعد أسابيع من ولادتها في الغالب، ولحمها مميز وأغلى من غيره.

وكان مما يقوم مقام اللحم: السمك: اللحم الطري كما سماه القرآن، وكان أرخص من اللحم كثيرا، وأحيانا يصطاده الناس بأنفسهم، من المساقي والبرك، وخصوصا عندما يقل ماؤها.

وقد اشتركت بنفسي في صيد السمك الصغير من القنوات الصغيرة مع زملائي. والسمك الذي يؤكل من الصيد يجد له المرء لذة لا يجدها في غيره من الأسماك. ولا سيما في ذلك الزمن، الذي كان سمك النيل وما تفرع منه لا يدانيه سمك آخر في طعمه ولذته.

وكان هناك أنواع من السمك الرخيص مَنَّ الله به على الفقراء، يأتي في أقفاص من خارج البلد، يسموه (الشِّرّ) الأقة فيه بقرش صاغ، وربما بنصف قرش.

وكان بعض الفقراء لا يجدون اللحم حتى يوم الأربعاء، ويقول المثل عنهم: اللحمة من العيد للعيد، والسكّر في المرض الشديد!

وكان الله تعالى يعوضهم عن البروتين الذي يجدونه في اللحم، ببروتين آخر يجدونه في اللبن ومنتجاته، فهو غذاء يومي تقريبا.

وأذكر في طفولتي أنه كان لي وعاء صغير آخذ فيه اللبن من ثدي الجاموسة أو البقرة، وأثرد فيه الخبز الجاف بعد أن أكسره وأدقه، فيصبح «تسقية باللبن». وأحيانا أفطر على اللبن الرايب وكثيرا ما يخلط بشيء من القشدة والجبن، ويعتبر هذا ضربا من الرفاهية.

كما كان كثير من الناس يستغنون عن شراء اللحم من السوق بذبح الطيور والدواجن التي يربونها في البيوت، مثل الدجاج والبط والإوز والحمام والأرانب.

وكثيرا ما تذبح هذه الطيور عندما يطرأ على العائلة ضيف، فإذا لم توجد هذه الطيور، كثيرا ما يصنع الناس «الفطير المشلتت» يقدم مع العسل الأسود أو مع الجبن للضيف. وقد يقدمون «فطير الذرة» وهو شهي جدا، إذا حشي بالجبن والقشدة، وأكل ساخنا، وكأني أراه قد انقرض اليوم من الريف المصري.

أما الفواكه، فكان استعمال الناس لها قليلا، إلا الفواكه الرخيصة مما تنتجه أرض البلد من البطيخ البلدي والعجور، وأحيانا الشمام، والجوافة، وبلح أحمر ورطب، والجزر والتوت والجمّيز، وهو فاكهة شعبية تشبه التين في شكلها. وفيها قال الشاعر قديما:

أما ترى السوق قد صفت فواكهها

للتين قوم، وللجميز أقوام!

أما «التوت» فقد كانت أشجاره منتشرة بعضها حول بعض البيوت. وكان في بيت إحدى خالاتي جنينة فيها شجرة توت كنا نذهب إليها في موسم التوت لنتسلقها ونقطف من ثمارها، وكانت في غاية الحلاوة.

وكان هناك عند بعض الحقول التي يزرعها عمي أشجار حول أرض تسمى «أرض البنك» يبدو أن بعض البنوك الربوية قد حجز على هذه الأرض، في مقابل ديون لم يقدر أصحابها على الوفاء بها. فكان حولها نحو ثلاثمائة شجرة للتوت، وكنت أذهب مبكرا لأقطف من هذا التوت، وأنتقي أكثره نضجا وسوادا، فأستمتع به فاكهة شهية، بلا ثمن يدفع، ولا حارس يمنع، وهذا من فضل الله على الفقراء.

وقد بقيت هذه الأشجار، حتى قطعت كلها في أثناء الحرب العالمية الثانية، لحاجتهم إلى الأخشاب وغلاء ثمنها في الأسواق.

وما عدا ذلك، فإن الفاكهة ـ غير الشعبية ـ تعتبر من «النعيم» الذي يبحث عنه الأغنياء، الذين يقدرون على تكاليفه. أما عامة الناس، فحسب الواحد منهم: رغيف يكفيه، و«هدمة» تستره، وبيت صغير يكنه.

على أني قد مَنَّ الله تعالى علي بأن جدي لأمي - وخالي بعده - كانا من تجار الفاكهة المعروفين في منطقتنا، وكان هذا فرصة لي ولأولاد خالاتي لنشبع من الفواكه التي يحرم منها الكثيرون. ولعل هذا ما جعلني إلى اليوم مولعا بألوان كثيرة من الفاكهة، ولا يطيب لي الطعام بدونها. والشخص أسير ما تعود، كما قال المتنبي: لكل امرئ من دهره ما تعودا.

هذه صورة لأطعمة القرية في صباي، وأما مشاربها، فقد كان الماء يستقى من ترعة البلد، يأتي بها نساء القرية في جرار يملأنها، ويحملنها على رؤوسهن برشاقة، ونرى الصبايا في البكرة، أو في الأصيل، يذهبن بجراتهن فارغات، ويعدن بهن ممتلئات، ويمشين بهن متبخترات.

وكانت مياه الترعة - خصوصا في أيام فيضان النيل - تحمل كثيرا من الطين. فكن يضعن في الجرَّات نوى المشمش، فيرقد الطين، ويصفو الماء.

وبعض الناس يضعن الماء في «الزير» وهو يتسع لعدة جرات، وفيه يرقد الطين، ويبرد الماء. وكثير منهم يقطر الماء من الزير، ويضع تحته وعاء يستوعب هذا الماء المرشح النقي، فيشرب هنيئا مريئا.

وكان الناس يستعملون القلل لتبريد الماء، وكانت هي أيضا ثلاجات الفقراء، تملأ وتوضع في صينية خاصة بها، وتوضع في جهة بحرية (شمالية) فتهب عليها الرياح الباردة فتبردها.

وفي أيام التحاريق التي تهبط فيها مياه النيل إلى حد كبير، تجف ترعة القرية تماما، ويضطر نساء القرية - وهن المسئولات عن سقي عائلاتهن - إلى أن يذهبن إلى «البحر الكبير» وهو «بحر شبين» ليملأن منه جرارهن رغم بعد المسافة: أكثر من اثنين كيلو متر ذهابا، ومثلها إيابا.

كانت القرية - بصفة إجمالية - مكتفية بذاتها في اقتصادها، وتكاد تستغني عن المدينة تماما في طعامها وشرابها، ولكنها تحتاج إليها في ملبوساتها بصفة عامة، وإن

كان في القرية نسَّاجون، ينسجون بعض «البشوت» أو «البطاطين». وفي بعض القرى كانوا ينسجون بعض الثياب، وكنا نشتريها من هناك مثل قرية «كوم النور» بجوار ميت غمر.

وكانت معظم الصناعات التي تفتقر إليها القرية موجودة فيها. ففيها النجارون: منهم نجار «الساقية» الذي يصنع الساقية لري الأرض، وكذلك «الطنبور». وكذلك أدوات الزراعة المختلفة، مثل المحراث والنورج والقصابية والبتّانة وغيرها.

وهناك النجار الذي يصنع الأبواب والنوافذ (الشبابيك) ولا سيما ذات «الشيش» المعروف.

وهناك تجار الأثاث (الموبيليات) مثل الخزائن (الدواليب) والبوريهات ونحوها. وكانت الأسِرَّة في ذلك الوقت من الحديد أو النحاس أو النيكل، على حسب مراتب الطبقَات لا من الخشب، إلا (المُلَّة) وهي الألواح الخشبية التي توضع على السرير لتفرش عليها الحشايا (المراتب) كما يسمونها.

وكانت تجارة الأثاث محدودة في القرية، إذ الغالب أن يذهب الناس إلى المدينة (المحلة الكبرى) وهي مركز القرية، ليشتروا منها متطلباتهم من الأثاث، وكثير من حاجات الأعراس.

وكان في القرية أكثر من حداد، ليصنع الفئوس والقواديم، وأسلحة المحاريث، وغيرها من الأشياء التي تحتاج إليها الزراعة، وبعض الأشياء التي يحتاج إليها الناس في البيوت، مما لا يحتاج إلى «تقنية» عالية.

وكان فيها عدد من البنائين المتقنين، الذين يقومون بعمل المصمم والمقاول والبناء، وأحيانا يقومون بعملية «الصلب» وهو حمل السقف وما فوقه على أعمدة من الخشب، لتغيير بعض الجدران التي أصابها العطب أو الخلل، حتى لا يحتاج إلى هدم البيت كله وبنائه من جديد. وكان زوج إحدى خالاتي من هؤلاء البنائين المجيدين.

وكان هناك عدد من «الخياطين» الذين يخيطون للناس «الجلاليب» البلدية والإفرنجية، وخصوصا جلاليب الصوف أو الكشمير أو «السكروته» وهي نوع من الحرير، الذي اشتهر لبسه بين الموسرين، ولا أدري أهو حرير طبيعي أم صناعي؟

ومن هؤلاء من اشتهر بخياطة العباءات التي تصنع من الجوخ أو الصوف (ماركة الإمبريال) ويطرزونها بخيوط الحرير في أطرافها، ويلبسها أهل اليسار عادة في الأعياد والأعراس والمناسبات.

وكان في القرية سمكري - أو أكثر - يلحم الأشياء المعدنية، وأكثر من مبيض للنحاس، وفيها من المهن من يصلح وابورات الجاز، وفيها من يصلح «كوالين» الأبواب، وفيها أكثر من «إسكاف» يصلح نعال الناس، بل فيها من «يفصل» أحذية للناس على قدر أقدامهم.

وفيها من ينزح آبار صرف المراحيض إذا امتلأت، ويسمى «السرَباتي» ومن أمثالهم: الاسم جوهر، والصنعة «سرباتي»! وفيها ميكانيكية يعملون في إدارة ماكينات «الطحين» أو «ماكينات الري» أو تصليح بعض الآلات كالبنادق ونحوها.

وكان اقتصاد القرية يتجسد كل أسبوع في سوقها الدوري.

وكان سوق قريتنا كل يوم أربعاء، وهو يوم حركة تبادلية، يبيع الناس فيها ما يفضل من منتجاتهم، ويشترون منه ما يحتاجون إليه. وكان التجار يأتون من القرى المجاورة، ليبيعوا ما لديهم، كما كان تجار قريتنا يذهبون إليهم أيام أسواقهم، مثل سوق القرشية يوم السبت، وسوق الهياتم يوم الأحد، وسوق طنطا وسوق محلة روح يوم الاثنين، وسوق المحلة الكبرى يوم الثلاثاء، وسوق سجين الكوم يوم الخميس، وهكذا نجد الأسواق المحلية تملأ أيام الأسبوع.

ولم يكن سوق بلدنا مكانا مهيئا للبيع والشراء، معدا لهذا الغرض، مثل سوق القرشية أو شبشر من حولنا، بل كان السوق ينصب بين المساكن، وفي قلب القرية، بجوار مسجد المتولي وبالقرب من منزلنا وحارتنا.

وقد تعارف الناس فيه أن يكون لكل فئة منهم في الغالب مكان مخصص لهم توارثوه عرفا، فلا يعتدي أحد على أحد، والمعروف عرفا، كالمشروط شرطا، فكل واحد يحجز له مكانه حتى ينزل فيه.

فهناك مكان لتجار الأقمشة، ويسمونها «الماني فاتورة». ولم أبحث سبب هذه التسمية ومن أي لغة أخذت، هل هي من اليونانية، أو من غيرها؟

فكان في هذا السوق مكان للخضراوات: من الفلفل والجزر والطماطم والخيار والقثاء والعجور، والبطيخ والبصل والثوم واللوبيا وغيرها.

وفيه مكان للفواكه، يباع فيها في كل موسم فاكهة الموسم في الصيف والشتاء: البطيخ والشمام والعنب والبلح والجوافة والبرتقال واليوسفي والمانجو وغيرها.

وكان فيه مكان للحبوب يسميه الناس «سوق الحب» تباع فيه المحصولات الزراعية من الذرة والقمح والشعير والفول. وكان البيع بالكيل، وكان في السوق «كيالون» محترفون، إذا اشترط البائع أو المشتري ذلك، فيكون الكيال على حسابه، وإلا رضي بكيل التاجر الذي يشتري منه، وكثيرا ما كان يطفف، كما قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾ (المطففين: ١ - ٣). ويحتاج الناس إلى الكيال لا محالة إذا باع بعض لبعض لا لأحد التجار.

وكان هناك مكان للحم، حيث يعرض الجزارون لحومهم معلقة مكشوفة، وفي بعض الأحيان يعلن بعض الجزارين عن ذبائحهم في اليوم السابق، يمرون بها في القرية، ويقولون: سيبيعها فلان من الجزارين.

وهناك سوق للطيور وللدواجن، حيث يبيع الناس بعضهم لبعض.

وكذلك سوق للبيض، وللجبن والزبد، وإن كان كثير من الفلاحين يستحون أن يبيعوا هذه الأشياء، وإن كانوا في حاجة إلى أثمانها: من الطيور والجبن

والزبد ونحوها . وكثيرا ما يعطونها لغيرهم ، ليبيعها لهم للضرورة ، لأنهم يرون أن هذه الأشياء لا تباع ، وأن بيعها يُعَدُّ عيبا ، لا يليق بكرام الناس . وكذلك كانوا لا يبيعون اللبن ، ومن باعه عير به ، ومن اضطر إلى ذلك لحاجة باعه سرا لمن يحتاج إليه .

وهكذا ، رأينا المحور والقطب الذي تدور عليه رحا القرية هو «الأرض» ، أعني الأرض الزراعية ، وكل ما يتصل بها ، فهي التي تخرج النبات والزرع مختلفا ألوانه ، وهي التي تغذي الحيوان والأنعام ، التي لهم فيها دفء ومنافع ومنها يأكلون ، والتي يسقيهم الله مما في بطونها من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين .

ومعظم التجارة في القرية تدور حول محصولات الزراعة ، أو المواشي ، أو نحو ذلك .

وكذلك العمالة كلها تتصل بالزراعة . فالعمال الذين يعملون بأجر في القرية يعملون في محيط الزراعة : في بذر بذور القطن ونحوه ، وفي تنقية الأرض من الحشائش ويسمى «العزق» وفي نشر السماد في الأرض ، وفي تنقية القطن خاصة من «الدودة» التي تهدد محصوله بالضياع ، وفي جني القطن إذا بلغ مداه ، وغير ذلك من الأعمال التي تتعلق كلها بالزراعة ، وهي أعمال غير منتظمة في العادة ، ولهذا يعمل هؤلاء العمال أياما ، ويبقون أضعافها عاطلين لا يجدون عملا .

وظلت هذه الفئة تعاني من البطالة المتقطعة ، حتى مَنَّ الله على قريتنا والقرى من حولها بإنشاء مصنع المحلة الكبرى للغزل والنسج ، أو ما سمي «شركة المحلة» فكانت هذه فرجا من الله على أهل المنطقة ، فقد هرعوا جميعا إليها ، وأضحوا عاملين في أقسامها المختلفة باليومية أو بالإنتاج .

ولكن الشركة في أول أمرها كانت تستهلك جهد هؤلاء العمال بثمن بخس دراهم معدودة ، مستغلة حاجتهم بل ضرورتهم إلى العيش بأي أجر يعطى ، ولم يكن هناك نقابات تدافع عنهم . وكانوا يعملون ورديتين ، كل وردية ١٢ اثنتا عشرة

ساعة، وأذكر أنهم أضربوا مرة كما ذكر لي ابن خالتي وكان أحد هؤلاء، وكان هتافهم: من سبعة لسبعة (أي من سبعة صباحا إلى سبعة مساء أو بالعكس) بأربعة صاغ!

وقد ترتب على ذلك العمل على تحسين أحوالهم، فأصبحت الوردية ٨ساعات فقط، وغدت الورديات ثلاثا بدل اثنتين، وتحسن الأجر شيئا فشيئا، حتى تكونت نقابات العمال، وأمسى لهم كلمة مسموعة، ورأي ينصت إليه.

(ج) الجانب الاجتماعي في القرية

كانت قريتنا يقوم تكوينها الاجتماعي على أساس طبقي واضح.

فهناك طبقة عُلْيا، يقابلها طبقة دنيا، وبينهما طبقة وسطى.

الطبقة العليا: شريحة صغيرة من أهل القرية، والطبقة الدنيا تمثل جمهور أهل القرية وشعبها. والطبقة الوسطى فئة قليلة هي أقرب إلى الطبقة الدنيا، وهي أساسا منها.

أجل، كان هناك «طبقة الأعيان» ويقابلها «طبقة الأهالي». وأظن أن هذا التقسيم كان في معظم قرى مصر، ولكنه كان في قريتنا يتجسد بصورة بارزة.

وأساس هذا التقسيم هو الغنى والفقر، فالأغنياء هم الأعيان، والفقراء هم الأهالي.

وأهم مظاهر الغنى هو «ملكية الأطيان» أو ملكية الأراضي الزراعية، فهي التي تشعر بالسيادة والعظمة، ويكاد صاحب الأطيان يملك الأرض ومستأجريها من الفلاحين الكادحين، الذين يبذلون جهدهم وعرقهم في خدمة الأرض، ولكن ثمرتها للملاك. أما الفلاحون فلهم الفتات. فالملاك يأكلون التمر، والمستأجرون أو العاملون في الأرض لهم النوى. أو كما قال شيخنا الغزالي عن هؤلاء الفلاحين: إنهم يزرعون القمح ويأكلون الطين!

ولا أدري على أي أساس تمت ملكية الأراضي في مصر، وكيف حدث هذا التوزيع الجائر الذي جعل بعض الناس يملكون آلاف الأفدنة، وهم لا يعملون، وجعل الآخرين يعملون ليلا ونهارا، وهم لا يملكون.

والشيء الغريب هنا: أن العقيدة «الجبرية» التي شاعت بين المسلمين عللت ذلك بأن هذا ما قسمه القدر لهم، وأن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ولا يجوز الاعتراض على القدر، وينشدون:

ملك الملوك إذا وهبْ

لا تسألنَّ عن السببْ

الله يعطي من يشا

ء فقف على حد الأدبْ

فمن سوء الأدب إذن: أن نقول: لماذا اغتنى العاطلون وافتقر العاملون؟ وهذا من الثقافة الدينية المغلوطة.

ويريحون أنفسهم بقول الشاعر:

دع المقادير تجري في أعنّتها

ولا تبيتن إلا خالي البال

يوما تريش خسيس الحال ترفعه

إلى السماك ويوما تخفض العالي

وقول الآخر:

الرزق كالغيث بين الناس منقسم

هذا غريق، وهذا يشتهي المطرا

وكأن هذه المقادير تخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء، لا تعرف عدلا ولا حكمة، مع أن من أسماء الله تعالى: العدل والحكيم.

ومن المؤسف حقا، أن يكون الشيوعيون والماركسيون هم الذين يثيرون قضية

فقدان العدالة في توزيع الثروة بين الطبقات. وإن كان من الإسلاميين من سبق إلى هذا في مصر قبلهم، وأثاره بصورة قوية، وبليغة، مثل شيخنا محمد الغزالي رحمة الله عليه، في مقالاته في مجلة «الإخوان المسلمون» الأسبوعية، وفي كتبه «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» و«الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين» و«تأملات في الدين والحياة» وغيرها.

والمعروف في تاريخ مصر: أن محمد علي باشا الكبير، كان قد صادر الأرض الزراعية كلها، وأدخلها في ملكية الدولة، ثم بعد ذلك بدأ يوزع مساحات شاسعة منها لذوي الأصل التركي والمملوكي ونحوهم، هبة من الدولة بلا مقابل من ثمن. فكانت هذه ثروة هبطت عليهم دون عمل منهم، وهذه الثروة جلبت ثروة أخرى، فزادت مساحة ما يملك هؤلاء، وخصوصا أنهم إذا زرعوا هم الأرض استأجروا الفلاحين ليزرعوها بأبخس الأجور، وإذا أجروها للفلاحين فرضوا عليهم أغلى الأجور.

وبهذا ازداد الأغنياء غنى، والفقراء فقرا. وقد عبر المصريون عن هذا بأن الجنيه يأتي فيدق باب الشخص، فإذا رد عليه جنيه مثله دخل عنده، واستأنس به، وانضم إليه، فإذا لم يجد جنيها، ترك هذا الباب، وبحث عن باب آخر.

على كل حال كان الأعيان في قريتنا هم أصحاب الأطيان، وكانوا عائلتين تتقاربان حينا، وتتنافسان أحيانا. وهي عائلة «خضر» وعائلة «نوير» أو على حد تعبير أهل صفط «الخضاروة والنوايرة».

وكان الخضاروة أكثر غنى، فهم يملكون من الأطيان بالآلاف من الأفدنة، بعضها في القرية، وبعضها في قرى أخرى. أما النوايرة فكانت ملكيتهم بالمئات حينا، وبالعشرات أحيانا، بل كان منهم من لا يملك حتى العشرات.

ولكن الخضاروة - في الجملة - كانوا أحب إلى أهل القرية من النوايرة. فقد كانوا - على غناهم - أكثر دماثة وأقرب إلى التدين، وألصق بالمساجد، وأحسن خلقا مع

الناس. ولم يكونوا أهل تجبر وطغيان على الضعفاء في غالبهم. وكانت فيهم (العُمُدِيَّة). وكان العمدة في صباي هو عيسوي بك خضر، كما أن عضوية المجلس النيابي عن دائرة صفط تراب تكون غالبا منهم.

ومن هؤلاء الذين تميزوا بالدماثة والأدب والتواضع: الشيخ عبد الله خضر، وابنه عبد الحميد، وحمزة بك عبد العزيز خضر، وعباس بك المرسي خضر، ولم يكونا يحملان البكوية رسميا، ولكن الناس كانوا يخاطبونهم بلقب «بك» احتراما.

كما عرفت منهم بعد ذلك جماعة في غاية الأدب، وحسن الخلق، مثل أحمد العيسوي خضر، وسعد الدين محمد المرسي خضر، وقد كان كلاهما نائبا عن الدائرة في مجلس الشعب، وشقيقه حمادة خضر، والمستشار علي حمزة خضر، والسيد عباس خضر عمدة القرية الحالي، وغيرهم من الأفاضل.

أما النوايرة، فكان بعضهم على غير ذلك، وإن كنت أشهد أنه كان فيهم طائفة تتميز بالدين والتواضع والتهذيب وحسن الخلق مع الناس. منهم محمد الأنور نوير (الذي قتله ابن شقيقه غدرا) ومحمد أحمد نوير، وأبناء المأمون نوير، ومن حَفَدته: الأستاذ الدكتور عبد الحميد نوير أستاذ العلوم، وهو مثال وأسوة في مكارم الأخلاق، وقد زاملته في جامعة قطر. ومحمد علي نوير والد الأخ العالم الداعية الشيخ عبد الستار، والشيخ خليل الليثي نوير، وكان ممن تعلم في الأزهر، ولكن لم يكمل المشوار، ورياض الصادق نوير، الذي عرفته طالبا في جامعة الإسكندرية.

وكان الجمهور الأعظم من أهل القرية يكونون طبقة الأهالي، التي تشتمل على الفلاحين والحرفيين والعمال وصغار التجار، وهم الذين على سواعدهم تقوم حياة القرية، وهم الذين نبه عليهم الحديث النبوي الصحيح: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم؟»[1]. فأشار الحديث إلى حقيقة اجتماعية مهمة، وهي: أن هؤلاء المستضعفين في الأرض هم: عدة الإنتاج الاقتصادي في السلم، وهم عدة النصر

(١) رواه البخاري (٢٨٩٦) عن سعد.

في الحرب، وهذا معنى «ترزقون وتنصرون بضعفائكم»، إذ إن هؤلاء الأعيان في العادة لا يعملون في السلم، ولا يشاركون في الحرب، فقد كان أولاد الأغنياء في ذلك الزمن لا يدخلون الجيش (أو الجهادية) كما كان يطلق عليها، من بقايا عصر الجهاد. إذ من يملك عشرين جنيها يستطيع أن يدفعها بدلا للخدمة العسكرية، التي كانت تقوم على قهر المواطن وإذلاله، حتى كان بعض الناس يقطع أصبعه حتى لا يدخل الجهادية المذلة للرجال.

وكانت هناك طبقة وسطى، نستطيع أن نسميهم «أعيان الفلاحين» تتكون من صغار ملاك الأطيان، ومن التجار الناجحين، مثل عائلة أبي زهرة، وأبناء محمد زغلول، والحاج محمدي رزّ، والشيخ حمزة النجار، والحاج سليمان الجزار، والشيخ إبراهيم ضيف، وبعض المميزين من عائلات صقر والعزوبي والشناوي ويحيى ومازن وأبو أمنة والنجار الدوّي وأبو زياد الفخراني، وغيرهم. تحاول هذه الطبقة أن ترتفع عن الطبقة الدنيا، وإن كانت منها، وأن تقترب من الطبقة العليا، وإن لم تعترف بها، لكنها لا تملك إلا احترامها.

وكان علماء الدين من الطبقة الوسطى، الذين يحظون بالاحترام والتقدير من الطبقتين: العليا والدنيا، أو الأعيان والأهالي. وعلى قدر مكانة العالم في العلم، ومنزلته في العمل بعلمه، واعتزازه بكرامته، وشعبيته في أهل البلدة، يكون احترامه ومكانته بين الجميع.

وقد صح أن سيدنا عمر سأل والي مكة حين لقيه: من استخلفت على الناس؟ قال: استخلفت عليهم «ابن أبزى» وقال: وما ابن أبزى؟ قال: رجل من موالينا. قال: استخلفت عليهم مولى؟

قال: إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض.

فقال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين»[1].

---

(١) رواه أحمد في مسند عمر (٢٣٢) ومسلم في صحيحه (٨١٧).

وقد قالوا: إن عطاء بن أبي رباح - الفقيه التابعي المعروف - كان رجلا أسود أفطس أعرج، ولكن كانت الملوك تجلس بين يديه لا يكادون يتحركون هيبة له.

وقال الشاعر:

العلم يرفع بيتا لا عماد له

والجهل يهدم بيت العز والشرف

وقال الإمام الشافعي:

من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم.

ترابط أهل القرية في السراء والضراء:

وكان أهالي القرية مترابطين فيما بينهم، متضامنين في السراء والضراء، في الأفراح وفي الأحزان.

ففي الأعراس والأفراح نراهم يساعد بعضهم بعضا عن طريق ما يسمى «النقوط» يدفعونه لأهل العروس، على أن يرد هؤلاء إليهم مثله أو خيرا منه عندما يزوج أحدهم ابنه أو ابنته.

وفي الأحزان يراعي بعضهم مشاعر بعض، فإذا كان عندهم عرس أجلوه، وإذا اضطروا إلى تنجيزه في مدة قريبة، أقاموه بغير ضجة، حتى إنهم يمتنعون عن بعض الأكلات المعينة، يَعُدُّونها من أكلات الأفراح مثل الكسكسي والرقاق (البريك) ونحوها.

وإذا حدث حريق في أحد المنازل - بقضاء وقدر أو بفعل فاعل - سارع أهل القرية إلى إطفائه بقوة وجدارة، وكثيرا ما يكون ذلك بعد منتصف الليل، فيهب الناس من نومهم، ويطيرون طيرا إلى موضع الخطر، يكادون يقتحمون النار ولا يبالون. وهذا مما عرف به أهل القرية من الهمة العالية والنجدة.

وكان أهل كل حارة يعرف بعضهم بعضا، ويكادون يكونون أسرة واحدة، ويتعاملون رجالهم ونساؤهم بعفوية وتلقائية، يكلم الرجل جارته، والمرأة جارها في الحاجات المشتركة بجدية ووقار، ومحافظة على الآداب الشرعية، والقواعد المرعية، وكأن كل رجل منهم يتمثل بقول عنترة، وإن لم يحفظه:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي

حتى يواري جارتي مأواها

وكانت المرأة من طبقة الأهالي تساعد زوجها في أعمال الحقل، إن احتاج إلى ذلك. أقل ما تفعله أن تهيئ له الغداء في بعض الأيام، وتذهب به إلى الحقل، ليتناوله هو وأولاده إن كان معه أولاد، وإن كانت أسرتنا لم يتعود نساؤها أن يذهبن إلى الحقول، وللأسرة عندنا تقاليد متوارثة تحترم وتراعى.

وكان بعض النساء هن اللائي يدرن أمور الأسرة الاقتصادية والاجتماعية، وهي التي تحافظ على تماسك العائلة الكبيرة وبقاء أفرادها في «دار العائلة» الكبيرة، حتى لا يتفرقوا بعد الزواج. وكانت عمتي من هذا النوع الذي يشرف على الأسرة كلها، وكان عندها خمسة أبناء، فبقوا في بيت واحد برغم زواجهم وإنجابهم. وربما قامت بعض النساء الفضليات بدور أكبر من ذلك في الإصلاح بين العائلات.

وفي رأيي أن علاقة المرأة بالرجل في القرية بين طبقة الأهالي بعضهم وبعض: أقرب ما تكون إلى منطق الإسلام وحكم شريعته، على خلاف ما كانت عليه الطبقات العليا التي عندها «السلاملك» و«الحرملك».

الأبواب المفتوحة:

كانت العادة في قريتنا - إلا ما ندر - أن تظل أبواب البيوت مفتوحة، لوجود الأمان والثقة بين الناس، إلا إذا لم يوجد أحد في البيت. وكانت أبواب المنازل في حارتنا مفتحة؛ لأن أهل الحارة كأنهم بمنزلة الأسرة الواحدة، لا سدود

بين بعضهم وبعض، يسلم الرجال على النساء، والنساء على الرجال في فطرية وتلقائية غير متكلفة، وكثيرا ما نسمع هذه الكلمة: العوافي يا أم فلان أو العوافي ياأبا فلان.

وهكذا نشأت على حب الأبواب المفتوحة، وكراهية الأبواب المغلقة، وأذكر أن باب دارنا في القرية كان يظل مفتوحا طوال النهار، ولا يغلق إلا عند النوم. وحتى عندما يغلق الباب، لا يغلق بقفل أو مفتاح، بل بسقّاطة يمكن لمن في الخارج أن يحركها بأصبعه فتفتح.

وكان بابا كبيرا يسع الجواميس أن تدخل منه، وربما الجمل أيضا، وكان يفتح على مدخل الدار والمنظرة، فلا يكشف أحدا من نساء المنزل، لأنهن في الداخل. ولا أذكر أنه كان في منزلنا حجرة تغلق بالمفاتيح، إلا ما ندر، ولا سيما أنه لم يكن لدينا أطفال صغار يخشى منهم العبث بالأشياء.

ولهذا تعودت أن أرى الأشياء مفتحة أمامي، وأحببت الفتح والانفتاح ماديا ومعنويا، وأبغضت الإغلاق والانغلاق ماديا ومعنويا. لا أحب أن أغلق على نفسي حجرة بالضبة والمفتاح كما يقولون.

ولقد كنت أركب سيارتي وأسوقها بنفسي عددا من السنين في قطر، وما كنت أغلقها لا في الجامعة التي أعمل فيها، ولا في المنزل، بل أدعها مفتحة الأبواب، حتى حذرني بعض الأصدقاء من ذلك، وقالوا: إن هذا قد يعرضك لخطر، ألا تخشى أن يضع بعض الصهاينة وعملاؤهم لغما لك في داخل السيارة؟ وقلت لهم: الله خير حافظا وهو أرحم الراحمين.

وأسافر دائما بحقائبي دون أن أغلقها بالأرقام أو بالمفاتيح الخاصة، مع أن كل حقائبي ذات أرقام، ولكني لم أستخدمها في حياتي، لا في حقائب الثياب والأمتعة، ولا في حقائب اليد.

ولهذا كان من أقسى الفترات على نفسي: فترات الاعتقال في السجن الحربي،

لأنا كنا نعيش في زنازين مغلقة، طوال النهار والليل، ولا تفتح إلا للذهاب إلى دورات المياه دقائق معدودات، مرة قبل الفجر، ومرة في المساء.

ولكن كان من اللطف الإلهي في هذه المحنة أننا كنا نعيش في الزنازين مجموعة من سبعة أو ثمانية، اضطروا إلى ذلك اضطرارا لكثرة العدد، فكان بعضنا يؤنس بعضا، حتى حين أخذوا منا الكتب والمصاحف، كان منا من يحفظ القرآن، فهو يتلو، والباقي يستمعون.

وقفة عند الإقطاع الزراعي في مصر:

وأود أن أقف هنا وقفة منصفة لأوضاع من كانوا يسمونهم «الإقطاعيين» من كبار ملاك الأراضي في مصر، فقد يلتبس في أذهان البعض بالإقطاع في أوربا، وما أعظم الفرق بينهما.

لا شك في أن منهم من كانوا جبابرة، وكانوا يرون أنفسهم من طبقة غير طبقة الناس الآخرين، أو كأنهم خلقوا وحدهم من ذهب، وخلق سائر الناس من التراب والطين. وكانوا قساة على الفلاحين، لا يرحمونهم، ولا يخشون الله فيهم، فهم عندهم بمثابة الماشية التي تدير سواقيهم أو تجر محاريثهم أو «نوارجهم»، ويرى أي فتاة جميلة في القرية أو العزبة كأنها جارية له، لا يجوز لأب ولا لأخ أن يمنعها منه إذا أراد.

ولكن هؤلاء الوحوش الآدمية التي تستر وحشيتها وأنيابها ومخالبها، بالثياب الفاخرة، والقصور الزاهرة، والألقاب الباهرة، لم يكونوا ليمثلوا في الإقطاعيين الزراعيين إلا قلة محدودة؛ إذ كانت الأكثرية من هؤلاء تتمتع بكثير من الأخلاق والقيم الأصيلة المتوارثة، على الأقل قيم العطف والرحمة والإحسان والجود، والشهامة والنجدة، ونحوها من الفضائل والمكارم التي تحتقر من يتجبر على الضعيف، ومن يعتدي على من لا سند له ولا ظهر، وتفتح أبوابها لطالبي

الحاجات، وتحافظ على من يعمل في خدمتها وتحميه . . إلى غير ذلك من هذا النوع من القيم، وإن كانت قيمة العدل والإحساس بها ضعيفا على كل حال.

وأشهد لقد عرفت من «آل خضر» أناسا عرفوا بالأدب والتواضع وحسن الخلق والود مع الناس، عرفت منهم: السيد عباس خضر عمدة البلد الحالي، وابن عمه حمادة محمد المرسي خضر، وشقيقه المهندس سعد الدين خضر نائب دائرة صفط تراب في مجلس الشعب، وابن عمه أحمد العيسوي خضر عضو مجلس الشعب أيضا، رحمهم الله جميعا، وقد ساعدت الاثنين الأخيرين في حملتهما الانتخابية متطوعا، فقدرا ذلك حق قدره.

وإذا قارنا هؤلاء «البكوات» أو «الباشوات» الأقدمين بـ «البكوات» و«الباشوات» المحدثين، الذين تمخضت عنهم الثورة والانفتاح، وما بعدهما، نجد أن الإقطاعيين القدامى كانوا خيرا وأفضل بكثير من الإقطاعيين الجدد، فقد كان القدامى يفتحون بيوتا بجوارهم تعيش عليها أسر شتى، وهؤلاء لا ينتفع من ورائهم أحد، إذ إن أولئك لهم أصول وجذور يستندون إليها، وهؤلاء لا أصول لهم ولا جذور.

الزواج في القرية:

وكان الزواج من أهم الأحداث الاجتماعية في القرية، وكانت الأسرة هي التي ترشح العروس للفتى، وكثيرا ما يكتفي بترشيح أهله، وقلما كان يطلب الرؤية. ولم يكن عند الناس فقه كاف بأن رؤية الخاطب لمخطوبته مطلوبة شرعا، وأحيانا تدبر له رؤية الفتاة دون أن تشعر. وأحيانا أخرى يكون قد رأى هو الفتاة، فيعرض على أهله أن يخطبوها له.

وكان العريس (أو المعْرِسْ كما يسميه أهل الخليج) يقدم المهر، ويساعد في شراء الجهاز، ثم يكتب الجهاز في قائمة باسم العروس، فهو ملكها، تطالب به عند الانفصال إذا قدر الله ذلك.

ولم تكن عادة «الشبكة» معروفة في الريف في صباي، ولا أدري متى عرفت؟ ولا من أين نقلت؟ فهي عادة مستوردة. فقد زادت في أمر الزواج عقدة ليس لها لزوم، فأصبح هناك حفل للشبكة، وحفل لعقد القران، وحفل للزفاف، وكل هذه أعباء تعوق الزواج، وتعطل مسيرته وتؤخر الشباب بعض الوقت.

وكان أهل القرية حريصين على أن يزوجوا أبناءهم مبكرين، حرصا على أن يحصنوهم من الانحراف أو التفكير فيه من ناحية، وأن يحفظوا نصف دينهم من ناحية ثانية، وأن ينجبوا ذريتهم في وقت مبكر. وكان يساعدهم على هذا أن التعليم كان محدودا، ولم يكن هناك عائق أمام الفتى والفتاة من الزواج. وخصوصا أن الزوج كان يبقى في بيت العائلة، ويكفي أن تهيأ له غرفة له ولزوجه، في البيت الكبير، الذي تشرف عليه غالبا أم الأبناء، وربما جدتهم.

وكانت السن القانونية للزواج ١٦ سنة، ومع هذا كانوا كثيرا ما يزوجون البنت أقل من ١٦ سنة بطريقة «التسنين الطبي».

وكانوا حراصا على المصاهرة إلى الأسر الأصيلة والكريمة، ويقولون في أمثالهم: در مع الأيام إذا دارت، وخد بنت الأمارة ولو بارت.

ويحذرون من زواج المرأة السيئة لأجل مالها، ويقول مَثَلُهم: لا تأخذ القرد على كثرة ماله، يروح المال ويبقى القرد على حاله.

وإذا تزوج رجل لئيم من امرأة لئيمة، قالوا: زوجوها له، ما لها إلا له. أو قالوا: زوجوا مِشْكاح لريمة، ما على الاتنين قيمة.

وكان لهم عادات سيئة توارثها الأهالي في ليلة الزفاف، حيث يحضر بعض النساء الكبيرات والقريبات من الزوج والزوجة، ويفض الزوج بكارتها أمامهن، ويسيل دم البكارة متدفقا على شاش أبيض، فتنطلق الزغاريد بعدها، ويُخرج بالشاش الملون باللون الأحمر، وتغني النساء والبنات، فرحا بثبوت طهارة البنت وعذريتها وشرفها، وأنها لم يمسسها رجل من قبل. ومن الأغاني التي كانوا

يرددونها: قولوا لأبيها يقوم يتعشى! يعني أن الرجل كان ممتنعا عن الأكل حتى تثبت طهارة ابنته، ومن حقه بعد ذلك أن يتناول عشاءه، ويمارس حياته.

وقد أنكر العلماء هذه العادات القبيحة، وأكدوا أنها محرمة، ولا يجوز لامرأة أن تنظر إلى عورة امرأة، وأن هذا ينبغي أن يكون سرا بين المرء وزوجه.

وكان بعض الرجال يحس بالعجز الجنسي ليلة الزفاف، لعل ذلك لعوامل نفسية، مصدرها الهيبة والتخوف وعدم الثقة بالنفس، ويقول الناس عنه: إنه مربوط، ويفسرون ذلك بأنه مسحور أو معمول له عمل، ويركض وراء السحرة والدجالين كي يفكوا سحره.

وكانوا يحبون كثرة النسل، ويؤمنون بأنه الهدف الأول من الزواج، والله تعالى يقول: ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً** ﴾ (النحل: ٧٢).

ويذكرهم المأذون في خطبة عقد القران دائما بالحديث القائل: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم».

ولم تكن فكرة تحديد النسل أو تنظيمه واردة في ذلك الوقت، وكلهم يرون الأولاد ذكورا كانوا أو إناثا: نعمة وبركة وهبة من الله: ﴿ **يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا** ﴾ (الشورى: ٤٩، ٥٠).

وكان على الزوجة أن تضع وليدها، وتتركه لحماتها أم زوجها، فهي التي تتولى في الغالب تربيته، ما عليها إلا أن ترضعه وقت رضعته، وعلى الجدة أن تراعيه وتتعهده، ولم يكن الأولاد يتطلبون في ذلك الحين من المتابعة والمعاناة ما يتطلبه أولاد اليوم، فلم تكن هناك مشكلة في الإنجاب.

ومن تأخرت عن الإنجاب يصيبها القلق الشديد، ويصيب أهلها - وأمها على وجه الخصوص - كما يقلق أهل الزوج - وخصوصا أمه - وتبدأ المرأة في البحث عن

خلف، والجري وراء الأوهام والخرافات عند الكهنة والدجالين، الذين يتقنون الكهانة، أو يكتبون الحجاب، أو يصفون الوصفات التي لا تقوم على علم ولا هدى ولا كتاب منير. والنساء يصدقن، ويبذلن المال لهؤلاء، ولا يجدن ثمرة لهذه الترهات.

وكان الزواج في غالبه موفقا، يقوم على السكينة والمودة والرحمة، وهي دعائم الحياة الزوجية، كما صورها القرآن: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١).

وكما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧).

وهذا ما لم يتدخل شياطين الإنس في إفساد العلاقة بين الزوجين لسبب أو آخر. وكثيرا ما يكون ذلك بسبب تدخل أهل الزوج أو أهل الزوجة، أو تدخل أهل السوء.

وكان الأغلب في علاقات المصاهرة: أن تحب الحماة زوج ابنها، ولا سيما إذا كان زواجها منه برضاها ومباركتها. ولم تكن الشكوى من الحماة كما يشكو أكثر الأزواج في عصرنا، حتى أصبحت السخرية من الحماة، وتأليف النكت عليها، أمرا شائعا. بل كانت الحماة توفق الأكلات الطيبة لحين زيارة زوج ابنتها، وهذا سر قول الناس عادة إذا جاء المرء وقت حضور الطعام الطيب: حماتك تحبك. ومعنى أنها تحبه: أنها تهيئ له أطيب الطعام في حالة قدومه، وكأنما وقع مصادفة، وهو مقصود منها.

أما المشكلة التي كانت الشكوى منها باستمرار، فهي علاقة الحماة مع زوجة الابن، فأكثر الحموات - أمهات الأزواج - لا يطقن زوجات الأبناء، ويشعرن كأنما خطفنهم منهن، وخصوصا إذا كان الابن وحيدا، إلا من رحم ربك من الحموات، وقليل ما هن.

ولقد سمعت من زوجة خالي الأولى مثلا يقول: إذا كانت الغلة قدر التبن، تكون الحماة تحب امرأة الابن!

ومثل آخر قالته، وهو: حماتي مكيرة وأنا أمكر منها، تعد اللحمة وأنا أقطّع منها!

وكان الأصل في الزواج: الاستقرار، وعدم الطلاق. فقد كان الناس يكرهون الطلاق، ويرونه مصيبة، ولا يحب أهل المرأة أن تطلق، وتقول بعض العائلات: ليس عندنا بنات تطلق.

وأحيانا تأتي المرأة غاضبة من زوجها إلى بيت أبيها، فيأخذها أبوها، أو يأمر شقيقها أن يأخذها ليردها إلى بيت زوجها. وإذا كان الزوج أصيلا قدر هذه الفعلة حق قدرها، وحاول أن يصلح ما بينه وبين امرأته، كرامة لأهلها. أما الخسيس فلا يزيده هذا إلا إصرارا على إيذائها والتعدي عليها، كما قال الطيب:

إذا أنت أكـــــرمت الكريم ملكتــــــه

وإن أنت أكــــــرمت اللئـــــيم تمردا

وقد يتدخل أهل الخير لإصلاح ذات البين، فيوفقهم الله تعالى للإصلاح، وقد تبوء المحاولات بالإخفاق، وينتهي الأمر بالطلاق، وهو أبغض الحلال إلى الله.

وكثيرا ما يحدث الطلاق، في حين لا يريده أحد من الزوجين، وذلك في «الطلاقات» التي يوقعها «الفقه التقليدي» الموروث، وليس لتعذر الوفاق بين الزوجين، بل لحدوث حالة غضب عند الزوج أفقده السيطرة على نفسه، فصدر منه الطلاق دون أن يريده، مع أن هذه الحالة هي التي جاء فيها الحديث: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق»[1].

---

(١) رواه أبو داود (٢١٩٣) وابن ماجه (٢٠٤٦) عن عائشة.

ومثل ذلك: «أيمان الطلاق» أي الطلاق الذي يراد به الحمل على شيء أو المنع منه، كمعظم أنواع الطلاق الذي تحدث من كثير من الناس، حين يريد أن يحمل نفسه على شيء، أو يمنعها منه، أو يحمل زوجته أو صاحبه على شيء أو يمنعها منه. مثل: علي الطلاق لأفعلن كذا ولا يفعله، أو لأتركن كذا ولا يتركه.

وربما يكون هذا بينه وبين شخص آخر، وزوجته لا تدري بذلك، ولا علاقة لها به، وربما كانت علاقتهما سمنا على عسل، فإذا هو يحلف ألا يبيع سلعته إلا بسبعين ثم يبيعها بستين، ثم يعود إلى امرأته فيجدها مطلقة، وفق ما يقوله له المشايخ، وكثيرا ما يكون هذا الطلاق بالثلاثة، فتبين منه بينونة كبرى، ولا تحل له حتى تنكح زوجا غيره.

وهنا يبحث الناس عن «المحلِّل» وهو الذي يتزوج المرأة لا ليبني بيتا، أو يحقق المقاصد الشرعية من الزواج، بل لمجرد أن يحللها للزوج المطلق، وهو الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث له «التيس المستعار» ولعن المحلل والمحلل له[1].

وكثيرا ما دُمِّرت أسر وخربت بيوت، وشتت أطفال، نتيجة هذا الفقه الذي توسع في إيقاع الطلاق، فأوقع الطلاق البدْعي والسني، وأوقعه إذا أريد به اليمين، وأوقعه في حالة الغضب والرضا، وأوقعه إذا كان له وطر أم لم يكن له وطر.

وكان أكثر الناس يكتفي بزوجة واحدة، ومع هذا كان تعدد الزوجات شائعا، ففي حارتنا ـ وهي صغيرة ـ كان هناك خمسة لهم زوجتان. وكان جارنا الأدنى الحاج محمد عيسى، له زوجتان، وكأنهما أختان أو صديقتان. على حين كان الآخرون في حالة خصام، يهدأ حينا، ويثور حينا آخر. وأحيانا ينتهي بتقريب واحدة وتعليق أخرى، وهو ما نهى عنه القرآن حين قال: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ (النساء: ١٢٩).

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩٣٦) عن عقبة بن عامر.

والمُعلَّقة: المرأة التي لا هي مزوجة ولا هي مطلقة. والآية تعني أن بعض الميل مغتفر، وخصوصا في العواطف والاشتهاء، ولكن المحرم هو الميل كل الميل.

وكانت الأسرة في غالب أمرها مترابطة بين أفرادها، فالأولاد يبرون آباءهم وأمهاتهم، ويرون أن رضا الله تعالى في رضا الوالدين، وسخط الله تعالى في سخط الوالدين، وإذا وفق أحدهم في عمله، وبورك له في رزقه وفي أولاده، يقول: هذا ببركة رضا الوالدين، ودعاء الوالدين.

وكان الآباء والأمهات يحنون على أولادهم بنين أو بنات، وكان قليل من الناس يفضلون الأبناء على البنات، ولا سيما في الميراث، جاهلين أن ذلك من الكبائر، كأنما هو استدراك على الله تعالى في حكمه، وقد قال تعالى في آية المواريث: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)﴾ (النساء: ١١).

وكانت ظاهرة العقوق للآباء والأمهات نادرة، ولكنها كانت موجودة، وهي تمثل الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها.

ومما يتناقله أهل القرية وشاهدته بعيني: قصة الشيخ بدوي الذي كان يمتلك عددا من الأفدنة، وكان رجلا ميسور الحال، وكان له زوجتان، وكان ابنه الأكبر من زوجته الأولى قد لعب بعقله، وأثر عليه، حتى كتب له أرضه كلها، وحرم منها أولاده من زوجته الأخرى، وهم أكثر عددا، وأشد حاجة.

والمهم أن الابن الذي كتب له الأرض أو بيعت له صوريا، وأصبح مالكا لها، تنكر لأبيه بعد ذلك، وأمسى الرجل صفر اليدين، يفتقر إلى من يحسن إليه، ولم يجد من يمد له يد الإحسان والمعونة، غير أبنائه الذين ظلمهم وحرمهم من حقهم. وكان هذا درسا لا ينسى، في تجاوز العدل الذي فرضه الله على عباده، وأمرهم أن يعطوا كل ذي حق حقه.

قرية غير محظوظة:

كانت قريتنا تُعَدُّ من القرى الكبيرة من حيث تعداد السكان، ولكنها لم تكن محظوظة من حيث الخدمات المتاحة لمثلها من القرى.

فلم يكن بها مستشفى، ولذلك كان أبناء صفط إذا أصيبوا بالأمراض المتوطنة المعروفة التي يبتلى بها أكثر المصريين مثل البلهارسيا والإنكلستوما يذهبون إلى مستشفى قرية مجاورة، بيننا وبينها نحو ٧ كيلو مترات، وهي قرية «القرشية» وهي من القرى الراقية.

وأذكر أني أصبت بالبلهارسيا في صباي، فكنت أذهب أنا ومجموعة من أهل القرية ثلاث مرات في الأسبوع إلى القرشية لعلاج البلهارسيا، عن طريق «حقن» أو «إبر» نأخذها على الريق دون تناول أي طعام، وهي اثنتا عشرة إبرة.

بل لم يكن للقرية محطة قطار، ولم تنشأ لها محطة إلا في أواخر الثلاثينيات، ولذلك كان الناس يسافرون إلى المحلة الكبرى على الدواب غالبا، إذ لم تكن الأوتوبيسات قد وجدت أو عن طريق التاكسي، وهو نادر، وغال نسبيا على عموم الناس.

أما السفر إلى طنطا، فمن محطة «محلة روح» وهي القرية المجاورة لنا من ناحية طنطا، وبيننا وبينها نحو ٤ كيلو مترات.

وأذكر أن جدي لأمي كان تاجر فواكه، وكان تاجر جملة، وكان يشحن أقفاص البلح في قطار البضاعة، من «القرين» بالشرقية أو من «السنانية» بجوار دمياط، وكنا نذهب - أنا وأبناء خالتي ونحن صغار - إلى محطة محلة روح لنستقبل هذه الشحنة مع جدي وخالي، ونحن مبتهجون بما نأكل من فاكهة بغير حساب.

ولم يكن بالقرية «ملاعب» كمعظم قرى مصر، فكنا نلعب «الكرة الشراب» كما يسميها المصريون. ويعنون بالشراب «الجورب»، فالجوارب القديمة تؤخذ وتحشى بقطع الثياب البالية، ونلعب بها في الطرقات والشوارع، فهذه هي ملاعبنا.

وكان لنا أنشطة رياضية نمارسها وفق إمكاناتنا، كالتسابق في العدْو، وفي الوثب العالي، أو الطويل، أو التدريب على القيام والقعود لتقوية الركب.

أما السباحة: فكانت محظورة علينا، أو على معظمنا خوفا من الغرق.

مستوى النظافة في القرية:

كان مستوى النظافة العام في القرية متدنيا، لتدني مستوى المعيشة العام لدى جمهور الناس. فكانوا يأكلون الخضراوات الطازجة دون أن تغسل، ولهم مثل شائع في ذلك يقول: بطينه، ولا غسيل البرَك. وهذا صحيح، فإن الطين الطبيعي لا يضر كما يضر الغسل بماء غير نظيف، مثل ماء البرك والمستنقعات.

وكان كثير من البيوت لا يوجد فيها مرحاض، ويعتمد الرجال فيها على مراحيض المسجد. أما النساء: فيقضين حاجتهن في زريبة المنزل!

وكان المسجد فيه ميضأة يتوضأ فيها الناس، ويغسلون من مياهها وجوههم وأرجلهم إلى الكعبين، ويتمضمض فيها ويستنشق، برغم ما قد يسببه ذلك من انتشار العدوى ببعض الأمراض، ولكن مذهب الشافعي يجيز ذلك، بناء على حديث صح عنده: «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث»، وماء الميضأة يبلغ قلتين أو أكثر. فلا ينجس إلا إذا تغير بالنجاسة طعمه أو لونه أو ريحه.

والحنفية لا يجيزون ذلك، ويشترطون أن يكون الماء أكثر من ذلك بكثير حتى يجوز الوضوء من ماء توضأ منه آخرون. ولهذا شجع المذهب الحنفي استعمال الصنابير، ولذا نسبت إليهم وسميت «حنفيات»!

والحمد لله، لقد كان في مسجد المتولي - بجوار الميضأة - حنفيات، لكل حنفية كرسي يجلس عليه، وكنت لا أتوضأ إلا منها، وكنت أنفر بطبعي من استخدام الميضأة.

وكان في المسجد شيء آخر يشترك فيه الناس، وهو «المغطس» وهو حوض

عميق نحو متر ملئ بالماء يغتسل فيه الناس، وخصوصا عند صلاة الصبح، وفي الشتاء يكون كأنه عصير الثلج. وفيه آفتان:

الأولى: أن الجميع يغتسلون فيه، وقد يحمل أحدهم مرضا معديا، فينقل العدوى إلى غيره. والإسلام أقر سنة الله في العدوى، وقال: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»[1] وقال: «لا يوردن مُمْرِض على مصح»[2]. الممرض: صاحب الإبل المريضة، والمصح: صاحب الإبل الصحيحة. فعند ورود الماء للشرب، لا يجوز أن يخلط المريضة بالصحيحة، حتى لا تعديها، وبهذا يحافظ على صحة الحيوان، كما يحافظ على صحة الإنسان.

والآفة الثانية: أن الناس كانوا ينظرون بعضهم إلى بعض وهم عراة، وهذا محرم في الإسلام، فلا يجوز لأحد أن ينظر إلى عورة الآخر، ولو كان الجميع رجالا، أو نساء. ولذا كان الناس في هذه الحالة يوصي بعضهم بعضا بغض البصر، ويقولون: لعن الله الناظر والمنظور.

وأذكر أني بعد بلوغي وتعرضي للاحتلام ووجوب الغسل، استخدمت هذا المغطس مرتين أو ثلاثا، ولكن كنت أنتهز الفرصة التي يقل فيها أو ينعدم رواد المغطس، مثل وقت الضحى، ثم تعودت بعد ذلك أن أستخدم «الطشت» والإبريق في المنزل.

وكان الماء في المسجد يأتي من جوف الأرض عن طريق (طلمبة) كبيرة تدار يدويا، وهي التي تغذي الجامع، ويديرها خادم الجامع عم حجازي مراد. وقد يتطوع بعض الناس بمساعدته، وكثيرا ما كنت أفعل ذلك احتسابا وزكاة عن صحتي.

كان المسجد مفروشا بالحصير، وكانت أرضيته من الأسمنت، وليس من البلاط، وكان يغسل كل جمعة، استعدادا لصلاة الجمعة.

---

(١) رواه البخاري وأحمد عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري (٥٧٧١) وأبو داود (٣٩١١) عن أبي هريرة.

ولم يكن فيه مكان للنساء، فلم أر في قريتي امرأة دخلت المسجد للصلاة في حياتي. إلا ما كان من نساء يدخلن مسجد سيدي عبد الله بن الحارث، لزيارة القبر، ولتوفية النذر. وكان في المسجد «صندق للنذور» كما هو المعتاد في مثل هذه المساجد، وإن كانت موارده قليلة محدودة، لا تبلغ عشر معشار صندوق السيد البدوي في طنطا. وقد حمل العلماء على هذه النذور، وقالوا: لعن الله من نذر لغير الله.

شدة الشتاء على أهل القرية:

وكان الشتاء أشد على أهل القرية من الصيف. فالصيف يمكن للناس أن يتخففوا فيه، وأن يناموا والأبواب مفتحة، ويقولون: حصيرة الصيف واسعة.

ولكن الشتاء يحتاج إلى تدفئة، وثياب ثقيلة، وأغطية ثقيلة، وكثيرا ما تمطر السماء، فتهدد سقوفهم بخرير الماء، وتمتلئ الطرقات والحارات والأزقة بالماء، ثم تصبح طينا ووحلا، لا يستطيع المرء أن يمشي فيه إلا بصعوبة، وحذر بالغ، أن تنزلق رجلاه فيسقط في الطين. ويصبح الذهاب إلى المسجد والكتاب والمدرسة والسوق صعبا للغاية، وكثيرا ما يحبس المطر الناس في منازلهم.

كانت البيوت في القرية قليلة الأدوات، إذ لم يكن في البيت شيء اسمه المطبخ. مطبخنا هو «الكانون» وهو أثفيّتان أو حجران أو جانبان صغيران مبنيان توضع فوقه أواني الطبخ (الحِلل)، وتوقد تحتها النار من الحطب ونحوه.

وكانت الأواني من النحاس الأحمر الذي يبيض بالقصدير، ويحتاج إلى إعادة تبييض بين الحين والحين، ويقوم بهذا حرفيون يسمونهم: «المبيضاتية»، يمر على الناس وينادي: «أبيَّض النحاس».

وكانت أهم أدوات البيت من النحاس: حلل الطهي كلها - كبيرة ومتوسطة وصغيرة - من النحاس، و«المقلى» الذي يقلى فيه البيض والسمك والباذنجان

ونحوها من النحاس، و«المَصْفى» من النحاس. و«الدست» الذي يغلى فيه الماء من النحاس، و«الصواني» التي يطهى فيها الطعام في الفرن من النحاس، وصينية القلل من النحاس، وطشت الحمام من النحاس، وحنفية الغسيل من النحاس. وصينية العشاء الكبيرة من النحاس. و«المنقد» أو «الموقد» الذي يستخدم للتدفئة في الشتاء من النحاس.

ولهذا كان أهم ما تدخل به العروس حين تزف إلى زوجها هو «النحاس»، فلم يكن الناس قد عرفوا «الألمنيوم» أو الصلب الذي لا يصدأ (الإستانلس ستيل) ونحوها.

كما كان «الفخار» أيضا له دور كبير في أدوات المنزل، وخصوصا فيما يدخل الفرن من الأطعمة مثل السمك ونحوه.

كما أن الفخار لا يقوم غيره مقامه في حفظ اللبن، بعد تعقيمه بطريقة عرفها الناس وتوارثوها عن طريق التطهير بالنار.

مصيبة الموت:

ومن أهم الأحداث المؤثرة في القرية: «مصيبة الموت» كما سماها القرآن.

فقد رأيت الموت يحدث من الأسى والحزن في الحياة المصرية ما لا يحدث في البلدان الأخرى، مثل أهل الخليج، الذي يمر الموت عليهم دون أن يحدث جراحا عميقة في القلوب والمشاعر.

ويبدو أن المصريين ورثوا هذا من قديم، من عهود الفراعنة، فهم يستقبلون الموت بالبكاء والعويل والصراخ، وأكثر ما يكون ذلك من النساء.

وكثيرا ما ترتكب المخالفات الشرعية التي برئ منها النبي صلى الله عليه وسلم «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[1].

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٤) عن ابن مسعود.

وكثيرا ما يستأجرون النائحات المتخصصات في تهييج مشاعر الحزن، واستدرار الدموع، والتأثير على عواطف النساء، وبخاصة أن كل إنسان في هذه الحالة يبكي ميته، ويذكر مصيبته، كما قال الشاعر:

وقـالوا: أتبكي كـل قـــبـــر رأيتـــه

لقـــبـــر ثوى بين اللوى والدكـــادك

فــقلت لهم: إن الأسى يبـــعث الأسى

دعـــوني فـــهـــذا كـله قـــبـــر مـــالـك

وقد اعتاد أهل القرية أن ينصبوا العزاء ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك: أيام «الخميس» الأول والثاني والثالث، ثم الخميس (بعد أربعين يوما).

ثم هناك الذكرى السنوية.

وهناك زيارة الميت كل يوم خميس، وعمل «الرحمة» له، والرحمة هذه قُرَص تخبز لتوزع على الفقراء والمساكين في المقابر.

ثم هناك بيات في المقبرة ليلة عيد الفطر، وليلة عيد الأضحى. وكانت عمتي تذهب إلى المقبرة ليلة العيد من أجل زوجها، وكذلك جدتي لأمي، وتقول: أتركه وحده ليلة العيد؟! تعني جدي رحمه الله.

وهذا ما جعل المقابر ليلة العيد كأنها سوق تباع فيها الحلوى وألعاب الأطفال والمأكولات وغيرها، وكنا ونحن أطفال، نفرح بهذه الليلة وربما كانت عندنا أهم من يوم العيد نفسه.

وقد اعتاد النساء أن يلبسن الثياب السود على موتاهم الأقربين، مثل الأب والابن والأخ والزوج ونحوهم مدة سنة كاملة. وهو مخالف للشرع الشريف، الذي يحرم على كل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا.

وكان بعض النساء إذا مات زوجها ترمل بعده ولا تتزوج، وبعضهن لا يتزوج إلا بعد سنين طويلة، على خلاف ما كان عليه نساء الصحابة، فقد كانت المرأة يموت زوجها شهيدا في سبيل الله، فتتزوج بعد انقضاء عدتها، ولا تجد في ذلك حرجا. كما تزوجت أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب بعد استشهاده من أبي بكر، ثم بعد وفاة أبي بكر تزوجت من علي، وأنجبت من كل منهم رضي الله عنها وعنهم جميعا.

وطالما أنكر علماء القرية على العوام هذه العادات التي اعتادوها في الموت، وجلها موروث من الجاهلية الفرعونية. وهي مخالفة لأحكام الشرع وآدابه، وكلما شاع التعليم، وانتشر الوعي تغيرت هذه العادات بالتدريج.

الفتوات:

ومن الظواهر الاجتماعية التي تذكر في القرية: ظاهرة «الفتوات»، ولكنها ليست مثل «فتوات القاهرة» القديمة، التي تحدث عنهم نجيب محفوظ في رواياته المعروفة، إنما هم رجال لهم نفوذ معنوي يرهبهم الناس، ويظهرون لهم الاحترام، لما لهم من أتباع من صغار المجرمين، يُعَدُّون آلات في أيديهم يستخدمونهم عند اللزوم، لتنفيذ ما يبتغون، والانتقام ممن يريدون.

وهؤلاء الصغار محسوبون عليهم، ويعيشون في كنفهم، فهم الذين يتحملون عنهم مسئولية أي فعل مخالف للقانون، والمدبرون الأصليون يخرجون منه كما تخرج الشعرة من العجين.

ومن هؤلاء الفتوات من كانت هيبته بما يغدق من أموال على من حوله من هؤلاء المجرمين الصغار، وإن لم يستخدمهم في الشرور والجرائم، إنما يتعزز بهم، ويتقوَّى بالتفافهم حوله، حيثما ذهب أو جاء، وحيثما أظهروا له السمع والطاعة والامتثال لما يأمر به، فإشارته حكم، وطاعته غُنْم.

(د) الجانب الثقافي في القرية

كان الجانب الثقافي في القرية ضعيفا، إذ لم يكن في القرية من أدوات الثقافة غير المدرسة الإلزامية والكتاتيب الأربعة، والمساجد.

لم تكن هناك مكتبة في القرية، وكان المتعلمون فيها أقلية، وأكثرهم من خريجي الكتاتيب، وكانت الكتب التي يقرؤها الناس إما أنها كتب وعظية في الرقائق يبيعها كتبيون متجولون، وإما من كتب القصص الشعبي مثل قصة «الزير سالم» وهو المهلهل بن ربيعة عن مقتل شقيقه كليب وحربه الطويلة مع قبيلة بكر. . وقصة «أبي زيد الهلالي» وسيرة بني هلال، ومنها قصة مرعي ويحيى ويونس أبناء أخت أبي زيد، وقصة الناعسة وغيرها. وقصص محلية صغيرة مثل قصة «سعد اليتيم» وقصة «أدهم الشرقاوي» الذي قاوم الحكومة ليأخذ بثأر عمه.

وكان بعض الناس يقتني قصة «عنترة بن شداد العبسي»، وقصة «سيف بن ذي يزن» الملك اليمني.

وكانت أشهر هذه القصص: قصة بني هلال وأبي زيد، وكان الناس يحفظون أحداثها ويتناشد بعضهم أشعارها، وهي مؤلفة بالعامية، وممزوجة بالدين في صورة بسملة وحمدلة وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في كل مناسبة.

وكانت المهرجانات الثقافية في القرية حين يستقدمون «الشاعر» ليحكي قصة أبي زيد على «الربَّابَة» ويلتف جل الناس في القرية حوله، ليستمعوا إلى القصة في إعجاب وتأثر وتفاعل مع الأحداث. وكان الشاعر يقضي عدة ليال في حكاية القصة، ويقف في العادة عند مقطع مهم، كأن يترك البطل أسيرا أو نحو ذلك من المآزق، على نحو ما يفعل الآن مخرجو المسلسلات الدرامية، ويبيت الناس مشغولين: كيف يخرج البطل من مأزقه، حتى يأتي الحل في الليلة التالية.

ولم تكن في القرية سينما، ولا يعرف الناس التمثيل، إلا من خلال عمل فني بسيط مكرر يقام في «الأعراس» اسمه «الخيال»، وقوامه رجل «كوميدي» من أهل

القرية اسمه «زهران» ومعه مساعدان يقدمون قصة اجتماعية مضحكة للناس، تكاد تتكرر في كل عرس.

وكانت جريدة «الأهرام» هي الصحيفة الوحيدة المعروفة في ذلك الوقت، ولم يكن يقرؤها إلا القليل جدا من أهل القرية، معظمهم من «الأعيان» القادرين على شرائها يوميا بنصف قرش أو «قرش تعريفة».

وحين ظهر الراديو في القرية أحدث ضجة في حياة الناس، ولم يكن عامة الناس يقتنونه، فقد كان ثمنه أكبر من طاقتهم، ولكن كان في القرية مقهى يسمونه «القهوة الكبيرة» كان مستواها راقيا بالنسبة إلى غيرها من «القهاوي»؛ فهذه كان فيها «راديو» أو مذياع كما سماه «المجمع اللغوي» أو مجمع فؤاد الأول للغة العربية، كما كان يسمى في ذلك الوقت.

ولكن الناس لم يستخدموا كلمة «المذياع» وظلوا يستخدمون كلمة «الراديو»، كما ظلوا يستخدمون كلمة «التليفون» ولم يستعملوا كلمة «المسرة» التي وضعها له المجمع.

كان أبرز ما يهم الناس من الراديو «نشرة الأخبار» و سماع الشيخ محمد رفعت قارئ القرآن المبدع الذي كان له عشاق يترقبونه، وقل أن يجود الزمان بمثله.

كان معظم المثقفين في القرية من خريجي الأزهر، وقليل منهم من دار العلوم، ومن دار المعلمين. فقد كان الأزهر هو جامعة الفقراء، وأبناء الشعب الذين لا يملكون دفع رسوم التعليم العام، الذي كان يكلف من يدخله كثيرا. أما الأزهر فكان التعليم فيه مجانا، بل ربما كان هناك أوقاف وقفت على طلبته أو بعضهم تعينهم على معيشتهم.

وكان خريجو الجامعة في الغالب مقصورين على أبناء الأعيان من الخضاروة أو الحوايرة، وقل منهم من كان يجتاز كل المراحل، حتى ينهي الجامعة.

أما غير الأعيان: فكانوا بعيدين عن التعليم العام لكلفته، إلا قليلا جدا منهم،

ومن هؤلاء: قريب لنا كان تاجرا، وكان متزوجا من ابنة عمتي، وأصر على أن يعلم ابنه الأكبر في مدارس الحكومة، على رغم ما يكلفه ذلك.

كان أعظم مصدر للثقافة في القرية هو المسجد، ففيه تلقى خطبة الجمعة كل أسبوع وتلقى بعض الدروس، كما تنشط فيه الحركة الثقافية خلال شهر رمضان، فهناك درس بعد صلاة العصر من كل يوم، ودرس بين المغرب والعشاء وقبل صلاة التراويح.

ولكن قيمـ ... د وروحه وجوهره إنما تتمثل في «شيخ المسجد» أو إمامه وخطيبه ومدر ... د كان حظ مسجدنا القريب من بيتنا ـ وهو «مسجد المتولي» وهو جامع كبيـ ... ـ سيئا في مطلع صباي، حيث كان خطيبه الدائم والمتطوع الشيخ أحمد مـ ... كبير، ثم ابنه الشيخ أحمد مولانا الصغير، يخطبان فيه من ديوان قديم مسـ ... خطبا تقليدية معروفة، موزعة على أشهر العام الهجرية، وتكاد تتشابه ... المواعظ والتذكير بالموت والقبر والآخرة والجنة والنار، والترغيب في عمل الصالحات، والترهيب من فعل السيئات. وليس للخطبة موضوع محدد تعالجه.

الفنون في القرية:

كان للقرية فنونها الخاصة بها، الملونة بلونها، المعبرة عن طبيعتها وبساطتها، وآلامها وآمالها، هناك فن الغناء، غناء الفرح والطرب، وغناء الحزن والألم.

أما غناء الفرح والسرور، فيتجلى ويبرز في مناسبات شتى، أهمها «الأعراس» حتى إن المصريين يعبرون عن «الأعراس» بكلمة «الأفراح». ولأهل القرية أغان وأهازيج جميلة بلغتهم العامية يعبرون بها عن فرحتهم، بعضها مما يشيع في بلدان مصر كلها تقريبا، مثل: يا عروستنا يا لوز مقشر تعالي.

وبعضها خاص بأهل القرية، حتى سمعت أن إحدى القرويات كانت تؤلف

أغاني معينة، يُتغنى بها في المناسبات، مع أنها أمية، وكانت عندها الحاسة الفنية أو الشعرية، ربما لو تعلمت لكانت شاعرة مسموعة.

وهناك أغان تقال في الاحتفال بالمولود عند ولادته، وخصوصا عند الاحتفال بمرور أسبوع عليه، ويسميه المصريون «السبوع» ويوزعون الحلوى، وتزغرد النساء، ويدقون للطفل «الهون» ويضعونه في «الغربال» ويقولون له ما هو مشهور اليوم في الأغاني المذاعة: «برجالاتك، برجالاتك، يا سلام سلم على شرباتك»، إلى آخر ما يقال. وهذا الاحتفال له أصل شرعي، وهو «العقيقة» التي تذبح للمولود في اليوم السابع من ولادته.

وهناك الاحتفال بختان الذكور، وهذا أيضا يظلون يحتفلون به قبل حدوث الحدث بنحو أسبوع. ويوم الختان تذبح ذبيحة أو يطهى الطعام وتوزع الحلوى، ولهم في ذلك أغنيات معروفة أيضا. وأعتقد أنهم ينطلقون في الاحتفال بهذا الختان بوصفه من «شعائر الإسلام». ولهذا يحتفلون بختان الذكور، ولا يحتفلون بختان الإناث، ولا سيما أنه يقوم على الستر.

وكان الغناء شائعا في القرية في ألوان شتى:

بين بائعي الفاكهة والخضراوات وأمثالهم، حيث ينادون على سلعهم بأصوات منغمة.

وكذلك بائع العرقسوس يغني ويضرب بالصاجات.

وهناك البنَّاءون والفَعَلَة، يباشرون أعمالهم وهم ينشدون الأهازيج التي تهون عليهم أعمالهم، على نحو ما كان يفعله الصحابة، وهم يبنون المسجد النبوي، ويقولون: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة.

وهناك غناء «المسحراتي» في شهر رمضان، حيث لكل ناحية مسحراتي خاص بها، وهو يمر بعد منتصف الليل على البيوت، وينادي على رب البيت بالألحان، وقد يسمي أفراد الأسرة فردا فردا، أو أهمهم. وأذكر مسحراتي حارتنا وهو يقول:

يا عم أحمد قم اتسحر، لمّ أولادك واستغفر. كلوا واشربوا هناكم الله. وقد وجد في القرية مسحراتية فنانون، يؤلفون الأناشيد والأغاني ثم يغنونها بألحانهم.

وهناك فن «المواويل» وهو فن يغني فيه الإنسان لنفسه، أو لأصحابه من حوله. ويبدأ غالبا بمناجاة الليل: يا ليل، يا عيني، يا ليلي..

ومن المواويل ما يتعلق بالعشق والغرام، وكثيرا ما يكون مطلعها: قلبي عشق بنت بيضاء واسمها ليلى. أو سعدى، أو لبنى... إلخ.

وبعض المواويل يتضمن الشكوى من الحبيب، أو سفره الطويل، أو فراقه لأي سبب كان. ومما أذكره هنا موال مؤثر كان يغنيه بعض الناس بتأثر عميق وفيه يقول: دق الهوى الباب، أنا قلت حبيبي جاني. ونزلت فرحان وخدت الباب في أحضاني، لما لقيت الهوا والباب كذابين، رجعت أعيّط وأعيد اللي مضى تاني!

وبعض المواويل تتضمن الشكوى من تغير الأصحاب، وتلونهم، وسوء معاملتهم. ومنها هذا الموال:

بالتبر ما بعتكم بالتبن بعتوني

في البحر ما فتّكم ع البر فتوني

أنا كنت شمعة في وسط البيت طفيتوني

أنا كنت وردة على الخدين قطفتوني

ومن هذه المواويل ما يشكو من تقلب الزمان، وتغير الأحوال على الناس، مثل هذا الموال:

يا تاجر الود هو الود شجره قلّ

ولا سواقي الود جفت وماءها اختل

أيام بنشرب عسل وايام بنشرب خل

وايام بنلبس حرير وايام بنلبس فل

وايام ننام على الفراش وايام ننام ع التل

وايام بتيجي على أولاد الملوك تنذل

وكثيرا ما يغني الناس لأنفسهم، يبكون حظهم العاثر، وظروفهم البائسة. وقد حكى الشيخ الغزالي رحمه الله ما سمعه من غناء «عمال التراحيل» الذي يحملون من قراهم في «اللوريات» كما تنقل الأغنام والمواشي، وينقلون إلى قرى أخرى يعملون في مزارعها لجني القطن أو نحو ذلك، وهم يعيشون فيما يشبه الحظائر، ويأكلون «المش» بدوده، معتقدين أن «دود المش منه فيه» جاهلين أن سببه الذباب. ذكر الشيخ الغزالي من غنائهم:

يا ليل! يا ليل! يا ليل

غريب أبيِّت فين؟

حيران! ما بارتاح يوم

والراحة تيجي منين؟

يا ليل! يا ليل! يا ليل

غريب أبيِّت فين؟

يا ما أرخص الإنسان

يتهان ورا قرشين

يا ليل! يا ليل! يا ليل

غريب أبيِّت فين؟

وامي وأبوي الاثنين

يبكوا بدمع العين

يا ليل! يا ليل! يا ليل

غريب أبيت فين؟

ومما أذكره ما سمعته من إحدى قريباتي، وقد تعثَّر حظها في الزواج، وتأخرت عمن هو أقل منها، ثم لما تزوجت لم يلبث زوجها أن توفي - وهو شاب - فكانت تندب حظها، وتنشد لنفسها:

يا كاتب الخيبة اكتب وسمّعني

يا هل ترى الخيبة: ما لهاش حدود يعني!!

الغوازي:

ومن الفنون الدخيلة على القرية: فن «الرقص الشرقي» الذي كان يفد إلى القرية ما بين الحين والحين في صورة «الغوازي» جمع «غزية»، وإن كان الصواب أن يكون مفردها «غازية»، ولكن كلمة «غزية» أخف على ألسنة العوام. كانت الغزية ترقص وتتلوى - وهي كاسية عارية - كما تتلوى الأفعى، وتنفث سمها كالأفعى. وهي بالفعل أشبه شيء بالأفعى. ناعم مسها، قاتل سمها!

هذا الاسم (الغوازي) له دلالته، فهنَّ «يغزون» القرية الهادئة الساكنة بهذا الفن الخليع، وقد شهدتهن في الصبا يقمن بحركات مثيرة للغريزة الجنسية، مصحوبة بكلمات مكشوفة أشد أثرا، يؤدينها في صورة أغان خفيفة، وبعض الموسرين ينثرون النقود بين أيديهن، ويتنافسون في ذلك، ليخصصنهم بالرقص أمامهم. وهن يمكثن في القرية بضعة أيام في الغالب، مع من يصحبهن من بعض الرجال، الذين يعملون معهن، ثم يرتحلن عن القرية، وقد خلفن فيها من بذور الفساد ما خلفن، ويحمد الرجال الصالحون ربهم على ارتحالهن، وينشد من ينشد:

إذا ذهب الحمار بأم عمرو

فلا رجعت ولا رجع الحمار!

(هـ) الجانب السياسي في القرية

لم يكن الناس في قريتنا في عهد صباي مشغولين بالسياسة، ولا مهتمين بشئونها، وذلك لسببين:

الأول: انتشار الأمية بين الناس، والاهتمام بالسياسة يحتاج إلى قدر من الوعي، ومتابعة القضايا العامة، وقراءة الصحف ونحو ذلك. ولم يكن هذا ميسورا لأهل القرية، حتى لم يكن يقرأ صحيفة الأهرام إلا أناس يعدون على الأصابع.

والسبب الثاني: أن الناس كانوا مشغولين بلقمة العيش، ومعركة الخبز، وهي معركة مريرة وطويلة، قوامها المعاناة والكدح من الفجر حتى غروب الشمس، حتى قالوا في أمثالهم: الدنيا أشغال شاقة آخرها الإعدام!

والناس إنما يفكرون في السياسة حينما يحسون بشيء من الراحة، وقدر من الفراغ، ليخرجوا من شأنهم الخاص إلى الشأن العام.

وكان أمر المُلك يجري حسب نظام الوراثة، وحسب رغبات الإنجليز الذين احتلوا البلاد منذ أوائل الثمانينيات من القرن التاسع عشر، ولا دخل للشعب في اختيار الحاكم ولا عزله.

وقد تغيرت ألقاب الحاكمين لمصر من خديو إلى سلطان، إلى ملك، والناس لا شأن لهم بذلك.

إنما يشاهدون أثر ذلك في صورة الحاكم، وما يكتب تحت صورته: خديو أو سلطان أو ملك. وخصوصا في العملة، فقد شهدت عملة باسم السلطان حسين، ثم أخرى باسم الملك فؤاد الأول، ثم أخرى باسم الملك فاروق الأول. وكان أول ما يظهر تغير العملة في «المليم» أصغر العملات، وأكثرها شيوعا في ذلك الزمن.

وكان الناس يذكرون عرابي وثورة عرابي ضد الخديو، أو كما يسمونها «هوجة عرابي».

كما يذكر بعضهم بطش الإنجليز وعدوانهم الوحشي على المصريين في قرية «دنشواي» ووقوف «مصطفى كامل» باشا ضد الإنجليز. وكان بعضهم يغني موالا في تمجيد مصطفى كامل. الذي مات في عنفوان شبابه.

كما كان بعضهم يذكر «محمد فريد» الذي خلف مصطفى كامل، في رئاسة حزبه، ومقاومة الاحتلال الإنجليزي، والذي نفي خارج مصر، ومات في منفاه رحمه الله.

ومما أذكره وأنا صبي: أنه كلما مرت طائرة فوق القرية، أسرع الصبيان وتجمعنا نهتف بحرارة: يا عزيز يا عزيز «كُبَّة» تأخذ الإنجليز! وكأنما الطائرة رمز إلى الاستعمار الغربي والإنجليزي منه خاصة.

ومما أذكره: أن المصريين رحبوا بالملك فاروق أول جلوسه على العرش، وأطلقوا عليه لقب «الملك الصالح». وكنا نهتف ونحن تلاميذ بالمدرسة الإلزامية: عاش الملك الصالح. ورد الناس هذا الصلاح لقربه من الشيخ المراغي شيخ الجامع الأزهر.

وأذكر أن الملك مر على صفط مرة في طريقه إلى المحلة الكبرى لافتتاحه أحد المساجد بها، فأخذونا نحن تلاميذ المدرسة، واصطففنا على الطريق، وكذلك كل القرى قبلنا وبعدنا، لنحيي ملك البلاد، ونهتف بحياة الملك الصالح. ولكن بطانة السوء تسللت إليه بعد ذلك، كما تسلل الشياطين، وجروه إلى دوامة الفساد. والمعصوم من عصمه الله.

وكنا نسمع من الناس ذكريات عن ثورة سنة ١٩١٩ وعن سعد باشا زغلول ومقاومته الإنجليز المستعمرين.

ونسمع منهم عن الحرب العالمية الأولى وما أصاب كثيرا من التجار فيها من خسائر اقتصادية وتجارية نقلت هؤلاء من اليسر إلى العسر، ومن الغنى إلى الفقر. وينشدون في ذلك:

ما بين طرفة عين وانتباهتها

يغير الله من حال إلى حال

أما الانتماء إلى الأحزاب، فكان الأهالي هنا تبعا لآل خضر، الذين يرشحون ناسا منهم لكل دورة انتخابية، وهم قد قسموا أنفسهم بحيث يكون منهم نائب في كل عهد.

وقد كانوا في فترة ما مع حزب الوفد، فلما انفصل السعديون عنه، وشكلوا الحكومة، وأجروا الانتخابات، وعرف أنهم سيفوزون بالأغلبية القادمة بالحق أو الباطل، انضموا إليهم، ورشحوا على قائمتهم.

أما أهالي البلدة، فكانت عواطفهم مع النحاس باشا زعيم حزب الوفد، وذلك لأمرين:

الأول: أنه ابن المنطقة، ابن الغربية، ابن سمنود القريبة من قريتنا.

والثاني: أنه يعمل لمصلحة الفقراء، وكثيرا ما سمعت أهل القرية: نحن نحب النحاس لأنه رفع عنا «العتبة» و «الشرقي».

ويقصدون بالـ «عتبة» تلك الضريبة العقارية، التي كانت مفروضة على الناس جميعا: أن يدفع كل شخص مبلغا عن الدار التي يملكها ويسكنها هو وعياله، مهما تكن حالته وعسره، وكان هذه عبئا كبيرا على المواطنين العاديين، يحملون همه. وكيف يدبر الرجل الفقير، والمرأة الأرملة، والعامل المتبطل، وأمثالهم الذين لم يكونوا يجدون القوت إلا بشق الأنفس، كيف يدبر أحدهم مبلغ «العتبة» الذي كان يشكل هما ثقيلا عليهم؟! فلما ألغته حكومة النحاس، تنفس الشعب الصعداء، ودعا للنحاس بخير.

وأما «الشرقي» فيقصد به فرع نهر النيل الشرقي المعروف بـ «فرع دمياط». ولم يكن للنيل وفرعيه «كورنيش» يحميه من طغيان الفيضان إذا علا في فصل الصيف من كل عام، وكان في كثير من الأعوام يعلو ويعلو حتى يهدد القرى المجاورة بالغرق. ولم تجد الحكومات وسيلة لمقاومة هذا الفيضان العاتي إلا «بتسخير» الفلاحين المساكين، يساقون من قراهم سوقا تحت سياط التهديد

والقوة، ليعملوا مجانا، ويتركوا أرضهم وأعمالهم، ويغربوا عن أهليهم وبلدانهم في حملة مكثفة، لوضع الحجارة وغيرها عند الشواطئ، لحماية البلاد القريبة من خطر الفيضان.

فكان من الخير الذي قدمته حكومة الوفد للشعب إلغاء «هذه السخرة المذلة» للناس. وقد رأيت بعيني الشبان من أبناء الفلاحين يخطفون خطفا من بيوتهم أو حقولهم، ويجرون جرا برغم أنوفهم، كما كانوا يجندون قهرا أيام السلطة في عهد الإنجليز. وقد أخذ ابن عم لي مرة في هذه السخرة.

وفيما عدا ذلك، فلم تكن لدى الناس ثقة بالحكومة. ومن الأمثال السائرة عندهم: «يوم الحكومة بسنة»، وهو تعبير عن بطء الروتين الإداري، والبيروقراطية الحكومية المتوارثة.

ومن الأمثال المعبرة عن عدم الثقة بالحكومة قولهم: إذا كان ذراعك عسكري (يعني شرطي) اقطعه. فهو لا يعتقد أن هذا العسكري أو الشرطي لحمايته وخدمته، بل هو لقهره وإذلاله.

ويأس الناس من الدولة ومؤسساتها هو الأساس، فهم لا يهمهم تغيير الحكومات من حزب إلى آخر، ومن حزب الأغلبية لأحزاب الأقلية. وقد عبروا عن هذا بقولهم: اللي يتزوج أمي أقول له يا عمي!

وأذكر من الأوقات التي اهتم الناس فيها بالسياسة: أيام الحرب العالمية الثانية، التي أعلن فيها «هتلر» الحرب على الحلفاء، وعلى رأسهم بريطانيا، التي احتلت مصر والسودان والعراق وفلسطين وغيرها من بلاد المسلمين في آسيا وإفريقيا. والتي هزمت دولة الخلافة في الحرب العالمية الأولى.

كان أهل القرية عموما ـ كمعظم أهل مصر ـ في تلك الفترة، يرحبون بهتلر، ويرونه سيفا سله القدر الأعلى على رقبة بريطانيا، لينتقم منها على طغيانها وجرائمها في حق المسلمين.

وكان الناس في شأن هتلر قسمين :

قسم يقول: هو مبعوث العناية الإلهية للانتقام من المستعمرين الأوربيين من الإنجليز والفرنسيين وغيرهم من الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد . ومن الطريف أن بعض الناس في القرية ، كانوا يقولون : إنه مسلم يتخفى وراء اسم هتلر ، بل قال بعضهم : إن اسمه الحاج محمد هتلر !!

والقسم الآخر: يقول ما قاله أحد الحكماء قديما : الظالم سيف الله في أرضه ينتقم به ، ثم ينتقم منه . ويردد قول الشاعر :

وما من يد إلا يد الله فوقها

ولا ظالم إلا سيبلى بظالم!

على أي حال كان هتلر عقوبة إلهية للحلفاء ، ومن فضل الله على المستضعفين أن يسلط الظالمين بعضهم على بعض ، حتى لا ينفرد فريق منهم بالفتك بالضعفاء دون أن يقول أحد لهم : كفوا أيديكم .

ولهذا كان من أدعية السلف : اللهم اشغل الظالمين بالظالمين ، وأخرجنا من بينهم سالمين .

ومن أمثال العرب : إذا اصطلح الفأر والهرة : خرب دكان البقال .

وقالوا كذلك : إذا اختلف اللصان : ظهر المسروق .

فكان اختلاف اللصوص على الغنيمة ، واشتغال الظالمين بعضهم ببعض رحمة من الله تعالى بالضعفاء الذين لا يملكون من أسباب القوة ما يقاومون به المستكبرين في الأرض ، الذي قالوا ما قال قوم عاد قديما : من أشد منا قوة؟!

وهذا ما شهدناه بأعيننا أيام صراع القطبين الدوليين : أمريكا والاتحاد السوفيتي وكيف كان تنازعهما نعمة على الشعوب المستضعفة وفرصة لها . وكيف أصبحت الشعوب الضعيفة اليوم فريسة لأنياب القوة العظمى الوحيدة المنفردة بالهيمنة والقوة في العالم؟

على كل حال، كان أهل قريتنا بقلوبهم ومشاعرهم مع الألمان، ومع هتلر، ما عدا واحدا من أهل القرية، كان ضد أهل القرية، وكان مع الإنجليز بصراحة، ويرى أن الإنجليز هم المنتصرون في النهاية، وهو أحد تجار القرية، واسمه الحاج عبد القادر يحيى، وكان بيننا وبينه قرابة من جهة الأم، فقد كانت جدته قرضاوية. والعجيب أن الأيام قد صدقت ظنه وانتصر الإنجليز في النهاية، برغم تقدم «ثعلب الصحراء» روميل في أول الأمر، وترحيب الجماهير المصرية به، وقول بعضهم: إلى الأمام يا «روميل»!

وكنا نسمع في بعض الأحيان عن اليهود وأطماعهم في فلسطين، ولكن لم يكن الحديث عنها واضحا، ولا مؤثرا، ولا يشكل الأمر إحساسا بالخطر، وخصوصا بعد سقوط الخلافة العثمانية، وتفرق الأقطار التي كانت تابعة لها، وظهور النزعة الإقليمية التي تعتز بالوطن والوطنية، وتتغنى بهما.

وكانوا في المدرسة يحفظوننا أناشيد تعلق قلوبنا بحب الوطن الصغير (مصر) والفناء فيه، وبذل النفس والنفيس في سبيله، وإغفال الوطن العربي والإسلامي نهائيا.

وقد كنا في السنوات الأولى في المدرسة نحفظ النشيد الذي يقول:

بـــلادي، بـــلادي، فـــــداك دمــــي
وهبت حـــيــــاتي فـــدا فـــاسلمي

غـــــــرامك أول مــا فـي الــفـــــؤاد
ونجـــــواك آخــــر مــــا في فـــمي

ســأهتف باســمك مــا قــد حــيـيت:
تعـــــيش بلادي ويحـــــيـــــا الوطن

ثم غُيِّر هذا النشيد أيام الحرب العالمية إلى نشيد آخر يقول:

أمـــامـــا، أمـــامـــا، جنود الـفـــدا

وســـيـــروا إلى النصـــر تحت العلم

إلى عـــــزة الملك رغم العــــدا

ولا ترتضـــوا غـــيـــر عـــالي القـــمم

وفي هذا النشيد:

ســـيـــخـــفق قلبي ويشـــدو فـمي

بحـــبك يا مـــصـــر طـول الـزمن

وإن بُحَّ صـــوتي، فـــهـــذا دمي

يخط على الأرض: يحـــيـــا الوطن

وظاهر هذه الأناشيد أنها تهدف إلى تعبئة مشاعر الناشئة نحو الوطن والوطنية، لتكون بديلا عن مشاعر الوحدة الإسلامية، والأخوة الإسلامية، التي كانت مسيطرة على الناس أيام الخلافة الإسلامية، التي كانت تجمع أوطان الإسلام في وطن واحد، أو دار واحدة هي «دار الإسلام» كما يعبر عنها الفقهاء. وكان كل وطن منها، وكل شعب فيها، ينظر إلى نفسه على أنه جزء من كل، وعضو في جسد واحد، إذا اشتكى منه عضو اشتكى كله. فكل هذه الشعوب جزء من أمة واحدة هي أمة الإسلام.

وحب الوطن عاطفة فطرية، ولكن لا يجوز الغلو فيها على حساب عواطف أخرى، وقيم أخرى، مثل قيمة الأخوة والوحدة والعقيدة، وقد قال شوقي:

وطـني لـو شـــــغـلت بـالخلد عـنه

نازعـــتني إليـــه بـالخلد نفـــسي!

بل قال أكثر من ذلك:

وجــــه الكنانة ليس يغــــضب ربَّكم

أن تجــعلوه كــوجــهــه مــعــبــودا

فكيف يرضى مسلم أن يجعل وجه الوطن معبودا كوجه الله الذي لا يجوز أن توجه العبادة إلا إليه؟

هذا على الرغم من نزعة شوقي الإسلامية الصريحة.

وقد علق شيخنا الشيخ محمد الغزالي رحمه الله على ذلك البيت الذي ذكرناه في نشيد «بلادي بلادي» وهو الذي يقول:

غــــرامك أول مــــا في الفــــؤاد

ونجــــواك آخــــر مــــا في فــــمي

فقال: فماذا بقي لله في حياة هذا القائل؟!

كان التركيز على الوطن والوطنية، دون اهتمام بأي وحدة إسلامية ولا عربية، وإن كان الناس في القرية يتحدثون عن «برّ الحجاز» و «برّ الشام» و «بر العراق» و«بر المغرب» و «بر السودان» وغيرها.. ونرى الناس مرتبطين بهذه «البرور» ويحسون بأن هذه الأوطان منهم، وهم منها. وهذه بقية من آثار الأخوة الإسلامية ودلائلها.

يؤكدها كل جمعة الخطباء على منابرهم، الذين يدعون الله باستمرار: أن يعز الإسلام والمسلمين، وأن ينصر أمة محمد، ويصلح أمة محمد في كل مكان.

(٢)
صورة عن أسرتنا

صورة عن الأسرة

كانت أسرتنا «القرضاوية» أسرة صغيرة في عددها، حيث تتكون جميعها من ذرية رجل واحد هو جدي الذي اشتهر باسم: «الحاج علي القرضاوي». وقد كان من الحجاج القليلين في القرية، حيث كان الحج في هذا الزمن مكلفا من ناحية، ومحفوفا بالمخاطر من ناحية أخرى. ويبدو أن كسبه من تجارته مكنه من الحج في ذلك الزمان.

وربما دل هذا على أن الأسرة مهاجرة من بلدة أخرى. وقد سمعت من عمي أحمد يقول: يقال إن أصولنا من بلدة تسمى «القرضة» .. وننسب إليها فيقال: القرَضاوي - بفتح الراء - وليس كما ينطقه بعض إخواننا من أهل الشام بسكون الراء (القرْضاوي).

وقد رأيت هذه القرية (القرضة) في رحلاتي الدعوية، وهي تابعة لمركز «كفر الشيخ». كانت من أعمال الغربية قديما، ثم انفصلت «كفر الشيخ» وغدت محافظة مستقلة.

وعائلة «القرضاوي» عائلة منتشرة في قرى شتى من مصر، بل وجدت قرضاويين في بني غازي في ليبيا، ولا أدري هل أصولهم مصرية أو لا؟

وأشهر فروع القرضاوية في قرية «سنهور المدينة» مركز دسوق، وهي بلدة لم أسعد بزيارتها، على كثرة زياراتي لقرى وبلاد كثيرة في مصر. ويُعَدُّ آل القرضاوي

فيها من أعيان البلدة، وفيهم العُمدية، ومنهم أعضاء بمجلس النواب، وموظفون كبار، وأناس ذوو شأن.

وقد راسلني بعض أبناء هذه العائلة العريقة من قديم، منذ بدأ اسمي يظهر، وقال: إن جذور القرضاوية ترجع إلى قرية «القرضة». ويقال: إن أصلهم من عائلة عون، وهي عائلة شريفة حسينية الأصل والنسب. فالله أعلم.

المهم هنا: أن أصل عائلتنا في صفط تراب هو جدي علي أو الحاج علي، وقد كان له أخ اسمه محمد، ولكنه هاجر من البلدة، ويقال: إنه استوطن مدينة «كفر الزيات»، ولم يبق من نسله إلا امرأة كان اسمها فاطمة، حاولت أن أعرف عنها شيئا فلم أهتد إليه، ويبدو أنها لم تنجب.

وكان لجدي أختان تزوجتا في القرية، إحداهما تزوجت من آل البحيري، وكان من شيوخ البلد، ومن وجهاء الطبقة الوسطى، ومن نسله الحاجة فطومة البحيري أم آل يحيى: الحاج عبد القادر وعبد الوهاب وغيرهما. وأذكر أن الحاجة غنَى يحيي جاءت إلى منزلنا غاضبة من زوجها وبقيت عندنا عدة أسابيع، حتى صولَحت على أهلها.

والأخت الأخرى لجدي تزوجت الشيخ حسن العزوني، وكان له أبناء عدة في حارتنا ومن جيراننا، منهم: أحمد والششتاوي وعباس ومحمد، وقد شهدت بعضهم.

أما جدي علي: فقد تزوج في أول أمره من امرأة وأنجب منها ولدا سماه محمدا، وهو بكره، ثم فارقها، لا أدري بوفاة أو طلاق. وتزوج جدتي عائشة عجيز، وأنجب منها سائر أولاده: وهم خمسة أبناء وابنتان.

أما الابنتان - عَمَّتاي - فقد تزوجتا أخوين من الطبقة الوسطى في البلد من آل النجار: الشيخ سعد النجار، وكان شيخا للبلد، وقد توفيت زوجته بعد أن أنجب منها ابنين. وشقيقه عبد الله النجار، وقد تَزوج عمتي «خضرة» التي

رأيتها وكانت تحبني كثيرا، وقد أنجبت خمسة أبناء، وبنتا واحدة. ولا أدري أصل اسم «خضرة»: أهو مؤنث «خضر»؟ وقد كان من الرجال من يسمى «خضرا» باسم «الخضر» عليه السلام! أم هي مؤنث أخضر، وأصلها «خضراء» خففها العامة فقالوا: «خضرة».

وأما الأبناء فكانوا على الترتيب: عبد العزيز ويوسف وأحمد وعبد الله وسعد، ومعنى هذا أن جدي كان له ستة أبناء ذكور، محمد وهؤلاء الخمسة، مات ثلاثة منهم دون أن ينجبوا، منهم من لم يتزوج مثل عمي الأكبر محمد، وعمي الأصغر سعد، فقد ماتا شابين دون أن يتاح لهما الزواج.

وأما عمي يوسف فقد تزوج ولم يقدر له أن ينجب، ثم توفي، وقد رأيت زوجته جوهرة التي كانت تزور بيتنا من حين لآخر، وتحمل للأسرة مودة عميقة، وتحبنا كأننا أولادها رحمها الله.

وأما الذين أنجبوا فهم: عمي عبد العزيز الذي أنجب محمدا وكاملا، وعمي أحمد الذي أنجب عليا وإبراهيم وخضرة، وهو عمي الوحيد الذي بقي بعد وفاة أبي، وأبي عبد الله الذي لم ينجب غيري.

كان عمي عبد العزيز من حفاظ القرآن، وكأنه التحق قليلا بالأزهر ولم يستمر، ولذا ظل في الأسرة شوق إلى أن يتمم أحد أبنائها ما بدأه عمي عبد العزيز. وكان عمي أحمد يشتغل بالزراعة.

وكان أبي - كما حدثوني - نصف فلاح، ونصف تاجر.

وكانت أسرتنا - برغم منزلتها الاجتماعية التي تتجلى في مصاهراتها وروابطها - لا تملك شيئا من الأطيان، على خلاف كل من حولنا من أهل الحارة، الذين لكل منهم طينه وأرضه.

ويبدو أن جدي أيام تجارته لم يسند ظهره بشراء شيء من الأطيان، يرجع إليها، وتكون له رصيدا إذا خسرت تجارته، أو كسدت أو توقفت، كما يفعل كثير من التجار الواعين، يحسبون حسابهم لنوازل الزمن.

حتى سمعت أحد ملاك الأطيان يسأل عمي أحمد يوما عما يملك، فقال: لا أملك شيئا! فقال الرجل: والله يا عم أحمد كنت أحسبك من ذوي الأطيان، فإن عيشتكم ومظهركم تدل على ذلك. فقال له: الحمد لله على الستر.

كل ما كان للأسرة نحو نصف فدان ملك امرأة عمي، وكانت الأسرة تعيش على الأرض المستأجرة تزرعها وتأكل من ثمرها، وتدفع منها الإيجار.

وكان هذا يتطلب من الأسرة أن تكدح وتتعب وتعرق حتى تحقق الكفاية ولو في حدها الأدنى لأفرادها.. فلا مجال في الأسرة للهو ولا عبث.

زواج أبي بأمي:

تزوج أبي من امرأة قبل أمي ولم ينجب منها، ثم افترقا بالطلاق على ما أظن.

ثم تزوج أمي وكانت ثيبا، فقد تزوجت ابن عمتها، وهي صغيرة، وكان يعيش في القاهرة، ويحيا حياة غير ملتزمة، فقد كان يشرب الخمر، ثم يعود إليها في الليل سكران، ويهرف بما لا يعرف، ويهذي بالكلام، وأمي فتاة ريفية غريبة عن هذا الجو، فتلقى زوجها مذعورة خائفة. وقد زارها جدي لأمي مرة، ورآها على تلك الحال، فطلقها من زوجها - وهو ابن أخته - وعاد بها في الحال، وقد كانت حاملا، فوضعت بنتا سمتها «روحية» وهي أختي لأمي، تكبرني بنحو ثماني سنين. وقد رُبِّيت في بيت جدي ثم خالي، حتى زوجت في مدينة زفتى من ابن عم لها، وأنجبت أبناء وبنات، لها منهم أحفاد وحفيدات، وتوفيت منذ سنوات رحمها الله.

تقدم أبي لأمي لطلب الزواج منها بعد نحو سبع سنوات من إنجابها لطفلتها، وبعد أن أصبحت البنت قادرة على أن تستقل بنفسها، وتبقى مع جدتها وجدها. وتم الزواج، وسرعان ما حملت أمي بي، واتفق عند ولادتي على تسميتي بـ«يوسف» على اسم عمي رحمه الله الذي مات ولم ينجب، وهو سمي على اسم جده. فأنا يوسف بن عبد الله بن علي بن يوسف.

وفي الثانية من عمري مرض والدي، أحسبه كان مرضا من أمراض البول، ومن مضاعفات البلهارسيا، ونظرا لقصور الطب في تلك الأيام، وقلة ذات اليد، فقد كان الكثيرون يموتون بأمراض نجد علاجها اليوم يسيرا.

كفالة عمي أحمد:

بعد موت أبي كفلني عمي أحمد، وهو الوحيد الباقي من أعمامي الخمسة. وكان فلاحا أميا لا يقرأ ولا يكتب. ولكنه كان حكيما عاقلا غير متهور، وكان عطوفا رقيق القلب، وكان محترما بين الناس، برغم أنه لم يكن يملك أطيانا، وهي التي تجعل للإنسان قيمة في الريف.

كان طويل القامة، قمحي اللون، حسن الصورة، يلبس جلبابا وعمامة على رأسه، غير عمامة العلماء والقُرَّاء، فعمامتهم لفة على طربوش أحمر ذي زر أسود أو أزرق. أما عمامته وعمائم أمثاله، فكانت لفة على «لبدة» بيضاء.

وكان قوي الجسم، متين البنيان، برغم أنه كان فوق الخمسين في أوائل طفولتي، وكان يساهم في العمل الزراعي مع ابنَي عمي. لم أره يشكو من مرض من الأمراض الشائعة بين الناس، فقد كانت الحركة له بركة، وكان سعيه وكدحه في سبيل عيشه من أسباب تمتعه بالصحة.

وكان يصلي الصلوات - حتى الفجر - في المسجد، وتلك سنة حسنة توارثها الخلف عن السلف.

وكان قنوعا بعيشتنا المتواضعة، وهي عيشة الفلاحين في مصر في ذلك العهد، يزرعون ويكدحون طوال اليوم، وطوال العام، لا يعرفون إجازة ولا راحة، لأن الأرض والبهائم تحتاج إلى خدمة دائمة، ومع هذا العناء لا يجنون إلا القليل من الثمرة. ولكنه كان يأكل الخبز الجاف - ومعظمه من الذرة - ويأدمه بالجبن القريش، أو الجبن القديم بالمش يتناثر منه الدود، ثم يشرب من القُلَّة

المصنوعة من الفخار، ويقول: الحمد لله، اللهم أدمها نعمة، واحفظها من الزوال.

وهكذا كان عموم أهل القرية، أو قل: عموم أهل مصر، قانعين بما رزقهم الله، مؤمنين بالحديث النبوي القائل: «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»[1]، ومرددين أحيانا قول الشاعر:

إذا ما كنت ذا قلب قنوع

فأنت ومالك الدنيا سواء!

وكان عمي برغم أميته يحكي لنا بعض القصص المسلية، ويمتحنني ببعض الألغاز، مثل قوله: عمتك أخت أبيك، خال ابنها يقرب لك إيه؟ ففكرت سريعا في عمتي وخال ابنها، وقلت له: أبي أو عمي.

ثم يحكي لي نكات «جحا» وحكمه ومواقفه المضحكة، ومنها: أنه جمع مبلغا من المال، وذهب إلى سوق الحمير، ليشتري حمارا، فسأله بعضهم، إلى أين تذهب يا جحا؟ قال: إلى السوق لأشتري حمارا. وقال له السائل: قل: إن شاء الله. قال: ولماذا «إن شاء الله»؟! الفلوس في جيبي، والحمير في السوق! فذهب إلى السوق، وترصده بعض اللصوص، فسرقوا منه الفلوس! فلما رجع، سأله نفس السائل: اشتريت الحمار يا جحا؟ قال: إن شاء الله الفلوس سرقت!

كان «جحا» فيلسوف الشعب، وحكيم المجتمع، ومن حكاياته وكلماته يأخذ الناس مواقفهم، أو يسوغونها على الأقل.

رعاية أمي:

مات أبي وأنا في الثانية من عمري، وبقيت أمي في بيت العائلة حيث لها ابن له ملك في الدار، في حارتنا المشتهرة بحارة «أبو سمك». وكان لنا من الدار حجرتان

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٩٧) والترمذي (٢٣٠٥) وقال: حدث غريب، وأبو يعلى (٦٢٤٠) عن أبي هريرة.

إحداهما شتوية، في الدور الأول، ويسمونها القاعة، وفيها فرن يوضع فيه بعض الحطب في الشتاء لتدفئة المكان، وحجرة في الدور الثاني في الصيف.

ومن حسن تفكير والدتي: أنها وجدت القاعة التي نعيش فيها في الشتاء ليس لها نوافذ إلا الباب، فإذا أغلق الباب كانت مظلمة تماما في عز النهار. ولا تدخلها أشعة الشمس ولا الهواء. وكانت هذه الحجرة ليس عليها أي بنيان فوقها، فجاءت بنجار وصنع لها نافذة في السقف يدخل منها الضوء والهواء.

أسرة والدتي:

وعلى ذكر والدتي، أعطي لمحة عن أسرتها، فهي من «أسرة الحجر»، وهي أسرة تشتغل بالتجارة، وتشتهر بالذكاء. وكانت أمي وخالاتي ماهرات في الحساب بدون كتابة. وكانت ابنة عم أمي فاطمة الحجر كأن رأسها آلة حاسبة. تجمع الأرقام الكبيرة والمعقدة وتخرج نتائجها بسرعة مذهلة.

وكان جدي واسمه علي أيضا، على اسم جدي لأبي، يعمل تاجرا، يتاجر في الفواكه في فصل الصيف، وهو تاجر جملة وقطاعي، وفي فصل الشتاء يتحول إلى تاجر حبوب، حيث لا توجد فواكه في الشتاء.

وكانت عمته متزوجة من آل زغلول، وهم من وجهاء البلد من الطبقة الوسطى التي تحدثنا عنها.

وقد غلط جدي لأمي غلطة جدي لأبي، فلم يشد أزره بشراء بعض الأرض التي تسنده إذا تغير الزمان، ودارت الأيام. بل أشير عليه بذلك في بعض الأوقات، فقال: الجنيه في يدي أفضل من فدان في يد غيري.

وكان يمكنه أن يكون تاجرا كبيرا ذا شأن لو تنبه للتغير الذي طرأ على المنطقة، وغير موقعه. فبعد أن أنشئت مصانع شركة الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى أصبحت المحلة مركزا تجاريا له شأنه، وبدأ ينمو بسرعة وقوة، فلو تنبه جدي لهذا التغير،

وأخذ بالمحلة ـ ولو دكانا صغيرا بالإيجار ـ لتغير حاله، ولكنه بقي في حدود صفط ولم يعد قادرا على توزيع الفاكهة من صفط إلى البلاد التي حولها، كما كان من قبل.

كان جدي تاجرا مستقيما، لا يكذب ولا يغش، ولا يحلف، ولا يبيع إلا البضاعة السليمة والطيبة.

وكان له أخت تزوجت من آل عجوة بصفط، وأخرى تزوجت في شبشير بالقرب من صفط في طريق طنطا، وكان ابنها من التجار الناجحين الصالحين، الحاج حسنين الدواخلي، وقد رأيته مرارا، وعزيت فيه عند موته، وألقيت كلمة في عزائه.

وقد أنجب جدي من جدتي (واسمها عائشة أيضا كاسم جدتي لأبي) وهي من آل اليزيدي، ابنين وخمس بنات، مات أحد الابنين في طفولته وبقي الآخر، وهو خالي الوحيد عبد الحميد.

وكان خالي هذا آية في الذكاء، وحضور البديهة، وقوة الذاكرة، وله حضور وفصاحة وجرأة وشخصية، ولو قدر له أن يكمل تعليمه لكان له شأن إذا ساعده القدر. وكان يدرس في المدرسة الأولية بمحلة روح، المجاورة لنا، على بعد حوالي أربعة أو خمسة كيلو مترات يذهب إليها يوميا على حمار. ولكن جدي أخرج خالي من تعليمه الموفق فيه، لحاجته إليه ليساعده في تجارته ولم يكن له ابن غيره.

وقد ورث خالي التجارة من أبيه، وظل يعمل بها جُلَّ عمره، ولكنه ـ برغم فرط ذكائه ـ لم يكن له فيها حظ، ظل «محلك سر» لا يتقدم خطوة إلى الأمام. مما يدل على أن الرزق لا يأتي بالذكاء وحده، ولكن هناك أشياء تتحكم في مجرى حياة الإنسان، لا يعرفها ولا يستطيع أن يتحكم في سيرها، إنما يحكمها القدر الإلهي وحده.

وهذا ما جعل الناس يشكون قديما، من فقر الأذكياء والعلماء، وثراء الأغبياء والجهال. وفي هذا يقول أبو تمام:

ينال الفـــتى طِيب الغنى وهْو جـاهل

ويشـــقى الفـــتى في فــقــره وهُو عــالم

ولـو كــانت الأرزاق تأتي على الحـــجــا

هـلكن إذن مـن جـــهلهن البـــهـــائم!

كان جدي رجل أسرة، يحب أن يجمع بناته حوله كلما تيسر ذلك، وخصوصا في الأعياد والمواسم والمناسبات، فكنا نلتقي أنا وأولاد خالاتي في بيت جدي الذي يجمعنا، وكان لعبنا في دار جدي أكثر منه في «دار القرضاوي» لأن أولاد عمي ليس فيهم أحد قريب من سني. بخلاف أولاد خالتي.

وكان جدي يحبنا جدا (أولاد بناته) ويعزني بشكل خاص، لعل ذلك لظروف يتمي المبكر، ولكنه كان رجلا جادا، وكان إذا غضب صاح صيحة تكاد تهتز لها جدران المنزل. وقد غلطت أنا وابن خالتي محمد مراد مرة، فأصر على ضربنا، ثم شفعت لنا جدتي، على ألا نعود إلى ذلك مرة أخرى، فصفح عنا على هذا الشرط.

وقد توفي جدي وأنا في السابعة من عمري تقريبا، وحضرت جنازته، وسمعت الناس يثنون عليه، ويقولون: كان رجلا صالحا، لم يعرف عنه موقف سوء. وجاء الناس من البلاد التي حولنا يعزون فيه.

وكانت جدتي تحبنا نحن أولاد بناتها، وتخصني بمزيد من الحب والعناية، وكانت تخبئ لي الأشياء الطيبة، لآكلها عند حضوري عندها.

وكانت خالاتي يحببني حبا جما، كأني ابن لكل واحدة منهن، وزاد ذلك الحب والاهتمام بعد موت أمي وأنا في الخامسة عشرة من عمري، فأصبحن جميعا أمهات لي بعد أمي، وازدادت عناية جدتي بي.

أسرتنا القرضاوية:

كانت أسرتنا القرضاوية ـ برغم محدودية دخلها ـ مستورة الحال، مكتفية بما يرزقها الله من الأرض التي تزرعها، ما لم تنزل بها نازلة من نوازل الدهر، والتي قلما يسلم منها أحد. وهذه طبيعة الدنيا، التي وصفها أبو الحسن التهامي بقوله:

جـــبلت على كـــدر، وأنت تريدها
صـــــفـــــوا من الآلام والأكــدار
ومكـلّف الأيام ضـــد طبـــاعـهـــا
مـــتطلـب في المـاء جـــذوة نـار

ومن النوازل التي طالما نزلت بالناس في بعض السنين: أن تأكل «الدودة» القطن، ولا تبقي منه شيئا يجنى منه محصول، وهذه كارثة كبيرة على الفلاحين. فالقطن هو «الذهب الأبيض» الذي يترقب الناس محصوله بفارغ الصبر، ليدفعوا منه الأجور، ويقضوا الديون، ويزوجوا الأولاد، ويوسعوا على أنفسهم بعض الشيء.

وأفدح ما تكون هذه الكارثة على المستأجرين للأرض، الذين لا يرحمهم المُلاك، فيضعون عنهم الأجرة كلها أو جلها، رأفة بهم، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذه الحال بوضع الجوائح، ويقصد بالجوائح: الآفات التي تنزل بالزرع أو الشجر، فتهلكه، وتذهب بثمرته. والواجب على الناس أن يتواسوا في هذه الحال: فيخسر المالك الأجرة، ويخسر الفلاح جهده وتعبه. أما أن يخسر الفلاح جهده، ويكلف بدفع الأجرة، فهذه قسوة، وهذا جور لا يرضاه الله تعالى.

ومن النوازل التي تنزل بالأسرة: موت الجاموسة. فالجاموسة رأس مال الفلاح، وثمنها باهظ، وكثيرا ما كانت تصاب هذه الأنعام في فصل الربيع حيث تأكل البهيمة أكثر مما يلزم، فيصيبها ما يصيبها، وتتعرض لحالة لا ينقذها إلا السكين، فتباع لحما بأرخص الأثمان.

وقد حدثت لأسرتنا هذه البلوى أكثر من مرة شهدتها بنفسي، ولمست وقعها على أهلي، وأثرها على حياتهم، فليس من السهل على الفلاح أن يجد ما يشتري به الجاموسة البديلة للهالكة. وكان لدينا جاموستان أو جاموسة وبقرة، وهو ما يحتاج إليه الفلاح، لخدمة الأرض بالحراثة وغيرها، فهي تحتاج إلى ماشيتين عادة.

ولذا كان الناس في القرية يعزون الفلاح إذا فقد جاموسته، كأنه فقد بعض أهله، وكثيرا ما رأيت بعض الفلاحين يبكون الجاموسة كأنها واحدة منهم، فقد عاشوا من خيرها، وشربوا من لبنها، وانتفعوا بمساعدتها.

وفعلا كنت أشعر بأن هذه الأنعام إنما سميت «أنعاما» لأنها تُعَدُّ نعمة من الله على عباده، كما قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣)**﴾ (يس: ٧١ - ٧٣).

كان لبن الجاموسة في البيت بديلا عن اللحم الذي لا نملك ثمنه باستمرار، إلا في كل يوم أربعاء، يوم السوق. فكان اللبن الرايب والقشدة والجبن، والجبنة القديمة والمش، والزبدة والسمن، كل هذه مصادر خير ورزق للأسرة.

وأنا شخصيا كان لي أوفر حظ من هذا الخير. فقد كان لي «مثرد» (وعاء فخاري) صغير يحلب لي فيه من ثدي الجاموسة أو البقرة، ثم آخذ من الخبز المُقدد من (السحارة) وأفُتُّه وأضعه في هذا الحليب، وأفطر عليه خالصا طيبا للآكلين.

ولم يكن يحتاج إلى تسخين، فهو معقم تعقيما ربانيا، لأنه من ثدي الماشية إلى مثردي. ولم يكن في حاجة إلى سكر، لأن اللبن الطبيعي لا يحتاج إلى سكر، فإن الله تعالى قال: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦)**﴾ (النحل: ٦٦).

على أن السكر لم يكن منتشرا بين الناس في ذلك الزمن، ولم يكن الناس يستعملونه إلا في المناسبات لعمل الشربات والأرز باللبن والرش على الكنافة ونحوها. وكان الناس يستغنون عن السكر بالعسل الأسود، وهو بالقطع أكثر نفعا من السكر، وأبعد عن الأذى منه.

ولهذا نشأت على شرب اللبن بدون سكر، بل لا أحبه إذا خالطه السكر.

وأحيانا يكون إفطاري على «اللبن الرايب» وهو اللبن المنزوع قشدته، وكثيرا ما يوضع معه بعض القشدة مع شيء من الجبنة، ليكون طعمه ألذ.

وكثيرا ما كنا نأكل الجبن القريش، أو الجبنة القديمة.

وكانت امرأة عمي متخصصة في عمل «فطيرة الذرة» وخصوصا المحشوة بالقشدة والجبنة، وكانت لذيذة جدا، بشرط أن تؤكل ساخنة، فإذا بردت فلا نستطيع أن نبتلعها. ويكاد يكون هذا النوع من الفطير المصري الأصيل قد انقرض، ولم يبق إلا الفطير «المشلتت» الذي قامت محلات لصناعته في المدن وغيرها، بل صُدر إلى بلاد الخليج.

وكان من خيرات اللبن عمل «القرص» التي تؤكل في الصباح دون أن تحتاج إلى إدام، وكذلك خبز «البتّاوي» الذي يعجن باللبن، ولا يحتاج إلى خميرة، ويكون سهل التناول.

وتمضي أمور الأسرة سهلة ميسرة على هذا المنوال. فمطالب الناس محدودة، وحاجاتهم قليلة، إلا أن تأتي أشياء تتطلب مالا خاصا، كالزواج أو المرض، فهنا ترتبك الأسرة، ولا تجد لمشكلتها حلا، وبخاصة أن أسرتنا اشتهرت بعزة النفس، وعدم طأطأة الرأس، والاعتزاز بالكرامة إلى حد بعيد، فلا يسهل عليها أن تستدين من أحد، أو تسأل أحدا المساعدة في ملمة. ولهذا تأخر ابنا عمي في الزواج، لعدم القدرة المادية التي تمكنهما من الزواج.

على أن الناس عادة في ذلك الزمن لم يكونوا في سعة حتى يقرضوك، ثم إذا أقرضك من أقرضك، وقبلت أن تحمل عبء الدَّيْن، وهو هَمٌّ بالليل، ومذلة

بالنهار، فمن أي مورد ستدفعه بعد ذلك، إلا بأن تستدين لتسدد دينا بدين، والشاعر يقول:

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن

وفاء، ولكن كان غرما على غرم!

وهذا الضيق النسبي في المعيشة كان من عوائق تقديمي لدخول الأزهر، كما سنفصله بعد ذلك.

للناس بيت ولي بيتان:

كان مما أكرمني الله به: أن لي بيتين، أولهما: بيت العائلة عندنا، وهو البيت الذي أقيم فيه مع عمي وأولاد عمي، ومعي والدتي. والآخر: هو بيت جدي الذي كنت أذهب إليه كثيرا، وأقيم فيه طويلا، لسببين: أنس والدتي بأهلها، وقربها من أمها وأبيها وإخوتها. والآخر: أن لي أولاد خالة قريبين من سني. فكانت فرصة لنلعب معا، ولم يكن في أولاد عمي ولا عمتي قريبون من سني.

فكثيرا ما نقضي معظم اليوم في بيت جدي ولا نعود إلا بعد العِشاء والعَشاء.

وكان بيت جدي أيسر حالا من بيت عمي، إذ كان جدي تاجرا، وعمي فلاحا، والتجار كانوا أكثر يسرا من الفلاحين الذين يعانون في معيشتهم.

ولذا كان بيت جدي أقرب إلى المدنية من بيتنا، فهم يستخدمون «وابور الجاز» مع الكانون أيضا.

وهم يستخدمون الكنب «الإستانبولي» والكراسي الخيزران، في حين نحن لا نستخدم في بيتنا غير «المصطبة» المبنية بجوار الحائط، فهي كنبتنا المفضلة، أو قل: الوحيدة.

وكان بيت جدي يطبخ اللحم مرتين في الأسبوع، ونحن في بيتنا لا نعرف اللحم إلا يوم السوق. كما أن نوعية اللحم عند جدي كانت أجود وأرقى، فهي من نوع

«الكندوز» أو «البتلّو» أي لحوم العجول الصغيرة، وثمنها أغلى، أما اللحم في بيتنا فكان من لحم الجاموس الكبير، وهو رخيص عادة بالنسبة إلى اللحم الآخر.

وكان بيت جدي يهتم بالفواكه، بوصف جدي تاجرا كبيرا من تجار الفاكهة، وفي بيتنا ـ كمعظم الفلاحين ـ لا يعرفون من الفواكه إلا الجميز والتوت والبطيخ والعجّور ونحوها.

فكان بيت جدي فسحة لي، أستمتع بطيباته، وأنعم بخيراته. وبعد أن مات جدي، أصبح البيت بيت خالي، وبعد أن كنت أقول: أذهب إلى دار جدي ـ أو بتعبير قريتنا: دار سيدي ـ أصبحت أقول: أذهب إلى دار خالي.

طفولتي الأولى سليمة:

كانت طفولتي ـ بحمد الله ـ سليمة من الناحية الصحية، لولا ما أصبت به مما يصاب به عامة المصريين من الأمراض المتوطنة (البلهارسيا والإنكلستوما والإسكارس ـ ثعابين البطن).

ولا أذكر أني أصبت بمرض خطير في طفولتي، إلا ما يصيب الأطفال من سخونة عارضة، لعلها نتيجة ما عرف بعد باسم «الإنفلونزا»، وإن كان كثير من أهل القرية يجعلون سبب ذلك هو «العين» التي قد تُدخل الجمل القدر، والرجل القبر، ويعبرون عنها عادة بـ «الحسد». فإذا أصبت بشيء من ذلك قالَوا: الولد محسود. ولا سيما أني كنت ناميا حسن النمو، وموفقا في الكتاب والمدرسة، فمثلي يحسد في نظرهم.

وعندهم رقية متوارثة للمصاب بالعين أو بالحسد. وهي عبارة عن وعاء فيه جمرات متقدة توضع عليها قطع من (الشبَّة والفسوخة) ويطلب من المحسود أن يمر من فوقها سبع مرات، في سبع خطوات. والراقية ـ وقد تكون أمي أو جدتي أو خالتي ـ تقول: الأولّه (أي الأولى) بسم الله، والثانية: بسم الله، إلى السادسة، والسابعة: رقية محمد بن عبد الله، الذي رقى واسترقى، من كل عين بيضا، وكل

عين زرقا، رقيتك من عين «الراجل» في عينه مناجل، ومن عين المره (أي المرأة) في عينها شرشرة، من عين الجارة في عينها نارة، ومن عين اللي شافتك من الحارة، ولا صلت على النبي، استعنت عليهم بالله القوي.

إلى آخر هذه الرقية وهي طويلة، ولا أريد أن أطيل على القارئ بذكرها، وإن كان فيها ما يتحفظ عليه، مثل القول بأن محمد بن عبد الله رقى واسترقى. أما أنه رقى عليه الصلاة والسلام، فهو ثابت بأحاديث صحاح مستفيضة، ووردت عنه ألفاظ من الرقى معروفة محفوظة. وأما أنه استرقى: أي طلب الرقية من غيره، فلم يثبت ذلك عنه، بل وصف الذين يدخلون الجنة بغير حساب بأنهم الذين «لا يتطيرون ولا يكتوون، ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون». متفق عليه.

هذا ولا شك في أن العين حق، كما جاء في الحديث، وقد علل المفسرون قول يعقوب عليه السلام لبنيه ﴿**يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ**﴾ (يوسف: ٦٧) بأنه كان يخشى عليهم العين.

وهذا أمر معروف لدى الأمم من قديم، ولا زال الناس يعتقدون ذلك في عصرنا. وفي بلاد الخليج ذكروا لنا أن بعض الأسر أو القبائل مشهورة بأن «عيونها حارة» ينطلق الشرر منها كأنها السهم المسموم.

ولكن آفة هذه الأمور هي المبالغة فيها، بحيث تحيل كل بلوى تصيبك إليها، ولا تفكر في السبب الحقيقي الذي أدى إلى هذه النتيجة، وقد يترك بعض المرضى دون علاج حتى يقضوا نحبهم، اعتقادا بأنهم معيونون أو محسودون، دون بحث عن الأسباب المادية وراء ذلك. والإسلام شرع التداوي بالأدوية المادية، مع الاستعانة بالأدوية الروحية مثل: الرُّقَى والأدعية والأذكار، التي لا يجحد أحد أثرها في نفس المريض.

على أنه لا يجوز أن نتقي العين ونحوها بالتمائم والحرازات (ما يسمى الخمسة وخميسة). ونحوها حتى عند الغربيين يعلقون «حذوة الحصان» على الأبواب ونحوها.

(٣)

إلى الكُتَّـــاب

إلى الكُتّاب

كانت قريتنا قرية كبيرة نسبيا، فقد كان سكانها ـ وأنا صبي ـ أكثر من عشرين ألفا، وكان فيها أربعة كتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم، اثنان في وسط البلد، حيث منزلنا وحارتنا، وواحد في الشرق، وآخر في الغرب.

كانت الكتاتيب تنسب إلى معلميها، وهم في الواقع أصحابها ومُلاكها. وهي في العادة ملاصقة لبيوتهم أو هي جزء منها.

وفي منطقتنا كان كتاب الشيخ يماني مراد، وكتاب الشيخ حامد أبو زويل. وقد ذهبت أول ما ذهبت إلى كتاب الشيخ يماني بإغراء من أحد أقاربنا الذي كان من تلاميذ هذا الكتاب. ولكني انتسبت إليه يوما واحدا فقط، ولم أعد إليه بعد ذلك، وذلك لأن الشيخ يماني ضرب التلاميذ جميعا (لتنشيطهم) وكنت بالطبع من المضروبين. فعز عليّ أن أضرب ظلما وبلا سبب، وفي أول قدومي، ورفضت أن أعود إلى هذا الكتاب مرة أخرى.

ويبدو أن كراهية الظلم والنفور منه، والثورة على مرتكبيه ـ ولو كان ظلما صغيرا ـ خصلة قديمة عندي، أو هي فطرة فطرني الله عليها، فلا أحب أن أظْلِم أو أظْلَم، وقد تعلمت بعد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ بالله أن يَظْلِم أو يُظْلَم، أو يَجهل أو يُجهل عليه.

وهذا الظلم الذي وقع علي جعلني أنقطع عن الذهاب إلى أي كتاب مدة من الزمن، حتى حرضتني والدتي ـ رحمها الله ـ على الذهاب إلى كتاب الشيخ حامد،

وهو جار لبيت جدي (والد أمي) وأنها ستوصيه بي خيرا، وستوصي والدتَه (خالتي ريَّا) بي أيضـا، وكانت أمي حريصة كل الحرص على أن أتعلم. وبالفعل أخذت بيدي في زيارتها لبيت أبيها وسلمتني إلى الشيخ حامد، وقالت له: هو أمانة عندك.. قال لها: إنه ابننا، وهو في أعيننا.

وفعلا استقبلني الشيخ حامد رحمه الله استقبالا حسنا، وكنت محظيا عنده وعند والدته رحمها الله. وقد لاحظ الشيخ حامد أني تلميذ مجتهد، فقد لاحظ سرعة حفظي، وسلامة نطقي، كما لاحظ أني أول صبي يحضر إلى الكتاب، أذهب مبكرا وأدق الباب على خالتي ريا، وآخذ مفتاح الكتاب، أو تفتحه هي لي، وتحذرني من «البراغيث»، فقد كانت أرضية الكتاب من التراب، كأكثر منازل قريتنا، والكتاب جزء منها، وكان أول من يذهب إلى الكتاب تصطاده البراغيث وتتجمع عليه، وهذا ما كان يحدث لي كل يوم، ولا ينجيني منها إلا القعود على «الدكَّة» متربعا.. حتى يأتي بقية الصبيان ويأخذوا حظهم بالاشتراك والمساواة من قَرْص البراغيث. وهذه البراغيث سهلت علي فهم قاعدة في النحو عرفتها بعد ذلك، وهي تجري على لغة من لغات العرب، ويسمونها لغة: «أكلوني البراغيث»!

كان الكتاب بمثابة مدرسة خاصة، ولكن رسومه وأجوره كانت زهيدة بسيطة، فهو يأخذ نصف قرش في يوم الأربعاء من كل أسبوع، وذلك لأن الأربعاء يوم سوق القرية. ومع هذا كان نصف القرش هذا ثقيلا على بعض الناس، وأنا منهم. ولكن الشيخ حامدا كان يتسامح معي إذا لم أجد نصف القرش، لأمرين: لأنه يعرف أني يتيم، والثاني: لنجابتي بين تلاميذه. وكان هذا من فضل الشيخ حامد ومكارم أخلاقه، حتى إنه أصبح يأخذ مني نصف القرش كل أسبوعين.

ومن فضل الشيخ حامد علي: أنه لم يضربني قط، برغم أنه كان يضرب كثيرا من أبناء الكتاب، وأنا في الحقيقة لا أحب أن أُضْرَب ويعز علي أن أضرب. وأذكر

أن الشيخ حامد مَدَّني مرة في «الفَلَكة» ليضربني، ولكن الله نجاني من الضرب. ولم يكن الضرب بسبب تقصير في واجبي الكتَّابي اليومي، بل لسبب آخر. فقد كانت أمي - ككثير من الأمهات والآباء، يخافون على أبنائهم من الغرق إذا ذهبوا للاستحمام في ترعة القرية، أو قنواتها الصغيرة، وخصوصا يوم الجمعة، فكان الشيخ حامد يُعَلِّم على أفخاذنا بالقلم «الكوبْيَة» وفي يوم السبت يكشف علينا، فإذا وجد العلامة باقية فبها ونعمت، وإذا وجدها زالت، كان ذلك دليلا على أننا ذهبنا إلى الترعة.

وهذا ما حدث في هذه المرة واستحققت العقاب، ولكن قريبة لأمي كانت تسكن بجوار الكتاب، ومرت في ذلك الوقت وشفعت لي، فتجّتني من الضرب. ولا أدري هل كان مرورها مصادفة، أو كان ذلك بتدبير حتى لا أضرب؟ يبدو أن الاحتمال الأخير هو الأقرب. وربما كان هذا التدبير من والدتي رحمها الله بالاتفاق مع الشيخ حامد.

كان الشيخ حامد من حفاظ القرآن المحترمين، عزيز النفس، محتفظا بكرامته. كان جل حفظة القرآن يقرءون في أيام الأخمسة على المقابر بأجرة زهيدة يدفعها أهل الموتى، كثيرا ما تكون بعض المأكولات، ولكن الشيخ حامدا نزه نفسه عن ذلك.

وكان رجلا بسيطا نظيفا أنيقا، يلبس جلبابا وعمامة، ويصلي الصلوات الخمس في المسجد، وهو قريب من البيت والكتاب، وكثيرا ما يؤم الناس إذا تغيب الإمام الراتب.

كان عملنا في الكتاب: حفظ فقرة مناسبة من القرآن الكريم. هذه الفقرة نكتبها بأيدينا في لوح مدهون بالزيت، بحيث يصلح للكتابة عليه بالحبر. وكنا نشتري الحبر من الصباغين في القرية، حيث كان الفلاحون يلبسون الجلاليب الزرقاء، وهي في الأصل بيضاء ثم تصبغ باللون الأزرق عند الصباغ. وكذلك تلبس المرأة «المَلَس» وهو من الحرير الأبيض، ثم يصبغ باللون الأسود.

كنا نشتري الحبر منهم ونضعه في «الدواة» (أو المحبرة) ونأتي بأقلام البوص ونبريها، وأحيانا يبريها لنا الشيخ حامد نفسه. ونكتب كل يوم القدر المطلوب حفظه، ونصححه على الشيخ قبل أن نحفظه، ثم نحفظه في المنزل بعد عودتنا من الكتاب، وفي اليوم الثاني (نسمِّعه) على العريف. فمن لم يكن حفظه جيدا، رُدَّ ليجود حفظه.

ثم إذا سمَّعنا المحفوظ اليومي، راجعنا ما حفظنا من قبل، ويسمى «الماضي».

وكنا نتعلم القراءة والكتابة بالمحاكاة، يتعلم بعضنا من بعض. ولم تكن في الكتاب طريقة منهجية للتعليم، وإن كان الشيخ حامد يستعمل السبورة أحيانا أو يكتب بعض الكلمات، ويطلب من التلاميذ أن يحاكوها، ويكتبوها في اللوح عدة مرات، حتى يتعلموا الكتابة.

وكنا نردد كل يوم كلمات كالببغاوات، نلقنها بطريقة ملحنة بطريقة الأناشيد ولا نفهم لها معنى. نقول بصوت جماعي: با: با ألف، بي: با يي، بو: با واو. تا: تا ألف، تي: تا يي، تو: تا واو.

وكانوا يلقنون الطلاب كلمات نحفظها في العقيدة ولا نفهم لها أي معنى، مثل: صفات الله تعالى عشرون: الوجود، والقدم، والبقاء، ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه بنفسه، والوحدانية، والعلم، والإرادة، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، وكونه تعالى عالما ومريدا وقادرا وحيّا وسميعا وبصيرا ومتكلما.

كما كانوا يحفظوننا من السيرة النبوية: أولاد النبي سبعة: عبد الله والقاسم وإبراهيم، وفاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم، وكلهم من السيدة خديجة، إلا إبراهيم، فإنه من مارية القبطية.

ولعل هذا الجزء من السيرة هو الذي يجدي حفظه، أما العقيدة فلا يغني فيها «الصمّ» والحفظ بغير فهم. والذين يلقنون الصبيان العقيدة بهذه الصورة على

المذهب الأشعري أخطأوا الطريق، فالإيمان لا ينشأ بهذه الطريقة، ولا يتكون على هذا التلقين فكر سليم، ولا عاطفة حية.

بدأ الشيخ حامد رحمه الله معي حفظ القرآن من جزء عم، بحفظه منكوسا أي سورة الناس، فسورة الفلق، فالإخلاص فالمسد، فالنصر، فالكافرون، إلى أن فرغت من حفظ جزء عم، ثم جزء تبارك، ثم قد سمع، بهذه الطريقة، ثم جزء الذاريات، إلى سورة النجم.

ثم قفز بي الشيخ حامد إلى سورة الأنعام، فحفظت سورة الأنعام، ثم المائدة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم البقرة.

وعندما ختمت البقرة، أقام الكتاب حفلا صغيرا بهذه المناسبة، فقد كان أهل القرية يسمون ختمة سورة البقرة: «الختمة الصغيرة» وختم القرآن كله: «الختمة الكبيرة».

ووجدت لهذا أصلا، وهو أن سيدنا عمر حين ختم سورة البقرة حفظا: نحر جَزُوراً، أي ناقة، ابتهاجا بما وفقه الله إليه[1].

ونحن لم ننحر جزورا ولا شاة ولا دجاجة، إنما وزعنا بعض الحلوى على الأولاد في الكتاب، ومن حضر من الأقارب.

كان الشيخ حامد حريصا على أن يعلمني بعض الدقائق التي يراها تفيدني في حفظ القرآن، فأراه مثلا حينما قرأت عليه قوله تعالى في سورة النحل: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (النحل: ٢٩)، قال لي: هذه الآية الوحيدة التي فيها ﴿فَلَبِئْسَ﴾ وكل آيات القرآن ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى﴾.

وكذلك عندما قرأت عليه قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ (العنكبوت: ٢٦) قال لي: هذه هي المرة الوحيدة بهذه الصيغة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» (١٩٥٧) عن ابن عمر.

وسألني مرة: كم مرة جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؟ فقلت له: كثير. قال: اذكر لي ولو مرة منها، فلم أستطع أن أستحضر أيَّ آية فيها هذه الفاصلة، فقال: إنها لم ترد في القرآن بهذه الصيغة إلا مرة واحدة في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (التوبة: ٢٨).

وسألني أيضا: كم مرة ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؟ فقلت: أظنها تكررت كثيرا. قال: اذكر لي بعضا منها، فذكرت له آية التوبة ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ (التوبة: ٢٩) فقال: فتح الله عليك. وهناك آية أخرى في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء: ٣٨).

ولا يوجد في القرآن ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلا في هاتين الآيتين.

وكان الشيخ حامد يعطينا بعض الضوابط في الآيات المشتبهة، التي كثيرا ما يحدث فيها الخطأ من التلاميذ، ويلتبس بعضها ببعض، مثل كلمة «ضرا ولا نفعا» أو «نفعا ولا ضرا» فقد يضع التلميذ هذه موضع تلك، فحفظنا الشيخ حامد تلك الجملة لضبط ذلك: والنفع قبل الضر ياذا النبا .. في سورة الأعراف، والرعد، سبأ.

والمراد مما في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

ومثل ذلك: عبارة «لهوا ولعبا» أو «لعبا ولهوا»، أيهما يقدم، وأيهما يؤخر، وهنا جاءت عبارة ضابطة: تذكر أيها القارئ قبل أن تموت: أن اللهو قبل اللعب في الأعراف والعنكبوت. يعني في الأعراف قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ (الأعراف: ٥١).

وكذلك كنا نحار في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ بين «يزيدهم» بالضمة أو بالفتحة، حيث لم نكن نعرف النحو، وكانت هذه الجملة: ﴿وَيَزِيدَهُم﴾ ياشاطر، في النور وفاطر. يعني قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ (فاطر: ٣٠).

ثم بدأت بعد ذلك أحفظ القرآن غير منكوس، ابتداء من سورة الأعراف ثم الأنفال ثم التوبة، إلخ.. حتى وصلت إلى نصف القرآن، ووقفناعند ربع ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ (الكهف: ٧٩)، وهو بداية الجزء السادس عشر من المصحف.

وهنا وقفنا وقفة لنراجع الماضي ونثبته. وفي هذه الفترة سافرت مع خالي في بعض سفراته التجارية، وانقطعت عن الكتاب عدة أيام. ومن خوفي من الشيخ حامد استمررت في الانقطاع وتماديت فيه. ولم يهتم أحد بهذا الانقطاع الذي كان يمكن أن يغير حياتي، وبقيت نحو عشرة أشهر. ثم أصر عمي على أن أعود إلى الكتاب، فعدت إليه، ورحب بي الشيخ حامد، واتفق معي على أن نثبت ما مضى أولا، ونعيد حفظه وتسميعه، ثم نبدأ في حفظ الجديد.

وكان الاتفاق أن أسمِّع كل يوم نصف جزء من الماضي، وفعلا لم يمض أكثر من شهر حتى كنت قد استعدت نصف القرآن الأول حفظا، وسمَّعته على الشيخ حامد. وبدأت أحفظ النصف الثاني.

كتبت نصف ربع ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ من سورة الكهف في اللوح كالعادة، وفي صباح اليوم التالي باكرا سمعته، فقال لي الشيخ حامد: ما رأيك في أن تحفظ نصف الربع الباقي في المصحف؟ فقلت: لنجرب ولنستعن بالله تعالى. فقرأته عليه لأصححه، ثم شرعت في حفظه، فما هي إلا فترة، حتى حفظت المقرر المطلوب، وسمعته على الشيخ حامد، فقال لي: إذن من السهل عليك أن تحفظ كل يوم ربعا من المصحف، ولا داعي لكتابته، وأن تقوم بتسميعه مباشرة. وقد كان.

ولهذا لم يأخذ النصف الثاني من القرآن معي أكثر من ثلاثة أشهر، إذ كنت قد حفظت من قبل من سورة النجم إلى آخر القرآن.

وانتهى بي المطاف إلى اللوح الأخير في القرآن الكريم، وهو عادة يكون من سورة الضحى إلى سورة الناس، وفي العادة يكتب في لوح كبير، ويقرؤه التلميذ في حفل ختام القرآن.

واستعد الكتاب، واستعد التلاميذ فيه، واستعد الأقارب بإحضار الشربات و«الكراملة»، واستعد الشيخ حامد فدعا بعض أحبابه للحضور، واستعددت أنا لقراءة اللوح الأخير في اليوم المشهود، يوم الختمة الكبيرة.

وكان حفلا متواضعا، ولكنه كان جميلا ورائعا. كنت أقرأ السورة، وفي ختامها أقول: لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد. وأولاد الكتاب جميعا يرددون معي هذا الذكر بصوت جماعي مؤثر، من سورة الضحى إلى سورة الناس.

كان عمري في ذلك الحين ٩ سنوات وبضعة أشهر، وكنت أصغر طالب حفظ القرآن في القرية، ولولا الأشهر العشرة التي غبتها عن الكتاب لختمت القرآن قبل سنة تقريبا. ولكن كل شيء بأجل مسمى.

ومن ذلك اليوم شيخني الناس، وسموني (الشيخ يوسف) حافظ كتاب الله.

وقد عرفت فيما بعد: أن كثيرا من المسلمين في باكستان والهند وغيرها يلقبون من أتم القرآن حفظا بـ «الحافظ»، ويقرنونها باسمه حتى تصبح وكأنها جزء منه، وقد كان أحد طلابنا في قطر من باكستان، اسمه حافظ عبد القيوم، وظننت أول الأمر أن اسمه حافظ، مثل حافظ إبراهيم الشاعر المعروف، ولكني عرفت منه أن اسمه الأصلي عبد القيوم، أضيف إليه لقب «حافظ» بعد حفظه للقرآن، ولزمته طوال حياته.

كان من حق الشيخ حامد أن يحصل على جنيه مكافأة ختم القرآن، يأخذها عادة

من كل تلميذ يتم حفظ القرآن، ولكنه - رعاية لحالي - اكتفى بنصف جنيه. جزاه الله خيرا.

بعد ختمي للقرآن، ظللت في الكتاب، أثبت الحفظ من ناحية، وأساعد الشيخ حامدا في الإشراف على الصغار من الأولاد، ومعاونتهم على الحفظ، مع الذهاب إلى المدرسة الإلزامية، في فترة ما بعد الظهر، وهي مرحلة كنت قد بدأتها منذ سنتين ونصف السنة تقريبا، كما سنتحدث عن ذلك في الصفحات التالية.

حفظ «التحفة» في أحكام التجويد:

ومن الفوائد التي اجتنيتها من كتّاب الشيخ حامد: حفظ «تحفة الأطفال»، وهي منظومة أو أرجوزة تتضمن أحكام التجويد.

وقد اعتاد أهل العلم في العصور الأخيرة: أن يضعوا في كل علم أو فن «متنا» موجزا مركّزا، يحفظ ثم يشرح. وشاع عند طلبة العلم قولهم: من حفظ المتون، حاز الفنون!

وكثيرا ما يكون هذا المتن «منظوما» ليسهل حفظه، كما في «ألفية ابن مالك» في النحو والصرف، و«الجوهرة» للقاني في علم التوحيد، و«الرحبية» في علم الميراث، و«المسلّم» في علم المنطق، وكلها من بحر الرجز، و «الشاطبية» في علم القراءات القرآنية، وهي لامية من بحر الطويل.

ويبدو أن الشيخ حامدا قد لمس فيَّ سرعة الحفظ، وجودة الفهم والهضم، فحرص - رحمه الله - على أن يحفظني متن «التحفة» في التجويد، ويشرحه لي ويطبقه معي. وقد كانت قراءتي بفضل الله حسنة، ولكن بدون معرفة القواعد.

وقد جاءني - على ما أذكر - بنسخة قديمة من التحفة لأشرع في حفظها، وسرعان ما استوعبتها، وإن كنت لا أفهم مضمونها. وهي تبدأ بقول المؤلف:

يقــول راجي رحــمــة الغــفــور
دومــا: سليــمــان هو الجنزوري

الحمد لله، مصلّيا على

محمد وآله ومن تلا

وبعد المقدمة يشرع في بيان أحكام النون الساكنة والتنوين، وهي أهم أحكام علم التجويد، فيقول:

للنون إن تسكنْ وللتنوين

أربع[1] أحكام فخذ تبييني

فالأول: الإظهار قبل أحرف

للحلق: ست رُتِّبت، فلتعرفِ

همزٌ فهاءٌ، ثم عينٌ حاءُ

مهملتان، ثم غين خاءُ

وشرح لي الشيخ حامد: حروف الحلق الستة، وعرفت لأول مرة معنى أن الحرف «مهمل» أي غير منقوط، وأما المنقوط فيسمى «معجما».

وقرأت ربعا من القرآن، وأنا أطبق أحكام «الإظهار الحلْقي»، وقد وعيته وهضمته تماما.

ثم طفقت أتعلم بقايا الأحكام الأربعة من «الإدغام» مع الحروف التي تجمعها كلمة «يرملون». وهو قسمان: إدغام بغنة مع الحروف التي تجمعها كلمة «ينمو»، والقسم الثاني: إدغام بغير غنة. وفيه قال صاحب التحفة:

والثان: إدغام بغير غنة

في اللام والرا ثم كرّرنه

إلى آخر الأحكام الأربعة للنون الساكنة والتنوين، ثم سائر أحكام التجويد الأخرى. كان متن «التحفة» في التجويد أول المتون التي حفظتها، حتى قبل أن أدخل الأزهر.

---

(١) المعهود هنا: أربعة أحكام، ولكنه حذف التاء لضرورة النظم والوزن.

(٤)

إلى المدرسة الإلزامية

إلى المدرسة الإلزامية

في السنة السابعة من عمري، ضممت إلى الكتاب: التعلم في المدرسة الإلزامية الحكومية، في قريتنا، وكانت تتبع في ذلك الوقت مجلس مديرية الغربية.

كانت المدرسة تقع في حارتنا، وكان دخولها ضروريا ومهما، لتكمل ما يقوم به الكتاب.

وكان في المدرسة مدرس قريب لنا، هو الشيخ عبد الله زايد، وكان شيخا يلبس عمامة وجبة، وقال له عمي: نريد أن يدخل ابننا المدرسة، وكنت معه، فسألني الشيخ عبد الله: كم حفظت من القرآن؟ قلت: وصلت إلى سورة الجن. قال: حسن، تعال إلي غدا، وأنا أدخلك المدرسة فورا.

وفعلا ذهبت إليه في الغد، وأدخلني الفصل الأول، وكتب لي جدول الضرب في ورقة، وقال لي: تحفظه في أسبوع وتأتيني لأمتحنك فيه. وبعد يومين أو ثلاثة ذهبت إليه، وقلت له: حفظت الجدول، فاختبرني فوجدني قد حفظته عن ظهر قلب، ولم أخطئ في رقم واحد فيه.

كانت المدرسة تُستخدم في الصباح للبنات، وبعد الظهر للبنين. ولهذا كنت أذهب إلى الكتاب في الصباح، وإلى المدرسة في المساء.

وجدت المدرسة غير الكتاب تماما. من حيث المبنى، ومن حيث المعنى.

كان المبنى واسعا، هو عبارة عن «فيلا» كبيرة لأحد أقاربنا من جهة أمي، وهو

الشيخ أبو ريّا زغلول، الذي ترك القرية وأقام في مدينة المحلة الكبرى، وأجر بيته للمعارف أو لمجلس المديرية، ليكون مدرسة للقرية.

كان المبنى من دورين، في كل دور عدة حجرات، منها حجرة للناظر، وحجرة للمدرسين، وحجرات هي فصول للدراسة.

وكان في المبنى «بدروم» يشمل مراحيض ودورة مياه للتلاميذ. وبهذا حلت مشكلة كنا نعانيها في الكتاب، إذا أراد أحدنا أن يبول أو يتغوط، فلا بد أن يذهب إلى «الخرابة» بجوار الكتاب أو يذهب إلى مراحيض الجامع، أو يدخل حمام بيت الشيخ حامد نفسه.

كان الكتاب كله فصلا واحدا، وكانت المدرسة خمسة فصول.

وكان للكتاب مدرس واحد، هو صاحب الكتاب، ولكن كان في المدرسة عدد من المدرسين.

وكان الكتاب كله مرحلة واحدة، وكانت المدرسة مراحل، أو فرقا، ينتقل التلميذ من مرحلة إلى التي بعدها، أو من فرقة إلى التي تليها.

وكان الكتاب دراسة مستمرة صيفا وشتاء، لا نعرف إجازة إلا أيام الجمع والأعياد. أما المدرسة فهي تأخذ إجازة في فترة الصيف.

والخلاصة: أن الكتاب مؤسسة فردية تقوم على شخص واحد، هو صاحب الكتاب، وهو المعلم والناظر والمفتش، وهو واضع المنهج ومطبقه. أما المدرسة فهي مؤسسة جماعية، تتوزع فيها المسئولية على الناظر (المدير) والمعلمين، وعليها تفتيش من وزارة المعارف. والمدرسة تنفذ مناهج لم تضعها هي، وإنما وضعت من لجان متخصصة من قبل الوزارة.

والمؤسسات الفردية تعتمد على الفرد المؤسس، فإذا صلح صلحت المؤسسة، وإذا فسد فسدت المؤسسة، كالقلب من الجسد.

ولقد أتيح لي أن أجمع بين خيري المؤسستين، الكتّاب على ما به، فأعانني على حفظ القرآن وتجويده وحسن ترتيله.

والمدرسة لأتعلم فيها ما لا يوجد في الكتاب من المعارف التي لا بد منها.

ولقد عاب بعض التربويين المحْدثين الكتاب وحفظ القرآن في الصغر، على أساس النظرية التي تقول: لا يجوز أن يحفظ الطفل ما لا يفهم.

ولكن هذه النظرية لا ينبغي أن تطبق على القرآن، فإن حفظه في الصغر كالنقش على الحجر، ولقد حفظناه واختزنَّاه صغارا، فنفعنا كبارا. ومن حفظ القرآن في كبره قلما يثبت إلا بمجاهدة ومداومة على تلاوته ومدارسته، وإلا تفلت كما تتفلت الإبل من عقلها.

على أن القرآن ليس كغيره من النصوص. إنه نص متميز، ميسر للحفظ والفهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر: ١٧).

وأذكر أني كنت أقرؤه وأنا أفهم المعنى الإجمالي للآيات الكريمة، وإن كنت لا أفهم معاني بعض الألفاظ، ولكني أفهم الفحوى والمقصود منها.

ومما أذكره أني كنت أسمّع المقرر علي حفظه من الشيخ حامد من سورة الصافات، فقرأت قول الله تعالى في قصة لوط مع قومه، وقد أهلكهم الله، وتعقيب القرآن على ذلك بقوله مخاطبا مشركي مكة: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (الصافات: ١٣٧، ١٣٨).

وتلوت الآيتين هكذا: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ ﴾ ووصلت مصبحين مع قوله ﴿ وَبِاللَّيْلِ ﴾ ووقفت عندها، ثم قلت: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾. فقال الشيخ حامد: فتح الله عليك. فقد فهم الشيخ حامد أني وعيت المعنى، فدعا لي.

عندما دخلت المدرسة وألحقت بالصف الأول فيها، سُلِّمْتُ عدة كراسات، لكل

مادة من المواد كراسة، كما سلم لي قلم رصاص، ومحاءة، وسلم لي كذلك كراسة خاصة لتحسين الخط، فيها خطوط من خط النسخ وخط الرقعة، وخط الثلث، أحاول أن أقلدها.

وكان مدرسي في الصف الأول مدرسا من جهة السنطة، اسمه الشيخ على سليمان خليل، كان يلبس لباس المشايخ الجبة والقفطان. وكان هذا لباسا شائعا بين المعلمين مع البذلة الإفرنجية، ذلك أن معظم المدرسين بهذا النوع من المدارس الإلزامية كانوا من خريجي مدرسة المعلمين، وكانت تأخذ طلابها من حفاظ القرآن.

وقد رحب بي الشيخ علي خليل، وما أسرع ما ظهر تفوقي على تلاميذ الفصل، ولعل دراستي السابقة في الكتاب ساعدتني على ذلك. وكان يسميني «بيرنجي الفصل» أي أول الفصل. ولم أعرف أصل هذه الكلمة حتى زرت إستانبول في تركية سنة ١٩٦٧م. وعرفت اشتقاق هذه الكلمة، فهي مأخوذة من كلمة «بير» أي رقم (١)، ومعنى بيرنجي: أي الشخص رقم (١) أي الأول.

ومن مزايا المدرسة: أنها تستخدم المنهج التربوي في تقويم أعمال التلاميذ، وتعطيهم عليها درجات في أرقام. كانت درجاتي عادة عشرة على عشرة، مشفوعة بكلمة: حسن أو حسن جدا، وفي هذا تشجيع وحفز للتلاميذ إلى أن يتفوقوا ويتقنوا، وإذا تفوقوا أن يحافظوا على تفوقهم.

وعندما انتقلت من الفرقة الأولى إلى الفرقة الثانية وحصلت على الإجازة لنستمتع بحق اللعب والراحة فيها، وعدنا إلى المدرسة، كان مدرسنا من أبناء القرية، وهو الأستاذ المربي الفاضل: سعيد سليمان ثابت، ابن شيخ معلمي القرية الشيخ سليمان تائب أو ثابت.

وكان الأستاذ سعيد أو سعيد أفندي معلما بفطرته وخبرته، وكانت بيننا وبينه مودة ومحبة، وكان يدرس لنا التاريخ والجغرافيا وعلم «الأشياء» (ويُعْنَى به ما نريد

الآن من مادة «العلوم»). والصحة والحساب والإملاء والخط والمطالعة والمحفوظات. فلم يكن مدرس مادة، إنما هو مدرس فصل أو صف.

وقد درس لنا سعيد أفندي أكثر من سنة، وكان له حس أدبي قوي يتجلى في اختياراته لما نحفظه من قطع أدبية. ومما أذكره مما حفظه لنا شعر للإمام الشافعي:

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة

تجرع ذل الجهل طول حياته

ومن فاته التعليم وقت شبابه

فكبر عليه أربعا لوفاته

حياة الفتى - والله - بالعلم والتقى

إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

وفي السنة الثالثة ختمت القرآن بالكتاب، وأصبحت متفرغا للمدرسة، وإن لم أنقطع عن الكتاب، فقد ظللت فيه، لمعاونة الشيخ حامد في التسميع للتلاميذ الصغار والإشراف عليهم.

وفي السنة الخامسة انتقلت المدرسة إلى مبنى جديد خاص بالبنين، وأصبح للبنات مبنى آخر مستقل لهن، وبهذا صارت المدرسة صباحية، فتعارضت المدرسة مع الكتاب، ومع هذا كنت أذهب إلى الكتاب بعد الظهر.

أول جائزة في حياتي

أحفظ صبي للقرآن في الغربية:

وفي هذه المرحلة (ما بعد ختم القرآن، ولم أزل في المدرسة الإلزامية، وأظن أن ذلك كان في صيف سنة ١٩٣٧م وأنا في الحادية عشرة من عمري)، استدعيت إلى إدارة المنطقة التعليمية بمجلس مديرية الغربية بمدينة طنطا، للامتحان في القرآن

الكريم. لم أعلم بذلك إلا يوم السفر، وسافرت مع الشيخ «حامد أبو زويل» محفِّظي للقرآن.

وحين وصلنا إلى موقع الإدارة، ناداني المفتش المسئول عن الامتحان، وكنت أعرفه، فقد زار مدرستنا من قبل، وهو الشيخ عبد المقصود سليمان عيد، وكان رجلا مهيبا مشرق الوجه، طويل القامة، يلبس جبة وعمامة، وهو والد المحامي الكبير والنائب الشهير الأستاذ عادل عيد.

ولما دخلت عليه هش في وجهي، وأراد أن يزيل الرهبة من نفسي، وقال لي: طبعا أنت حافظ القرآن يا بني؟ قلت له: الحمد لله، أحفظه جيدا.

وهنا وجه إلي نحو ثلاثين سؤالا من مختلف أجزاء القرآن وسوره، ولا أذكر أني أخطأت في الإجابة أو تلعثمت. فقال في النهاية: فتح الله عليك يا بني، وبارك فيك. ولك عندنا مكافأة بوصفك أحفظ التلاميذ في المديرية!

ولا أذكر هل صرفت المكافأة يومها أو بعدها بأيام؟ المهم أني صرفت هذه المكافأة، وقدرها جنيه وربع جنيه، وهي أول جائزة أتسلمها في حياتي.

ومنذ سنوات حضرت الاحتفال الأول لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، حيث كُرِّم شيخنا الشيخ محمد متولي الشعرواي بوصفه شخصية العام الإسلامية، وكرم أوائل الحفاظ للقرآن من أنحاء العالم، ممن لا يزيد عمرهم على ٢١ عاما. وكان لي كلمة في ذلك الحفل، هنأت فيها صاحب الجائزة الشيخ محمد بن راشد المكتوم، ولي عهد دبي ووزير دفاع دولة الإمارات، وهنأت شيخنا الشعرواي، وهنأت الحفاظ الفائزين. وكان نصيب الأول ٢٥٠ ألف درهم إماراتي (ربع مليون) وقلت لهم: إني حصلت على الجائزة الأولى في صباي وكانت جنيها وربع جنيه. صحيح أن الجنيه والربع الآن قد تساوي نحو ألف درهم، ولكن جائزة الأول ٢٥٠ألفا. فهذا من فضل الله تعالى على حفاظ كتابه، والدول العربية تتنافس في ذلك. وقد وسع الله عليها فلتوسع على أهل القرآن.

المهم أن فرحتي بهذه الجائزة كانت لا تقدر، لأنها جاءت على غير توقع، ودلت على أن الله لا يضيع أهل القرآن. كيف، وهم أهل الله وخاصته؟!

وقد حصل الشيخ حامد على ربع الجنيه من المكافأة، وبقي الجنيه لي. وأصبحت أملك مما كسبت يداي جنيها مصريا. وقد سلمت هذا الجنيه لعمي، فقال لي: لك به عشر الجاموسة. وأنت ونصيبك، فما يجيء منها لك عشره. وما يجيء منها عادة «عجل» في كل سنة، يباع بعد أسابيع «بتلو» بخمسة جنيهات. ومعنى هذا أن يكسب الجنيه في السنة نصف جنيه، أي بحساب الأرقام ٥٠٪.

ولكن الذي حدث أن الجاموسة لم تحمل في تلك السنة ولم تلد، على خلاف السنوات الماضية. وقال عمي: هذا حظك يا بني، وهي أرزاق من عند الله.

وأذكر أني قبل ذلك اجتمع عندي من عيدياتي (ما آخذه في الأعياد من الأقارب) نصف جنيه (خمسون قرشا) فاقترحت علي جدتي لأمي، أن تشتري لي بها «أوزة بياضة» وهذه تبيض كل عدة أشهر نحو عشر بيضات، وترقد عليها، وتفقس كل بيضة أوزة خضراء صغيرة، تتعهدها جدتي مع أوزها وطيورها ودواجنها، وكانت ماهرة في تربية هذه الأشياء وموفقة فيها، فإذا كبرت الإوزات الصغيرة قليلا باعتها بمبلغ يساوي ضعف رأسمالي أو أكثر.

فماذا حدث لأوزتي؟

لقد باضت بيضتين ثم توقفت، ودون سبب معروف. ولا يمكن أن ترقد الأوزة على بيضتين. وقالت لي جدتي: هذا حظك يا بني، إنها أرزاق!

وأنا لست من المتطيرين والمتشائمين، ولكن يبدو لي من تجاربي وممارساتي في عالم التجارة والمال: أني من قليلي الحظ في هذا المجال. فجل المشروعات التي دخلت فيها أو شاركت فيها قدر الله لها أن تخسر. وليس هذا في مشروع ولا اثنين ولا ثلاثة. تكاد كل المشروعات التي ساهمت فيها - إلا القليل منها - تنتهي بضياع ما وضعت فيها من مدخراتي من كسبي ومن كتبي.

أول «مائة جنيه» ملكتها في حياتي كانت من حقوق تأليف أول طبعة من كتابي «الحلال والحرام في الإسلام» وكانت ستين جنيها، مع أربعين أخرى ادخرتها، وكانت المائة جنيه في هذا الوقت ثروة. مائة الجنيه هذه، وضعتها تأمينا لقطعة أرض في مدينة نصر بالقاهرة أول ظهورها، عن طريق بعض الجمعيات التعاونية، وسلمنا المبلغ بواسطة الجمعية لبنك يسمى «بنك التعاون». وحاولت بعد ذلك: أن أستفيد من ذلك بأخذ قطعة أرض، فلم أستطع. ثم حاولت أن أسترد المبلغ فلم أوفق، وخصوصا أني سافرت بعد ذلك إلى قطر، وضاعت الجنيهات المائة إلى اليوم.

وبعد عدة سنوات من قدومي إلى قطر، عرض علي سكرتيري في المعهد الديني: أن أشترك معه في شراء أرض للبناء، وهذه تتضاعف أسعارها بسرعة. ووافقته على ذلك، ودفعت له ما كان عندي في ذلك الوقت وهو خمسة وعشرون ألف ريال - أو روبية - ومرت عدة سنوات والأرض ساكنة لم تتحرك، فاضطر الأخ إلى أن يبيعها بثمن شرائها، وأن يأخذ كلانا ما دفعه، والحمد لله على عدم الخسارة.

ومن المفارقات: أن هذه الأرض التي بيعت - بعد سنوات - بثمن شرائها، لم تكد سنة واحدة تمضي عليها، حتى تغير سعرها، ونفقت سوقها.

وبمناسبة أرض المباني، حدثت في قطر - وفي بلاد الخليج عامة - في بعض السنين طفرة هائلة في أسعار أراضي البناء، وربح بعض الناس منها ملايين في ذلك الوقت. وقد رأى بعض أصدقائي من التجار القطريين هذه الظاهرة، فاقترح علي أن أشترك معه في شراء قطعة أرض رآها مناسبة، وكان معي مبلغ كبير نحو نصف مليون ريال، وبالفعل شاركت به معه، وجاءت له فيه صفقة تربح قليلا، فطمع ولم يبع. ثم ما لبثت الأرض أن عادت إلى أسعارها الطبيعية، وزالت هذه الطفرة المجنونة، وحدث نقص هائل في أسعار الأرض، حتى إن بعض الأراضي التي اشتريت لم تعد تساوي عشر ثمن شرائها، وكان الناس يسألونني عن زكاة الأرض في تلك الفترة، فأقول: قوِّمها وأد زكاتها.

فيقول: كيف أقومها ولا أجد من يسومها؟ فقد عم الكساد، وما عاد أحد يشتري الأرض بكثير ولا قليل.

وقلت: عوضي على الله، ومرت سنوات طويلة، حتى بيعت الأرض بالتقسيط وعاد لي ثمنها الذي دفعته مرة واحدة على سنوات.

ولي تجارب شتى لا داعي لذكرها: في قطر، وفي مصر في شركات توظيف الأموال، وفي السودان وفي غيرها، آخرها «بنك التقوى» الذي وضعت فيه جل مدخراتي، في أسهمه ومضارباته. وحرضت أولادي على أن يشتركوا فيه، وقد كان أحسن البنوك الإسلامية ربحا، وأسلمها معاملة، حتى إنه لم يعمل في المرابحة قط، ولم يدخل أسواق السلع والمعادن لما فيها من شبهة «الصوريّة». ثم دارت عليه الدوائر، فإذا هو يصفى الآن، ولا ندري: أنحصل على ١٠٪ من رأسمالنا أم لا؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله. لقد قال الأخ يوسف ندا رئيس البنك ما قالته جدتي منذ نحو سبعين عاما: إنها أرزاق!

وبعض شركات التوظيف في مصر، (مثل شركة الحجاز) لم أحصل أنا ولا أولادي على فلس واحد من أموالنا فيها إلى اليوم.

ومع هذا، فإن خير الله عندي كثير، وفضله لا يجحد، ونعمه لا تحصى، وما ضاع مني شيء إلا عوضني الله مثله أو خيرا منه، ولا يدري أحد أين يكون الخير ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (البقرة: ٢١٦).

وقد ذكروا عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال:

رضينا قسمة الرزاق فينا ... لنا علم، وللجهال مال

فعز المال يفنى عن قريب ... وعز العلم باق لا يزال

(٥)

ما بين المدرسة والمعهد

ماذا بعد الكُتَّاب والمدرسة؟

بعد أن أنهيت المدرسة الإلزامية، وقبل ذلك ختمت القرآن، دخلت في مرحلة جديدة، (مرحلة البحث عن المستقبل): ماذا بعد الكتاب والمدرسة؟

كان قلبي معلقا بأمر واحد، لا أفكر في غيره، ولا أرضى بديلا عنه، وهو الالتحاق بمعهد طنطا الديني، لأكون أحد طلاب الأزهر.

ولكن هذه الرغبة المنطقية والمشروعة، لم تكن بالأمر السهل أو الهين، فقد كان يقف دونها عقبات وعقبات.

كان الأزهريون المتخرجون في ذلك الزمن مضيعي الحقوق، لا يجدون عملا يتعيشون منه. فهم يتخرجون في كليات الشريعة أو أصول الدين أو اللغة العربية، وينالون منها الشهادة العالمية. ويحصلون بعد العالمية على أحد التخصصات الثلاثة في الأزهر: تخصص القضاء لخريجي كليات الشريعة، أو تخصص الدعوة والإرشاد لخريجي أصول الدين، أو تخصص التدريس لخريجي الكليات الثلاث[1]. يقضي الطالب في ذلك خمسة عشر عاما متواصلة، غير السنوات الأولى التي حفظ فيها القرآن، ثم يعود إلى بلده، ليقعد متعطلا متبطلا بلا عمل.

ذلك أن فرص العمل أمام علماء الأزهر كانت محدودة جدا:

---

(١) لم يكن في الأزهر آنذاك إلا كليات ثلاث: الشريعة، وأصول الدين، واللغة العربية.

فإما أن يعين مدرسا في معاهد الأزهر الدينية، وهذه فيها كفايتها، على أن مدرسي الأزهر كانوا يشكون من الظلم المبين الواقع عليهم، فقد كان أحدهم يعين في المعاهد بمرتب ثلاثة جنيهات، في حين أن خريجي مدارس المعلمين الأولية، الذين يعينون بالمدارس الإلزامية يتقاضون أربعة جنيهات راتبا لهم عقب التخرج.

وإما أن يعين إماما وخطيبا في الأوقاف. وكانت المساجد التابعة لها محدودة كذلك، حتى إن قريتنا الكبيرة وبها خمسة جوامع، لم يكن واحد منها تابعا للأوقاف.

وإما أن يعين واعظا بالأزهر، وهؤلاء عدد محدود في القطر المصري كله.

ولم يكن تدريس الدين بالتعليم العام إجباريا. وكان التعليم العام ذاته محدود الدائرة أيضا، فلم يصبح التعليم حقا لكل مواطن، ويصبح كالماء والهواء، كما قال طه حسين بعد.

فلا غرو أن يتخرج أبناء الأزهر، ثم يجلسوا على «المصاطب» كما يقول أهل القرية، كأنما كان غرسهم بلا ثمر. وكان في قريتنا ـ للأسف ـ عدد من هؤلاء الخريجين العاطلين، منهم الشيخ عبد المطلب البتة، الذي لم يلبث أن عين مدرسا بمعاهد الأزهر حيث كان الأول على دفعته، ومنهم الشيخ عبد المطلب غانم، وابن عمه الشيخ سليمان غانم.

هذه هي صورة خريجي الأزهر، عندما ختمت القرآن، وأنهيت المدرسة الإلزامية، أي وأنا في سن الثانية عشرة من العمر.

وهذه الصورة الموئسة البائسة هي التي جعلت عمي رحمه الله لا يشجعني على التقدم إلى الأزهر، ويقول: إن الأزهر طريقه طويل، ثم هو بعد ذلك عاقبته ما نراه بأعيننا.

كان عمي يفكر في طريق يكون أقصر وأقرب إلى كسب العيش بسرعة، من هذا الطريق الطويل، الذي يعرف أوله، ولا يعرف آخره.

كان يقول: يمكن أن نفتح لك بابا إلى الحارة من «المنظره» ونأتي لك فيه ببعض الخردوات والأشياء التي تباع للناس، مما تحتويه البقالات عادة، تبدأ صغيرا ثم تكبر، كما كان فلان وفلان.

وإما أن تتعلم حرفة نظيفة مثل «الخياطة»، فكل الناس محتاجون إليها، ولا تتكلف أكثر من ماكينة الخياطة، وهذه يمكن تدبيرها بعون الله.

وإما أن تتعلم حساب «الدوبيا»، وهو حساب يستخدم في الدوائر الزراعية وغيرها، وتعمل كاتبا في إحدى هذه الدوائر، أو في أحد المتاجر الكبرى بمدينة المحلة، أو بغير ذلك. وهذا يوفر لك مرتبا معقولا في عمل محترم نظيف.

كل هذه المقترحات لم تجد عندي أذنا صاغية، فلم أكن مستريحا لأي منها، ولا تتفق واحدة منها مع طبيعتي وتطلعاتي.

وبقيت أنتظر فرج الله، لا أعمل شيئا، إلا الذهاب إلى الحقل أحيانا مع عمي وأبناء عمي. وأنا لا أحب الفلاحة أيضا، ولا أميل إليها. ولهذا كانوا يَعُدُّونني فلاحا خائبا، أو على الأقل: غير شاطر كأبناء جيراننا الفلاحين.

وقد شاركت في «تنقية الدودة» من القطن، كما شاركت في «جني القطن»، وهو عمل شاق، يكون في شدة الحر، ويأكل الناس فيه الخبز الخشن بالجبن القديم والمش والبصل. وتبين لي بعد ذلك أن هذا لحكمة، وهي حاجة الجسم إلى الملح، نتيجة ما يتصبب منه من عرق. أما الشرب فيشرب الناس من مياه الترع، أو من جرار يملئونها منها.

وقد أغراني بعض الشباب من جيراننا بأن أذهب معهم لجني القطن بالأجر، وأظن الأجرة كانت لليوم بقرشين صاغ، نعمل شهرا فنأخذ ستين قرشا! وكان هذا مبلغا ذا قيمة في نظر الناس حين ذاك. واستجبت لهم، وذهبت لجمع القطن بالأجرة، ولكني لم أصبر على هذا العمل الشاق أكثر من ثلاثة أيام وانقطعت عنه. فكل ميسر لما خلق له، ويبدو من تصاريف القدر أني لم أخلق لمثل ذلك.

ومن الوقائع التي حدثت في تلك الفترة: حادث مهم، ربما لو تم لغير مجرى حياتي. ذلك أن شركة مصر للغزل والنسج كانت قد أنشأت مصنعها منذ سنوات قليلة في مدينة المحلة الكبرى بجوارنا، وقد انضم إليها عدد كبير من أبناء القرية، والقرى المحيطة بنا، وأصبحوا يذهبون يوميا إلى المحلة ويعودون عن طريق الدراجات، التي يملكها كل واحد منهم.

وكان من هؤلاء ابن خالة لي يكبرني بعدة سنوات، هو عبد الحي الطنطاوي مراد. وقد ظل يغريني، ويغري والدتي بأن أذهب إلى المحلة في يوم معين يطلبون فيه العمال الجدد، ويفرزون الطالبين، وهم كثيرون في العادة، ويختارون بعضهم وفق شروطهم ومواصفاتهم.

وبعد إلحاح من ابن خالتي، ذهبت إلى شركة المحلة، وأنا كاره وخائف أن أكون ممن يقبلون في هذا المجال، وأتمنى من كل قلبي ألا أقبل. وفعلا جاء الذين يفرزون المتقدمين، ولم أكن واحدا ممن اختاروهم. وحمدت الله على ذلك: وإن غضب ابن خالتي علي، وحملني مسئولية عدم اختياري. والحقيقة أني لم أفعل شيئا، ولكن الله تعالى صرفهم عن اختياري لحكمة يعلمها.

كان ذلك عندما بلغت الثانية عشرة من عمري، وقد بقيت في القرية مُعَلَّقًا، لا أدري ما مصيري، تاركا الأمر لله، يدبره كيف يشاء.

كنت أقضي الوقت أحيانا مع خالي في رحلاته التجارية، ولكني لا أحب أن أكون تاجرا، وأحيانا مع عمي وابن عمي في الأعمال الزراعية، وهي مهنة لا أحسنها ولا أحبها أيضا.

وقد قضيت منذ ختمت القرآن عدة سنوات من حياتي في فراغ، لا أجد ما يملؤه، إذ لم يكن في القرية ما يملؤه.

لو وجدت من يعلمني لغة أجنبية لخطوت فيها خطوات سريعة، فقد كانت قدرتي اللغوية فائقة، ولكن لم يكن في قريتنا ما يعين على ذلك، وما يدفع إليه.

أو لو وجدت من يحفظني كتب الحديث كالبخاري ومسلم وغيرها، لوجدت عندي استعدادا غير عادي، ربما يعيد بعض عهد السابقين.

ولو وجدت من ييسر لي كتب الأدب العربي لالتهمتها.

ولكني جلست أقرأ بعض سيرة بني هلال أو غيرها من الملاحم الشعبية، التي كانت ميسورة للناس في ذلك الوقت.

الشيخ الذي أقنع عمي:

وبقيت هكذا منتظرا متربصا، سائلا الله تعالى أن يختار لي الخير، داعيا بما دعا به نبي الله موسى حين آوى إلى الظل في مدين، فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ (القصص: ٢٤).

وشاءت إرادة الله جل شأنه أن يحرك هذا الأمر الساكن. وإذا أراد الله أمرا هيأ له الأسباب، وأزال من طريقه الموانع.

فقد كنت في يوم من أيام الصيف مع عمي وابنَيْ عمي في الحقل، وفي وقت القيلولة. وتحت شجرة من أشجار الجميز ذات الظل الوارف الثقيل، جلسنا نتناول الغداء، وبجوارنا قُلَّةٌ فخارية اعتاد الفلاحون أن يصطحبوها معهم مليئة بالماء، تهب عليها نسمات الهواء، فتمنحها شيئا من البرودة التي تترطب بها الحلوق في هذا الجو الحار.

في هذا الوقت مر شيخ يلبس جبة وعمامة من قرية «الهياتم» المجاورة لنا، والتي تشاركنا في محطة القطار، جاء في زيارة إلى مسجد سيدي عبد الله بن الحارث، وزيارة بعض من يعرفهم من أهل صفط. ومال الشيخ إلى مجلسنا، وجلس بجوارنا، وقال: هل عندكم من شربة ماء؟

فقلنا له: نعم، وأعطيناه القُلَّة ليشرب منها.

ثم قال له عمي : يا سيدنا الشيخ ، نريد أن تختبر هذا الشيخ الصغير ، ابننا .

فقال له : هل هو ابنك؟

قال : نعم .

ثم توجه إلي قائلا : هل تحفظ القرآن؟

قلت : نعم والحمد لله ، ولا أسقط منه حرفا .

فسألني عدة أسئلة من القرآن من أوائله وأواسطه وأواخره ، فوجدني أحفظه حفظا كاملا ، كما رآني أحسن تجويده وتلاوته .

فوجه الحديث إلى عمي وقال له : ما اسمك؟ قال : أحمد .

قال : يا عم أحمد . هذا الولد يجب أن يذهب إلى الأزهر . حرام ألا يتعلم في الأزهر . لماذا لا تقدم له في الأزهر؟

قال عمي : يا سيدنا الشيخ ، نحن أناس فقراء ، والأزهر طريقه طويل ، ومع هذا يتخرج علماء الأزهر منه فلا يجدون عملا . وهاهم أولاء علماء بلدنا قاعدون بلا عمل .

قال الشيخ : يا عم أحمد ، أنت رجل فلاح ، وإذا بذرت في الأرض بذرة ، هل تضمن أن تنمو البذرة حتى تخرج الثمرة؟

قال : لا .

قال : ألم يحدث في بعض السنوات أن أكلت الدودة زرعك؟

قال : حدث .

قال الشيخ : هل امتنعت بعدها عن الزرع؟

قال عمي : لا . أنا أؤدي واجبي والباقي على الله .

قال الشيخ : أحسنت ، أنت عليك أن تؤدي واجبك ، والباقي على الله .

يا عم أحمد: هل تعرف ما يحدث لك بعد أسبوع، أو غدا؟

قال عمي: لا. المستقبل بيد الله.

قال الشيخ: فإذا كنت لا تعرف ماذا يحدث غدا، لأن المستقبل بيد الله، فكيف تتحكم فيما سيحدث بعد خمسة عشر عاما تتغير فيها أحوال، وتزول دول، وتقوم دول؟ أدِّ الواجب عليك يا عم أحمد، واترك المستقبل لمن يدبره!

ثم توجه الشيخ إلي، وقال لي: هل يكفيك عشرة قروش في الشهر؟

قلت له: يكفيني خمسة، بل أنا أستطيع أن أعيش على العيش والدُّقَّة.

قال ابنا عمي: نحن نكري أنفسنا ونوفر له ما يحتاج إليه.

هذا خلاصة ما جرى من حوار بين الشيخ وبين الأسرة، عبرت عنه بأسلوبي.

وكأنما كان هذا الشيخ الذي لم نسأله عن اسمه، ولم ألقه بعد ذلك، كان رسولا من السماء لتحريك هذا الأمر. ولو كنت ممن يبالغون في إثبات الخوارق والكرامات - شأن الكثيرين ممن ينتسبون إلى الدين - لقلت: إن هذا الرجل كان ملكا تصور بصورة رجل، ليحل الله على يديه مشكلتي ثم اختفى!

ولكن الواقع أنه رجل من بني آدم من قرية الهياتم، وهو سبب من الأسباب ساقه الله ليصنع به قدره، وفق سننه التي لا تتبدل.

وبدأنا العمل لتقديم الطلب إلى المعهد الديني بطنطا. وسألنا ابن عمتي يوسف عبد الله النجار، الذي كان يدرس في المعهد الثانوي بطنطا: ماذا يطلب منا لنستوفي أوراق التقديم إلى المعهد؟

فقال: أهم شيء هو استصدار شهادة ميلاد أو مستخرج رسمي بشهادة الميلاد من مديرية طنطا، وهذا يستغرق وقتا طويلا، ولم يبق إلا أسبوعان على آخر موعد لتقديم طلبات الانتساب إلى المعهد.

وكنا في يوم خميس، فقلنا: لنتحرك إلى طنطا، ابتداء من يوم السبت. وكانت الإجراءات الروتينية معقدة جدا، فلم يكف الأسبوعان لاستخراج شهادة الميلاد، وضاعت فرصة التقديم لهذا العام.

كل ما أحضرته من المطلوب للتقديم: أربع صور شمسية (فوتوغرافية). ذهبت مع ابن عمة لي على دراجة إلى مدينة المحلة، وطلب من مصور يقف في الشارع أن يصورني، فصورني وأنا ألبس الجلباب والطاقية. وقد كانت عندي واحدة من هذه الصور احتفظ بها صديقنا وزميلنا في السكن الأستاذ كمال عبد المجيد المصري، وأهداها إلي، ثم ذهبت للأسف، إذ لم أحفظها كما ينبغي. ولا توجد عندي لفترة الصبا أي صورة، فقد كان الناس في القرى لا يعنون بهذا الأمر، ولذا لا توجد صورة لأبي ولا لأمي. ولم أذهب إلى مصور بعد ذلك، إلا من أجل الصورة المطلوبة مني لاستمارة الشهادة الابتدائية.

المهم أنهم قالوا: ننتظر هذه السنة، ونحضر الأوراق، لنغتنم أول فرصة للتقديم. ولم يكن للسنين قيمة كبيرة عند الناس. أما عندي، فكانت السنة طويلة طويلة، لأني أنتظر فواتها على أحر من الجمر، كأني أعد أيامها ولياليها. أشبه بأيام الفراق لدى العشاق. فأنا الآن في الرابعة عشرة من عمري، ووقتي لا أحسن الاستفادة منه.

على كل حال، فإن هذا قدر الله الذي لا راد له، ولا يقابل إلا بالرضا والتسليم. وكما قال الشاعر قديما:

إذا الجَد لم يك لي مسعدا

فما حركاتي إلا سكون

إذا لم يكن ما يريد الفتى

على رغمه، فليرد ما يكون

وهكذا أردت ما هو كائن بالفعل، ومضت السنة بوردها وشوكها، بحلوها ومرها، حتى جاء موعد التقديم، وجئت بطلب الانتساب إلى المعهد، وقد ملأه بقلمه وخط يده العالم الجليل الشيخ عبد المطلب البتة. وأذكر أن من «الخانات» التي يجب أن تملأ: خانة المذهب الذي يختاره الطالب. والواقع أني كنت أريد أن أقول للشيخ عبد المطلب: المذهب شافعي، على مذهب أهل القرية. ولكن الشيخ عبد المطلب بادرني وقال: ما رأيك يا شيخ يوسف، تكون حنفيا مثلي؟ قلت: على بركة الله، لأكن حنفيا مثلك، وهكذا صرت حنفيا بهذه المصادفة.

وكان في معهد طنطا ومعاهد الأقاليم كلها ثلاثة مذاهب يختار الطالب واحدا منها: الشافعي، والحنفي، والمالكي.

أما المذهب الحنبلي فكان يدرس في معهد القاهرة وحده. وكان يصرف لطلابه مكافأة تشجيعا لهم، لقلة الراغبين فيه. وكانت فلسفة الأزهر ألا يبقى مذهب من المذاهب الأربعة دون أن يكون له طلاب - وإن قل عددهم - يدرسونه.

وكان الوجه البحري ينتشر فيه مذهب الشافعي، كما كان الصعيد ينتشر فيه مذهب مالك. أما المذهب الحنفي، فكان له أتباع منذ عهد الدولة العثمانية. وكان القضاء الشرعي يعتمد مذهبه في الحكم.

وذهبنا لإحضار شهادة إدارية، ممضاة من نائب العمدة وشيخ البلد. وكان نائب العمدة رجلا فاضلا، اسمه الشيخ خضر أبو شادي، وقد أمضى لنا الشهادة، وقال لعمي: يا عم أحمد، أنا شايف أن ابن أخيك هذا سيكون له شأن في مديرية الغربية. فقال له عمي: ربنا يسمع منك.

وأذكر أنه بعد سنوات، وأنا طالب في الثانوي، وقد طفق الناس في القرية وفي طنطا يتحدثون عني، كنت أخطب في المساجد، وأتحدث في المناسبات، ولا سيما في المآتم. قابلني الشيخ خضر، وقال لي: لعلك تذكر ما قلته لعمك من قبل: إنه سيكون لك شأن في مديرية الغربية، وأنا الآن أقول: إنه سيكون لك شأن في بَرِّ مصر كله.

وقدمت الانتساب وتحدد امتحان القبول، وكنا نمتحن في القرآن شفهيا، وفي الحساب والإملاء تحريريا. والحمد لله فقد تم الامتحان بنجاح، وأرسلت إدارة المعهد كتابا إلى ولي أمري يقول له فيه: الطالب المذكور نجح في امتحان القبول، وعليه الحضور إلى المعهد يوم . . . مرتديا الزي الأزهري، وهو: العمامة والجبة ذات الطوق (الكاكولة).

وكنا ثمانية من أبناء صفط تقدمنا إلى المعهد، وأذكر أن أكثرهم نجح في امتحان القبول، وأن بعضهم قد تخلف بعد سنة واحدة، أو أكثر، مثل أحمد المهدي الفخراني. وبعضهم حصل على الشهادة الابتدائية، مثل منصور السعيد صقر. ومنهم من بقي حتى حصل على الشهادة الثانوية، مثل زميلي في الفصل وفي المذهب نجيب عبد الله أبو رية، وقد اكتفى بالثانوية، وعمل بها في إحدى الوظائف الحكومية، ثم انقطعت عني أخباره.

كان أهل القرية في هذه الفترة كثيرا ما يقدمونني لأؤمهم في الصلوات الجهرية، وخصوصا صلاة الفجر في رمضان. وعلى الأخص في فجر الجمعة.

فقد كنت أقرأ سورة السجدة كاملة، على حين تعود كثير من الأئمة أن يقرأ جملة آيات تشتمل على آية السجدة.

وكنت في هذا الوقت عميق التأثر بالقرآن الكريم، شديد التجاوب مع وعده ووعيده، يكاد البكاء يغلبني، وتسبقني الدموع، ويتأثر الناس خلفي بتأثري، ويظهر نحيبهم في الصفوف؛ مما يذكرنا بمن وصفهم الله في كتابه ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)** ﴾ (المائدة: ٨٣).

(٦)

إلى المعهد الديني في طنطا

(المرحلة الابتدائية)

إلى المعهد الديني في طنطا
(المرحلة الابتدائية)

أعددنا العدة للذهاب إلى مدينة طنطا عاصمة مديرية الغربية، وثالث المدن المصرية، بعد القاهرة والإسكندرية، وفيها يقع المعهد الديني.

وكانت العدة التي أعددناها لهذا المرحلة الجديدة: سلة فيها بعض الزاد اللازم للمسافر، مثل خبز القمح الجاف، وبعض القرص والقراقيش، وبعض الجبن (القريش) وبعض البيض والسمن. والمقصود من هذه الأشياء تقليل النفقات، فلا أضطر لشراء أشياء للغذاء إلا ما لا بد منه. كما كان من العدة التي أعددتها غياران آخران غير الذي ألبسه، فما كان في إمكاني أن أملك من الثياب أكثر من ذلك.

ومن العدة التي أعددتها: الطربوش والشال، وهما المقومان الأساسيان للعمامة المطلوبة. أما الجبة ذات الطوق (الكاكولة)، فقد تأخرت إلى السنة الأولى الثانوية.

ومن العدة اللازمة: بطانية صوف خشنة كأن فيها شوكا، وليست كبطاطين هذه الأيام الناعمة. وكذلك مخدة أتوسدها عند النوم.

وقد حملت هذه الأشياء كلها إلى محطة القطار، وساعدني ابن عمي في توصيلها إلى المحطة، ومن محطة صفط إلى محطة طنطا، ثم إلى المنزل الذي سنسكن فيه، أو الحجرة التي سنسكن فيها ساعدني حمال (شيال) أخذ قرش تعريفة، على ما أذكر.

وكان ابن عمتي يوسف عبد الله النجار، وهو طالب في السنة الرابعة الثانوية بالمعهد، قد سبقنا إلى طنطا واستأجر لنا حجرة بمبلغ ١٨ ثمانية عشر قرشا، يسكنها ثلاثة: ابن عمتي وأنا وزميل لي في السنة الأولى له صلة قرابة بنا هو منصور السعيد صقر.

كانت الحجرة في الدور الأرضي، وكانت أرضيتها من التراب، وقد كانت لابن عمتي حصيرة أحضرها لنفترشها. ولم يكن من حقنا استخدام مرحاض المنزل إلا للضرورة، فكنا نستخدم مراحيض وحمامات ومغاسل أعدتها البلدية، وفيها ماء بارد وساخن، وكانت هذه الأشياء على بعد خطوات من سكننا، وهذا من فضل الله علينا. وكانت هذه المغاسل البلدية لخدمة أبناء الشعب في المناطق الفقيرة، وكانت خطوة متقدمة لم يعد لها نظير فيما بعد.

بقينا في هذه الحجرة عدة أشهر ثم انتقلنا إلى سكن آخر في المنطقة نفسها أو الحارة نفسها كان أفضل بكثير من الحجرة الأولى، فقد كان هذا السكن عبارة عن حجرتين متداخلتين مبلطتين بالخشب، ولهما بلكونة، وأجرتهما ٢١ واحد وعشرون قرشا، أي كل واحد منا عليه (٧) سبعة قروش.

إجازة مولد السيد:

بعد أسبوعين تقريبا من بدء الدراسة، أعطينا إجازة من الإدارة لمدة أسبوع كامل، بمناسبة «مولد السيد البدوي» حيث تكتظ طنطا بمئات الألوف، من الزائرين الذين يفدون إلى المدينة من كل حدب وصوب، وتزدحم المدينة ازدحاما شديدا، لا تستقيم معه الدراسة.

وكانت فرصة لابن عمتي ليفرض علي أن أحفظ من المتون والكتب المقررة ما أستطيع، وخصوصا من متن الأجرومية في النحو، و«نور الإيضاح» في الفقه، ومن كتاب «السيرة النبوية».

ولم يمض الأسبوع حتى كنت قد حفظت متن الأجرومية وإن لم أفهمه، كما حفظت عدة صفحات من نور الإيضاح أكثر مما حدد لي ابن عمتي. ولم أقض كل الوقت في الحفظ، فقد كنت أذهب للفرجة على مظاهر «المولد» في المدينة.

رخص الحياة في السنة الأولى:

كانت الحياة في السنة الأولى رخيصة جدا، وكان شعارنا: القناعة كنز لا يفنى. ولم يكن لنا طموحات أو تطلعات تتطلب نفقات، فليس لنا نفقات إلا فيما نأكل ونشرب.

وكنا في الصباح نفطر على ما تيسر مما حملناه من زاد القرية، مثل بعض القرص أو القراقيش. وفي العشاء قد نقلي بعض البيض، أو نكتفي بالجبنة أو الحلاوة الطحينية.

وفي الغداء معظم طعامنا الفول المدمس. وأذكر أني أخذت صحنا وقرش تعريفة (وهو خمسة مليمات) فاشتريت بأربعة مليمات فولا بدون زيت، لأن لدينا سمنا نضعه عليه بدل الزيت. وبقي مليم من التعريفة اشتريت به فجلا، وأعطتني بائعة الفجل خمس حزم بالمليم، ثم زادتني واحدة من عندها، لأني «زبون» جديد.

وكان هذا غداءنا نحن الثلاثة. وفي بعض الأيام كنا نستبدل بالفول الطعمية، وكلاهما فول في النهاية. وفي بعض الأيام غيرنا الفول، واشترينا سمكا مشويا بقرش صاغ كفانا نحن الثلاثة.

أما الماء فكنا نشربه في قلة قناوية نملؤها، ثم ندعها تبرد، بقدر ما نصبر عليها. ولم يكن الناس يعرفون الثلاجات ونحوها.

وأما اللحم فلا نفكر فيه ولا نشتهيه، لأنه طعام «بورجوازي» وليس من طعام أمثالنا من الفقراء عادة.

على أني كنت محظوظا أكثر من غيري، فقد كانت لي خالة تسكن في مدينة طنطا، وكانت تحبني وتعزني، وتعدني كأني ابنها، وأعتبرها كأنها أمي. ولم يكن لها ابن ذكر، لكن كان لها بنتان قريبتان من سني، هما سميرة وأنيسة، وكان الناس ينادون خالتي بـ «أم عبده» على اسم خالي عبد الحميد. فكنت أذهب إلى خالتي كل أسبوع مرة لأسلمها ما اتسخ من ملابسي لتغسلها، ولتطعمني ما تكنه لي من اللحم أو الطيور، وكانت تهوى اقتناء الطيور والدواجن في منزلها.

ومما فوجئت به، وكانت مفاجأة سارة: أن وجدنا بالمعهد ـ بعد شهرين تقريبا من بدء الدراسة ـ مكافأة لكل طالب مقدارها ثمانية عشر قرشا، تسمى «بدل جراية». وذلك أن بعض أغنياء المسلمين القدامى كانوا قد وقفوا على طلاب العلم الشرعي خبزا لوجبات ثلاث يومية، يجري عليهم بصفة دورية، ولذا سمي «الجراية». وكانوا قديما يتسلمون الجراية عينية، فلما تغير الحال، أصبحوا يدفعون للطلبة بدل الجراية نقودا.

والحق أني فرحت بهذا المبلغ الإضافي الذي أعطانا بعض البحبحة في النفقة، فجزى الله هؤلاء الواقفين خيرا عن العلم وأهله.

عودة إلى القرية على الأقدام:

بمناسبة قدوم عيد الأضحى، أعطينا إجازة خمسة أيام، فقررنا قضاءها في القرية بين أهلينا وأسرنا. وحتى نوفر أجرة القطار أو الحافلة (الأوتوبيس) صممنا على أن نذهب إلى القرية سيرا على الأقدام، ٢٢ك. م مسافة ما بين طنطا وصفط، وكنا ثلاثة: أنا ومنصور صقر، وثالث لا أذكر الآن من هو؟ ويحمل كل منا سلته (سَبَتَه) التي يجلب فيها الزوادة. وأمضينا المسافة في نحو أربع ساعات، نتوقف فيها في الطريق للصلاة وللراحة. ولم نكن نحس بالتعب، فعزم الشباب وطموح الشباب ينسيان متاعب الطريق.

وفي هذه الإجازة لقيني عالم القرية الشاب، الشيخ عبد المطلب البتة، ليسألني

عن الدراسة، فقلت له: ممتازة. فسألني بعض المسائل في الفقه الحنفي، فأجبته بدقة وتفصيل، فقال: الله يفتح عليك. ثم التفت إلى من حوله، وقال لهم: هذا عالم بمعنى الكلمة. ولا ريب في أن هذه الكلمة من هذا العالم المتمكن سرتني وشرحت صدري.

الاستماع إلى الشيخ البنا:

في السنة الأولى من المرحلة الابتدائية حدثت لي حادثتان مهمتان:

الأولى: هي الاستماع إلى الشيخ حسن البنا. ولذلك قصة أود أن أحكيها.

فقد كانت المناسبة هي الهجرة النبوية في أوائل محرم، وكانت الجمعيات المختلفة تتنافس في الاحتفال بها، وكان منها جمعية الإخوان المسلمين في طنطا.

وفي ليلة من الليالي قال لي ابن عمتي: سنتركك تنام، ونذهب لسماع الشيخ حسن البنا في احتفال الهجرة.

قلت لابن عمتي: ولماذا لا أذهب معكم؟

قال: أنت صغير، ومثل هذه الاحتفالات يطول ويمتد!

قلت: ولكني حريص على الاستماع إلى الشيخ البنا، ولا أريد أن أحرم منه. قال ابن عمتي لأصحابه من طلاب الثانوي الكبار من أبناء قريتنا: الولد مُصِر على المجيء لسماع الشيخ. فقالوا له: دعه يحضر، فلعله يسمع شيئا ينفعه في المستقبل.

وذهبت معهم إلى شعبة الإخوان قرب «ميدان الساعة» في طنطا. وتكلم كثيرون قبل الشيخ البنا، ومنهم شعراء وخطباء مؤثرون، ثم كانت كلمة الختام للشيخ البنا، الذي انتظره الناس بفارغ الصبر، كما ينتظر الظمآن الماء، والسقيم الشفاء.

وتحدث الشيخ عن وداع عام، واستقبال عام، وشبه السنة المنصرمة بكراسة الطالب الذي أساء استخدامها، وأمسى يريد الخلاص منها، والاستعاضة عنها بكراسة جديدة نظيفة يحرص على نظافتها وسلامتها، حتى إذا اطلع عليها المفتش رضي عنها.

أخذ الشيخ هذا المثل من مهنته بوصفه معلما. ثم تحدث عن الهجرة، وقال: إن الهجرة بوصفها قصة لخصها الله في آية من كتابه ﴿**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ⁽٤٠⁾**﴾ (التوبة: ٤٠).

قال الشيخ: ولكنا نتحدث عن الهجرة بحسبانها حدا فاصلا بين عهدين: عهد تكوين الفرد في مكة، وعهد إقامة المجتمع في المدينة. وتحدث بتفصيل مناسب عن خصائص كل منهما بما شفى وكفى، وأوفى إلى الغاية.

كنت منذ وعيت أستمع إلى حديث الهجرة كل عام من علماء قريتنا، وهو حديث مكرور لا يعدو الحديث عن قصة العنكبوت والحمام وما يجري مجرى ذلك. أما هذه الليلة فقد سمعت حديثا جديدا أصيلا، لا عهد لي بمثله. ولقد وعيته وهضمته وأكاد أحفظ كلامه كله لشدة وضوحه وتركيزه وبلاغته.

وعند عودتنا إلى المنزل، سألني ابن عمتي وصحابه: ماذا فهمت من الشيخ البنا؟ فقلت لهم: لقد قال الرجل كذا وكذا وكذا، وسردت عليهم حديث الرجل مفصلا، فعجبوا من ذلك، وقالوا: ما شاء الله، لقد حفظ الولد حديث الشيخ ووعاه كأنما يقرؤه من كتاب.

وأصبحت منذ تلك الليلة حريصا كل الحرص على الاستماع إلى الشيخ البنا، كلما جاء إلى طنطا في مناسبة من المناسبات.

وكنت قبل ذلك رأيت كشافة الإخوان المسلمين، يجوبون شوارع مدينة طنطا،

حاملين مصحفا كبيرا، ورافعين أعلامهم التي تشتمل على صورة مصحف يحوطه سيفان، كما يحمل كلمة «وأعدوا» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وكانوا يهتفون بهتافات حارة مؤثرة تقول: الله غايتنا، والرسول زعيمنا، والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا. لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليها نحيا، وعليها نموت، وفي سبيلها نجاهد، حتى نلقى الله. الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

رأيت هؤلاء الشباب في زيهم الكشفي، وهتافهم الحماسي، فتأثرت بهم، وأعجبت بتوثبهم ووهج عيونهم، واهتز قلبي لصيحاتهم المخلصة. كما استمعت بعد ذلك إلى شيخهم ومرشدهم، ولكني لم أنضم إليهم، ربما لأني لم أعرف الطريق إلى ذلك، ولم أجد من يدعوني ويلحقني بركب الجماعة، حتى جاء أوان ذلك في السنة الرابعة كما سيأتي حديثه.

وفاة والدتي:

والحادث الثاني الذي حدث لي في السنة الأولى: هو مرض والدتي ووفاتها. لقد أصيبت أمي بحمى شديدة ألزمتها الفراش في بيت جدي أو بيت خالي، ويبدو أنها أحست بدنو أجلها، فطلبت أن تراني، فأبلغت بذلك، وذهبت في نهاية إجازة الأسبوع إلى البلدة، ورأيتها وعانقتني طويلا، وهي على فراشها، ودعت لي من أعماقها، وهي تذرف دموعها. وكان لها دعوات تحفظها وتخصني بها دائما: ربنا يحبب فيك الرب في عرشه، والجندي في فرشه، ويجعل في وشك (وجهك) جوهرة، وفي حنكك (فمك) سكرة، ويحبب فيك الحصى في الأراضي، ويجعل لك في كل سكة سلامة.

وفي الواقع كلما لاحظت حب الناس لي، وقولهم في كل مكان: نحبك في الله! أقول: هذا من بركات دعاء أمي.

ودّعت أمي ورجعت إلى طنطا، على أن أعود إليها في نهاية الأسبوع القادم، ولكن لم يشأ القدر أن تستكمل الأسبوع، فقد كان لقائي معها هو اللقاء الأخير. وفي ضحى يوم من الأيام، وأنا في درس النحو جاء من يدعوني إلى مكتب مراقب المعهد؛ لأن أحد الأقارب جاء من البلد، ليخبرني أن أمي قد توفيت إلى رحمة الله، واستأذنت من مدرس النحو الشيخ محمد شعت ـ رحمه الله ـ الذي كان يحبني جدا، وكثيرا ما كان يناديني: يا علامة! لما رأى هضمي لعلم النحو وتذوقي له. وقد ودعني الشيخ وهو يبكي، ويقول: لا بد أن تعود. قلت: إن شاء الله عائد.

ووجدت إبراهيم ابن عمي ينتظرني بباب المعهد، وركبنا وذهبنا إلى القرية، وأدركنا الناس قد صلوا الجنازة على أمي رحمها الله في مسجد سيدي عبد الله بن الحارث، وتوجهوا بجنازتها إلى المقبرة، وهي قريبة من المسجد، فأدركتها قبل أن تدفن.

كانت وفاة أمي صدمة كبيرة لي، فقد حرمت من أبي وأنا في الثانية من عمري، فوجدت في حنان أمي وحبها وحرارة عاطفتها ما عوضني بعض الشيء عن أبي، وإن كانت الأم لا تملأ مكان الأب بحال.

اليوم فقدت أمي بعد أبي، وعلي أن أواجه الحياة وحدي بنعمائها وبأسائها، بوردها وشوكها. وقد عوضني الله عن حنان أمي بحنان جدتي ـ أم أمي ـ وخالاتي الأربع، فكن لي أمهات بعد أمي. ولا سيما خالتي «أم عبده» التي كانت تعيش في طنطا وترعى شئوني.

مرت أشهر العام الدراسي الأول بالمعهد، ودخلت الامتحان بقسميه التحريري والشفهي، وحصلت على أعلى درجة بين أبناء دفعتي، وكان ترتيبي الأول، فالحمد لله الذي وفقني، وما توفيقي إلا بالله.

وبعد قضاء الامتحان، عدت إلى القرية، لأمضي بها نحو ثلاثة أشهر هي إجازتنا الصيفية، ولم يكن لي فيها عمل، إلا قراءة بعض الكتب مثل «الإحياء»

للغزالي، وبعض كتب الأدب القليلة التي أقتنيها. وبعد انتهاء الإجازة عدنا إلى طنطا لبدء العام الدراسي الثاني.

السنة الثانية من المعهد الابتدائي:

بدأت العام الدراسي الثاني بالمعهد بشراء الكتب المقررة، وكانت أثمانها غالية نسبيا بالنظر إلى مثلي، ولكني كنت أحاول أن أشتري الكتب المستعملة، التي يبيعها الطلاب بثمن أرخص بعد أن ينتهوا من دراستها.

كما كنت أحاول أن أشتري بعض كتب الحواشي الصفراء، وهي رخيصة الثمن عادة، وفيها علم غزير، لا يوجد في الكتب المطبوعة على ورق أبيض فاخر. مثل حاشية السجاعي على قطر الندى، وحاشية الأمير على شذور الذهب، وحاشية الخضري على ابن عقيل وغيرها.

وفي هذه السنة أصبحت أملك أمر نفسي. فإن ابن عمتي قد قدم إلى «مدرسة الصيارفة» التي فتحت أبوابها لأبناء الأزهر، ممن أكملوا السنة الثالثة الثانوية، فأخذت منهم أعدادا كبيرة. وكانت مهنة الصيرفة قبل ذلك تكاد تكون مقصورة على الأقباط، حتى إني نشأت في قريتنا ولا أعرف لها صرافا إلا الحاج جرجس[1]، الذي ظل سنين عددا وهو صراف القرية.

وقد بدأت أنظم القراءة في غير الكتب المقررة، التي لم تعد تشبع نهمي أو تملأ فراغ وقتي وحدها، فكان عندي وسليتان لذلك:

وسيلة دار الكتب بطنطا، التي كدت أصبح من روادها الدائمين، لأقرأ فيها كتب الأديب الشهير مصطفى لطفي المنفلوطي، الذي كان أدبه أحب إلى قلوب الشباب وعقولهم من غيره، لسلاسته وتدفقه وعذوبته، وللموضوعات التي يطرقها، كما في كتابه الشهير «النظرات» بأجزائه الثلاثة. وكما في القصص التي ترجمها بأسلوبه الخاص، مثل العبرات وماجدولين وفي سبيل التاج والشاعر والفضيلة وغيرها.

---

(١) يطلقون في مصر على القبطي الذي يذهب إلى القدس: مقدس أو حاج.

كما كنت أقرأ لأديب طنطا مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، وأوراق الورد، والمساكين، وغيرها.

وأقرأ أحيانا لطه حسين والعقاد وأحمد أمين والزيات وغيرهم من كتاب مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» الشهيرتين في ذلك الوقت.

والوسيلة الثانية: استئجار كتب معينة لقراءتها في أيام معدودة وردها إلى المكتبة. وقد كانت في طنطا مكتبة جعلت ذلك مهمتها، وسمت نفسها اسما دالا على ذلك، وهي «مكتبة فك الأزمة» في شارع درب الأثر بطنطا.

وفي هذه السنة بدأت أخطو الخطوات الأولى في نظم الشعر، وأذكر أن أول أبيات نظمتها كان موضوعها «صفارة الإنذار». فقد كان الزمن زمن حرب، وكانت صفارة الإنذار تعمل، ويسمع الناس أصواتها، فيطفئون الأنوار بالليل، ويحاولون الاختباء بالنهار.. ومما أذكره أني لم أقل بيتا مكسورا قط، برغم أني لم أدرس العروض إلا في السنة الأولى الثانوية. ولكن بالسليقة والفطرة، على نحو ما قال الأعرابي قديما:

ولست بنحويّ يلوك لسانه

ولكن سليقيّ أقول فأعرب!

وقد كان ما نظمته في هذه السنة قليلا، ثم طفق يكثر ويتسع في السنة التي بعدها، ولا سيما في السنة الرابعة.

كانت الحياة قد بدأت تغلو قليلا قليلا، نظرا للحرب العالمية الثانية التي أعلنت منذ سنة ١٩٣٩م، ونحن الآن في أواخر سنة ١٩٤١م. وبدأ الناس يشكون من زحف الغلاء سنة بعد أخرى.

وكان هذا الغلاء الزاحف ببطء بالنسبة إلي امتحانا عسيرا، فما عندي من النفقة محدود، والعين بصيرة، واليد قصيرة. ولكن لله ألطافا وأسرارا لا يعرفها إلا من عايشها، كما قال الشاعر:

لا يعـــرف الشــــوق إلا من يكابــــده

ولا الصـــبـــابة إلا من يعـــانيــــهـــا

وقـد قـال ابن عطاء الله في حكمـه: من ظن انفكاك لطفـه عن قـدره، فـذلك لقصور نظره ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾ (يوسف: ١٠٠).

ولهذا كان من اللطف الإلهي أن نودي علي: إن لك مكافأة في الإدارة، فاذهب لقبضـهـا. وكانت هذه المكافأة ٣ (ثلاثة جنيهات مصرية) بالتمام والكمال، هي مكافأة «الأولية» في الترتيب. فكانت هذه نجدة من السماء، فقد كان هذا المبلغ في ذلك الوقت كبيرا ومجزيا، ويقضي به المرء أوطارا لا وطرا واحدا.

وكانت هذه المكافأة تسمى «جراية المنشاوي» والمنشاوي هذا أحد أثرياء الغربية الذين وفقهم الله تعالى، فوقفوا أموالهم على الخير؛ فهناك جامع المنشاوي للصلاة، ومستشفى المنشاوي الخيري للعلاج، ومعهد المنشاوي الديني للتعليم. وكان يدخله من لم يستكمل شروط المعهد الرسمي مثل السن ونحو ذلك.

ثم هذه الأوقاف التي وقفها، لينفق من ريعها على طلبة العلم المتفوقين في دراستهم، تشجيعا وتكريما لهم، وحفزا وتحريضا لغيرهم. فجزى الله المنشاوي باشا خيرا عما قدم لي ولأمثالي وللفقراء من أبناء وطنه، وغفر له ورحمه رحمة واسعة.

وكان هذا من حسنات عدد من باشوات عهد الملكية، على خلاف الباشوات الجدد (باشوات الثورة) الذين جمعوا الملايين، ولا يجودون بالملاليم!

ولذا كان أول ما فكرت فيه أن كسوت نفسي بما يليق، فاشتريت ثلاثة أمتار - إلا ربعا - من الصوف الجيد، وفصلتها جلبابا يليق بالعمامة التي ألبسها. كما اشتريت بعض الملابس الأخرى داخلية وخارجية. وحسنت من فراشي وغطائي. وقد قال تعالى ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ (الطلاق: ٧).

وظلت هذ الجنيهات الثلاثة مصدرا ثابتا لي، فلم تتخلف عني في سنة من السنوات، حتى بعض السنوات التي لم يكن ترتيبي بها الأول - مثل الشهادة الابتدائية - لم أحرم منها، فقد كانت تعطى للثلاثة الأوائل.

التعرف على البهي الخولي:

في هذه السنة تعرفت على أستاذ جليل كان يدرس لنا مادة المحفوظات. وكانت هذه الحصة حصة للراحة لمن يأخذها من المدرسين، ولكن هذا الأستاذ حول هذه الحصة إلى محفوظات حقيقية، في كل أسبوع يختار لنا قطعة من النثر أو الشعر لنحفظها ويسوقنا بالترغيب والترهيب لحفظها.

وأذكر أن أول قطعة طلب منا حفظها، وكتبها لنا على السبورة كانت من أدب المنفلوطي، ومن موضوع «الرحمة» في كتابه «النظرات»:

«ارحم الحيوان، فإنه يحس كما تحس، ويتألم كما تتألم، ويبكي بغير دموع، ويتوجع ولا يكاد يبين.

ارحم الطير لا تحبسها في أقفاصها. أطلقها وأطلق سمعك وبصرك وراءها، فتراها أجمل من الفلك الدائر، والكوكب السيار».

كما أعطانا فقرات من قصيدة حافظ إبراهيم «العمرية» وقد كان مزهوًا بها، وكان يشرحها لنا شرح المتيم بشخصية عمر ومواقفه وروائعه، وشرح المربي الذي يوجه الطلاب إلى القيم العليا مجسدة في مواقف. وأذكر من هذه الرائعة العمرية هذه الأبيات في رحلة عمر إلى فلسطين:

ماذا رأيت بباب الشام حين رأوا

أن يلبسوك من الأثواب زاهيها

ويركبوك على البرذون تقدمه

خيل مطهمة تحلو مرائيها

مـشى فـهـملج مـخـتـالا براكبـه

وفي البـراذين مـا يزهى بعـاليـهـا

فـصـحت: يا قـوم كـاد الزهو يقـتلني

وداخلـتني حـال لست أدريـهـا

وكـاد يصـبـو إلى دنيـاكـمـو عـمـرٌ

ويبـتـغـي بيع باقيـه بفـانيـهـا

ردوا ركـابي فـلا أبغي به بـدلا

ردوا ثيـابي فـحـسـبي اليـوم باليـهـا

وهكذا كانت دروس المحفوظات دروسا في الأدب والتربية والسلوك.

نسيت أن أقول: هذا الأستاذ هو الشيخ الداعية المربي البهي الخولي، خريج دار العلوم، وزميل الأستاذ حسن البنا، وسيكون لنا عنه حديث بعد.

محمد السيد الوزير:

وفي هذه السنة تعرفت على زميل كريم، وصديق عزيز، كان يسكن طنطا، ولكنه من بلدة قريبة من بلدتنا، هي شبشير الحصة، ولنا فيها أقارب. ذلكم هو محمد السيد الوزير. وقد كان شابا ذكيا نابها له تطلعات أكبر من سنه، فكان يهتم بالرد على النصارى، ويجمع الكتب التي ترد على المبشرين، وتدفع شبهاتهم، وتفند أباطيلهم. وكان متتبعا لما يكتبه الأستاذ محيي الدين سعد البغدادي في مجلة «الإسلام» في الرد على دعاة التنصير. وقد أهداني ما عنده من كتب للاطلاع عليها، ومنها كتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندي في طبعته القديمة، وكتاب «الفارق بين المخلوق والخالق» وغيرهما من الكتب.

كما كان يتتبع جماعة «البهائية» وكانت لهم أوكار في مدينة طنطا، وكان يعنى

بجمع كتبهم، ومنها كتاب «البيان» لميرزا علي (الباب) وكتاب «الأقدس» لميرزا حسين (البهاء). وهو الذي أهداني كتاب «الحراب في صدر البهاء والباب» وهو من أقدم ما كتب في الرد على البابية والبهائية.

وقد كان محمد الوزير شاعرا، وله شعر فيه نزعة فلسفية، ومن شعره القديم:

لا تصغ لي، أو خـذ بغـيـر جـدال

إني عـلى الحـالين ذاكـر حـالي!

أنا في دجى العلمـاء أسـبح تارة

وأتيـه طورا في ضـحى الجـهـال!

وإني لأعجب كيف اختفى محمد الوزير، ولم يظهر له أثر يذكر في الحياة الأدبية والفكرية، مع أن لديه من المواهب والقدرات ما يرشحه لأن يكون له مكان مرموق. وسبحان مقسم الحظوظ. وإن كان قد ترك القليل مما كتب، مثل كتابه عن «الأمير عبد القادر الجزائري».

وقد عرفت منه قبل موته رحمه الله: أن لديه كمّا هائلا من الشعر، ليت أبناءه يحاولون أن ينشروه، وإن كانت دور النشر للأسف لا تنشر إلا للمعروفين من المؤلفين.

وقد انتقل إلى رحمة الله منذ نحو ثلاث سنوات.

تساؤل مهم:

كثيرا ما ساءلت نفسي بمناسبة محمد الوزير وأمثاله من النوابغ الذين لم يأخذوا حقهم في البروز والظهور: ما العنصر الأول المؤثر في سلوك الإنسان وتحديد مستقبله؟ هل العقل أو الذكاء وحده هو العنصر المؤثر في حياة الإنسان وتقرير مصيره؟ فمن كان أوفر عقلا، وأحَدّ ذكاء، كان أحسن حظا، وأكثر سعادة؟

أو هناك شيء غير العقل، وهو الإرادة؟ فالإنسان لا يحقق أهدافه، وطموحاته بالعقل وحده، بل بالإرادة أيضا. وكم رأينا من أناس في غاية الذكاء ضاعوا في الحياة، ولم يسعفهم ذكاؤهم، ولا نبوغهم، لأنهم فقدوا الإرادة التي تحفزهم على طلب المعالي، وسهر الليالي، ومعاناة المتاعب، كما قال أبو الطيب قديما:

وإذا كانت النفوس كبارا

تعبت في مرادها الأجسام

أو كما قال البارودي حديثا:

ومن تكن العلياء همة نفسه

فكل الذي يلقاه فيها محبب

في اعتقادي أن الإرادة عنصر ضروري إلى جوار عنصر الذكاء، بل ربما كان أهم منه. وكم رأينا من أناس حققوا بذكائهم المتوسط ـ مع قوة الإرادة ـ ما لم يحققه الأذكياء!

وإذا كان ديكارت يقول: أنا أفكر، إذن أنا موجود. فأنا أقول: أنا أريد، إذن أنا موجود.

وما الذي يكوِّن إرادة الإنسان؟ أو قل: ما الذي تتجه إليه إرادة الإنسان؟ إنه الإيمان والأخلاق. فالفرد بلا إيمان وأخلاق، لن يكون له إرادة. إنما تنبثق الإرادة من رسالة يؤمن بها، ومن أخلاق يلتزم بها.

وإذا كان الناس استحسنوا قول شوقي:

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فرأيي أن هذا ينطبق على الأفراد، كما ينطبق على الأمم، فالإنسان بغير أخلاق أشبه بالحيوان الأعجم، الذي لا تسيِّره غير غريزته.

على أن هناك عنصرا فوق ذلك كله، وقبل ذلك كله، أي فوق الذكاء والإرادة، وقبل الذكاء والإرادة، نؤمن به نحن المسلمين، بل يؤمن به أهل الأديان جميعا، بل يؤمن به أهل الجاهلية أنفسهم، اسمه «القدر» الذي يهيمن على الكون كله، والذي جعل الناس يقولون: العبد يدبر، والرب يقدر، ويقولون: إذا نفذ القدر عمي البصر. وهو الذي جعل الشاعر الجاهلي (المثقب العبدي) يقول:

ولا أدري إذا يممت أرضـــــــا

أريد الخـــير: أيهـــما يليني؟

أألخـــير الذي أنا أبتـــغيـــه

أم الشــر الذي هو يبـــتـــغيني؟

ويقول شوقي أيضا:

قـــدرت أشـــيـــاء، وقـــدر غـــيـــرها

قـــدر يخط مـــصـــاير الإنســـان!

وأنا أشهد: أن كثيرا من المحطات في حياتي مما أحب وما أكره، كانت من صنع القدر لي، وأعتقد أن ما اختاره لي قدر الله، خير مما كنت أختاره لنفسي. وليس معنى هذا أن الإنسان «مسيَّر» أو «مجبور» مسلوب الإرادة، كلا، فعلام كلف إذن؟ وفيم كان الثواب والعقاب؟ وقامت سوق الجنة والنار؟

وعلماء الأخلاق والنفس والاجتماع اليوم يقولون: إن الإنسان تؤثر فيه عوامل كثيرة، تدور جميعها حول أمرين: الوراثة والبيئة.

ولقد كشف عصرنا تأثير «الجينات» في سلوك الإنسان: في عقله وانفعالاته وعواطفه، وفي نزوعه وإرادته، وفي جسده وصحته.

كما بين عصرنا أثر البيئة الجغرافية والبيئة الاقتصادية، والبيئة الثقافية في الأسرة والمجتمع في توجيه حياة الإنسان، وهو ما عبر عنه الحديث الشريف «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[1].

ومع هذه المؤثرات أرى أن الإنسان مخلوق ذو إرادة، وأن الله أبقى له قدرا من الحرية يدير به حياته وفق اختياره؛ فقد وهبه الله العقل، ومنحه الإرادة، ورزقه القوة، وبعث له الرسل، وأنزل له الكتب، وتركه ليقرر مصيره بنفسه: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (الأنعام: ١٠٤).

وبهذا القدر من الإرادة التي منحها لإنسان حمل أمانة التكليف، وبها يؤمر ويخاطب، وعلى أساسها يثاب ويعاقب.

ومن هنا: أرفض كل الفلسفات «الجبرية»، سواء كانت جبرية دينية، كالذين قالوا: إن الإنسان أشبه بريشة في مهب رياح الأقدار، تقلبها كيف تشاء، ولا إرادة له ولا اختيار. أم كانت جبرية اجتماعية، كفلسفة «دور كايم» ومن تبعه، الذين قالوا: إن الفرد دمية يحرك خيوطها المجتمع، وكل ما يعمله من صالحات، أو يقترفه من جرائم هو من صنع المجتمع، وهو أسير المجتمع في الحسنات، وضحيته في السيئات. أم كانت جبرية سياسية، كالذين يزعمون أن هناك قوى خفية تحكم العالم، وأننا مجرد أحجار على رقعة الشطرنج، فهذا لا دليل عليه، وهو يؤيسنا من كل عمل لإصلاح أنفسنا.

الإنسان مكلف حر ومختار ملكه الله مصير نفسه بلا ريب.

ولكن أهل الإيمان مع هذا يوقنون أن لله نفحات يختص بها من شاء من عباده فضلا منه وكرما، هي من شأن الألوهية التي لا تسأل عما تفعل، ولا حجر عليها فيما تخلق وترزق وتعطي. ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ

---

[1] رواه أحمد (٢/ ٤٦٤) والبخاري (١٣٨٥) وابن حبان (١٢٩) عن أبي هريرة.

وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾ (آل عمران: ٧٣، ٧٤).

إن الإنسان ليس مسيرا ولا مجبورا، ولكنه - كما قال الحديث النبوي -: «ميسر لما خلق له»[1].

في الإجازة الصيفية:

انتهت السنة الثانية بالمعهد بحمد الله وتوفيقه، وكان ترتيبي الأول أيضا على الدفعة.

وكنا عادة حين ينتهي العام الدراسي، نترك السكن الذي كنا فيه، حتى لا تحسب علينا الأشهر الثلاثة التي هي مدة الإجازة، ونبدأ قبيل بدء الدراسة في البحث عن مسكن جديد.

وعدنا إلى القرية لنقضي بها الصيف، ولم يكن بالقرية مجالات للنشاط، تستوعب طاقات الشباب، فقد كانت القرية المصرية مهملة كل الإهمال، لا يصل إليها ماء ولا كهرباء. وليس فيها أي ناد للرياضة أو الثقافة. وكان الحظ كله لأهل المدن، وإن شئت الحقيقة، قلت: المدن الكبرى، ولا سيما القاهرة والإسكندرية.

فكيف أقضي الصيف؟ وفيم أمضي وقتي والوضع كما نرى؟

الحق أن وقتي بالصيف غير مستغل كما ينبغي، لقد عرفت أن بعض زملائنا في طنطا يستغلون الصيف في تعلم اللغة الإنجليزية، في بعض المؤسسات المخصصة لذلك، وكم كنت أود أن يتاح لي مثل ذلك في هذه السن، وعندي قدرة لغوية غير عادية، ووقت فارغ، ورغبة عارمة، وطموح غير محدود!

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩) ومسلم (٢٦٤٧) عن علي بن أبي طالب.

ولم يكن لي إلا أن أرضى بالواقع، فما لا يملك الإنسان تغييره لا يسعه إلا أن يرضى به، وإلا أورثه السخط الدائم والهم والنكد والاكتئاب. وقد قال العرب في أمثالهم: من غضب على الدهر طال غضبه! إذ ما أكثر الأشياء التي يأتي بها الدهر، وهي لا توافق ما يهواه الإنسان. وقد روي: «إن الله عز وجل بقسطه جعل الفرح والرَّوْح في الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن في السخط والشك».

ورضيت بالواقع، واجتهدت أن أستفيد من الوقت بقدر ما تسعفني وسائلي وإمكاناتي، وهي محدودة، بقراءة ما لدي من كتب قليلة جدا، ومنها كتابا الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين، ومنهاج العابدين، وقد أضيف إليهما كتاب جديد مهم، أهداه إلي صديقي السيد مولانا، مما وجده في مكتبة عائلة مولانا. وهو كتاب «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للإمام الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) وهو كتاب مركز، صغير الحجم، كبير النفع. وقد قالوا: إن الإمام الغزالي نفسه انتفع به كثيرا.

أول درس ديني ألقيه في حياتي:

وقد حدث لي في هذه الإجازة أمر مهم، بل في غاية الأهمية في حياتي، وهو إلقاء أول درس ديني على الناس في مسجد جامع.

ذلك أن شهر رمضان كان يأتي في إجازة الصيف، ورمضان - كما قلت - شهر تجديد للحياة الإسلامية، تتجدد فيه القلوب بالإيمان، والعقول بالمعرفة، والحياة بالترابط والتزاور.

وكانت مساجد القرية تعمرها الدروس الدينية بعد العصر حينا، وبعد المغرب دائما.

وكان مسجد المتولي - وهو مسجد ناحيتنا الكبير - يجمع بين الدرسين عصرا وعشاء، وكنت حريصا منذ صباي على ملازمة هذه الدروس، والاستفادة منها، وإن كان لي عليها ملاحظات ومآخذ، وكان أفضل هذه الدروس بلا شك درس

الشيخ عبد المطلب البتة بعد عصر كل يوم. ويتحلق حوله عدد جيد من الناس المهتمين بالدين والعلم.

وفي يوم من الأيام تحلق الناس كعادتهم، ينتظرون الشيخ عبد المطلب، ولكنه لم يحضر، فالتفت بعض كبار الحاضرين إلي، وقال لي: ما رأيك يا شيخ يوسف، تجلس مكان الشيخ، وتلقي علينا درسا مما تعلمته في الأزهر؟

قلت لهم: لا مانع، وعلى بركة الله وبتوفيقه وعونه.

وبدأت الدرس حول «التوبة» من المعاصي، وهو درس مرتجل طبعا، واستشهدت بالآيات والأحاديث، وأنا بحمد الله تعالى من صغري شديد الاستحضار لآيات القرآن، وكنت قرأت عن التوبة في الإحياء والمنهاج للغزالي، وكونت فكرة واضحة عن الموضوع. ولم تكن مما تعلمته في الأزهر، فما نتعلمه في الأزهر للأسف - وخصوصا في القسم الابتدائي - لا يخرج داعية[1].

ومن مستلزمات الدرس في الريف: أن يسأل الحاضرون في كل ما يعن لهم حول الموضوع المطروح، وقد يخرجون عنه. وقد سألوني عدة أسئلة وفقني الله تعالى في الإجابة عنها.

وبعض الذين يحضرون هذه الدروس، بطول ملازمتهم للمشايخ، تكونت لديهم قدرة على الأسئلة المحرجة، فمن كان رخو العود، تعثر وتلعثم، وظهر ضعفه وعجزه، ولكني بطول ملازمتي لهذه الدروس وسماعي لما يلقى فيها من أسئلة وإحراجات، أصبحت قديرا على معالجتها، ولم تزعجني كثيرا، ولا أستطيع إلا أن أقول ما قال سيدنا شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ (هود: ٨٨).

---

(١) يدرس الطالب في القسم الابتدائي من علوم الدين: الفقه المذهبي، ولا علاقة له بالدعوة، وعلم التوحيد، وهو دراسة جافة أبعد ما تكون عن الدعوة. ولا يدرس تفسيرا ولا حديثا، إلا السيرة النبوية، وهي دراسة مختصرة جدا في السنة الأولى فقط، ثم تنقطع!!

وقد كان أثر هذا الدرس طيبا جدا، وهنأني عليه كل من حضره، وبلغ ذلك الشيخ البتة، فشجعني على ذلك، جزاه الله خيرا.

وأصبحت هذه عادة، كلما تأخر الشيخ البتة عن حضور الدرس قدمني أهل المسجد لأحل محله.

السنة الثالثة بالمعهد الابتدائي:

وبدأت السنة الثالثة الابتدائية بالمعهد، وذهبنا قبلها بيومين أو ثلاثة لنبحث عن مسكن جديد، بعد الإجازة. وكانت المساكن متوافرة تعرف أحيانا بكتابة لافتة «حجرة للإيجار» وأحيانا بالسؤال. وبعض الناس تكون عندهم حجرات، ولكنهم لا يرضون بسكنى الطلبة عندهم، إما لأنهم اشتهروا - أو كثير منهم - بالفوضى وسوء استخدام بيوت السكنى. وإما لأن عندهم بنات بالغات، ولا يريدون لهن أن يحتكوا بالشباب. أو لغير ذلك.

وبعض هؤلاء كان إذا تكلم معنا استراح إلينا، وقال: يبدو أنكم مستقيمون، والكتاب يقرأ من عنوانه.

على كل حال، وفقنا إلى سكن في شارع «الحلو» وهو شارع مشهور في كفرة «علي أغا» في طنطا. وقد تطور في هذه السنة أثاثي الداخلي، فاشتريت «كنبة إستانبولي» كما نسميها، لأنام عليها، وأذاكر عليها. وكانت هذه خطوة تقدمية كبيرة في طريق الرفاهية. ولكني اشتريت الكنبة مستعملة، فلم تكلفني كثيرا، كما أنها ليست لها تكاليف أخرى بعد شرائها.

وقد سكن معي في هذه السنة طالب يدرس في المدارس المدنية من أهل القرية، ومن أسرة طيبة من الطبقة الوسطى، هو فؤاد حامد ضيف، الذي أراد والده أن يسكن معي، ليتعلم الدين، ويحافظ على الصلاة. وقد كان فؤاد مثالا طيبا في الدماثة وحسن الخلق وطيب المعاشرة، وقد تقدم بعد ذلك إلى الطيران، وانقطعت عني أخباره.

علم النحو والصرف:

وكانت الدراسة ماضية في طريقها المعتاد، لا جديد فيها، إلا ما أضيف إلينا من «علم الصرف» الذي هو شقيق «علم النحو»، وكان يدرسهما لنا مدرس مجتهد نشيط يشد الطلاب إليه بحسن طريقته، وسهولة إيضاحه، وهو الشيخ مصطفى غبارة، من أبناء مركز طنطا، وكان يحبني ويعتز بي.

ولقد سهل الله جل شأنه عليَّ علم النحو والصرف، منذ السنة الأولى الابتدائية، فهضمت النحو ووعيته بيسر وسهولة، لم أحس معه بأي عنت، وكان زملاؤنا يشكون من صعوبة النحو. ثم اشتكوا بعد ذلك من صعوبة الصرف، وأنا أجدهما عندي كشربة الماء العذب البارد على الظمإ. ومن يوم درست النحو إلى اليوم، وأنا لا أخطئ فيه إذا قرأت أو إذا تكلمت، من غير تعب ولا تكلف، كأنها فطرة أو طبيعة.

ولذا كان مدرسو النحو من أحب المدرسين إلى قلبي، ابتداء من الشيخ محمد شعت مدرس السنة الأولى، إلى صهره الشيخ رجب زبادي مدرسي في السنة الثانية، إلى الشيخ مصطفى غبارة، فمن بعده.

السنة الرابعة الابتدائية:

وانتقلت إلى السنة الرابعة الابتدائية، وهي السنة التي تتم بها هذه المرحلة ليتهيأ الطالب للقسم الثانوي.

ولم يكن ثم شيء جديد فيما يتعلق بالدراسة، إلا أننا كنا ندرس فيها الرياضيات والهندسة والجبر، وكان يدرسها لنا أحد الشيوخ، وهو نابغة في الرياضيات وهو الشيخ عبد الوهاب غانم.

كما كان يدرسنا علم الجغرافيا الأستاذ البهي الخولي، وكان شديدا جدا في المحاسبة على ما يكلفنا به. ولم أكن أحب الجغرافيا لسببين: **الأول:** أني لا أحسن

رسم الخرائط، **والثاني**: أنه يقوم على حفظ أسماء البلدان والمواقع ونحوها، ولم أكن أحسن حفظ ما لا أشعر بحاجة إلى حفظه.

وكان بعض زملائنا يحفظ هذه المفردات وإن كان لا يفهمها، حتى إن بعض زملائنا ضبطناه مرة، وهو يكرر مرة بعد مرة «صحراء كلّها ريّ، صحراء كلها ري» وتعجبنا وقلنا له: يا فلان كيف تكون صحراء وكلها ريّ؟ قال: الكتاب يقول ذلك. قلنا: الكتاب لم يشكلها، ولكن أنت الذي شكلتها بما تنطق به. والحقيقة أنها «صحراء كلَهَارِي»!

وفي هذه السنة حدثت عدة أحداث مهمة.

قصيدتي في دار الإخوان:

فقد دعاني بعض شباب الإخوان المسلمين إلى إلقاء قصيدة في افتتاح الموسم الثقافي بدارهم قرب ميدان الساعة، بعد أن ذاع صيتي بين طلاب المعهد بقول الشعر.

وفعلا أعددت قصيدة قافيّة القافية، وألقيتها بالدار، وكان لها وقع طيب في نفوس الإخوان، ولا سيما بين الشباب. ومطلعها:

قلبي يحس برحمة تتدفق
ويرى الملائك حولنا قد أحدقوا

وكأن أحمد والصحابة أقبلوا
فرحا بنا، قد باركوا وتحلّقوا

وقد سألني الإخوان في هذه الليلة: لماذا لا تنضم إلى الإخوان؟

قلت لهم: وكيف ينضم المرء إلى الإخوان؟

قالوا: تملأ استمارة انضمام إليهم، فتصبح بذلك واحدا منهم.

فقلت لهم: هاتوا لي استمارة وأنا أملأها في الحال. فالواقع أني أعُدُّ نفسي واحدا من الإخوان، وإن لم أكتب هذه الاستمارة، منذ سمعت المرشد العام الأستاذ حسن البنا رحمه الله في السنة الأولى.

وملأت الاستمارة، وأصبحت من ذلك الوقت عضوا رسميا في الإخوان، وقالوا لي: يمكن أن تمارس نشاطك في قسم الطلاب بوصفك طالبا في المعهد. وكان رئيس قسم الطلاب شابا ذكيا نشيطا، اسمه إبراهيم مصطفى، وقد بدأت ألتقي به، وأتلقى التعليمات منه.

أول خطبة منبرية في حياتي:

وفي هذه السنة كانت أول خطبة منبرية في حياتي. فقد ذهبنا إلى القرية، لا أذكر بأي مناسبة، وطلب إلي أن أخطب الجمعة، فرحبت بذلك، وألقيت خطبة كان موضوعها «الشكر لله». وقد لاقت قبولا حسنا من الناس، وأثنى عليها العلماء وطلاب الأزهر، وقالوا: إنها فريدة في مضمونها وفي طريقتها وفي إلقائها. فلم أحاول أن أقلد فيها زيدا أو عمرا من الخطباء الذين كانوا قبلي. وهذا هو ديدني دائما وأبدا: ألا أحاول تقمص شخصية غيري، بل أنطلق من ذاتي وحدها، تاركا نفسي على سجيتها. كان ذلك في مسجدنا الجامع مسجد المتولي، الذي بدأت به أول درس ديني. وكنت ألبس جلابية أقرب إلى أن تكون بيضاء، وطاقية على رأسي. ولم أتقيد بحمل السيف الخشبي الذي تعود خطباء البلدة أن يحملوه كلما ارتقوا المنبر. لأني لم أشأ أن أكون موضع سخرية للأدباء الناقدين الذين يقولون: سيوف كل الناس من حديد، وسيوف خطبائنا من خشب!

حادثة تكسير المعهد:

كما حدث في هذه السنة حادث خطير، قام به طلاب المعهد الديني الثانوي. وهو القيام بعملية تخريب وتكسير في نوافذ المعهد وزجاجه، انتقاما من الإدارة الجديدة المفروضة على معهد طنطا وغيره من المعاهد.

ولهذا الحادث قصة، فقد كانت حكومة الوفد هي التي تحكم مصر منذ فرضها الانجليز على الملك في ٤ من فبراير سنة ١٩٤٢م، وكان الشيخ الإمام محمد مصطفى المراغي هو شيخ الأزهر، وكانت بينه وبين الوفد خصومة أو عداوة متوارثة من قديم، فلا الوفد يحب الشيخ، ولا الشيخ يحب الوفد. وكان طلاب الأزهر في غالبهم على هوى شيخهم.

وقد فرضت حكومة الوفد إدارات جديدة على المعاهد، تتمثل في تعيين شيوخ للمعاهد أو وكلاء لها ممن يدينون للوفد بالولاء. وقد رفض الطلاب ذلك. وسكتوا مدة على مضض، ثم دبروا أمر تكسير المعهد بليل، ونفذوه بنهار، وترتب على ذلك اعتقال عدد من طلاب القسم الثانوي بالأزهر، ودخولهم السجن، كما صدر أمر بتعطيل الدراسة، حتى تستقر الأمور.

وعدنا إلى القرية، وقد بقي من السنة نحو شهرين أو أكثر، ولم نكن أكملنا المقررات، وبقينا في البلدة حتى جاءت الامتحانات، وكنا في الشهادة الابتدائية، ودخلنا الامتحان، ولم نكن على أتم الاستعداد، ولهذا لم أحصل على الترتيب الذي كنت أحلم به، ضمن معاهد المملكة المصرية، وإن لم تفتني أولّية الفصل، وما يلزمها من صرف الجنيهات الثلاثة التي أصبحت جزءا ثابتا من إيرادي السنوي.

وكان الطلاب الذين اعتقلوا بتهمة تكسير المعهد قد قدموا إلى المحاكمة، وحضر جملة محامين للدفاع عنهم، على رأسهم المحامي والزعيم القبطي الشهير مكرم عبيد، الذي قدم إلى طنطا من أجل هذه القضية. وقد كان عبيد أمينا عاما لحزب الوفد سنوات طويلة، ثم اختلف مع زعامة الوفد (النحاس باشا وأعوانه) وخرج منه، وألف كتابا في فضائح الوفد سماه «الكتاب الأسود»، ثم أنشأ حزبا جديدا سماه «الكتلة الوفدية». فكان هذا انشقاقا جديدا في الوفد، أضيف إلى انشقاق «السعديين» من قبل.

ولقد قدر الأزهريون هذا الموقف لمكرم عبيد. فبعد أن سقطت حكومة الوفد،

وجاءت السنة الدراسية الجديدة، دعوا مكرما إلى طنطا، وأقاموا له احتفالا كبيرا بقاعة سينما البلدية في طنطا، تحدث فيه الشعراء والخطباء، ومنهم شاعر المعهد المعروف الشيخ إبراهيم البديوي، الذي أنشأ قصيدة شن فيها هجوما عنيفا على حكومة الوفد. أذكر من مطلعها:

دالت عـــهـــود الظلم والـظلمـــات

ومـــضى زمـــان العـــسف والإعنات

وتقـشـعت عن مـصـر شـر حكومـة

قـد كـان فـيـهـا الحكم للشـهـوات

كما ألقى صديقنا الطالب الأديب الشاعر كامل على سعفان قصيدة كان مطلعها:

آمنـت بالـحق لـمـا استـصبح الفلـق

وقفة للمراجعة والنقد الذاتي:

ولا بد من وقفة أمام حادثة تكسير المعهد من طلابه: هل هذا عمل محمود أو مذموم؟

لقد كانت عواطفي وأنا طالب متحمس، مع الطلبة الذين قاموا بهذا العمل الذي يُعَدُّ لونا من التخريب والتدمير لمؤسسة تعليمية.

ولهذه المشاعر المتوقدة أسبابها وبواعثها في ذلك الوقت. فقد كنا ـ نحن طلاب الأزهر ـ مشغوفين بحب الشيخ الأكبر محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر، وكنا نعتقد أنه مثال مشرف للشيخ الأزهري المؤمن برسالته، المعتز بكرامته، الفاقه لدينه، الواعي لعصره. وكنا نوالي من يواليه، ونعادي من يعاديه.

وكانت حكومة الوفد ـ في رأي الطلبة ـ تعادي الشيخ المراغي، وتحاول أن تشل

إرادته، وأن تعطل قراره. وكانت حكومة الوفد متهمة بأنها جاءت على أسنة رماح الإنجليز في ٤ من فبراير عام ١٩٤٢م، كما أنها استغلت ظروف الحرب العالمية القائمة، لفرض الأحكام العرفية، واتخاذها تكأة لإنفاذ ما تريده ضد خصومها السياسيين، وإسكات صوت الطلبة الذين يعبرون عن الرأي العام، ويحركون الشارع المصري، لمقاومة الإنجليز، والمطالبة بالجلاء، ووحدة وادي النيل، وفي مقدمة هؤلاء طلبة الأزهر.

ولا غرو أن الطلبة عندما ضيق عليهم الخناق، وحرموا التعبير عن أنفسهم، واشتعلت مشاعر الغضب في صدورهم، وغلا المرجل واشتد غليانه، ولم يسمح له بأدنى درجات التنفيس، كان لا بد لهذا المرجل أن ينفجر. ومن المقرر في علم الفيزياء: أن الضغط إذا اشتد ولد الانفجار، لا محالة.

وأعتقد أن مثل هذا التعليل أو التحليل هو الذي اعتمد عليه محامو الطلاب عند محاكمتهم، وهو الذي جعل المحكمة تحكم لهم بالبراءة، مع مراعاة الظروف المخففة.

ولكن يبقى أن مثل هذا العمل لا ينبغي أن يلجأ إليه الطلبة العقلاء الذين يقودون الرأي العام ويحركونه، ولا يجوز الانتقام من المؤسسة التي نتعلم فيها، ونخرب مرافقها، كما لا يليق بالزعماء والقادة الكبار أن يستغلوا حماسة الطلاب، وحرارة الشباب، لتحريكهم وجرهم إلى أهداف حزبية، ومصالح سياسية خاصة، بغض النظر عن مصلحة الأمة الكبرى.

العيش على «الفرافيت»:

ومن الوقائع التي حدثت في هذه السنة، وما زلت أذكرها ولا أنساها: هو ما حدث لنا من نفاد الزاد، ونفاد النقود كليهما. وكنا مجموعة من الزملاء والأصدقاء، نعيش متجاورين، أو متقاربين، متعاونين في السراء والضراء.

وقد حدث أننا جميعا نفد ما نحمله معنا من قرانا من خبز وكعك وخلافه، كما نفد ما معنا من النقود المخصصة للمصروفات، وكانت إجازة العيد بعد أيام، ولم يبق معنا كلنا إلا بقايا «الزوادة» أو ما يعرف بـ «الفرافيت».

قررنا جميعا أن نقنع بهذه الفرافيت مع الملح أو (الدُّقَّة) كما يقول المصريون. وكنا نأكل هذه الفرافيت بالملح، ونحن في غاية الرضا عن حياتنا وعن أنفسنا، دون سخط ولا تبرم. وهذا ما فهمناه من الحديث الشريف «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»(١).

لقد ذكرت الفلاحين في قريتنا، وهم يأكلون الخبز والمش، ويشربون بعدها الماء، ثم يقولون: اللهم أدمها نعمة، واحفظها من الزوال.

ومن اللطائف: أن بعض هؤلاء الإخوة كتب إلي بعد أن عملت في قطر عدة سنوات، يطلب مني أن أسعى له في عقد عمل في قطر، ويقول لي: أنسيت عهد الفرافيت؟

أنسيت قول الشاعر:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا
من كان يألفهم في المنزل الخشن

قتل أحمد ماهر:

وفي هذه الآونة سنة ١٩٤٥ فوجئ الناس بقتل رئيس الحكومة أحمد ماهر باشا رئيس حزب السعديين، تحت قبة مجلس النواب المصري، حين أراد أن يعلن دخول مصر في الحرب.

قتله شاب محام اسمه محمود العيسوي، وقبض عليه في الحال، وحاول

(١) سبق تخريجه.

التحقيق أن يعرف له شركاء في حادثة الاغتيال، فلم يجدوا. وعندما كرروا عليه السؤال: من كان معك؟ كان جوابه الفذ والدائم: ضميري ومسدسي ويدي.

وقيل في ذلك الحين: إنه ينتمي للحزب الوطني، وسمعنا في السنوات الأخيرة، أنه ينتمي للإخوان، ولكنه لم يقل ذلك، ولم يعترف به الإخوان، ولم تثبته المحكمة ولا التحقيق، فالله أعلم إلى أي فئة كان ينتمي؟

تولي النقراشي رئاسة الوزارة:

وقد خلف أحمد ماهر في رئاسة الحكومة ورئاسة الحزب نائبه ورفيقه محمود فهمي النقراشي باشا، الذي كان له دور سلبي خطير في القضية الوطنية، وفي مقاومة طلاب الجامعة وفتح «كوبري عباس» عليهم، حتى غرق منهم من غرق، وقتل منهم من قتل، واشتهر بين الطلبة بأنه بطل كوبري عباس.

كما كان له دوره في القضية الفلسطينية، حيث كان من أبطال قبول «هدنة رودس» التي كانت فرصة ذهبية لتمكين العصابات الصهيونية من تأمين دولتهم، وكانت في مهب الريح.

وكذلك كان له دوره الخطير في إنهاء «الوجود الرسمي» والعلني للإخوان المسلمين، وإصدار الأمر العسكري بحلهم وتصفيتهم، استجابة لطلبات بريطانيا وفرنسا وأمريكا، كما سنشير بعد.

وقفة لتقييم الدراسة في المرحلة الابتدائية:

قسم الأزهر الدراسة في معاهده إلى مرحلتين: ابتدائية وثانوية. قياسا على تقسيم وزارة التربية والتعليم - وزارة المعارف كما كانت تسمى يومئذ - وإن كان التعليم الابتدائي في الأزهر، لا يبدأ إلا بعد أن يكون الطالب قد حفظ القرآن الكريم، وأجاد قدرا من الحساب.

والذي لاحظته على مناهج المرحلة الابتدائية :

أولا: أنها خلت من تعليم أي لغة أجنبية كالإنجليزية، مع حاجة الطالب الأزهري إليها في مستقبله .

ثانيا: أنها اهتمت بالجغرافيا والتاريخ والحساب والرياضيات، ولم تهتم بإعطاء قدر من العلوم في الفيزياء (الطبيعة) أو الكيمياء أو الأحياء (الحيوان والنبات) .

ثالثا: أنها اهتمت بالنحو والصرف اهتماما بالغا، حتى إننا درسنا النحو كله أربع مرات في المرحلة الابتدائية : درسناه في السنة الأولي في شرح الأجرومية، وفي السنة الثانية في شرح الأزهرية، وفي السنة الثالثة في شرح قطر الندى لابن هشام، وفي السنة الرابعة في شرح شذور الذهب له أيضا . ولا شك في أن هذا أفادنا كثيرا في معرفة قواعد النحو، ولكنه لم يفد كثيرين في التطبيق .

على أن المناهج لم تعط أي عناية للأدب العربي، ولا لـ «القراءة» المنظمة التي يمكن أن تقاس ويمتحن فيها . واختيار قطع أدبية رائعة من الأدب القديم والحديث لقراءتها .

ومثل ذلك يقال عن «النصوص» أو «المحفوظات»، فلم يكن لها منهاج معلوم، ولا برنامج مرسوم، وإنما تترك للأستاذ يختار ما يشاء أو يتخذها للراحة والترفيه . وكان الامتحان فيها شفهيا، يسأل الطالب : هل تحفظ شيئا من الشعر؟ فيقول : نعم . فيقال له : قل لنا شيئا مما تحفظ .

وأذكر أن بعض زملائنا كان يحفظ أبياتا من قصيدة لصفي الدين الحلي، يقول فيها :

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا
ولا ينال العلا من قدم الحذرا

لا بد للشهد من نحل يمنّعه
لا يجتني النفع من لم يحمل الضررا

وزميل آخر من قريتنا، كان يتمثل بأبيات من قصيدة:

إذا نام غـــر في دجى الليل فـــاســـهـــر

وقم للمــعـــالي والعــوالي وشـــمـــر!

وكان كل منهما إذا سئل في امتحان أي سنة: ماذا يحفظ؟ يردد هذه الأبيات لا يزيد عليها.

قصور في العلوم الدينية:

على أن الشيء العجيب هو قصور المناهج في العلوم الدينية ذاتها، التي هي روح الأزهر، ومحور وجوده.

علم الفقه:

أما «علم الفقه» فبرغم أني كنت أحصل فيه على أعلى الدرجات، لم أكن مرتاحا إليه، وإلى الكتب المؤلفة فيه، وإلى طريقة تدريسه.

في السنة الأولى كان يدرس لنا الفقه شيخ حسن الطريقة، جيد الشرح، يحاول أن يصل الفقه بالحياة، وأن يضرب المثل من الواقع. وكان يجذبنا بطريقته إلى فهم الموضوع جذبا، وبخاصة أنه كان يدرس لنا «فقه العبادات» أي فقه الطهارة، وفقه الصلاة، وفقه الصيام، من كتاب «نور الإيضاح» في الفقه الحنفي. وموضوع العبادات متصل بحياة الناس وواقعهم المعيش. ذلكم هو الشيخ محمد الشناوي من محلة روح بجوار قريتنا.

أما في السنوات الثلاث بعد ذلك (الثانية والثالثة والرابعة) فقد كانت تدرس في كتاب «اللباب في شرح الكتاب» أو كما يسميه الأحناف «الميداني على القدوري» وكان التركيز فيه على المعاملات، وهذه المعاملات لا صلة لها بما يجري في الحياة، وما يحدث في واقع الناس من أحداث.

فهي تتحدث عن «البيوع» من الوجهة النظرية، ولا تربط هنا أدنى ربط بما

يحدث في أسواق الناس. وتتحدث عن «الإجارة» ولا علاقة لها بما تدور به عجلة الحياة من إجارات مختلفة. ويتحدث عن الشركة وأنواعها من المفاوضة والعنان والوجوه وغيرها، ولا ندري شيئا عن أنواع الشركات التي يمور بها الواقع مورا.

كان الفقه في أبواب المعاملات «ميتا» لا روح فيه ولا حياة. لا في الكتاب، ولا في عقلية الأستاذ وطريقته.

بل بعض العبادات أديت إلينا «ميتة» أيضا، مثل «الزكاة» والحج. ولقد درست الحج، فلم أستطع أن أهضم فيه شيئا، مما يذكر عن الإفراد والتمتع والقران. ويظهر أن مدرسنا لم يحج، فلم يمكنه أن يلقي على هذا المفاهيم أي شعاع من ضوء.

الشيء الذي فهمته من غير العبادات، هو «الميراث»، إذ كانت أصوله في القرآن الكريم، وكان موصولا بحياة الناس، وكان الناس يسألون فيه دائما، ففهمته وهضمته، وكنت أفتي فيه منذ السنة الرابعة الابتدائية.

علم التوحيد:

ومن العلوم التي لم يتفتح لها عقلي، ولم يطمئن بها قلبي: ما يسمى «علم التوحيد»، وهو ما كان يسمى «علم الكلام» وهو العلم الذي يتولى تقديم العقيدة وشرحها والتدليل عليها، والدفاع عنها.

وكان علم التوحيد يقدم لنا طوال سنوات القسم الابتدائي في صورة «مذكرات» يكتبها الأساتذة، وهي مذكرات مختصرة، ولكنها معقدة، تعتمد على «علم الكلام الأشعري» ومقدماته العقلية المتأثرة بفلسفة اليونان، وقصور نظرتها إلى الوجود والوحي والآخرة، وغموض عباراتها في تقديم هذه الأمور.

بخلاف طريقة القرآن التي تقوم على مقدمات فطرية، تقتنع بها العقول، وتطمئن بها القلوب، كما تقدم في أسلوب يجمع بين إقناع العقل، وتحريك العاطفة معا.

وكنا نذكر آيات القرآن في علم التوحيد على أنها مجرد «أدلة نقلية»، ولا ننظر إلى ما تحمله من دلالات عقلية، مثل الدلالة على وجود الله تعالى، في مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (الطور: ٣٥، ٣٦).

ومثل الدلالة على وحدانية الله، كما في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢). ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون: ٩١).

ومثل الدلالة على البعث والجزاء بعد الموت، وضرورة الثواب والعقاب لإثبات عدل الله تعالى وحكمته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)﴾ (ص: ٢٧، ٢٨).

لم نكن ندرس من علوم الدين في المعهد غير الفقه والتوحيد، والفقه يدرس على الطريقة المذهبية بعيدا عن الاستدلال بالقرآن والسنة، وعن مقاصد الشريعة، وعن واقع الحياة. كما يدرس التوحيد على طريقة الأشعرية المتأخرين، وفيه نفس فلسفي وجدلي، لا ينشئ عقيدة ولا ينميها ولا يثبتها. ولم نكن ندرس في هذه المرحلة حديثا ولا تفسيرا، ولو بصورة ميسرة تناسب الطالب في هذه المرحلة من طلب العلم.

(٧)

إلى المرحلة الثانوية

إلى المرحلة الثانوية

تداول الأيام:

في المرحلة الثانوية كان الحكم في مصر قد تغير، وذهبت حكومة الوفد التي عادت الأزهريين، أو عاداها الأزهريون، والتي أدخلت عددا منهم السجون، وقدمتهم للمحاكمات. فلا عجب أن تنفس أبناء الأزهر الصعداء، ورحبوا بالعهد الجديد، الذي عَدُّوه عهد حرية وتمكين لهم، بعد سقوط العهد الذي عدوه عهد اضطهاد واستضعاف لهم. وهكذا الدهر يومان: يوم لك، ويوم عليك، والناس يقولون: دوام الحال من المحال. والقرآن يقرر هذه السُّنة الماضية حين يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

ومن هنا تغيرت مشيخة المعهد وإدارته، فذهب الشيخ عبد الحفيظ الدفتار المحسوب على حكومة الوفد، وجاء الشيخ محمد الجهني شيخا للمعهد. وكان شيوخ المعاهد في ذلك الزمن لهم مهابة في صدور الناس، وكان شيخ المعهد في طنطا يجلس بجوار مدير المديرية.

احتفل طلاب المعهد بشيخهم الجديد، وأقاموا له احتفالا واقفا في ساحة المعهد (أي بغير كراسي). وتحدث فيه الخطباء والشعراء من الشيوخ والطلاب، وتحدث الشيخ الجهني بكلمة قصيرة ختمها بقول شاعر الحماسة، مخاطبا الخصوم:

ملكنا فكان العفو منا سجية

فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحللتمو قتل الأسارى، وطالما

مررنا على الأسرى نمن ونصفح

فحسبكمو هذا التفاوت بيننا

وكل إناء بالذي فيه ينضح

وألقى الطالب محمد عبد الحليم الشيخ زعيم طلبة المعهد قصيدة جاء فيها:

جاء نصر الله والفتح المبين

وانقضى الظلم على مر السنين

واستعاد الشعب حرياته

لا قتيل، لا جريح، لا سجين

وقرت أعين الطلاب بالجو الجديد، الذي لم يعد فيه الطلاب يتجسس بعضهم على بعض، أو يكيد بعضهم لبعض، أو يتربص بعضهم ببعض، كما في عهد التضييق السابق، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

إلى المعهد الديني الثانوي:

حصلت على الشهادة الابتدائية، وتأهلت لدخول المرحلة الثانوية بالمعهد.

والمعهد الثانوي مقره بجوار محطة سكة حديد طنطا، فقد بني أساسا ليكون معهدا، بخلاف المعهد الابتدائي، فإنه مبنى مستأجر. ولا يزال مبنى هذا المعهد قائما إلى اليوم.

وقد نضجت السن الآن، لأتمم الثامنة عشرة، واتسعت قراءاتي أكثر من ذي قبل، واشتهرت بقول الشعر بين الطلاب، ودخلت المرحلة الجديدة، وأنا متهيىء لها بحمد الله عقليا ونفسيا.

كان طلاب كل سنة في المعهد يقسمون إلى فصول، كل فصل فيه نحو أربعين أو خمسين طالبا. وكان نصيبي في الفصل السادس، إذ الشافعية من الطلبة - وهم الأكثر عددا في الوجه البحري - حصلوا على الصفوف الثلاثة الأول، ثم الأحناف حصلوا على صفين ونصف، والنصف الثاني من المالكية. فكان صفي نصفه من الحنفية وأنا في حرف الياء في آخرهم أو قبل الآخر بواحد، ثم يأتي المالكية من الطلبة ومعظمهم من طلبة معهد دسوق الابتدائي، أو مركز كفر الزيات، التي فيها بعض قرى مالكية، مثل قرية صديقي أحمد العسال، الذي كان حظه في فصلي، وقد تعارفنا منذ التقينا، في الصباح في الفصل، وفي المساء في دار الإخوان.

محمد الدمرداش مراد:

وفي هذا الفصل تعرفت على صديق جديد، أصبح بعد ذلك هو أقرب الأصدقاء إلى نفسي، هو الأخ محمد الدمرداش مراد، أو قل: هو الذي طفق يقترب مني، ويتعرف علي، بلهفة وصدق؛ فقد كان مدرس مادة «الإنشاء» يطالبنا بأن يتحدث بعضنا عن موضوع معين قبل أن نكتب فيه، في حصة الإنشاء الشفهي، ثم نكتب الموضوع في حصة الإنشاء التحريري.

وفي يوم من الأيام طلب مني الأستاذ أن أتكلم في موضوع معين، فوقفت وارتجلت كلمة في دقائق، وأعجب بها أخي الدمرداش إعجابا بالغا، وسألني: من أين لك هذا الأسلوب؟ وكيف تستطيع أن تأتي بهذه الجمل البليغة بلا تحضير؟ وقلت له: هذا نتيجة محصول من القراءات الأدبية، وليس أمرا مستحيلا، ولا متعذرا لمن أراده، فإنما العلم بالتعلم.

وظل يقترب مني أكثر فأكثر، في الفصل، وفي جامع السيد البدوي حيث يطيب لنا المذاكرة هناك، وقد رأى الزملاء يجتمعون حولي يسألونني في «المعضلات» الإعرابية، فأعربها بسهولة. وكان الدمرداش رحمه الله سليم الفطرة، يعجب بكل ذي موهبة أصيلة، ويحب أن يكون مثله أو يقبس منه. وأذكر أن بعضهم سألني عن

إعراب قوله تعالى في سورة (المعارج: ١١) ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ فأجبت على الفور: يبصرون فعل من الأفعال الخمسة مرفوع بثبوت النون، واو الجماعة فيه نائب فاعل سد مسد المفعول الأول، وضمير الجمع (هم) مفعول ثان. فدهش ودهش الحاضرون من قدرتي على الإعراب وسرعتي فيه.

وقد وجدت في الدمرداش الصديق الصدوق، والأخ الشقيق للروح، الذي قال فيه المثل: رُبَّ أخ لك لم تلده أمك!

أصبح الدمرداش ملازما لي، إذا ذهبت إلى الجامع ذهب معي، وإذا ذهبت إلى شعبة الإخوان ذهب معي. وغدونا لا نكاد نفترق، إلا عند النوم، فلم نجد بُدًّا من أن نسكن معا.

وقد أخذنا حجرة في منزل خالتي، وكان معه زميله وبلديه أحمد صقر حجازي، الذي كان يجيد الطهي، وأنا لا أحسن شيئا من هذا، فكان ذلك من حسن حظي، ومن صنع الله لي. وبذا أصبح محمد الدمرداش رفيق السكن، ورفيق الدراسة، ورفيق الدعوة. وغدا أقرب الأصدقاء إليَّ حسا ومعنى، وبدا كأنما يريد أن يدخل في أعماقي، أو يُمْسي جزءا من كياني، يدخل بين جلدي ولحمي لو استطاع.

وعن طريق الدمرداش تعرفت على إخوة وأصدقاء آخرين من بلدياته، من مركز زفتى. فقد كان هو من قرية «السملاوية» مركز زفتى. ومن هؤلاء: الصديق العزيز والأخ الكريم عبد العظيم محمود الديب، (من كفر إبْري مركز زفتى) وقد كان طالبا بالمرحلة الابتدائية حينئذ، ولكنه كان متألقا تلوح عليه مخايل النبل والتفوق. وكثيرا ما كان يدعونا إلى مسكنه، يطعمنا بما أتحفته به والدته مما لذ وطاب. وقد تعودنا نحن طلبة الإخوان إذا دعانا أحد زملائنا، وأكرم وفادتنا، وأطعمنا حتى نشبع، نقول فيما بيننا (مازحين): هذا الأخ فاهم للدعوة! أما إذا لم يقدم ما يقنع ويشبع، نقول: إنه ما زال في بداية الطريق، لم يحسن فهم الدعوة بعد!

وكنا نقول لمن يضيفنا : أكل طعامكم الأبرار ، وأفطر عندكم الصائمون ، وصلت عليكم الملائكة . فيستدرك أحدنا ، ويقول : إلا جبريل ، فإنه لا يصلي على المضيِّف حتى يقدم الشاي!

وأحسب أننا كنا المبتكرين لهذا المُلْحة ، ثم عمت بعد ذلك وانتشرت .

وفي دار الإخوان التي تجمعنا في المساء ، وخصوصا أيام الخميس والجمعة ، تعرفنا على عدد من الطلاب ، منهم محمد الصفطاوي ، وسعد الدين العراقي ، وعبد العزيز الزير ، وغيرهم .

مسرحية «يوسف الصديق»:

أول عمل لي دخل المكتبة العربية كان عملا شعريا مسرحيا ، فقد قرأت مسرحيتيْ شوقي «مصرع كليو باترا» و«مجنون ليلى» وتأثرت بهما ، وأردت أن أنسج على منوالهما مسرحية عن قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، لما فيها من غرائب الأحداث ، مما يصلح لمسرحية شعرية . وقد شرعت في كتابتها وأنا في السنة الرابعة الابتدائية ، وأكملتها وأنا في السنة الأولى الثانوية ، ودفعت بها إلى المطبعة ، وكانت تسمى «المطبعة اليوسفية» فكان هذا من المفارقات ، فالموضوع هو «يوسف الصديق» والمؤلف هو يوسف القرضاوي ، والمطبعة هي «اليوسفية» لصاحبها يوسف . . . .

وكانت المشكلة في تكاليف الطبع ، فالمطبعة تريد مبلغا مقدما ، وأنا لا أملك هذا المبلغ ، ولا توجد جهة تشجع الشباب الناشئين ، كما يوجد في هذه الأيام . ولم أجد من يعينني في ذلك غير قريب لي هو الحاج محمد الرياشي الحاروقي ، الذي أسلفني مبلغ خمسة جنيهات ، أعطيته للمطبعة ، وكتبت عليَّ وَصْلا بالباقي ، وكان العدد كله ٥٠٠ خمسمائة نسخة ، أهديت وبعت منه في محيط الطلبة والإخوان حوالي المائة ، وبقي نحو ٤٠٠ أربعمائة نسخة ، فهيأ الله رجلا اشتراها على ما أذكر بعشرة جنيهات ، أعطيت منها الخمسة التي استلفتها من قريبي وسددت باقي مبلغ

المطبعة، وقلت: الحمد لله الذي أخرجني سالما، لا لي ولا علي، فإن الدَّيْن هم بالليل ومذلة بالنهار.

وقد أثنت بعض المجلات الأدبية في حينها على المسرحية، بوصفها تمثل نموذجا من شعر الشباب، ونقلت فقرات منها.

وقد كتبت على غلاف المسرحية هذه الأبيات:

يا من رمتـه الليـالي اصبـر لرميتـهـا
إن الـليـــــالي والأيـــــام أدوار

فـالجـو يصـحـو، وإن عـمت غـمـائمـه
والليل يعـقـبـه صـبح وإسـفـار

وانظر ليـوسف أضـحت مـصـر في يده
وقـبل في سـجنهـا انتـابتـه أظفـار

وعلى غرار ما جرى عليه كثير من الشعراء في ذلك الزمن، وضعت صورتي في مقدمة المسرحية، وكتبت تحتها:

أمـصـــور الأشـكـال والأبـدان
هلا تصـــور حـكمــتي وبيــاني؟

أتصَـــورنْ وجــه الرجــال وتتـركن
تصــوير مـــا بالرأس من عـــرفـان

المـــرء ليس بوجـهـه أو جـســمـه
لـكـن بفكـر ثـاقـب ولـســان

لو كـان قـدر المرء جـسـمـا لا حِجًـا
لسـمـا عـليـه الثـور بالجسـمـان

ويبدو في هذا الشعر شيء من الإعجاب بالنفس، وهو ليس من خلقي، ولكني قلته محاكاة وتقليدا لشعراء ذلك الزمان.

كان هذا هو عملي المسرحي الأول. ولقد عملت عملا مسرحيا آخر، في عالم النثر، وهو مسرحية تاريخية تجسد طغيان الحجاج بن يوسف الثقفي وجبروته وموقف العلماء منه ممثلا في واحد من أبرزهم هو العالم الفقيه الشجاع سعيد بن جبير. وقد سميت هذه المسرحية «عالم وطاغية».

وقد مثلت في أكثر من بلد، ولقيت قبولا. وأما مسرحية «يوسف الصديق» فلم تمثل، لأن الفتوى المعتمدة: أن رسل الله وأنبياءه لا يمثلون.

ولم أجرب نفسي في فن القصة، وإن كنت فكرت في ذلك، وأنا في هذه المرحلة الثانوية، ثم تهيبت خوض التجربة، وإن كنت كثيرا ما أنصح إخواني وأبنائي من الأدباء الإسلاميين الناشئين أن يدخلوا هذا المعترك، ولا يدعوه للماركسيين والعلمانيين، الذين أودعوا رواياتهم وقصصهم مفاهيمهم وفلسفتهم عن الدين والحياة، وعن الله والطبيعة، وعن الفرد والمجتمع، وعن الإنسان والشيطان، أحيانا صريحة مكشوفة القناع، وأحيانا بالرمز والتغطية بأثواب شتى.

وقل من الإسلاميين من أبدع في هذا الفن الأدبي، وترك «بصمة» تشير إليه، وتدل عليه، مثل صديقنا الدكتور نجيب الكيلاني رحمه الله، وصديقنا محمد عبد القدوس حفظه الله.

موت الشيخ المراغي:

في صيف سنة ١٩٤٥ (١٢من أغسطس) انتقل إلى رحمة الله تعالى الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر، وقد كان أعظم وأبرز من تولى مشيخة الأزهر في هذا العصر، وقد تولى مشيخة الأزهر مرتين مرة سنة

١٩٢٩م، ولم يطل مقامه، والأخرى سنة ١٩٣٥ ، وظل عشر سنوات، وجاء في المرة الثانية بعد ثورة من طلاب الأزهر وعلمائه.

كان الشيخ المراغي من الرجال المصلحين المجددين، ولكن التيار المحافظ كان لم يزل قويا، وهو الذي وقف في وجه الشيخ الإمام محمد عبده، واتهمه بقلة الدين، وضعف اليقين. وهو الذي قاوم المراغي وما اعتزمه من تجديد، سواء في داخل الأزهر أم خارجه.

وكان للشيخ دور في إصلاح الأزهر، وإن لم يبلغ به المدى المطلوب، ولكنه بدأ الطريق. وتبين من كلام الدكتور محمد البهي أنه لم يكن راضيا عما أداه للأزهر، وأنه لو كان في عمره بقية، لسار بالأمر مسيرة أخرى، عاملا لرسالة الإيمان، مثلما عمل لمصلحة مشايخ الأزهر.

كما كان له دور في إصلاح قوانين الأحوال الشخصية، وهو الجزء الذي بقي للشعب المصري من التشريع الإسلامي، وكانت القوانين محصورة في أول الأمر في المذهب الحنفي لا تحيد عنه، ثم جاءت خطوة أخرى تجيز الخروج منه إلى أحد المذاهب الأربعة، ثم كانت الخطوة الأخيرة، التي أجازت التحرر من المذاهب الأربعة نفسها إلى مذاهب الصحابة والتابعين والأتباع والمذاهب الأخرى المتبوعة والمنقرضة، مثل مذهب الثوري، ومذهب الأوزاعي، ومذهب الطبري، وغيرهم من السلف، فقد نجد في هذه المذاهب والأقوال من السعة والمرونة والتيسير ما لانجده في المذاهب الأربعة، فلماذا نضيق على الأمة وقد وسع الله عليها؟ وربما كان المذهب الميسر أقوى دليلا، وأقوم قيلا؟ ومنها: ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم من أحكام تقيد إيقاع الطلاق، فلا توقع طلاق السكران ولا الغضبان، ولا ما أريد به الحمل على شيء أو المنع منه (أي حين يستخدم الطلاق استخدام اليمين)، وكذا إيقاعه الطلاق الثلاث في لفظة واحدة طلقة واحدة رجعية، وليست ثلاثا... إلى آخر هذه الإصلاحات التي أنقذت الأسرة المسلمة.

وقد ثار المشايخ المقلدون للمذاهب، والمتعصبون لها، على إصلاحات الشيخ، واشتد إنكارهم عليه، وكتب في ذلك ردودا مفصلة نشرت في مجلة الأزهر، ثم جمعت بعد ذلك في كتاب تحت عنوان «بحوث في التشريع الإسلامي»، طبع في مطبعة الأزهر.

وكان مما أورده مشايخ المذاهب على الشيخ: أن هذه الاختيارات والإصلاحات تقتضي أن يكون من اختارها حاصلا على رتبة «الاجتهاد»، وقد انقطع من زمن لعدم وجود من يستجمع شروطه في زمننا.

ورد عليهم الشيخ: أن الاجتهاد في زماننا أيسر من الزمن الماضي، وفي علماء الأزهر الحاليين من يستجمع هذه الشروط من معرفة القرآن والسنة واللغة العربية ومواضع الإجماع، وإذا لم تؤهل معاهد الأزهر وكلياته طالبها بعد الدراسات الطويلة للاجتهاد في بعض المسائل وترجيحها، فلا معنى لبقاء هذه المعاهد. وفي النهاية انتصر توجه الشيخ وأصبح المعمول به.

مات الشيخ في عطلة الصيف، والطلبة في إجازاتهم، ولو كان موته في أيام الدراسة لتجمع طلاب الأزهر من جميع أنحاء مصر للمشاركة في جنازته.

وحينما بدأ العام الدراسي، أقيم له حفل تأبين في طنطا شارك فيه عدد من الخطباء والشعراء الذين نوهوا بفضائل الشيخ، ودوره البارز في الأزهر وفي المجتمع المصري عامة.

الشيخ مصطفى عبد الرازق:

وقد اختير لمشيخة الأزهر خلفا للشيخ المراغي: الشيخ مصطفى عبد الرازق، خريج الأزهر، وخريج السوربون، وأستاذ الفلسفة بكلية الآداب، ووزير الأوقاف من قبل، وسليل أسرة عبد الرازق الأرستقراطية المعروفة والمحسوبة على حزب الأحرار الدستوريين، والقريبة من القصر، وشقيق الشيخ على عبد الرازق، مؤلف

كتاب «الإسلام وأصول الحكم» الذي أثار ضجة عند صدوره، وهاج عليه الأزهر والمجتمع، وإن كان الشيخ مصطفى غير أخيه.

عين الشيخ مصطفى شيخا للأزهر، بالرغم من أن قانون الأزهر يشترط أن يكون شيخه من أعضاء هيئة كبار العلماء، ولم يكن الشيخ مصطفى منهم، لهذا عارضه بعض كبار الشيوخ، ومنهم الشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية، ولكن الملك فاروق كان يرغب في تعيين الشيخ، وإذا رغب الملك طوعت له القوانين، فالقوانين تلين لبعض الناس حتى تكون كالعجين، وتشتد لآخرين حتى تكون كالفولاذ.

شيوخي في المرحلة الثانوية:

كان طالب العلم في الزمن الأول يختار شيوخه في كل علم، ينتقي أعلمهم به، وأشهرهم فيه، ليضرب أكباد الإبل راكبا إليه، أو يمشي على قدميه راحلا إلى بلده، ليأخذ عنه، وينهل من معينه. وهو لا يكتفي بشيخ واحد في كل علم، بل يجتهد أن يأخذ عن أكثر من شيخ، يأخذ من كل أفضل ما عنده. ويباهي كل واحد منهم بكثرة شيوخه من جهة الكم، وبفضلهم وامتيازهم من جهة الكيف.

وحين نقرأ ترجمة واحد منهم في كتب الطبقات والتراجم، نعجب لهذا العدد من الشيوخ الذين تلقى عنهم من أكثر من بلد، وفي أكثر من زمن، وفي أكثر من فن، وأكثرهم من العلماء الأفذاذ، والأئمة النابغين في فنونهم.

ذاك زمان مضى. أما زماننا فلم يعد الطالب هو الذي يختار شيخه في أي علم من العلوم أو فن من الفنون. فالإدارة المسئولة هي التي توزع الأساتذة والمعلمين المعينين عندها على فصول الطلاب، وكل طالب وحظه.

كما أن النوعية المتفوقة والرفيعة المستوى التي بلغت الإمامة في تخصصها، لم يعد لها وجود اليوم، بعد تراجع الحضارة الإسلامية، وإغلاق باب الاجتهاد في

الفقه، والإبداع في الأدب، والتجديد في الدين، وبعد أن أصبح المثل السائر: ما ترك الأول للآخر شيئا، وليس في الإمكان أبدع مما كان! ومن وجد من شيوخ العلم الذين يلمعون في سماء العلم، كما يلمع سنا البرق الذي يأخذ بالأبصار، فهذا ليس هو القاعدة، بل الشذوذ الذي يثبت القاعدة.

لذا كان معظم أساتذتي في المرحلة الثانوية رجالا فضلاء طيبين تقليديين، لم يستطع أكثرهم أن يترك في نفسي أثرا ملموسا، أو موقفا علميا أو عمليا أذكره به، ولا غرو أن نسيت أسماءهم إلا القليل، رحم الله الجميع وغفر لهم.

وقد كان كثير منهم يصرح بأن أكبر همه هو الراتب. وأذكر أن واحدا منهم كان مغضوبا عليه، وقد نقل من القاهرة إلى طنطا، فسألناه: ألا يغضبك هذا؟ فقال بصراحة: أنا لا يهمني إلا راتبي، لو نقصوني جنيها واحدا أو أقل، لقاتلت شيخ الأزهر من أجله!

وكانت هذه الروح المادية والنفعية من آفات التعليم الحديث: أن غدا أستاذ الأزهر يعمل بروح الموظف الذي ينتظر الراتب ويعمل بقدره، لا بروح صاحب الدعوة، الذي يحتسب عمله لله، وينتظر الأجر من الله، ويرى أن عمله قربة إلى الله وأنه عبادة وجهاد في سبيل الله.

مع الشيخ الدفتار مدرس الفقه:

وكان يدرسني في السنة الخامسة الفقه الحنفي مدرس كفء وإن كان مكفوف البصر، هو الشيخ محمود الدفتار، وهو من آل الدفتار، وهم أسرة معروفة بالانتساب إلى المذهب الحنفي، والاعتزاز به، فأحدهم يقال له: أبو حنيفة، والثاني: أبو يوسف، والثالث: محمد.

كما كان لهم نزعة صوفية ظاهرة تتمثل في الاعتقاد في الأولياء، والمبالغة في إثبات كراماتهم وخوارقهم. وقد كان الذي يدرسنا مادة «العروض والقافية» في

السنة الأولى الثانوية، هو الشيخ أمين الدفتار، وكان يختار أمثلته من شعر الصوفية الذي ينزع هذا المنزع، فهو يمثل لنا عن بحر «الكامل» بقول الشاعر:

لذ بالمقـــام الأحـــمـــدي وقل: مـــدد

يا ســـيـــد الأقطاب يا نعـم السند!

وكان لا يقبل أي مناقشة حول هذه القضية، وكان يذهب كل ليلة ليجلس في مقام السيد ما بين المغرب والعشاء، لا يكاد ينقطع عن ذلك إلا لسبب.

وكذلك كان الشيخ محمود من أحباب السيد البدوي والمدافعين عنه. وقد اجترأت مرة فناقشته في أن الأضرحة التي تقام للأولياء ويدفنون فيها، ليست على منهج السنة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة إلى القبور، والصلاة عليها، كما نهى عن إضاءتها وإيقاد السرج عليها، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد. ودخلت مع الشيخ في مناقشة، وقال لي: أيهما أولى: أن تصلي قرب الميضأة أم تصلي بجوار الضريح؟ قلت له بصريح العبارة: أن أصلي قرب الميضأة. فنهرني بشدة، وقال: أنت وهابي تبغض الأولياء. قلت له: أنا أقول ما درسته في هذا المعهد في «صفوة صحيح البخاري». فأسكتني وأغلق المناقشة.

وفي مرة أخرى، كان الشيخ يشرح لنا «باب الأضحية» في الفقه، وما لها من فضل أغفله أكثر الناس، أو قلت قدرتهم عن القيام به. وهنا تدخلت وقلت له: يا فضيلة الشيخ، إن كثيرا من الناس يذبحون بالفعل، ولكنهم يذبحون للبدعة، ولا يذبحون للسنة. قال لي: كيف يذبحون للبدعة؟ قلت: عندنا في قريتنا وفي غيرها من القرى أناس كثيرون ينذرون خرافهم لتذبح في مولد السيد، وهذه بدعة، ولا يذبحون يوم عيد الأضحى، وهي سنة. ولو أن العلماء قاموا بواجبهم، ونبهوا الناس على ذلك، لأحيينا السنة وأمتنا البدعة. فغضب الشيخ، وقال لي: اخرج من الفصل.

وحاولت بعدها أن أعتذر إلى الشيخ ليرضى عني ويدخلني الحصة، وقد كان،

وإن لم يطل الأمر كثيرا، فقد وقع حل جماعة الإخوان في ٨ من ديسمبر عام ١٩٤٩ وبعدها توترت الأوضاع، وحمي الوطيس، وقبض عليّ، ورحلت إلى الطور، في قصة طويلة، سأعرض لها في موضعها. وقد أراح القدر الشيخ الدفتار من هذا الطالب المشاكس الذي لا يكف عن المناقشة والسؤال.

الشيخ الشعرواي درّسني:

وأهم من درَّسني في المرحلة الثانوية، هو: الشيخ محمد متولي الشعراوي. وقد كان في تلك الفترة من حياته معروفا بالشعر والأدب، ولم يكن معروفا بالدعوة الدينية. وكان للشعراء مجال يبرزون فيه ويتنافسون، ويظهر كل منهم أنفس ما عنده من جواهر، وذلك في مناسبة الاحتفال بالهجرة النبوية أول محرم من كل عام. ويتبارى فيه الخطباء والشعراء من الأساتذة ومن الطلاب.

وكان نجم الشعر المتألق في معهد طنطا هو الشيخ إبراهيم بديوي، الذي سمي «شاعر المعهد»، والذي كان له في كل مناسبة قصيدة جديدة. ولكن في سنتين ظهر في كل منهما نجم آخر، غطى على نجومية البديوي. أحدهما كان الشيخ محمد خليفة الذي كانت له قصيدة سحرت الجمهور، وأخذت بلبه، وكانت مكونة من مائة بيت من بحر المتقارب، كل عشرة من قافيتين. وعندما تنتهي الأبيات العشرة في نفس واحد، يمتلئ السرادق بالتصفيق والإعجاب. وأذكر من هذه القصيدة مناجاة الشاعر لهلال المحرم، والحرب العالمية الثانية على أشدها مستعرة الأوار:

هلال المحرم هل من نبا؟

وهل شمت في الجو طيف السلام

ومنها:

وجود تفرق أيدي سبا

وفوضى تحير عنها النظام

إذا صـــــــاح بـالسـلـم داع أبـى

إذن يـا ســــلام عـلـيك الســـــلام

وفي موسم آخر ظهر نجم آخر، هو نجم الشيخ الشعراوي، الذي ألقى قصيدة رائية من بحر الخفيف، شدت إليها الحاضرين، واستحوذت على قلوبهم، وتجاوب معها الشيوخ والطلاب. نسيت مطلعها، ولكن مما جاء فيها عن سيدنا أبي بكر:

وكـــفـــاه على الفـــخـــار دليـــلا

(ثانيَ اثنين إذ همـــا في الغـــار)

وختمها الشاعر ببيت من عيون الحكمة، يقول:

كل دنيـــا تبنى عـلى غـــيـــر دين

فـــبناء عـلى شـــفـــيـــر هار!

جاء الشيخ الشعراوي إلى معهد طنطا الثانوي، وأنا في القسم الابتدائي، واستمر يدرس فيه «علم البلاغة» لطلاب الثانوي، إلى أن وصلت إلى السنة الرابعة الثانوية، التي يدرس فيها الشيخ البلاغة من كتاب «تهذيب السعد» قسم «علم المعاني».

وكان الشيخ الشعراوي مدرسا ناجحا تماما، متمكنا من مادته، حسن التعبير عن مراده، محترما من الطلاب، قادرا على ضبط الفصل، يتحرك يمنة ويسرة في أثناء شرحه، أشبه ما يكون بطريقته في دروس التفسير التي شهدها الناس منه بعد ذلك في حلقات (التلفزة).

وكان الشيخ الشعراوي من الناحية السياسية محسوبا على حزب الوفد، ومعدودا من رجاله، ولكنه ـ والحق يقال ـ لم يكن من الحزبيين المتفلتين، فقد كان

رجلا ملتزما بشعائر الدين، محافظا على الصلوات في أوقاتها، هو وزميله وصديقه الذي كان يدرسنا «تاريخ الأدب العربي» بقدرة وجدارة الشيخ المنوفي.

وكان حزب الوفد في هذه المرحلة في تنافس شديد، وصراع حار، مع جماعة الإخوان، فكلاهما يريد أن يكسب الشارع المصري إلى صفه. وبعد أن كان الوفد هو المسيطر على الشارع، وهو الذي يحرك الرأي العام إذا أراد، أصبح له في الميدان منافس قوي شديد البأس، يقود الجماهير باسم الإسلام، ويكسب كل يوم منه أرضا جديدة، ويخسر الوفد جزءا من جمهوره التقليدي.

وهذا الصراع انعكس على طلاب الوفد وطلاب الإخوان في المعاهد والمدارس والجامعات. وكان الإخوان أقوى صوتا، وأشد تأثيرا، بمن لهم من ممثلين أقوياء، مثل مصطفى مؤمن زعيم طلاب جامعة القاهرة، أو قل: زعيم طلبة مصر كلها، والخطيب السياسي الجماهيري الذي يسحر الألباب.

ويبدو من سياق الأحداث أن الشيخ الشعراوي قد شحن من قِبَل بعض المشايخ والطلبة الوفديين في المعهد، ضد طلاب الإخوان، وأنهم حذروه منهم، وأنهم قد يشغبون عليه في درسه أو نحو ذلك.

ومن دلائل ذلك: أني سألت الشيخ في أثناء درسه في البلاغة سؤالا علميا بريئا، كما أفعل مع كل أساتذتي، فأنا بطبيعتي أحب أن أفهم، وأحب أن أناقش، ولا آخذ كل شيء قضية مسلَّمة، ولكن الشيخ الشعراوي رأى السؤال تحديا له، واستشاط غضبا، ظهر على صفحات وجهه، وقال لي يرد على التحدي - في نظره - بتحد مثله أو أقوى منه: اسمع يا يوسف، إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا!! فقلت له: والله ما قصدت غير السؤال العلمي البحت، ولم يتجه تفكيري إلى ما فهمته قط.

وكان هو السؤال الأول والأخير، فلم أحاول أن أسأله بعد ذلك، حتى لا يسيء فهمي. ومضت السنة الدراسية، وجاء الامتحان، وكان من نزاهة الشعراوي أن منحني أعلى درجة في الفصل.

وقد سألني بعض الإخوة من الأصدقاء والتلاميذ عن المسألة العلمية التي خالفت فيها الشيخ الشعراوي، ورد علي فيها محتدا، وقال ما قال رحمه الله.

وأنا أذكر هذه المسألة جيدا، إنها مسألة في البلاغة تتعلق بعلم المعاني، وكان الخلاف حول مثال ذكره الشيخ، وهو أن اسم الفاعل قد يذكر ويراد به اسم المفعول، مثل قوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ (القارعة: ٧) بمعنى «مرضية» و﴿مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (الطارق: ٦) بمعنى مدفوق. وقوله تعالى في قصة نوح حين قال له ابنه: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ (هود: ٤٣).

قال الشيخ: فمعنى ﴿لَا عَاصِمَ﴾ هنا: أي لا معصوم إلا من رحمه الله. وهنا قلت للشيخ: الذي يتراءى لي يا مولانا: أن ﴿لَا عَاصِمَ﴾ على أصلها وظاهرها، والمعنى: أنه لا يعصم أحدا شيء من عذاب الله (وهو الطوفان) إلا من رحم، وهو الله، أي لا عاصم من أمر الله إلا الله.

فظن الشيخ أني أعترض على قوله متحديا، فغضب، وقال ما قال، ووالله ما خطر ببالي التحدي، وإنما أنا أناقشه على سجيتي وطريقتي مع مشايخي.

وقد قلت ما قلته، فهما خاصا لي، وما كنت قرأت شيئا في الموضوع، ولكني - بعد ذلك - راجعت بعض كتب التفسير في معنى الآية، في الكشاف للزمخشري، وتفسير أبي السعود وغيرهما، فوجدتها ترجح إبقاء اسم الفاعل ﴿لَا عَاصِمَ﴾ على أصله، وتفسره بمثل ما خطر لي. وبعضها ذكر احتمال الاستثناء، على معنى، ولكن من رحمه الله عصمه. وبعضهم قال: لا مكان عاصم من أمر الله إلا مكان من رحم، وهو السفينة، وبعضهم ذكر احتمال ﴿لَا عَاصِمَ﴾ بمعنى: لا معصوم.

وفي السنة التالية - الخامسة الثانوية - كان حل الإخوان، واعتقالي، ثم بعد ذلك ذهابي إلى كلية أصول الدين. ولم ألق الشيخ الشعراوي وجها لوجه إلا بعد سنين، بعد أن أعرت إلى قطر، ولقيت الشيخ مصادفة. فقد ذهبت إلى موقف

طنطا لأركب الأوتوبيس الذاهب إلى زفتى، فإذا الشيخ ينزل من نفس الأوتوبيس، فتلاقينا، وبادرني بالمصافحة والعناق بحرارة، وقال: أنا متتبع أخبارك، ومسرور بنشاطك العلمي والدعوي. وسألني عن زميلي: أحمد العسال، ودعا لنا بخير.

ثم تلاقينا بعد ذلك في مناسبات شتى، قد يأتي الحديث عن بعضها، آخرها حين اختارت لجنة دبي الدولية للقرآن الكريم الشيخ الشعراوي أول شخصية إسلامية تكرمها. وكلمني رئيس الجائزة وعدد من أعضائها يدعونني لحضور حفل تكريم الشيخ بصفته شخصية سنة ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، فرحبت بالدعوة، وقلت لهم: إن للشيخ الشعراوي حقا عليّ، ويسرني أن أسهم في تكريمه.

والحق أن الشيخ رحمه الله سُرَّ سرورا بالغا بحضوري ومشاركتي، وذكرته بقصيدته القديمة التي ألقاها في حفل المعهد بمناسبة الهجرة النبوية، والتي ختمها ببيته الشهير:

كل دنيا تبنى على غير دين

فبناء على شفير هار!

فقال لي: إن الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد رحمه الله (العالم المحقق المعروف) قال لي: إن هذا البيت، هو بيت القصيد في هذه القصيدة. وذكر لي ما فهمت منه أن بعض شيوخ الوفد الأزهريين كانوا قد حذروه من طلبة الإخوان، ولكنه وجدهم على غير ما ظنوه.

وقد كانت مناسبة لأتحدث عن فضل الشيخ الشعراوي ودوره في تفسير القرآن، وفي تصحيح كثير من المفاهيم المغلوطة، وفي الوقوف في وجه التيارات الهدامة، وإن لم يكن معصوما، فكل بشر يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم.

شيوخ كنت أتمنى أن يدرسوني:

وقد كان في معهد طنطا شيوخ مبرّزون في علمهم وطريقة تدريسهم، كانت لهم شهرة واسعة، وسمعة حسنة بين طلابهم، تمنيت أن أكون تلميذا لهم ولو في سنة واحدة من سنوات الدراسة الخمس. ولكني لم أحظ بذلك.

من هؤلاء: الشيخ عبد الباسط سليم، الذي كان يدرس الفقه الحنفي، بطريقة حية يجذب الطلاب إليه، وتحبب إليهم الفقه على جفافه. وكان يحدثني عنه زميلي في السكن وبلديّي كمال عبد المجيد المصري، الذي كان يسبقني بثلاث سنوات. ولكن القدر لم يتح لي هذه الفرصة.

ومن هؤلاء: الشيخ فوزي خشبة مدرس الأدب العربي المحبوب من طلبته، وذو التأثير القوي فيهم، والذي كان يقارن بأساتذة الأدب العربي في الكليات الجامعية، وكان رجلا جادا مهيبا برغم لطفه ودماثته، وذا عبارات ساخرة يحفظها طلابه.

وكان يهتم بمادة «الإنشاء»، ويدفع طلابه دفعا إلى إتقان الكتابة، والتفنن فيها، ويعلق على بعض الطلاب بعبارات مشجعة حينا، ولائمة أحيانا، مثل: وضعت رجلك على أول الطريق، فسر على بركة الله، أو: بينك وبين الإنشاء مراحل ومراحل. أو: أنت مشرِّق وموضوعك مغرِّب.. إلخ.

ولم أر الشيخ فوزي خشبة إلا في حصة إضافية، كان مدرسنا فيها غائبا، وكانت حصة محفوظات، ودائما كانت حصص المحفوظات للراحة، فكيف إذا كانت حصة إضافية؟!

ولكن الشيخ خشبة رجل ملتزم لا يسمح لنفسه إلا أن يعطي كل شيء حقه، فهذه مسئولية أمام ربه، وأمام ضميره، ولا ينبغي منه أن يضيع وقت الطلاب سدى، دون أن يستفاد منه في علم أو أدب.

ولهذا بمجرد دخول الفصل مسح السبورة، وبدأ يكتب عليها شعرا لابن زيدون الشاعر الأندلسي الشهير، فيما كان بينه وبين ولاّدة بنت المستكفي. وطلب منا أن

نتابع هذه الأبيات وراءه، ونجتهد في حفظها في أثناء كتابتها. وهي أبيات ثلاثة ما أسرع ما تحفظ، وهي التي تقول:

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع

سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع

يا بائعا حظه مني، ولو بذلت

ليَ الحياة بخطى منه لم أبع

ته أحتمل، واستطل أصر، وعِزّ أهُن

وولّ أقبل، وقل أسمع، ومر أطع

وبعد كتابتها قدمها لنا بحديث عما كان بين ابن زيدون وولادة من حب سارت به الركبان، وما كان بينهما من مودة ووصال حينا، وجفوة وهجران حينا آخر. كما حدثنا عن المعاني التي تحتويها هذه الأبيات القصيرة. ثم سأل: هل منكم من حفظ هذه الأبيات؟ وذلك بعد أن كان مسحها من السبورة، فرفعت يدي، وسمعتها، وهي يسيرة. وسأل عدة طلاب، منهم من حفظ بيتين، ومنهم حفظ بيتا واحدا، ولم يوجد من حفظ البيت الأخير غيري، وهو الذي يشتمل على اثني عشر فعلا ما بين فعل أمر وفعل مضارع.

ثم وجد في الوقت سعة، فأعطانا قطعة أخرى في نفس الموضوع لابن زيدون، وهي التي يقول فيها:

ودّع الصبر محب ودعك

ذائع من سره ما استودعك

يقرع السن على أن لم يكن

زاد في تلك الخُطا إذ شيعك

يا أخا البـــدر سناء وسنا
رحم الله زمانا أطلعك
إن يطل بعـــدك ليلي، فلكم
بتُّ أشكو قصر الليل معك

وقد حفظت هذه الأبيات كما حفظت تلك، من حصة الشيخ خشبة الإضافية في مادة «المحفوظات» التي لم يكن أكثر المشايخ يعيرونها أي التفات.

ومن الشيرخ الأقوياء في المعهد: الشيخ عبد الكريم جاويش، الذي كان مراقبا للمعهد، وكان يدرس أحيانا فيبدع ويجيد، ويتعلق به الطلاب.

أماني وأحلام للطلبة:

من الطرائف التي أذكرها: أن جاءنا أحد المشايخ ونحن في السنة الأولى الثانوية، في حصة إضافية، وكان شيخا ظريفا صاحب نكتة، فأراد أن يتسلى مع الطلاب، فقال: أريد من كل طالب منكم أن يذكر أمنيته التي يريد أن يحققها في حياته، وفي مستقبل أيامه: ماذا يريد أن يكون؟

وطفق الطلبة في الفصل يذكر كل منهم ما يريد أن يكون في مستقبل حياته، فقال أحدهم: أريد أن أكون ضابطا في الجيش. وقال له الشيخ: ستكون إن شاء الله خفيرا حارسا على مقابر الموتى.

وقال أحد الطلاب: أريد أن أكون مدرسا في ثانوي الأزهر مثل فضيلة الشيخ. وقال الشيخ: ستكون معلم كتاب في قريتكم!

حتى جاء عندي وقال لي: وأنت ماذا تريد؟

قلت له: اسمح لي يا فضيلة الشيخ أن أصارحك بما أريد، إني أريد أن أكون شيخا للأزهر!

وتوقع الطلاب أن يعلق الشيخ الساخر على طريقته، وخصوصا مع غرابة الأمنية، ولكنه فاجأ الجميع بقوله: لا تستبعدوا هذا يا أولاد. فكم من أمل كبير قد

تحقق، وكم من حلم بعيد أصبح حقيقة. وفي التاريخ وفي الواقع أمثلة كثيرة لأناس حلموا أحلاما ظنها الناس من شطحات الخيال، أو من توقعات المحال، اجتهد أصحابها وجاهدوا حتى وصلوا إليها.

وقد سألني الأخ عبد العزيز السيد المذيع بتلفزيون دولة قطر، وقد كان يسجل معي ذكرياتي عن مسيرة الحياة، وجاء ذكر هذه الواقعة، فقال لي: وهل لا تزال هذه الأمنية واردة؟ قلت له:

أولا: قد فات الأوان من ناحية، فأنا في الخامسة والسبعين من عمري. ومن ناحية ثانية، لم يعد شيخ الأزهر وحده قادرا على تحقيق ما يريده من إصلاح وتجديد، حتى تسانده الدولة، أو على الأقل تطلق يده. ومن لمثلي بهذا؟ وثالثا: لابد لمن يتولى مثل هذه المناصب في عهد الثورة: أن يخضع لسياسة الدولة، ويعمل على إرضائها، ويسير في ركابها: فإما أن ينطق بباطل، وإما أن يسكت عن حق، وإلا أصبح في صراع معها. ولهذا يبعد على مثلي أن يكون في هذا المنصب. وكل ميسر لما خلق له.

وقد علق الأخ الدكتور أحمد العسال على هذه الرغبة قائلا:

أردت شيئا وأراد الله لك شيئا آخر أفضل مما أردت. فقد أردت أن تكون شيخًا للأزهر، وأراد الله لك أن تكون شيخا للأمة بأسرها. وهناك فرق بين المنصبين:

فشيخ الأزهر يختاره الحاكم سواء وافق اختياره اختيار الناس أم لا، أما شيخ الأمة، فتختاره الأمة عن حب وطواعية.

وشيخ الأزهر يملك الحاكم عزله، ولكنه لا يملك أن يعزل شيخ الأمة، لأنه لم ينصبه هو إنما نصبته الأمة.

أسفار مجانية:

اعتاد طلاب المعهد الديني ما بين حين وآخر، أن يسافروا إلى القاهرة ـ وربما إلى الإسكندرية ـ «مجّانا» في مناسبات ملكية معينة، مثل عيد الميلاد الملكي أو عيد

الجلوس الملكي، أو نحو ذلك، وإذا طلب منهم التذاكر لاذوا بهتاف: «يحيا الملك» فلا يملك الكمسارية في القطار أن يصنعوا معهم شيئا. وأصبحت هذه «الأسفار المجانية» كأنما هي حق مكتسب لهم.

إلى الإسكندرية:

وأذكر أول مرة شاركت فيها في هذا النوع من الأسفار، كانت رحلة إلى الإسكندرية، بمناسبة زيارة الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية إلى الإسكندرية. وكان طلبة الأزهر يكنون مشاعر مودة وتقدير لابن سعود، لما شاع عنه أنه كان يطبق أحكام الشريعة السمحة، ويقيم الحدود، ويحكم بالكتاب والسنة. ولهذا سافرنا إلى عروس البحر الأبيض (الإسكندرية)، لنستقبل ابن سعود، ونتفسح في هذه المدينة مع ذلك.

وقد كنت أعددت قصيدة كان طلاب المعهد ينشدونها، ويهتفون ببعض أبياتها، أذكر منها:

ملائكة تلك أم أنبياء؟
أم ابن سعود إلى مصر جاء؟
فأهلا وسهلا بأكرم ضيف
ويا مرحبا بالسنا والسناء!

ومنها:

نيويورك من مكة ذرةٌ
ولندن من طَيْبة كالهباء
فمن طيبة شع نور الهدى
ومن لندن شاع سفك الدماء

وقد بتنا هناك في القسم الداخلي مع زملائنا طلبة المعهد الديني الابتدائي في «القَبَّاري». وقد وسعونا على رغم ضيق المكان. ولكن الشاعر العربي يقول:

لعـــمـــرك مـــا ضـــاقت بلاد بأهلهـــا

ولكن أخـــلاق الرجـــال تضـــيق!

وزرنا في صبيحة اليوم التالي إخواننا في المعهد الثانوي برأس التين، وقضينا يومين في الإسكندرية، وعدنا بحول الله وحفظه.

إلى القصاصين:

ومن الرحلات المجانية التي أذكرها؛ لأنها كانت رحلة متعبة: رحلة الطلبة إلى «القصاصين». وهي قرية بمديرية الشرقية، بجوار «القُرين» كان قد حدث للملك فاروق فيها حادث، دخل على إثره المستشفى هناك. وذهب الطلبة هناك لإشعار الملك بأن الشعب معه وأنه حريص على سلامته. وقد اشتهر الملك فاروق في أول عهده بالاستقامة، بتأثير الشيخ المراغي عليه، حتى كان الهتاف السائد بين الشعب المصري: عاش الملك الصالح. وظل على ذلك عدة سنين، حتى أغواه الغاوون، ووسوس له الخناسون، وأحاطت به بطانة السوء، التي تغريه بالمنكر، وتحضه عليه، وهيهات أن يعصم إلا من عصمه الله.

وكنا ـ نحن الطلاب ـ لا نزال نحسن الظن بالملك، فلم تكن رائحته فاحت، ولا سمعته ساءت، إلى الحد الذي يعلم به أمثالنا، فذهبنا بحسن نية، لنعود الملك، ونسأل عن صحته، وندعو له أن يقوم بالسلامة مما أصابه. وكان زعيم الطلبة في المعهد إبراهيم عبد الحي يردد هتافا أنشأه يقول:

طنطـــا ومـــعـــهـــدها الأمـــيـــن

تفـــدي أمـــيـــر المـــؤمنيـــن!

ولم نكن ندري أن وراء الحادثة التي أصابت الملك تصرفات منحرفة، ذكرت فيما بعد، ولكن لكل امرئ ما نوى.

ركبنا القطار من طنطا إلى الزقازيق، ثم ركبنا قطارا آخر من الزقازيق إلى قرية القصاصين، وفي القرية سرنا على أقدامنا مسافة غير قليلة. ولم نصل إلى المستشفى المقصود، فالمنطقة عسكرية، وهناك حدود وقيود. وقالوا: سنبلغ الملك بقدومكم وبتحياتكم.

ورجعنا ـ كما ذهبنا ـ في وقت متأخر. وبعد أن أخذ الجوع منا مأخذه، فكثير منا لا يحمل معه من النقود ما يكفي، إلا لسندوتش لا يشبع، ولكن الجوعان يجزيه من الزاد أيسره.

إلى القاهرة:

أما التي سافرنا إليها أكثر من مرة ـ ضمن هذه الأسفار المجانية ـ فهي القاهرة، وخصوصا في ميلاد الملك في ١١ من فبراير، فهو يأتي في أثناء العام الدراسي، وبعد أن نكون قد قطعنا شوطا طيبا في الدراسة.

وكنا ـ نحن طلبة الإخوان ـ ننتهز فرصة هذا السفر، لنزور المركز العام للإخوان، ونحرص على لقاء الأستاذ البنا، وحضور بعض أنشطة الإخوان.

في وداع الشيخ مصطفى عبد الرازق:

وإحدى هذه السفرات المجانية كانت بمناسبة وفاة شيخ الأزهر الشيخ مصطفى عبد الرازق، شيخ مؤرخي الفلسفة الإسلامية، والذي خلف الإمام المراغي، ولم يطل العهد به في المشيخة، فقد بقي أقل من سنتين.

وقد سافرنا إلى القاهرة، وأدركنا جنازته، وتكلم المشايخ الكبار، وقدم الطلاب واحدا منهم ليتكلم باسمهم، فكنت ذلك الواحد، برغم أن هناك عددا من طلاب

الكليات، ووفقني الله لإلقاء كلمة مركزة نالت استحسان الحاضرين. وعدنا في نفس اليوم إلى طنطا.

وكان الأخ محمد الدمرداش رفيقي في هذه الرحلة، بل في معظم الرحلات.

في تهنئة الشيخ مأمون الشناوي:

وجاءت مناسبة أخرى للسفر إلى القاهرة في تهنئة شيخ الأزهر الجديد الشيخ مأمون الشناوي.

وكنت كلما سافرت إلى القاهرة، انتهزت الفرصة للذهاب إلى المركز العام للإخوان، ومحاولة اللقاء بالشيخ البنا، وقلما يسعفني القدر أن أجده، فقد كان دائم التجوال في أرجاء مصر.

وكان مما يقلقني في هذه الأسفار: مسألة المبيت. فالمبيت في الفنادق يكلف المرء كثيرا، وحسب الإنسان أن يوفر معه ما يأكل به ما رخص من الطعام، من الفول والطعمية والحلاوة الطحينية ونحوها. فكنا نبحث عمن نجد عنده سعة لمبيت أمثالنا من الطلاب.

وأذكر في إحدى المرات، كنا مجموعة من طلبة الإخوان بعضنا من طنطا، وبعضنا من شبين الكوم، وقد خرجنا من المركز العام، وقيل لنا: إن في شعبة السكاكيني مكانا للنوم، وقطعنا المسافة من الحلمية إلى السكاكيني على أقدامنا، فكانت المفاجأة أن وجدنا الشعبة مغلقة، ولا يوجد بها أحد يفتح لنا. وكان فينا الطالب إبراهيم سعفان من معهد شبين، وكان طالبا ظريفا خفيف الروح، هون علينا المشي بنكاته وتعليقاته اللطيفة، وقد صار بعد ذلك من نجوم «الكوميديا» في مصر.

وأذكر أننا في إحدى الزيارات وجدنا الإمام البنا، وكنا مجموعة من طلاب الأزهر، وطلبنا إليه أن يجلس إلينا، ولكنه قال لنا بأدب: كان يسعدني أن أجلس

معكم، وأتحدث إليكم، ولكني للأسف مرتبط بموعد آخر، ولكني سأنيب بعض الإخوان ليجلس إليكم، وهو منكم وأزهري مثلكم. ونادى الشيخ أحمد الباقوري لينوب عنه في الجلوس والحديث، وجلسنا معه جلسة طيبة، ولكنها لم تكن التي ننشدها، ولم نجد فيها ما يروي ظمأنا. وأذكر أننا أخذنا صورة على سلم المركز العام مع الإمام الشهيد، ولا أدري: أيحتفظ أحد بهذه الصورة أم لا؟ فليس لي مع الإمام غير هذه الصورة.

وفي هذا اليوم استمعت إلى داعية من دعاة الإخوان المرموقين لأول مرة، ذلكم هو الشاب الأزهري الخطيب البليغ، صاحب الصوت المؤثر، واللسان المُعَبِّر، الشيخ عبد المعز عبد الستار. سمعته يتحدث في فناء شركة المعاملات الإسلامية في شارع محمد علي، وكان في استقبال بعض الوفود العربية، وبعض الأحزاب التي ائتلفت فيما بينها، وتوحدت (حزبي النجادة والفتوّة). وكان الشيخ يتحدث عن أهمية الوحدة، والتأليف بين القلوب، ويستشهد بقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ﴾ (النور: ٤٣). استمعت إلى الشيخ عبد المعز ولكن لم يتح لي أن أصافحه أو أتعرف عليه وجها لوجه، إلا في معتقل الطور.

وفي هذه السفرة ـ على ما أذكر ـ عرفت من بعض الإخوان في القاهرة: أن شعبة السيدة عائشة في القلعة، تحتفل بذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وسيتكلم فيها بعض الدعاة منهم: عز الدين إبراهيم، والشيخ صادق حميدة. وذهبت إلى شعبة السيدة عائشة وحضرت هذا الحفل، الذي تكلم فيه أكثر من واحد، ومنهم الشيخ حميدة الذي كان له نزعة صوفية ظاهرة. ثم استمعت إلى عز الدين إبراهيم يتحدث عن واجبنا نحو السيرة النبوية، حديثا جديدا، كان فيه موثّق العلم، مرتب الفكر، سليم الأداء، يملك رؤية واضحة للسيرة النبوية، وخصوصا قصص المولد النبوي التي تعرض على الناس في المساجد، وقد تقرأ في البيوت، وضرورة

تصفيتها من هذه الشوائب التي لا تتفق مع قرآن ولا سنة، وعرض السيرة السليمة التي يتخذ منها الأسوة المحمدية، ويقتبس الناس من دروسها النيرة ما ينفعهم ويرقى بهم في دينهم ودنياهم. وكان أهم ما اكتسبت من هذا الحفل اكتشافي هذا الداعية المعلم والمصلح، وإن لم تتح لي فرصة للتعرف به في تلك الليلة، لتزاحم الحضور عليه، ولأني غريب ومغمور لا يعرفني أحد، أو يهتم لي. كما كنت متعجلا لأبحث عمن يستضيفني لأبيت عنده تلك الليلة، فهذا ما كان يهمني ويشغلني طوال مقامي في القاهرة.

لكني التقيت مع عز الدين وتعارفنا وتقاربنا في معتقل العامرية في يناير سنة ١٩٥٤، ثم نقلنا معا من العامرية إلى السجن الحربي، وبقينا به حتى الإفراج في أواخر مارس. ثم زادت الصلة توثقا في قطر بعد ذلك. ولعل لنا حديثا أطول عن عز الدين إبراهيم في المراحل القادمة من هذه المسيرة.

وفي هذه المرة على ما أذكر، سعدنا بزيارة المحدث الجليل الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، والد الأستاذ حسن البنا في حارة الروم من الغورية، وكان معي الأخ الدمرداش، وحدثنا عن عمله الكبير في موسوعته الفريدة التي يعمل فيها منذ سنين، وهي ترتيب مسند الإمام أحمد على الموضوعات، وشرحه وتخريج أحاديثه، والذي سماه «الفتح الرباني»، وسمى شرحه: «بلوغ الأماني» وهو عمل تنوء بمثله المجامع، وقد عاش له الرجل حتى أنجزه، وبدأ بطبعه على نفقته، كما رتب مسند الشافعي والسنن، ومسند أبي داود الطيالسي وغيرها من الكتب.

وعاش الرجل للحديث وعلومه، وإن كان ظل يكسب عيشه من إصلاح الساعات، وقد مهر فيها وأتقنها، حتى غدا مشهورا بها ويلقب بـ«الساعاتي».

زعامة المعهد:

كان الطلبة - ولا يزالون - صوت الأمة الحي، والمعبر عن إرادتها وحيويتها، ولا سيما في أوقات الأزمات التي تحيط بالوطن، والأخطار التي تحدق به، وهم

الذين يقودون الرأي العام الوطني، في مواجهة الاستعمار، وذلك لأسباب ثلاثة تتوافر في الطلبة دون غيرهم:

الأول: أن الطلبة شباب، والشباب يتميزون بالمشاعر الثورية، والعزائم الفتية، والنفوس الأبية.

والثاني: أنهم - لأنهم على حظ من التعليم - أكثر وعيا بقضايا وطنهم وأمتهم.

والثالث: أنهم مجتمعون في مكان واحد، وتجمعهم يمنحهم قوة وقدرة على الحركة والتأثير.

ولكن جماهير الطلبة إنما تحركهم في العادة الزعامات الطلابية القادرة على مخاطبة «العقل الجمعي» للطلاب، وإثارة مشاعرهم، وتنبيههم إذا غفلوا، وتحريكهم إذا سكنوا.

وقد كان المعهد الديني في طنطا هو المؤسسة الطلابية الأولى، التي يتحرك طلابها في كل قضايا مصر والعروبة والإسلام، لا ينافسها في ذلك إلا مدرسة طنطا الثانوية بنين.

وقد كان للمعهد زعامات من طلابه قادتهم في السنوات الماضية، كنا نردد أسماءهم ونحن في الابتدائي، مثل المصري والفوال، وبعضهم عرفناه في الثانوي مثل محمد الشيخ، وإبراهيم عبد الحي.

وكلما تخرج أحد هؤلاء، وارتحل إلى التعليم العالي، خلفه آخر، يرشحه الطلبة أنفسهم، فالزعامة الطلابية تنبع من الطلبة أنفسهم، ولا يستطيع أحد أن يفرض عليهم زعامة لا يريدونها.

وقد كان من فضل الله تعالى عليَّ أن رشحني طلاب المعهد بكامل حريتهم وإرادتهم لقيادتهم والتعبير عنهم، وقد أتاني الله القدرة على خطاب الجماهير وتحريكهم بمثيرات الشعر والنثر ما يؤهلني لذلك. ومعي من الأعوان الأقوياء الأمناء أمثال العسال والصفطاوي والعراقي وغيرهم ما يمكنني من ذلك.

وقد استمر ذلك طوال السنتين الثالثة والرابعة، وجزء من السنة الخامسة الثانوية، حتى كان حل الإخوان وبداية اعتقالهم منذ ديسمبر سنة ١٩٤٨م.

ولقد كان المعتاد في زعامات الطلاب: ألا يكونوا من الطلاب المتفوقين في العلم، فالطلبة يحبونهم، والشيوخ لا يحترمونهم. لهذا كان من الغريب أن تنتهي زعامة المعهد إلى قيادة ليست كل ميزتها القدرة على الإثارة والتحريك، بل قيادة محبوبة من الطلاب، محترمة لدى المشايخ، لتفوقها في العلم والسلوك باعتراف الجميع.

ولقد قام المعهد بدوره المعهود والمرجو في القضايا الوطنية والعربية والإسلامية، ولا سيما قضية وادي النيل وقضية فلسطين، دون أن يتورط فيما تورط فيه إخوة من قبل من التكسير والتحطيم للمعهد، الذي كان موضع القيل والقال.

كان الزملاء في المعهد يَعُدُّونني مرجعا لهم، يحتكمون إليه إذا اختلفوا في مسألة علمية، وخصوصا في علوم العربية نحوها وصرفها، وغدت لهم ثقة مطلقة بما أقوله في ذلك بعد تجارب وممارسات عدة، حتى تمثل أحدهم بقول الشاعر:

إذا قالت حَذَامِ فصدقوها

فإن القول ما قالت حَذَامِ

ومما أذكره في ذلك: أنهم اختلفوا يوما في هذه العبارة: النساء يشكون، أو النساء يشكين. فقلت لهم: الصواب: النساء يشكون، تقول: الرجال يشكون، والنساء يشكون. والفرق بينهما: أن الواو في الجملة الأولى (واو الجماعة) وهي فاعل، والنون نون الأفعال الخمسة التي ترفع بثبوت النون، وتنصب وتجزم بحذفها. أما الواو في الجملة الثانية فهي من بنية الكلمة، هي واو (يشكو) نفسها، والنون نون النسوة.

ويعرف هذا الفرق بوضوح إذا أدخلت ناصبا أو جازما على الجملتين، تقول:

٤- قبول الطلبة الأزهريين في الكليات العسكرية (الحربية والشرطة).

٥- التوسع في إنشاء المعاهد الدينية في عواصم المديريات.

٦- إنشاء معاهد للفتيات المسلمات، ليكُنَّ نواة لجامعة الأزهر للبنات.

إلى مطالب أخرى لا تحضرني الآن. وقد أعلنا هذا على طلاب المعاهد، وبعثنا بمذكرة إلى المشيخة تتضمن هذه المطالب. وكانت في ذلك الوقت تُعَدُّ من الأماني والأحلام البعيدة المنال، ولكن من سار على الدرب وصل، وما ضاع حق وراءه مطالب، والزمن جزء من العلاج. وقد عشنا حتى رأينا هذه المطالب حقيقة واقعة، فيما عدا المطلب الثاني الذي لم يتحقق بعد كما يراد.

وقفة مع مناهج المرحلة الثانوية:

كما وقفنا وقفة نقد ذاتي لمناهج المرحلة الابتدائية، يحسن بنا أن نقف هذه الوقفة النقدية نفسها لمناهج المرحلة الثانوية، سواء منها ما يتعلق بعلوم الدين أم غيرها.

علوم الدين: علم الفقه:

أول علوم الدين كان «علم الفقه» الذي يحظى بنصيب الأسد بين علوم الدين الأخرى، في الخطة الدراسية، بحيث يكاد عندنا في كل يوم درس للفقه.

وكنا ندرس الفقه الحنفي في كتاب قيم، هو كتاب «الاختيار» شرح «المختار» وكلاهما لابن مودود الموصلي. وكان هذا الكتاب يمتاز على «اللباب في شرح الكتاب» أو «الميداني على القدوري» بعنايته بالأدلة النقلية والعقلية، التي تؤيد مذهب الحنفية، وترد على مخالفيهم، وخصوصا الشافعية. فهو يمرن الطالب على الاستدلال والحجاج، ولا سيما في معتركات النزاع الحادة، مثل تزويج المرأة نفسها دون اشتراط الولي إذا زوجت نفسها من كفء. ومثل قتل المسلم بالكافر الذمي ونحوها.

ولكن عيب هذا الكتاب وغيره من الكتب في المذهب الحنفي وفي سائر المذاهب: أنه كتب لعصر مضى، ولم يكتب لعصرنا، ولا لعلاج مشكلاتنا، أو الإجابة عن تساؤلاتنا. وليس العيب في مؤلفي هذه الكتب، فهم قد عالجوا مشكلاتهم بلغة عصرهم، وبذلوا ما في وسعهم، وإن كان يعيبهم التقليد المطلق للمذهب، وإن ظهر تهافته وضعف دليله.

ولكن العيب فينا نحن، فنحن ندرس الفقه كله من ألفه إلى يائه، من كتاب الطهارة إلى كتاب الفرائض (المواريث)، ولكنه فقه نظري محض، يعيش في صفحات الكتب ولا يحيا في واقع الحياة.

نحن ندرس كتاب «البيوع» و«المعاملات» ولكن لا نعرف شيئا عن البيوع الحديثة وما يجري فيها، ولا نعلم شيئا عما يدور في «البنوك» وماذا فيها من حلال أو حرام؟ وكذلك شركات «التأمين» لا نعلم شيئا عنها ولا عن أحكامها. بل حتى في العبادات لا ندري شيئا عن الزكاة في الشركات أو المصانع أو العمارات السكنية، أو غير ذلك من الأموال النامية المستحدثة.

وكان زملاؤنا ممن يدرسون الفقه على مذهب الشافعي، أو مذهب مالك، على نفس حالنا ووضعنا، فكلنا في الهمِّ شرق، كما قال شوقي.

علم التوحيد:

إذا كان الفقه يتعلق بالسلوك والعمل، فإن علم التوحيد يتصل بالعقيدة، التي هي أساس الدين كله، فإذا ثبتت العقيدة وسلمت، فقد ثبت الدين وسلم، وإذا انهدمت العقيدة انهدم الدين، وإذا وهت العقيدة وهى الدين.

ولكن المنهج الذي يدرس على أساسه التوحيد: منهج قديم، من آثار عصور التراجع والتخلف في الحضارة الإسلامية، وهو يقوم على افتراضات معينة، وفلسفة معينة، لم تعد موجودة أو مؤثرة في حياتنا العقلية، وما رد عليه الأشاعرة والماتريدية قديما من أفكار ومفاهيم خلطوها بالتوحيد، لم يعد له ذلك التأثير الذي

كان. ونحن في حاجة إلى أن نرد على أفكار أخرى، وعقائد أخرى. نحتاج إلى أن نرد على الماديين والماركسيين واللادينيين، ممن ينكرون الألوهية، أو ينكرون الوحي والنبوة، ونرد عليهم بالمنطق العقلي البرهاني، والمنطق العلمي المعاصر، الذي ألفت فيه كتب شتى ترد على الماديين الجاحدين.

كما أنا في حاجة إلى الرد على أصحاب الأديان المخالفة من اليهود والنصارى، فيما يثيره المبشرون والمستشرقون من شبهات على عقائد الإسلام ومصادره.

وفي حاجة إلى الرد على الفرق المنشقة مثل القاديانية والبهائية.

وفي حاجة إلى أن نعرض أصول العقيدة، كما عرضها القرآن بوضوحها وفطريتها وعمقها، وبما يخاطب به العقل والقلب معا.

لقد كنا ندرس التوحيد في السنتين الرابعة والخامسة في شرح الجوهرة للقاني، والجوهرة «منظومة» تتضمن العقائد في الإلهيات والنبوات والسمعيات، على المذهب الأشعري. وهي مكتوبة بلغة لا تلائم هذا العصر ولا تعالج مشكلاته العقلية، وقد شرحها الشيخ الباجوري بنفس اللغة.

ولكن يحمد لواضع منهج التوحيد: أن ضم إليه جزءا من رسالة الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد وهو «حاجة البشر إلى الرسالة» وهو فصل مهم، وإن لم نجد من يدرسه لنا كما ينبغي.

علم التفسير:

وقد كنا ندرس «علم التفسير» من السنة الثالثة الثانوية، وأعتقد أنه تأخر كثيرا، ومع تأخره، فلم يكن الكتاب المقرر كافيا في إفادة الطالب المعاصر ما يحتاج إليه من مادة التفسير. كان الكتاب المقرر هو تفسير الإمام النسفي، وهو تفسير مقبول في زمنه، معني بالجانب اللغوي، النحوي والبلاغي، وليس معنيا بمفاهيم القرآن ومقاصده في إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع.

لذا كان الأولى في نظري: أن يدرس التفسير في كتابين: كتاب قديم كالنسفي أو النيسابوري أو البيضاوي أو غيرهم، يتدرب فيه الطالب على قراءة كتب التراث في التفسير وحسن فهمها. وكتاب آخر حديث، يقدم لنا هداية القرآن ومقاصده، مستفيدا من كتب التفسير بالمأثور والرواية، استفادته من كتب التفسير بالرأي والدراية، مكتوبا بلغة عصرية سلسة، رادا على كل المشكلات التي يثيرها بعض الخصوم على القرآن وعلى الإسلام. وذلك على منهج تفسير الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا في «تفسير المنار».

كما أرى ضرورة إعطاء طالب المعهد «جرعة كافية» من أساسيات «علوم القرآن» فلا يدرس الطالب تسع سنوات، ثم لا يعرف شيئا عن المكي والمدني، أو عن الناسخ والمنسوخ، أو عن أسباب النزول، وغيرها مما لا بد منه.

علم الحديث:

كان علم الحديث يدرس لنا في السنة الأولى الثانوية، وهو مختارات من صحيح البخاري في كتبه وأبوابه المختلفة في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والآداب وغيرها.

وقد شرح الأحاديث المختارة أحد علماء الأزهر المرموقين، وهو الشيخ عبد الجليل عيسى، الذي استفاد من شروح البخاري، ولا سيما فتح الباري، وسمى تأليفه «صفوة صحيح البخاري»، وقد درسناه في السنوات الخمس كلها، واستفدنا منه ولا شك. وربما كان هو المادة الوحيدة التي تجاوبنا معها أكثر من غيرها.

وقد درسنا في السنة الأولى الثانوية كتابا مختصرا في علم «مصطلح الحديث» ولكنه كان كتابا لا يسمن من شبع، ولا يغني من جوع، ولم يفدنا كثيرا في فهم هذا العلم المهم، لأنه كان أشبه بمتن ينقصه الشرح والتمثيل، فبالمثال يتضح المقال. ولم

نوفق إلى مدرس يجبر قصور الكتاب، فالمدرس الناجح يعوض ما في الكتاب من نقص. والمدرس الفاشل يضيع قيمة الكتاب النافع، ويميت المادة الحية.

وما زال هذا العلم في مسيس الحاجة إلى كتاب معاصر، يذكر القاعدة من القواعد، ويدلل عليها، ويمثل لها بأمثلة واقعية موضحة، فهو مدخل ضروري لعلم الحديث، ولذا يسميه بعض العلماء: علم «أصول الحديث» إشارة إلى أنه مثل «أصول الفقه» لعلم الفقه.

علوم العربية:

وبعد علوم الدين تأتي علوم العربية في المرتبة التالية. فعلوم الدين تمثل «المقاصد» وعلوم العربية تمثل «الوسائل». ولذا كانوا يسمونها «العلوم الآلية». لأنها الآلة اللازمة لفهم الدين وعلومه. فالدين - كما شرعه الله - إنما هو نصوص قرآنية نزلت بلسان عربي مبين، أو نصوص حديثية تكلم بها رسول عربي بلغ القمة في البلاغة البشرية.. ولا يمكن فهم هذه النصوص الربانية والنبوية إلا بوساطة علوم العربية. ولهذا كان لهذه العلوم العربية في الأزهر مكان ومكانة منذ نشأته وإلى اليوم.

النحو والصرف:

أبرز علوم العربية التي عني بها الأزهر: علم النحو، ومعه علم الصرف، وقد درسناه في المرحلة الثانوية مرتين كاملتين، متخذين من «ألفية بن مالك» الشهيرة في النحو والصرف وشرحها أساسا للدراسة المستوعبة.

ففي السنتين الأولى والثانية، درسنا شرح ابن عقيل المشهور على الألفية.. وفي السنوات الثلاث الباقية: الثالثة والرابعة والخامسة، درسنا شرح العلامة المصري ابن هشام الأنصاري على الألفية، المسمى «أوضح المسالك إلى شرح ألفية ابن مالك».

وقد كنت شخصيا أزيد على هذه الشروح بالرجوع إلى بعض الحواشي عليها، مثل حاشية الخضري على ابن عقيل.

والواقع أن دراسة النحو في المعاهد الدينية، قد يقال عنها: إنها نضجت حتى احترقت، وربما قيل: إنها أخذت أكثر من حقها.

فقد درسنا النحو في القسم الابتدائي أربع مرات كاملة، كل مرة يدرس النحو بجميع أبوابه. ثم أعدنا دراسته في القسم الثانوي بتوسع وتعمق أكبر. وقد كان يكفي بعض هذا في رأيي.

على أن هذه الدراسة برغم توسعها وتعمقها ينقصها شيء جد مهم، وهو الخروج من النظرية إلى التطبيق، فكثير من الذين يحصلون على ٤٠ من ٤٠ في امتحان النحو، لا يكادون يقيمون جملة سليمة إذا تكلموا.

علم البلاغة:

ومن علوم العربية التي درسناها في المرحلة الثانوية: علم البلاغة، وإن شئت قلت: علوم البلاغة، لأنها تتضمن علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

وقد درسنا البلاغة في السنتين الأوليين في كتاب ألفه الشيخ الحملاوي، اسمه «زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع».

وفي السنوات الثلاث الثانوية، درسناها في كتاب «تهذيب السعد» ويقصد بـ«السعد» العلامة سعد الدين التفتازاني، الذي اشتهرت كتبه في علم الكلام وفي أصول الفقه، وغيرها. وقد شرح تلخيص المفتاح للقزويني في البلاغة، والمفتاح هو «مفتاح العلوم» للسكاكي.

وقد حول السعد البلاغة إلى علم معقد، يحتاج إلى معاناة لفهمه، وليس إلى مادة تتذوق، ويحس بجمالها الفني. مع أن ما كتبه الإمام عبد القاهر في «أسرار

البلاغة» و«دلائل الإعجاز» أقرب إلى السلاسة والإفهام، وأبعد عن التعقيد والإلغاز، مما كتبه السعد وغيره من بعده.

على أن «تهذيب السعد» كان ينقصه ـ ككل علوم العربية وكتبها القديمة ـ الإكثار من الأمثلة الأدبية البليغة من الشعر والنثر، حتى يتذوقها الطالب الدارس، ويجتهد أن يسير على غرارها.

وقد ألف الأستاذ علي الجارم المفتش بوزارة المعارف والأستاذ مصطفى أمين كتابا اسمه: «البلاغة الواضحة» حاولا أن يتفاديا فيه سلبيات الكتب القديمة، ويكثرا من الأمثلة التطبيقية لمسائل البلاغة وعلومها، وقد تلقى علماء العربية كتابهما بالقبول، وكذلك كتابهما «النحو الواضح» بأجزائه ومستوياته.

تاريخ الأدب العربي:

ومن علوم العربية التي درسناها: تاريخ الأدب العربي، وقد درسناه مرتبا حسب العصور التاريخية، من عهد الجاهلية، إلى العهد النبوي والراشدي، إلى عهد الأمويين فالعباسيين فالعثمانيين، إلى النهضة الحديثة.

وهي مادة شائقة ونافعة، كنا ندرسها في كتاب «الوسيط» الذي ألفه جماعة من كبار أساتذة الأزهر.

وقد كان التركيز فيه على تاريخ الأدب لا على الأدب نفسه. وربما كان في حاجة إلى كتاب آخر يكمله عن «الأدب» وفنونه من الشعر والخطابة والرسالة والمقامة والقصة والرواية والمسرحية والملحمة وغيرها من ألوان الأدب.

كما أن هناك حاجة إلى إعطاء طالب الأزهر فكرة عن «النقد الأدبي» وأصوله.

القراءة والمحفوظات:

وهناك مادتان من المواد العربية، يمتحن الطالب فيهما شفهيا، وليس لهما منهج

واضح، ولا يستفاد مما قرر لهما من حصص في الخطة الدراسية. وهما: المطالعة والمحفوظات، أو ما عبر عنهما حديثا بـ «القراءة والنصوص». والواجب تحويلهما إلى مادتين يمتحن فيهما تحريريا، وتقرر فيهما أشياء واضحة ترفع من مستوى الطالب الأدبي وذوقه، وتطالبه بحفظ قطع أدبية من روائع الشعر والنثر، حتى لا تترك بلا خطام ولا زمام.

علم المنطق:

ومن العلوم التي درسناها في الثانوي: علم المنطق، ويراد به «المنطق الصوري» أو القياسي، أو «منطق أرسطو». وقد اختلف علماء المسلمين في شأنه، فمنهم من حرم تعلمه كالإمامين ابن الصلاح والنووي. ومنهم من لم يكتف بتحريمه، بل زاد على ذلك، فنقده نقدا علميا موضوعيا رصينا، كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية. الذي قال فيه: إنه علم لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع به البليد.

ومنهم من عَدَّ تعلمه واجبا، وأن من لم يتعلمه ويضبط به علمه وفكره، فلا ثقة بعلومه، وسماه «معيار العلوم»، وذلك مثل الإمام الغزالي.

ويبدو أن الأزهر قد تبنى رأي الإمام الغزالي في ضرورة تعلم المنطق، لذا قرر تدريسه في معاهده الثانوية، وفي كلياته الجامعية، مثل أصول الدين والشريعة. أو لعله تبنى «القولة المشهورة الصحيحة» كما ذكر الأخضري في منظومته التي سماها «السلم» في علم المنطق. وقد درسناه في السنتين الأوليين في كتاب «شرح السلّم» للأخضري.

والسلم منظومة في علم المنطق، بدأه مصنّفه ببيان اختلاف العلماء فيه:

فابن الصلاح والنواوي حرما

وقال قوم: ينبغي أن يعلما

والقولة المشهورة الصحيحة

جوازه لكامل القريحة

ممارس السنة والكتاب

ليهتدي به إلى الصواب

ورأيي: أن طالب الأزهر في حاجة إلى أخذ فكرة مبسطة عن علم المنطق القديم هذا، وما فيه من «تعريفات» في جانب التصور، وما فيه من أدلة في جانب التصديق، وأنواع هذه الأدلة الحملية والشرطية، ومقدمات الدليل الصغرى والكبرى. وهذه المصطلحات تمتلئ بها كتب التراث عندنا، فلذا يلزم الطالب أن يأخذ فكرة عنها، حتى لا تلغز عليه هذه العبارات إذا قرأها، وهو لا بد قارئها.

وأرى أن يتمم هذا بفكرة مكملة عن «المنطق الحديث» ومناهجه، ولا سيما المنهج الاستقرائي أو التجريبي الذي قامت على أساسه النهضة العلمية الأوربية الحديثة، وقد اقتبست هذا المنهج من الحضارة العربية الإسلامية، كما شهد بذلك بريفولت وجوستاف لوبون، وجورج سارتون، وأمثالهم من مؤرخي العلم.

التاريخ:

كان يدرس لنا من المواد الاجتماعية: علم التاريخ في جميع سنوات الدراسة. أما علم الجغرافيا، فقد درسناه في السنة الأولى الثانوية فقط.

والتاريخ مادة حية ولازمة، وقد دعا القرآن إلى الانتفاع بتاريخ الأولين، والاعتبار بما حدث لهم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: ١١١) وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (الروم: ٩). وتكرر هذا كثيرا في كتاب الله.

ولقد كان كثير من كبار علماء المسلمين فقهاء ومحدثين ومفسرين ومؤرخين، مثل ابن جرير الطبري، كان شيخ المؤرخين، وهو شيخ المفسرين، وصاحب مذهب فقهي، ومثل ابن كثير وابن حجر والسخاوي والسيوطي وغيرهم.

ولهذا كانت دراسة التاريخ عامة، والتاريخ الإسلامي خاصة، أمرا ضروريا لتكوين ثقافة حية متكاملة.

ولكن عيب دراسة التاريخ في المعاهد: أنها لم تجعل الإسلام محور دراسته، بل سارت على المنهج المتبع في وزارة المعارف، حذو النعل بالنعل، فجعل «مصر» هي محور التاريخ، وليس رسالة الإسلام.

فأول ما درسناه: مصر القديمة: في عهد الفراعنة، وفي عهد الرومان والبطالمة، إلى الفتح الإسلامي.

ثم درسنا ظهور الإسلام، وحياة الرسول وغزواته، وعهد الخلفاء الراشدين، وعهود الأمويين والعباسيين، كلها في سنة واحدة. وقد درس الإسلام على أنه حدث تاريخي، لا على أنه رسالة رحمة وهداية للعالم. ولم تقدم معالم هذه الرسالة، ولا مجرد ملامح العظمة في شخصية صاحبها.

ثم درسنا الحروب الصليبية، وغزو التتار، ومقاومة المسلمين، وانتصارهم في النهاية، ولكن بروح غير الروح الإسلامية.

ثم كان الحديث عن المماليك على اختلافهم، ثم ظهور الدولة العثمانية، وغزوها لمصر، واستيلائها عليها سنة ١٥١٧م، وظهور الإصلاح الديني في أوربا، وبوادر النهضة الأوربية.

ثم كان الحديث في الجزء الرابع بتفصيل عن أوربا ونهضتها ووحدة أقطارها التي كانت مفككة، مثل الوحدة الإيطالية، والوحدة الألمانية، ثم ظهور نابليون وفتوحاته وصراعاته مع جيرانه من الإنجليز وغيرهم، وظهور الثورة الفرنسية، ومبادئها في الحرية والإخاء والمساواة.

ثم كان التاريخ الحديث في السنة الأخيرة، وظهور محمد علي باشا، ومصر الحديثة، وثورة عرابي، واحتلال الإنجليز لمصر . . إلخ.

المهم أن طالب الأزهر درس السيرة النبوية وتاريخ الإسلام كله دراسة سريعة سطحية، تبرز السلبيات أكثر مما تبرز الإيجابيات، وقد عرف عن نابليون بونابرت أكثر مما عرف عن محمد عليه الصلاة والسلام.

ولو كان «الإسلام ورسالته» محور الدراسة التاريخية، لوجب أن ندرس ما قبل الإسلام على أنه عهود الجاهلية المختلفة، عربية كانت أو فارسية أو رومانية أو هندية أو غيرها. وبيان تحريف الديانات الكتابية ذاتها.

ثم يدرس الإسلام على أنه الرسالة الجديدة، التي جاءت لتخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور التوحيد، مع تقديم موجز مركز لمعالم هذه الرسالة في إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع والأمة والعالم، وتقديم الرسول بوصفه نموذج الكمال البشري، الذي يمثل التجسيد الخلقي للقرآن، والتطبيق العملي للإسلام، مع حديث مركز عن خصائص سيرته، ومعالم عظمته. وكذلك تقديم عهد الراشدين بوصفه امتدادا لعهده، وتقديم ما حدث من فتن في عهد عثمان وعلي في حجمها الحقيقي وشرح أسبابها والعوامل المؤثرة فيها، داخلية وخارجية.

وكذلك الدول التي جاءت بعد ذلك: أموية وعباسية وعثمانية، مع إبراز ما قدمته من فتوح، وما أنجزته من حضارة، وما تركته من علوم وفنون وآثار. وتقديم الصراع بين الإسلام وخصومه في الغزو الصليبي والتتري بما يبرز ضعف المسلمين وتفرقهم وتخاذلهم، مما مكن منهم عدوهم، ويبرز القوة الذاتية للإسلام، التي كانت وراء المقاومة الصلبة التي انتهت بطرد الغزاة الصليبيين، وتحول التتار إلى الإسلام.

وينبغي أن يدرس سقوط الأندلس وأسبابه، واستئصال جذور الإسلام من جنوب أوربة، وما جرى للمسلمين من وحشية على أيدي نصارى إسبانيا.

كما يدرس ظهور الدولة العثمانية على أنها تمثل «دورة جديدة» للإسلام زاحفة على أوربا من الشرق، وكيف نمت وازدهرت، ثم تآمرت عليها القوى الصليبية حتى اقتسموا تركتها.

كما ينبغي أن يدرس تاريخ أوربا باختصار في إطار هذا الصراع التاريخي، وكيف استفادت أوربا بما اقتبسته من المسلمين في الأندلس وصقلية، والاحتكاك بالحروب الصليبية، وغيرها من قنوات الاتصال.

ثم ينبغي أن يدرس الاستعمار الحديث لبلاد الإسلام وما وراءه من دوافع مادية وأدبية، يتجلى في الأطماع والأحقاد والمخاوف والاستعلاء.

ومن المقررات المهمة التي يجب أن تطرح في علم التاريخ: مقرر «حاضر العالم الإسلامي» بحيث تطرح فيه أسباب وحدة هذا العالم، والقواسم المشتركة بين بلاده بعضها وبعض، وكيف كانت دولة واحدة يحكمها خليفة واحد، خلال التاريخ الإسلامي. ثم مزقت. وما عوامل ذلك؟ وما المشكلات التي يعاني منها العالم الإسلامي؟ وما حلولها؟ وما الأخطار الداخلية والخارجية على هذا العالم؟ وما موقف الاستعمار والصهيونية والشيوعية منه؟ . . . إلخ.

إن هذا المقرر الحي غائب عن علم التاريخ. ويجب أن يستفاد مما علق به أمير البيان شكيب أرسلان على كتاب «حاضر العالم الإسلامي» ولكن يجب تحديثه، فحاضر هذا العالم يتغير ويتطور بسرعة هائلة في الماديات والمعنويات، ويجب علينا حين ندرسه أن نلحظ ذلك كله.

العلوم الحديثة:

ومما درسناه في المرحلة الثانوية: العلوم الكونية التي أطلق عليها اسم «العلوم الحديثة». ويعنون بها: علوم الفيزياء (الطبيعة) والكيمياء، والأحياء (الحيوان والنبات).

وهذه العلوم التي سميت «حديثة» هي في الواقع «علوم قديمة» عندنا نحن المسلمين، بل كنا فيها أئمة وروادا. فقد كان علماؤنا الطبيعيون والرياضيون أشهر العلماء في العالم، وكانت كتبنا العلمية أشهر المراجع في العالم، وكانت جامعاتنا العربية الإسلامية موئل طلاب العلم في العالم، وكانت اللغة العربية هي لغة العلم الأولى في العالم، التي عجز أكثر أهلها اليوم أن يدرسوا بها الطب والهندسة والصيدلة والعلوم الطبيعية والرياضية.

وكثيرا ما كان علماء الدين أنفسهم هم علماء الدنيا وعلماء الطبيعة، ولم يجدوا من دينهم ما يعوقهم عن التفوق في هذه العلوم، بل وجدوا فيه الباعث والحافز والمحرك.

وأذكر من هؤلاء الفخر الرازي الذي قالوا: إن شهرته في علم الطب لم تكن تقل عن شهرته في علوم الدين.

ومثل ذلك ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى، ومع هذا كان من الفقهاء المعدودين، وقد ترجم له التاج السبكي في «طبقات الشافعية».

وكذلك ابن رشد الحفيد، الذي كان من أعظم الفلاسفة، وأعظم الأطباء صاحب كتاب «الكليات» في الطب، وكان من أعظم الفقهاء، كما دل على ذلك كتابه الفريد «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، وهو من أعظم ما ألف في الفقه المقارن وأسباب الاختلاف. وقد عرف بأنه القاضي ابن رشد.

فتسمية هذه العلوم الكونية بـ «الحديثة» إنما هو بالنظر إلى العهود الأخيرة التي تراجعت فيها حضارتنا، وتخلفت فيها أمتنا، وتقدم غيرها، ونامت واستيقظ غيرها، ممن تتلمذ عليها، وقبس من نورها، ثم تفوق عليها، وأمست هي تتلمذ عليه، وتأخذ منه.

ولا غبار على تدريس هذه العلوم في معاهد الأزهر، إلا أنها كان ينقصها اللمسات الإيمانية، التي تدرس القوانين على أنها جزء من «سنن الله في

الكون» وليست مجرد «قوانين طبيعية» كأن الطبيعة هي صانعتها. وكانت الكتب المؤلفة كثيرا ما تذكر أن الطبيعة زودت الكائن الفلاني بسلاح يدافع به عن نفسه، وكان الواجب والحق أن يقال: إن الله زود كل كائن بما يدافع به عن نفسه.

ويمكن أن يقوم المدرس بما ينقص الكتاب، لو تهيأ المدرس الذي يملك ثقافة علمية وإسلامية، ولم يكن مثل هذا متيسرا في ذلك الزمان.

كما يمكن أن يدخل في هذا الميدان بعض حقائق «الإعجاز العلمي في القرآن» إذا تهيأ المنهج وتهيأ له المدرس، ويمكن أن يؤخر ذلك إلى المرحلة الجامعية.

غياب اللغة الأجنبية:

وما لاحظته في المرحلة الابتدائية من غياب اللغة الأجنبية، استمر في المرحلة الثانوية، مع أني أرى حاجة الطالب الأزهري إليها، كما يحتاج إليها طلاب التعليم العام. بل ربما ظهرت حاجة بعضهم إليها أشد من غيرهم، لضرورتهم إليها في الدعوة إلى الإسلام، الذي جعله الله رسالة عالمية، فليس هو دعوة لإقليم من الأرض، ولا لشعب معين أو جنس خاص، كما أنه ليس لجيل محدود بزمن معين. إنه الرسالة العامة الخالدة الشاملة.

وكان يمكن اختصار بعض حصص النحو أو سواها لإعطائها للغة الأجنبية، دون أن يفقد الطالب كثيرا.

غياب روح الدعوة:

وأهم من ذلك كله: غياب «روح الدعوة» من الدروس المقررة، حتى من دروس المقررات الدينية نفسها: التفسير والحديث والفقه والتوحيد، كلها تشكو من «الجفاف الروحي»، وتعاني حالة من الهمود والجمود، في المادة العلمية، وفي طريقة عرضها، وفي المعلم الذي يدرسها، فلا تدفع العقل ليبحث ويحقق، ولا الروح ليحلق ويشرق، ولا الإرادة لتعمل وتطبق.

على خلاف ما رأيته في «ندوة العلماء» و «دار علومها» بلكهنو بالهند، التي كان يشرف عليها العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي، حيث وجدت تعليمهم ومناهجهم وشيوخهم، تسري فيها الروح الدعوية، والمعاني الربانية، كما تسري العصارة في أغصان الشجرة اليانعة.

وقد قال شاعر الإسلام في الهند محمد إقبال يشكو جفاف التعليم المدني العصري الذي أدخله الإنجليز في البلاد: إن هذا التعليم قد يعلم الطالب التأنق في الزي، والتشدق في الحديث، ولكنه لا يعلم عينيه الدموع، ولا قلبه الخشوع.

فإذا كان التعليم الأزهري مثل هذا التعليم المدني، لا يساعد الطالب على تزكية نفسه، والانتصار على شهواتها، ولا يعلم عينيه الدموع، ولا قلبه الخشوع، فماذا بقي له من أزهريته الحقيقية غير العمامة والجُبَّة (الكاكولة) إن بقيتا؟!

دروس فقهية في القرية:

ومما أذكره في هذه الفترة: ما بدأته من دروس فقهية في قريتنا، وأحسب أن ذلك كان بعد السنة الثانية الثانوية. وقد كانت دروسي في المرحلة السابقة (دروسا وعظية) هدفها الإرشاد إلى تثبيت الإيمان، وتصحيح المفاهيم الدينية، وتنمية القيم الأخلاقية والسلوكية، التي دعا إليها الدين. ومعتمد تلك الدروس: الرقائق ونصوص الترغيب والترهيب ونحوها، مما يزهد في الدنيا، ويذكر بالآخرة، ويرقق قلوب الناس.

أما هذه الدروس الجديدة، فكانت تدور حول «فقه الأحكام» وخصوصا العبادات، وبالأخص الصلاة.

وكان الجديد في هذه الدروس يتمثل فيما يلي:

١ـ البعد عن الحشو والفضول وما لا حاجة حقيقية بالناس إليه، مثل الكلام عن المياه السبعة التي يجوز بها التطهير، والتي يبدأ بها كثير من كتب الفقه: ماء المطر،

وماء النهر، وماء البحر، وماء البئر، وماء العين، وماء الثلج، وماء البرد.

فلا حاجة إلى ذلك والمتوضئ يفتح الصنبور (الحنفية) فيجد الماء ويتوضأ.

٢ـ تبني التيسير والتخفيف عن الناس ما وجد سبيل إلى ذلك، وهذا ما أشار إليه القرآن في ختام آية الطهارة ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ (المائدة: ٦).

وقال في ختام آية الصيام ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وقال الرسول الكريم: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» متفق عليه عن أنس.

فنهج التيسير نهج قديم عندي.

٣ـ التحرر من التعصب لمذهب إمام بعينه، فإن الله لم يكلفنا باتباع إمام أو مذهب معين، إنما كلفنا اتباع كتابه وسنة نبيه. وعلينا أن نستفيد من جميع المذاهب، مرجحين منها ما كان أقوى دليلا، أيا كان القائل به، فالمسلم يتبع الحجة ولا يتبع الأشخاص غير المعصومين.

وقد كان المعتاد لعلماء قريتنا في دروس الفقه: أن يدرسوه على مذهب الشافعي، حتى العلماء الأحناف يدرسون الفقه على المذهب الشافعي، تأسيسا على أن مذهب عوام القرية هو الشافعي، مع أن رأي المحققين من العلماء: أن العامي لا مذهب له، وإنما مذهبه مذهب من يفتيه.

ومن المعلوم أن مذهب الإمام الشافعي أشد المذاهب المتبوعة في العبادات، ولا سيما في مسائل الطهارة والنجاسة، حتى قال الإمام أبو حامد الغزالي في «الإحياء» معلقا على مذهب الشافعي (وهو شافعي) في مسائل الطهارة: كنت أود أن يكون مذهبه في المياه كمذهب مالك، وقوى مذهب مالك بسبعة أوجه.

لهذا اخترت أن أدرس الفقه غير ملتزم بمذهب الشافعي، بل على طريقة «فقه السنة» للشيخ سيد سابق، وقد ظهر الجزء الأول منه في الطهارة، وقدم له الإمام حسن البنا، و«الدين الخالص» للعالم الكبير الشيخ محمود خطاب السبكي مؤسس الجمعية الشرعية في مصر.

وكان هذا النهج مخالفا لما ألفه الناس من علماء القرية قبلي، كما كان من ثمرته آراء جديدة، استغربها الناس في أول الأمر، وإن وجدوا فيها كثيرا من التيسير والتسهيل عليهم، مثل القول بأن كل ما يؤكل لحمه فبوله وروثه طاهر، وهو مذهب مالك، ورجحه ابن تيمية وابن القيم من الحنابلة.

والقول بأن الماء إذا وقعت فيه النجاسة - وإن كان قليلا - لا ينجس إلا بتغير طعمه أو لونه أو رائحته، فإن الله خلق الماء طهورا لا ينجسه شيء، كما دل عليه حديث بئر بُضاعة وغيره.

وكذلك القول بأن لمس المرأة لا ينقض الوضوء، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه.

وقد أحدثت هذه الآراء ضجة في القرية، وعز على بعض الناس أن يخالفوا ما ألفوه وتوارثوه من قديم الزمان، وقال بعض العوام المتنورين من ملازمي المشايخ القدامى ودروسهم: كيف يخالف هذا الشاب الذي لا يزال طالبا كبار المشايخ من علماء المعاهد وكليات الأزهر، ويأتينا بهذه الآراء الجديدة والغريبة؟

واحتشد عدد منهم ليناقشوني، ورحبت بهذا النقاش، وقلت لهم: بيني وبينكم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنا لا أختار رأيا في مسألة إلا وقد قال به إمام من أئمة المسلمين، فلا أخرج على إجماع أبدا.

وكان أول مسألة جادلوني فيها هي قضية عدم نقض الوضوء بلمس المرأة. وقالوا: مذهب الشافعي هو الموافق للقرآن الذي قال: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (المائدة: ٦).

قلت لهم : اختلف الصحابة والتابعون في المراد باللمس أو الملامسة في هذه الآية ، فأخذ ابن عمر بظاهر اللفظ ، وأن اللمس أو الملامسة هو وضع البشرة على البشرة . وقال ابن عباس : المس واللمس والملامسة في القرآن كناية عن الجماع ، ولكن الله تعالى حيي كريم يكني عما شاء بما شاء .

وابن عباس هو ترجمان القرآن ، ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمه التأويل ، ويؤيد تأويله قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ (الأحزاب : ٤٩) . فالمراد بالمس هنا : الدخول بالمرأة . وقد تكرر هذا في القرآن . ومثال ذلك قول مريم عليها السلام : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ (مريم : ٢٠) . ثم إن الآية على فهم ابن عباس تكون قد أشارت إلى الحدث الأصغر الذي كنّت عنه بقولها : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ ومن الحدث الأكبر ، الذي كنت عنه بقولها : ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ بخلاف الفهم الآخر ، فلا يكون في الآية أي دلالة على التيمم من الحدث الأكبر .

ثم ذكرت لهم الحديث الذي يبين : أن عائشة رضي الله عنها لمست باطن قدم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو في صلاته ، ولم يخرج منها ، ولو كان لمسها ناقضا للوضوء لخرج من الصلاة ، وجدد وضوءه . والقول بأنه كان بحائل خروج عن الظاهر ، لا دليل عليه .

ولو أخذنا بظاهر الآية ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ كما أخذ الشافعي ، لوجب أن ينتقض الوضوء بلمس المرأة المحرم كالأم والأخت والابنة ، لأنهن من النساء ، كما هو رأي الظاهرية .

وبعد هذه المناقشة الساخنة ، لم يجد المعارضون في أيديهم حجة ، وقالوا : هل نستطيع أن نجادل أزهريا؟ قلت لهم : نحن أسرى الأدلة ، فمن كان معه الدليل فهو الأقوى والأبقى .

وشاع هذا الفقه الجديد في القرية حتى بين نسائها، وإن كن لا يحضرن هذه الدروس، ولا سيما أن لمس المرأة ونقضها لوضوء الرجل، كثيرا ما كان يحدث مشكلة بين الرجال وزوجاتهم، وخصوصا في فصل الشتاء، عندما يجيء الرجل من الحقل، ويذهب إلى المسجد، ويتوضأ لصلاة المغرب، ثم يصليها، ويعود إلى بيته للعَشاء كالعادة، وفي أثناء تقديم الطعام قد تلامس المرأة يد زوجها خطأ، وهنا يغضب الرجل، ويثور على امرأته التي أضاعت وضوءه، وهذا يكلفه وضوءا جديدا في هذا البرد الشديد، وكثيرا ما يقع شجار، ويشب حريق في البيت بسبب هذا الأمر. وقد حدثني بعض المستنيرين منهم أن فلانا من القرية كاد يحدث هذا الشجار بينه وبين زوجته بسبب هذا اللمس الخطأ، وما كاد يصرخ في زوجته حتى قالت له: هوِّن عليك. صل على مذهب الشيخ يوسف!

والحقيقة أنه ليس مذهب الشيخ يوسف، إنما هو مذهب الإمام أبي حنيفة وأصحابه، بل هو مذهب الإمام مالك وأحمد فيمن لمس بغير شهوة. كما في هذه القضية.

رخصة (القبانية):

ومن المهارات التي اجتهدت في الحصول عليها في أواخر المرحلة الثانوية: الحصول على «رخصة القبانة» أو القبانية، ولها إجراءات وتعقيدات وامتحانات حتى يحصل المرء عليها من طنطا. وهذه الرخصة تمكن صاحبها من وزن «القطن» الذي يشتريه التجار من الفلاحين، في مقابل أجر، وإعطاء ورقة مختومة بمقدار وزن القطن بالرطل مضروبا في سعر القنطار، لمعرفة قيمة الصفقة بالجنيهات والقروش المصرية. وهذه الورقة التي يصدرها القباني معترف بها لدى البائع والمشتري والجهات الرسمية.

وكان هذا موردا إضافيا، اشتغلت بها موسما واحدا في إطار الأقارب والجيران، والأصدقاء، ثم تغيرت الأمور، فلم أكررها، مع أنه كلفني شراء «قباني» وما يعلق عليه.

وفي تلك الفترة - أو بعدها - دخلت في تجارة «القطن بالقطّاعي» أنا وصديقي السيد مولانا، نشتري من الأفراد ما يريدون بيعه من الصفقات الصغيرة للقطن، التي يبيعها الفلاحون عادة لمحلات شراء القطن الصغيرة، ونحن بدورنا نبيعها كل فترة للتجار الكبار، ونكسب من الفرق بين الشراء والبيع. ولكن لتجارة القطن مفاجآت في العلو والهبوط، فهي غدارة كالدنيا، وأذكر أننا بعد أن كسبنا كسبا طيبا، نزل السعر في السوق نزولا حادا، فضاع ما ربحناه، ورجعنا نقول: «كأنك يابو زيت ما غزيت»!

وباء «الكولرا»:

في سنة ١٩٤٧م هجم على مصر وباء كاسح، يصيب الإنسان وهو في عز شبابه وصحته، فيمتص من جسمه الماء، عن طريق القيء من فوق، والإسهال من تحت، ذلك ما عرف باسم داء «الكوليرا» الذي انتشر في مصر كلها انتشار النار في الهشيم.

وقد بدأ في قرية «القرين» بالشرقية، التي تصدِّر البلح إلى أنحاء مصر، فعجّلت بنشر الوباء بسرعة البرق، والقرين هذه بجوار معسكرات الإنجليز في منطقة الشرقية، ولذا قال الناس: إن الإنجليز هم الذين صنعوا هذه الكارثة.

وصل هذا البلاء إلى قريتنا، وأخذ الناس يتساقطون، ولا يكادون يجدون من الأدوية (الأمصال) وأدوات الإسعاف ما ينجدهم. ولا سيما أن الناس في القرى يخافون من المستشفيات، ويفضلون في مثل هذه الحالات أن يموت الإنسان في بيته وبين أهله، أستر له، وأصون له من موته خارج بيته، وخصوصا أنه ينقل إلى مستشفى المحلة الكبرى. على أن مستشفيات المحلة ضاقت بالواردين إليها.

وبعثت وزارة الصحة بـ«الأمصال» الواقية، وكان بعض الناس يتردد في تناولها، لولا فتاوى العلماء، بأن تركها حرام، وإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وأن

الله الذي أنزل الداء أنزل الدواء. ومع هذا تقاعس بعض الناس عنها.

وفي عدة أيام صرع الموت في قريتنا ما يقارب الأربعين شخصا، معظمهم من الرجال. وفي حارتنا الصغيرة توفي حوالي خمسة منهم اثنان من أقاربي: ابن عمي الأكبر، وزوج ابنة عمي.

توفي زوج ابنة عمي أولا، فذهب ابن عمي ودخل عليه، واشترك في تغسيله، وحمله للدفن، دون أي احتياط، وكان رحمه الله مجازفا، جريئا، لا يبالي بالعواقب، فأصابته العدوى، وما أسرعها، وما هي إلا أيام قضاها حتى ودع الحياة: قبل أن يتم الأربعين من عمره، وودعته بقصيدة حزينة، ضاعت فيما ضاع، لا أذكر منها إلا أنها تائية من بحر الطويل. وكان ابن عمي هو في الوقت نفسه زوج خالتي الصغرى، التي تركها أرملة، وفي بطنها جنين، ولد بعد أشهر، طفلة سميت باسم أمي، وكانت تبدو عليها مخايل الذكاء وهي رضيعة. وقدر الله أن تقضي عليها نزلة شديدة لم يحسن الطبيب علاجها، فماتت وهي في الثانية من عمرها.

إن الطبيب له علم يُدِلُّ به
ما دام في أجل الإنسان تأخير
حي إذا ما انقضت أيام مدته
حار الطبيب وخانته العقاقير

* * *

مـــع الإخـــوان

حسن البنا في طنطا يشرح القضية الوطنية:

حظيت بالاستماع إلى الشيخ الإمام حسن البنا، منذ كنت طالبا في السنة الأولى الابتدائية، كما تحدثت عن ذلك في حينه. وأعجبت بشخصية الرجل، وملك حبه قلبي. وإذا كانوا في عالم العشاق يتحدثون عن الحب من أول نظرة، ففي عالم الدعوة يمكن أن نتحدث عن الحب من أول كلمة.

لقد تعلق فؤادي بحسن البنا، تعلق المريد بالشيخ، والتلميذ بالأستاذ، والجندي بالقائد، وإن كنت لم أصبح جنديا في جماعته إلا بعد ثلاث سنوات؛ ولكني كنت أترقب قدومه إلى طنطا، لأسعى إلى الاستماع إلى حديثه المتفرد. وقد جاء مرة إلى طنطا لإحياء ذكرى الإسراء والمعراج، وسمعت منه ما لم أسمع من غيره في هذه المناسبة. وأهم ما نبه عليه في هذه المناسبة: التذكير بقضية المسجد الأقصى، منتهى رحلة الإسراء، ومبتدأ رحلة المعراج، وواجب الأمة المسلمة نحو مقاومة المشروع الصهيوني. وقد كان الرجل من القلائل الذين أدركوا خطر الصهيونية، وحذروا منه وأنذروا في وقت مبكر، وكان يعيش في قضية فلسطين، أو قل: تعيش فيه قضية فلسطين.

على أن أعظم زيارة لمدينة طنطا، تجلت فيها عبقرية حسن البنا، وتحدث فيها فأبلغ وأبدع وأشبع، كانت حين عقد المؤتمر العام للإخوان المسلمين لشرح المطالب القومية. وكان هذا أحد مؤتمرات الإخوان التي تعقد في عواصم المديريات في مصر

لشرح الأهداف الوطنية، التي هبت الأمة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية للمطالبة بها.

أقيم سرادق كبير في ميدان البلدية بطنطا، حضره جَمٌّ غفير من أبناء طنطا ومن إخوان الغربية من مراكزهم المختلفة، وتحدث فيه عدد من خطباء الإخوان، منهم الأستاذ أحمد السكري وكيل الإخوان، والأستاذ نصيف ميخائيل، وهو باحث قبطي مصري كان الأستاذ البنا يصطحبه في مؤتمراته المختلفة، ليتحدث عن قضية قناة السويس وحق مصر فيها، وهو من المتخصصين في هذا المجال الذي يهتم به البنا ويعرف قيمته. وكان يهدف بهذا إلى تجميع عُنْصُرَي الأمة من المسلمين والأقباط لمواجهة الاستعمار البريطاني، وقطع الطريق على الذين يصيدون في الماء العكر، ليفرقوا بين أبناء الشعب الواحد، وإشعال نار الفتنة الدينية (الطائفية) بينهما. وكان الأستاذ البنا على وعي بألاعيب الاستعمار الذي جعل شعاره: «فرق تسد»، فكان على صلة حسنة بزعماء الأقباط، حتى أشرك بعضهم في اللجنة السياسية للإخوان.

وبعد أن تحدث الخطباء والشعراء، جاء دور الإمام البنا، الذي انتظرت الجموع الحاشدة كلمته بفارغ الصبر، وشديد الشوق.

وقام حسن البنا ليعلن: أنه سيتحدث في أمور ثلاثة: قضيتنا، وسليتنا، دعوتنا. قال:

أما قضيتنا، فأقصد بها قضية «الوطن» الصغير، والكبير، والأكبر.

وبيَّن ما يريد بالوطن «الصغير»، وهو وادي النيل، بشماله (مصر) وجنوبه (السودان) وقال: إنه يعُدُّ مصر هي السودان الشمالي، والسودان هو مصر الجنوبية، وحدد الهدف القومي بالنسبة لهما في أمرين: الجلاء التام (أي جلاء جيش الإنجليز) عن وادي النيل كله برا وبحرا وجوا، وتركه لأهله يحكمونه كما يشاءون، ووحدة هذا الوادي تحت علم واحد، وملك واحد، وحدة سياسية واقتصادية وثقافية وتعليمية.. إلخ.

أما الوطن الكبير، فيشرحه البنا بأنه «الوطن العربي»، ويحدده بأنه من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلسي. ولم يكن مصطلح «الخليج العربي» قد ظهر بعد. كما أصبح يقال بعد: من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر. وكان كلام البنا أول كلام محدد أعرف به حدود الوطن العربي.

وأما الوطن الأكبر، فهو «الوطن الإسلامي» من المحيط إلى المحيط، أي من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي أو من جاكرتا على المحيط الهادي إلى رباط الفتح على المحيط الأطلسي. وكان هذا أول تحديد للوطن الإسلامي أسمعه، ولهذا تحدث عن إندونيسيا وضرورة تحريرها من الاستعمار الهولندي، وعن ضرورة تحرير تونس والجزائر ومراكش بلاد المغرب العربي، وكان يعبر عن المغرب في هذه الفترة بـ «مراكش».

وبين أن على الأمة الإسلامية بالتضامن أن تعمل على تحرير أوطانها كلها من كل سلطان أجنبي ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١)﴾ (النساء: ١٤١).

وأشار إلى ما ذكره الفقهاء من أنه: إذا أسرت امرأة في المشرق، وعجز أهل المشرق عن أن ينقذوها من أسرها، فعلى أهل المغرب أن يقوموا بذلك.

وأفاض الأستاذ البنا في قضية مصر، وشرح جذورها التاريخية، وحدد الأهداف الوطنية - كما قلت - في الجلاء والوحدة.

ثم تحدث عن «وسيلتنا» في تحقيق أهدافنا والوصول إلى حقنا. وبيَّنها وسيلة بعد وسيلة، تبدأ بـ «المفاوضة» مفاوضة صاحب الحق لا المستجدي، ويجب أن تقف الأمة كلها وراء المفاوض، وعلى المفاوض أن يتجاوب مع نبض الأمة، ولا يستخذي ولا يستسلم أبدا.

فإن لم تُجْد «المفاوضة» لجأنا إلى «المقاطعة»، مقاطعة الإنجليز اقتصاديا، لا نشتري منهم، ولا نبيع لهم، نحن المصريين والسودانيين والعرب والمسلمين عامة. فنقاطع كل بضاعة إنجليزية. وعلى علمائنا أن يصدروا الفتاوى الدينية القاطعة

بتحريم الشراء من العدو، لأن ذلك تقوية له على المسلمين، وكل ما يقويه على المسلمين، لا يجوز لنا أن نعين فيه. وكل قرش يذهب إلى الخزانة البريطانية يتحول إلى رصاصة تقتل المصريين والسودانيين. وأشار إلى أن الشعب المصري «شعب قنوع» يستطيع أن يعيش على القليل، والأقل من القليل إذا كان ذلك في سبيل عزته وكرامته وحريته.

فإن لم تُجْد «المقاطعة» أو لم تكف، فلا بد من الوسيلة الأخيرة التي يفرضها الواقع، كما يفرضها الدين، وهي «الجهاد»: أن نقاتل الإنجليز بكل ما نستطيع من قوة، وأن نجند رجالنا وشبابنا لذلك، وأن نربي أنفسنا لهذه الغاية، وأن نشيع روح الجهاد في الأمة، بدل روح الميوعة والخلاعة والخنوثة، التي تفعل في نفوس أبنائنا ما تفعل السموم في الأبدان.

والجهاد في هذه الحالة فرض عين على كل مصري وسوداني حتى يخرج الإنجليز من وطنه. وكل مواطن عليه أن يبذل ما يقدر عليه، والإخوان المسلمون مستعدون أن يقدموا الآلاف من شبابهم فداء لوطنهم، الذي هو جزء عزيز من أرض الإسلام.

ثم قال الأستاذ: لقد كنت في مقتبل شبابي أقرأ بعض الأوراد التي تتضمن أذكارا وأدعية نتعبد لله بتردادها. وكان من هذه الأدعية دعاء يقول: اللهم ارزقني الحياة الحسنة، والموتة الحسنة، فما الموتة الحسنة أيها الإخوان؟ هل الموتة الحسنة أن تموت على سريرك بين أهلك وأولادك وذويك؟ إن الموتة الحسنة ـ كما أتصورها ـ أن يفصل هذا الرأس (وأشار إلى رأسه) عن هذا الجسد في سبيل الله!!

وهنا ضج الجمع الحاشد بالتكبير والتهليل.

ثم تحدث الأستاذ رحمه الله عن المحور الثالث، وهو «دعوتنا»، مركزا الحديث حول «الدعوة الإسلامية» في هذا العصر، ومضمونها وأهدافها، وخصائصها. وكان الرجل مشرقا متألقا كأن كلامه تنزيل من التنزيل، أو أقباس من أضواء النبوة.

وانفض المؤتمر الكبير بسلام، ولا حديث للناس إلا عن حسن البنا، وفهم حسن البنا، وكلام حسن البنا.

والحق أن مؤتمرات الإخوان في عواصم المديريات المصرية لشرح القضية الوطنية، كانت إضاءات جديدة ومميزة في طريق العمل الوطني، وكان هدفها توعية جماهير الشعب بقضيته، وحشد قوى الأمة جميعها للوقوف في وجه الإنجليز، حتى يخرجوا من الوطن طوعا أو كرها، وتتحرر إرادة شعب مصر من كل سلطان أوربي.

مرحلة الانطلاق الكبير:

كان الإخوان في هذه الفترة - بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية - هم القادة الحقيقيين في مصر للعمل الوطني، ضد الاستعمار البريطاني، وكانوا هم الذين يحركون الجامعات والمعاهد العالية والثانويات، والشارع المصري كله.

كما كانوا هم الذين يحملون العبء الأول والأكبر في محاربة المشروع الصهيوني الخطير، الذي تسلل إلى المنطقة وأهلها نيام، وطفق يفرض وجوده بالنار والدم والعنف والإرهاب، عن طريق العصابات الصهيونية الإجرامية، التي تستبيح كل محرم، وتستهين بكل قيمة، في سبيل تحقيق أطماعها، في أرض ليست لها، وفي بلد تريد أن تطرد أهلها لتحل محلهم، في أسوإ صورة للاستعمار العنصري الاستيطاني الإحلالي الغاشم.

وبدأت الأنظار محليا وإقليميا وعالميا تتجه إلى جماعة الإخوان، وإلى قائدهم الشاب النابغة المتميز، المتعدد المواهب، الذي لم يكمل إلى الآن الأربعين عاما. وشرعت الصحف المصرية والعربية والدولية تكتب عن الإخوان، وتتسابق لكسب اللقاء مع حسن البنا، وإجراء الحوار معه، ونشر ذلك على صفحاتها بالبنط العريض.

حوار إحسان عبد القدوس:

وكان أهم ما كتبته الصحف المصرية في ذلك العهد: الحوار أو التحقيق الذي أجراه الكاتب السياسي المتألق: إحسان عبد القدوس، في مجلته الأسبوعية الشهيرة (روز اليوسف). ومما قاله في هذا التحقيق الذي جعل عنوانه «الرجل الذي يتبعه نصف مليون»[1]:

اركب أي سيارة أجرة وقل للسائق: «الإخوان المسلمين يا أسطى» ولا تزد. ولن يلتفت إليك السائق ليسألك: ماذا تقصد بالإخوان المسلمين؟ ولا أين تقع هذه الدار التي يطلق عليها هذا الاسم؟ بل سيقودك إلى هناك دون سؤال، بعد أن يرحب بك بابتسامة لم تتعود أن تراها على وجوه سائقي سيارات الأجرة، وقد يرفض أن يتناول منك أجرا.

ولا شك في أنه سيحملك سلامه ـ قبل أن تغادره ـ إلى فضيلة الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين. وستمر في طريقك داخل الدار بمخازن الذخيرة التي يمتلكها الإخوان: وهي الشباب، شباب امتلأت بهم حجرات الدار على سعتها، ترى على وجوههم نور التقوى والإيمان، وفي عيونهم حماسة الجهاد، وبين شفاههم ابتسامة تدعو إلى المحبة والإخاء، وفي يد كل منهم مسبحة انحنى عليها بروحه يذكر اسم الله.

وهم مع كل ذلك شبان «مودرن» لا تحس فيهم الجمود الذي امتاز به رجال الدين وأتباعهم، ولا تسمع في أحاديثهم التعاويذ الجوفاء التي اعتدنا أن نسخر منها. بل إنهم واقعيون يحدثونك حديث الحياة لا حديث الموت، قلوبهم في السماء ولكن أقدامهم على الأرض، يسعون بها بين مرافقها ويناقشون مشكلاتها ويحسون بأفراحها وأحزانها. وقد تسمع فيهم من "ينكّت" ومن يحدثك في الاقتصاد والقانون والهندسة والطب.

---

(١) انظر: روزاليوسف العدد الصادر في ١٢ من سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٤٥م.

إنهم ذخيرة، وستنطلق عند الإشارة الأولى فاحذروا. ويستقبلك الأستاذ حسن البنا بابتسامة واسعة، وآية من آيات القرآن الكريم، يعقبها بيتان من الشعر، يختمها بضحكة كلها بشر وحياة.

والرجل ليس فيه شيء غير عادي، ولو قابلته في الطريق لما استرعى نظرك، اللهم إلا بنحافة جسمه، ولحيته السوداء، التي تتلاءم كثيرا مع زيه الإفرنجي وطربوشه الأحمر الغامق.

ولن تملك نفسك من التساؤل: كيف استطاع الرجل أن يجمع حوله كل هؤلاء الإخوان، وكيف استطاع أن ينظم كل هذا التنظيم: بحيث إذا عطس فضيلته في القاهرة، صاح رئيس شعبة الإخوان في أسوان: «يرحمكم الله»!!

ولكنك لا تلبث قليلا حتى تقتنع بأن قوة الرجل في حديثه، وفي أسلوبه الهادئ الرزين، وفي تسلسل أفكاره التي يعبر عنها تسلسلا منطقيا.

وربما كان أغرب ما في حديثه: أنه يحس بما يقوم في نفسك من اعتراضات، فيجيبك عنها ويفندها لك، قبل أن يترك لك فرصة لتصدمه بها.

وهو لبق، يستطيع أن يحلل شخصيتك ويدرس نفسيتك من النظرة الأولى، وربما أحس أني دخلت عليه وتحت لساني مائة تهمة أستطيع أن أوجهها إليه، فكان من لباقته أن عرض علي قبل أن أغادره تقريرا عن الحسابات المالية لجماعته.

وفي هذا التقرير تقرأ عجبا:

فهذا «أخ» أراد أن يساهم في شراء دار الإخوان ولم يملك مالا فباع أرضه، وخصص ثمن أربعمائة متر منها للجمعية، وصورة العقد والتخصيص منشورة بالزنكوغراف ضمن التقرير.

وهذه زوجة لم تجد لديها ما تقدمه، فوهبت قرطها الذهبي ـ وكان حليتها الوحيدة ـ للإخوان، وصورة القرط منشورة أيضا ضمن التقرير.

وهذا رجل من مسلمي بومباي في الهند تبرع بفتح اكتتاب بين أبناء بلده للمساهمة في بناء الدار.

وهذا زوج اختلف مع زوجته: فهو يريد أن يتبرع للجمعية بجنيه واحد، وهي تريده أن يتبرع بثلاثة جنيهات! وجاءا ليحتكما إلى الأستاذ البنا، فحكم بينهما أن يتبرعا بجنيهين اثنين، حسما للنزاع.

وهذا رجل من العراق يرسل تبرعه عن طريق سعادة عبد الرحمن عزام باشا، وآخر يتعهد بكل ماله لتغطية ما تحتاجه الجماعة من مال و . . . و . . . وبين أسماء المتبرعين أعضاء من مجلس النواب، وشخصيات كبيرة وشباب ألمع، لم أكن أحسب أنهم يدخلون ضمن «نصف المليون» الذي يؤمن بالأستاذ حسن البنا.

نصف مليون[1] وأكثر انتظموا في أكثر من ألف وخمسمائة شعبة انبثت في كل قرية وكل كفر؛ بينها مائتا وخمسون شعبة في القاهرة وحدها، وهناك شعب في باريس ولندن وجنيف قبل قيام الحرب.

وحدثني فضيلته عن فكرة الإخوان وكيف نبتت وكيف تحققت:

لقد وجد القائمين على أمر الإسلام قد عجزوا عن تطبيقه تطبيقا صحيحا، فالإسلام ليس دينا فحسب، ولكنه نظام سياسي واقتصادي واجتماعي.

وقد وجد مصر من حوله ينقصها الخُلُق، وينقصها الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي. ولم يقصر تفكيره في الإصلاح على ناحية واحدة من هذه النواحي، كما فعلت الأحزاب، فقصرت جهودها على الناحية السياسية، أو كما فعلت الشيوعية، فقصرت جهودها على الناحية الاقتصادية، إنما أراد أن يصلح كل نواحي النقص الذي تعانيه مصر ويعانيه الشرق، فلم يجد نظاما شاملا جامعا يستطيع أن يلجأ إليه سوى الإسلام، وقانونه الأساسي القرآن.

---

(١) في المقال التالي للتابعي قدر عدد الإخوان بمليون.

وهو يسعى أولا إلى إفهام المسلمين دينهم فهما صحيحا لا تشوبه الخزعبلات، وإلى إيجاد المحبة والأخوة بينهم، ثم تطبيق النظم الاجتماعية والاقتصادية التي جاءت في الدين عليهم.

وهو يعتقد أن مصر - كبقية بلدان الشرق - حساسة من ناحية الدين، وأنها ما من حركة صالحة أو خطوة خطتها إلا كانت باسم الدين دائما، فأنت تستطيع أن تجعلهم - أي المصريين - يحبون وطنهم باسم الدين، ويحبون بعضهم بعضا باسم الدين، ويجاهدون وينتظمون باسم الدين، وكل دعوة قامت في مصر ولم تكن على أساس من الدين فشلت.

قلت: ولكنا اليوم لا نستطيع أن نطبق الدين والقرآن على جميع مرافقنا، فهناك مثلا قوانين الملاحة والطيران كيف نستطيع أن نحل محلها القرآن؟!

وأزاح فضيلته طربوشه إلى مؤخرة رأسه وقال:

إن القرآن وضع ليكون قانونا أبديا، ينطبق على كل عصر، منذ انتهاء الجاهلية إلى قيام القيامة، ولو بحثت في القرآن لوجدت بين سطوره الكريمة صورة للقانون الذي تبحث عنه الدول العظمى الآن لتحديد طريقة استعمال القنبلة الذرية في الحروب.

ونحن لا نقول: إن كل قانون سنحتاج إليه قد جاء بتفاصيله ومواده وحيثياته من القرآن، إنما يجب علينا أن نجتهد في وضع هذه القوانين في حدود المبادئ الأولية والمثل العليا التي جاءت في الدين.

قلت: ولكن هل تعتقد أن الأجانب المقيمين بيننا يرضون ومن ورائهم دولهم بتطبيق قوانين القرآن كقطع يد السارق مثلا؟

وهنا خبط الأستاذ بيده على مكتبه في ثورة، وقامت مناقشة حادة بينه وبين نائب وطبيب ومحام كانوا يشتركون معنا في الحديث، وقال:

لو كان الإنجليز من المسلمين وطبقوا في بلادهم قوانين الإسلام، لما قام واحد فيهم يسأل: هل يرضى الأجانب بقطع يد السارق أو لا يرضون؟ إنما هو ضعفنا وخنوعنا الذي ألجأنا إلى هذا السؤال، وألجأنا إلى استعارة قوانين أوربا لتطبيقها على أنفسنا بدل الشريعة الإسلامية التي اعترف أخيرا مؤتمر محكمة العدل الدولية بأنها شريعة قابلة للتطور.

وقد حدث في شبه جزيرة العرب أن حُكم على جندي أمريكي بقطع يده؛ لأنه سرق، فاحتج قائده، فأبلغه الملك ابن السعود: أنه إما أن ينفذ الحكم، وإما أنه لن يكون مسئولا عن أموال أمريكا في بلاده. فأذعنت أمريكا، ونفذ الحكم.

ثم تسلم الملك من الرئيس روزفلت خطاب شكر، لحرصه على سلامة أموال الدولة.

ثم إن هذه الحدود - أي العقوبات - تنفيذها متروك لأمر القاضي، وتقديره، طبقا لقوله صلى الله عليه وسلم: «ادرءوا الحدود بالشبهات».

وهو يستطيع أن يتدرج فيها بين الشدة والتخفيف.

قلت: ألا تعتقد أن دعوتك دعوة رجعية قد تؤدي بنا إلى خلافات طائفية قد تستغلها إنجلترا للتدخل في شئوننا، كما يحدث الآن في الهند؟

قال: إن الإسلام أوصى خيرا بأهل الكتاب، ونحن نشجع كل حركة تقوم على أساس الدين الصحيح. وجميع الأديان متفقة في أسسها ومثلها العليا.

وعلاقتنا حتى اليوم علاقة طيبة مع كثير من مواطنينا من أصحاب الأديان الأخرى.

قلت: هل تسعون لتولي الوزارة؟

قال: إننا نؤيد أي وزارة تنفذ برنامجا قائما على الدين الصحيح، سواء أكنا نحن الذين نتولاها بأنفسنا أم كان غيرنا. وفي الدستور الحالي سندٌ لنا فيما نقول، لأنه

ينص في مادته الأولى على أن دين الدولة الإسلام، ومعنى هذا أن تكون جميع نظمنا وقوانينا وتصرفاتنا مبنية على قواعد الإسلام. انتهى.

تحقيق محمد التابعي في آخر ساعة:

ومن التحقيقات المهمة التي نشرت في تلك المرحلة: تحقيق الكاتب الصحفي الشهير محمد التابعي، الذي نشره في مجلة «آخر ساعة»[1]، والذي جعل عنوانه الكبير:

«شعارنا سيفان، دستورنا القرآن».

«هبي يا رياح الجنة على رهبان الليل وفرسان النهار».

قال التابعي:

رأيت الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين منذ عامين مرتين: رأيته في الأولى يخطب جماعة من طلبة الطب، ورأيته في الثانية: يناقش مجموعة من الشبان المثقفين. ورأيت سامعيه في الحالتين يقابلونه بالابتسام والضحك والسخرية بل والصفير (أي أول الأمر)، ولكنه تكلم وخلب وسيطر، وانتصر بسهولة على معارضيه في كلتا الحالتين.

رأيته فيهما صامتا، ورأيته يتكلم. وجهه على الحالين مشوب بمسحة وقار لطيف، حاد الملامح، بيِّن التعابير، تحت جبين عريض لماح بقبس من الذكاء، يقتعد وسطه «زبيبة صلاة» كبيرة داكنة من أثر السجود.

عيناه هادئتان بسيطتان في بساطتهما لمحة من «عيون المقطم» تحسبها قليلة الغور، فإذا ألقيت فيها الحجر، ظل يتدحرج، ويتدحرج، وتتعاقب الثواني على صوته وهو يتدحرج، ويفنى الصوت وهو ما زال يتدحرج إلى غير قرار.

---

(١) في العدد الصادر في ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٤٦م.

دائم الابتسام، فاره القامة، رحب الهيكل، يبدو قويا كشجرة السنديان. في صوته عمق وعرض وطول، وللسانه سحر إذا تكلم يتلاعب فيه بالألباب، والأحاديث وأمجاد الجهاد الإسلامي يطلقها من فمه كالمدفعي الماهر، في أنسب وقت وأنسب مكان، فيكون لها فعل القذائف في معارضيه.

ترى هل يمكن أن تتألف مجموعة من هذه الألوان والخطوط صورة زعيم؟!

على أي صوت تستيقظ مصر هذه المرة؟

من أي باب تهب رياح الفجر الوليد؟

من أي دم تكتب مصر - عندما تفيق - صفحتها المجيدة الجديدة في تاريخها الحديث؟ يقولون: إن علم هذا عند الله، وعند جماعة الإخوان المسلمين، فمن هم الإخوان المسلمون؟

هؤلاء الذين يزعم الرواة: أنهم وراء كل مظاهرة، وكل حركة إضراب، وأنهم القوة المحركة الدافعة لهذه الفورة الجديدة التي توجه الشعور الوطني هذه الأيام، وأنهم استطاعوا في يوم واحد: أن يوزعوا مائة ألف شارة من شارات الجلاء، وأن يعلقوها على صدور مائة ألف مصري رشيد.

من هم هؤلاء الإخوان؟

مدرس خط، ومع ذلك فإن خطه - بشهادته هو نفسه - ليس جميلا، بل ولا مقروءا. وزعيم لمليون من المصريين، ولكنه - بشهادته هو أيضا - ليس زعيما وإنما هو مدرس فقط؛ ولعل هذا هو مصدر لقبه الرسمي وهو «المرشد العام».

أما الإخوان «أعني الجمعية نفسها» فهي شعار مكون من سيفين متقاطعين بينهما مصحف كتبوا تحته كلمة «وأعدوا».

ثم المرشد العام: ذلك الرجل الملتحي ذو العينين البراقتين، والصوت الحازم القوي المكين، وليس هناك بعد ذلك إلا مليون رجل فقط على استعداد لبذل آخر قطرة من دمائهم عندما يأمر بذلك المرشد العام.

وهذا هو كل شيء.

سألت الأستاذ حسن البنا المرشد العام عن السيفين فقال:

هما رمز الجهاد.

والمصحف؟

دستوره.

قلت: والكلمة المكتوبة بين السيفين: «وأعدوا»؟

قال: هي الكلمة الأولى من الآية الكريمة:
﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

ولم نستطع أن نكمل الحديث، لأن خمسة آلاف من أنصاره جاءوا يتلقون تعليماته بعد حوادث يوم الجلاء.

ويظهر أن ميزة الرجل الكبرى هي أنه يعرف كيف يخاطب الناس وكيف يلهب شعورهم.

والذي يسمعه وهو يقول لهم: «اسمعوا يا خير أمة أخرجت للناس»، أو يناديهم: «اسمعوا يا جند محمد، ويا جيش الخلاص، ويا كتائب الإنقاذ، ويا رهبان الليل وفرسان النهار». الذي يسمعه وهو يقول هذا، ثم يسمعهم يجيبون عليه بدوي كهزيم الرعد: «الله أكبر، الله أكبر، وللمؤمنين النصر»، يدرك فورا أن هذا الرجل أوتي قدرة خارقة على فهم نفسية الجماهير، وكيف يلهب مشاعر الجماهير.

وتسمع الشيخ بعد هذا يحدثهم عما يجري أخيرا فيقول: إنه يأسف؛ لأنه كان يريدها مظاهرة سلمية؛ لا لأنه يعتقد أن حقوق مصر تنال بالمظاهرات السلمية

فقط، ولكن لأنه يرى أن الوقت لبذل الدم لم يحن بعد، وأن كل القوة وكل البأس يجب أن يدخر ليوم الدم. ولكنه مع أسفه لهذه الحوادث يؤمن بأن هذه هي إرادة الله وما يريد الله إلا الخير للعباد.

وتسمع بعد ذلك هزيم الرعد «الله أكبر ولله الحمد». ويسكته المرشد فترة، ثم يقول:

والآن يا شباب انصرفوا إلى أعمالكم، وسوف تصلكم تعليماتي بالطريقة المعتادة، أيها الإخوة الأعزاء الفضلاء.

وفي دقيقة واحدة ينصرف خمسة الآلاف ويعود إلينا حسن البنا يتخذ مجلسه بيننا كأنما لم يحدث شيء. وكأنه لم يكن منذ لحظة يلعب بعواطف خمسة آلاف، من رهبان الليل وفرسان النهار.

وتحدث إلينا بعد عودته، فقال:

لا أستطيع أن أحدد متى وكيف نشأت الدعوة؛ فهناك أفكار تنشأ مع الإنسان يوم ينشأ. على أنها برزت عقب تخرجي من دار العلوم في شعبتين: إحداهما في الإسماعيلية حيث كنت أقيم، والأخرى في شبراخيت.

قلت: وكم عدد الشعب المنتمية للجمعية الآن؟

قال: في مصر ألف وخمسمائة شعبة تضم مليونا من الإخوان، ولنا شعب أخرى في الشرق كله تجعل منا مليونا ونصف مليون من الإخوان العاملين؛ عدا الإخوان المناصرين وهم كثيرون؛ يؤمنون جميعا مثلنا أنه يجب أن تكون لنا فلسفة روحية مستمدة من تعاليم الإسلام السمحة الغراء.

قلت: ولكنكم دون شك تحولتم في السنوات الأخيرة إلى ناحية النشاط السياسي!

قال: النشاط الوطني تقصد، فما لنا بالسياسة علاقة. ولقد حرصنا دائما على

ألا نحتك بالأحزاب ولا بالهيئات، فلما نشبت الحرب حرصوا هم على أن يحتكوا بنا، وتولدت من الاحتكاك «الشرارة» التي لفتت إلينا الأنظار.

قلت: هل تشترك في الانتخابات إذا أجريت انتخابات قريبة؟

قال: نعم.

وهل تضمن النجاح؟

أستطيع في انتخابات حرة أن أحصل على أغلبية ساحقة. هذا لو أنني أردت ذلك ولكنني في الواقع لا أريده، فمكاننا في صفوف الشعب أكثر منه في صفوف الحكام؛ ولهذا لن نتقدم إلا في عدد صغير من الدوائر.

قلت: هل معنى هذا أنك لا تقبل رئاسة الوزارة إذا عرضت عليك؟

قال: بل أقبل، والحكم ليس متعة وإنما هو جهاد. فأنا إن قبلته فإني أقول للإنجليز: إما أن يتم الجلاء، وإما (وهذه أقولها للمصريين) «أيتها الأمة جاهدي فالجهاد هو سبيلك الوحيد». لقد سألت النقراشي باشا يوما أن يطالب بالجلاء صراحة، فإن ماطل الإنجليز فلا يستقيل، وإنما ينتضي السيف ويقود الأمة في ميدان الجهاد.

قلت: وهل كنت تتعاون معه؟

قال: أنا وراء كل رئيس وزراء يدعو إلى الجهاد. انتهى.

مصطفى مؤمن:

وكان للطلاب والشباب دورهم المتميز والمؤثر في تجلية القضية الوطنية، وكشف الغبار عن وجهها، وإبرازها جلية سافرة لأبناء الوطن جميعا.

تجلى ذلك في طلاب المعاهد والمدارس الثانوية والابتدائية في أنحاء مصر، من الإسكندرية إلى أسوان. كما تجلى ذلك في طلاب الجامعة المصرية (جامعة فؤاد الأول) وهي الجامعة الوحيدة في مصر في ذلك الحين.

وكنا نتابع - ونحن في الأقاليم - ما يجري من الأحداث في القاهرة، وبين طلبة الجامعة خاصة، وكان رأس طلبة الجامعة، ولسانهم الناطق باسمهم، والمعبر عن إرادتهم، هو الطالب «مصطفى مؤمن» الطالب بكلية الهندسة. وهو خطيب سياسي مؤثر يسحر الطلاب ببيانه إذا خطب فيهم، ويشدهم إليه شداً.

وقد زار مصطفى مؤمن عددا من عواصم الأقاليم، للإسهام في تجنيد الطلبة للقضية الوطنية، وكان من العواصم التي زارها مدينة طنطا.

وقد احتفت به طنطا، واحتشد له جمع كبير من الشباب وغير الشباب، وأقيم له سرادق كبير، تكلم فيه أكثر من واحد، منهم الطالب محمود دبُّور بالمدرسة الثانوية. كما ألقيت في هذا الحفل قصيدة وطنية، حييت فيها زعيم طلبة مصر مصطفى مؤمن، وقد ضاعت هذه القصيدة فيما ضاع من شعري القديم، ولا أذكر منها إلا أبياتا تتعلق بمصطفى مؤمن، أقول فيها:

حييت فيه لحية سُنِّيَّة
أضفت عليه مهابة الحكماء
سوداء من شرخ الشباب كأنها
حظ اليهود الغُبْر يوم لقاء
الشعر مزدحم بها، فكأنها
حكم، وذاك تزاحم الزعماء!

ثم كان مسك ختام الحفل كلمة الشاب الثائر المتوقد مصطفى مؤمن، الذي شرح قضية مصر بأسلوبه الخاص، الذي عبأ المشاعر حولها، وختم كلمته ببيتين من الشعر:

يا للرجال، أما من غضبة عمم
تشفي الصدور؟ وطغيان بطغيان

فحطموا القيد عن أيديكمو وثبوا

فالموت والعيش تحت القيد سيان!

ولم يقصر مصطفى مؤمن جهده على داخل مصر، بل سافر بعد ذلك إلى أمريكا لحضور جلسة مجلس الأمن، مجتهدا أن يسمع المجلس صوت الشعب المصري. وإن كان هناك وفد رسمي مصري برئاسة رئيس الحكومة محمود فهمي النقراشي باشا.

جهود الإخوان في القضية الوطنية:

ظللنا فترة مديدة من الزمن، والقضية الوطنية شغلنا الشاغل، وهمنا الأول، نبذل لها الجهود، ونحشد لها الحشود، ونجند لها قوى الأمة.

وأذكر أن مما ساهمت به في تلك الفترة ـ بجوار الخطب الثورية، وقيادة مظاهرات الطلاب ـ عددا من القصائد ألقيتها في دار الإخوان، أو في المعهد على الطلبة.

وقد ضاعت هذه القصائد فيما ضاع من شعري، ولكني أذكر أبياتا من قصيدة ميمية كان مطلعها:

غنَّى فأشجى السامعين وهاموا

ليت المغنِّي نائح لطام

وفيها أبيات تخاطب الإنجليز ساخرة:

يَأيها الأضياف! لا أهلا ولا

سهلا، ولا ترحيب لا إكرام

الضيف إن تمْرُرْ عليه صبائح

يثقلْ، وقد مرت لكم أعوام

غصت مساكننا بجندكمو، كما
غصت قطارات وغص ترام

وغذت بطونكمو غلالُ بلادنا
وبنو البلاد من الطوى قد صاموا

وغدت مصانعنا تحوك للبسكم
والعري فينا قاعد قوّام

إن القِرى إن لم يكن بسماحة
فالسمن سم، والحَمام حِمَام!

وكان من «المشروعات المتخاذلة» التي جاهد الإخوان لإسقاطها «مشروع صدقي بيفن» الذي روج له رئيس الوزراء المشهور، والمعزول عن عواطف الشعب المصري من قديم، لما اشتهر عنه من استبداد وجبروت: إسماعيل صدقي باشا. وبيفن هو وزير خارجية بريطانيا في ذلك الوقت.

وقد أمهل الإخوان صدقي في أول الأمر، حتى ينظروا حصيلة ما عنده، ثم تمخض الجبل فولد فأرا، وربما «صرصورا»! فكان هذا المشروع الذي لا يحرر مصر تماما من ربقة الإنجليز، وقاومه الإخوان بوضوح وشراسة. وقد خرجنا في مظاهرات، برغم منع المظاهرات في عهده، ولكن الإخوان رتبوا في أكثر من بلد مظاهرات خرجت في الليل بعد صلاة العشاء. وفي مدينة طنطا، انطلقت من أكثر من مكان لتلتقي في مكان معين في مسيرة حاشدة، اصطدمت مع رجال الشرطة، وقبض على عدد من المتظاهرين، وأودعوا أقسام الشرطة، وكاد يلقى القبض علي، ولكن الله سلم.

وما زالت هذه المعارضة الشعبية من الإخوان ومن الأحزاب الأخرى، حتى سقط «مشروع صدقي ـ بيفن» صريعا لليدين وللفم، وسقطت حكومة صدقي بعده.

قضية فلسطين:

كانت قضية فلسطين طيلة المرحلة الثانوية قضية مهمة وحية وساخنة في نفوسنا.

وكان «الإسلاميون» أكثر اهتماما بها من «الوطنيين». فكثير من الوطنيين لم يكونوا يدركون بوضوح خطورة المشروع الصهيوني على المنطقة، حتى لقد سئل أحد رؤساء الحكومات في مصر يوما عن شيء يتعلق بفلسطين، فكان رده المؤسف: أنا رئيس وزراء مصر، لا رئيس وزراء فلسطين. وإن كان مما يذكر للنحاس باشا تصريحه الشهير: إن مصر لا تستطيع أن تغض الطرف عما يجرى في حدودها الشمالية الشرقية من أحداث! ولكن هذا التصريح لم يعقبه عمل.

ولا عجب أن كنا نُسَيِّر من أجلها المظاهرات، وتدوي الهتافات، ونلقي الخطب النارية، وننشئ القصائد الثورية، ونثير الطلاب والجماهير، لتهتف لفلسطين، وكنا ننتهز فرصة ذكرى وعد «بلفور» وغيرها لإحياء القضية.

كان الإسلاميون هم الذين يعون تماما الخطر اليهودي وأطماعه وأهدافه في المنطقة العربية، والإسلامية. وكان في مقدمة هؤلاء الإسلاميين الوعاة لهذا الخطر وأبعاده: الشيخ حسن البنا، الذي كان يتابع من قديم ما يجري على الأرض المقدسة من أحداث، وما يخطط لها من مكايد، وما يقوم به أهلها من ثورات، وما يبذلونه من أرواح.

وكان أهم ما يقوم به حسن البنا وأمثاله من رجال الأمة ودعاتها: مقاومة موجة الغفلة التي غشيت الأمة، وموجة الاتهام والتخوين لأهل فلسطين، الذين أشاعوا عنهم زورا بأنهم باعوا أرضهم لليهود، وأنهم تقاعسوا عن الجهاد، وهذه أكاذيب نفّقها اليهود والمستعمرون. فالواقع أن الذي بيع من أرض فلسطين لا يتجاوز ٢٪ منها، وكان الذين باعوها من الأجانب ومن غير المسلمين، كما أن أهل فلسطين قاوموا المشروع الصهيوني بكل ما في وسعهم، ولكن الانتداب البريطاني على

فلسطين كان يقف في سبيلهم، ويمنعهم من امتلاك أي سلاح يدافعون به عن أنفسهم، على حين يتيح لليهود كل أسباب القوة، بل العداون. وثار أبناء فلسطين ثورات شعبية هائلة مثل ثورة «البراق» التي سقط فيها أكثر من ثلاثمائة شهيد، وكانت هذه الثورات بقيادة أبطال تاريخيين: عز الدين القسام وأمثاله سنة ١٩٢٩م، وسنة ١٩٣٦م. وكادت هذه الثورات تقضي على المشروع الصهيوني في مهده، لولا كيد الإنجليز واستعانتهم بزعماء العرب لإيقاف الثورة وفض الإضراب!!

والعجيب أن السياسة الاستعمارية والصهيونية التي استجاب لها العرب وقادتهم في ذلك الزمان: أن يعزل الشعب الفلسطيني عن قضيته، ويبعد عن ممارسة حقه في الدفاع عن أرضه ومقدساته، على خلاف السياسة المتبعة اليوم، والتي توحي بها بل تفرضها القوى المعادية للإسلام والعروبة، وهي ترك القضية للفلسطينيين وحدهم، بعد أن تحولت «إسرائيل» إلى أخطبوط في المنطقة، وإلى ترسانة عسكرية ضخمة، وهذا في الوقت الذي ترى فيه إسرائيل كل يهودي في العالم مسئولا عنها.

كان حسن البنا على وعي كامل بهذه الحقائق كلها، ويجتهد أن يشيعها بين الناس، وأن يزيح عن الأعين الغشاوات حتى ترى، ويزيل الوقر من الآذان حتى تسمع.

وكان له علاقة برجال فلسطين، وعلى رأسهم المجاهد الكبير الحاج أمين الحسيني.

وكان يجند مجلته «النذير» ثم «الإخوان» لإيقاظ الأمة نحو القضية وتطوراتها، وينتهز فرصة ذكرى الإسراء والمعراج، ليذكر بـ «المسجد الأقصى» كما يتخذ من «٢ من نوفمبر» ذكرى وعد «بلفور» لتعبئة الأمة ضد هذا الوعد الذي صدر ممن لا يملك لمن لا يستحق. والذي علق عليه الحاج أمين بقوله: إن فلسطين ليست وطنا بغير شعب حتى تستقبل شعبا بغير وطن!

وفي سنة ١٩٣٦م، أصدر حسن البنا عددا خاصا من مجلة «النذير» عن ثورة فلسطين، وكتب فيه مقالا عن «صناعة الموت» يحرض الأمة فيه على الجهاد، والاستعداد للموت في سبيل الله، فمن حرص على الموت وهبت له الحياة.

وفي سنة ١٩٤٦م، أرسل العالم الداعية الشيخ عبد المعز عبد الستار، ليطوف بمدن فلسطين مشرِّقا ومغرِّبا، لتنبيه العقول، وإحياء القلوب، وإشعال المشاعر، وتجميع الصفوف. وقد بقي الشيخ عبد المعز ـ كما سمعت منه ـ شهرين كاملين في فلسطين، ولكنه عاد من هناك يحمل همّا كبيرا، ويشفق على مصير فلسطين. فحينما زار المسجد الأقصى لم يجد فيه غير صفين أو ثلاثة، فآلمه ذلك أشد الإيلام، ولما قال لبعض المقدسيين ذلك، قال له: صحيح أن الصلاة ثقيلة عليهم، ولكن إذا ناديتهم إلى المعركة لبوا النداء في سرعة البرق. وقال لهم الشيخ: إن أول الجهاد أن نجاهد أنفسنا، وأن ننتصر عليها. والله تعالى يقول: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ١٥٣).

ومما لاحظه الشيخ أن القادة كلهم غائبون، الحاج أمين الحسيني منفي في الخارج، والآخرون متفرقون.

كما لاحظ أن اليهود يعملون ليل نهار، وفي غاية من اليقظة والاستعداد، والعرب ليسوا على هذا المستوى، ولهذا حين عاد إلى مصر قال للأستاذ البنا: الحقيقة أن دولة اليهود قائمة بالفعل، ولا ينقصها إلا الإعلان عنها!!

وفي سنة ١٩٤٧ بدأ الاستعداد بتهيئة الإخوان لمعركة قادمة لا ريب فيها، ولاسيما بعد رفض قرار التقسيم، وبعد استفحال أمر العصابات الصهيونية التي تعمل بدهاء وتخطيط ومكر، في حماية الانتداب البريطاني، الذي فسح المجال للهجرات الجماعية لليهود من روسيا ومن أنحاء أوربا ـ وخصوصا الشرقية ـ وأمريكا وغيرها، ليبنوا مستعمراتهم في سائر أرض فلسطين، ومكنهم من أن يسلحوا أنفسهم، في حين حرم على أهل البلاد من حمل أي سلاح، ولو كان قطعة صغيرة.

وجاءت سنة ١٩٤٨م والقدْر تزداد غليانا، ومعسكرات التدريب تستقبل الشباب ليوم معدود، وكان كَثير منا متحمسين لخوض المعركة ضد اليهود، ولكن قرار «مكتب الإرشاد» بالقاهرة ألا يشارك طلاب الثانوي في الجهاد، ويكتفى بطلاب الجامعة وغيرهم من أبناء الشعب.

وكنا نحن دعاة الإخوان نطوف المدن والقرى، نحرض على الجهاد بالنفس وبالمال، وأحيانا نركز على المال لشدة الحاجة إليه لشراء السلاح لإخواننا في فلسطين، ونجمع لهم السلاح إن وجدناه، ونعبئ مشاعر الأمة وأفكارها، لتستعد لمعركة آتية عن قريب، مع بني صهيون، الذين زرعهم الغرب في المنطقة، ولا يزال يساندهم ويؤيدهم عسكريا واقتصاديا وسياسيا.

وقد تجلى ذلك للعيان، حين أعلن قيام الكيان الصهيوني العداوني الذي سمي «إسرائيل»، فاعترفت أمريكا بها في الحال، وبعدها بريطانيا وفرنسا وروسيا وغيرها، وأعلن الجميع أنها خلقت لتبقى.

عبد الوهاب البتانوني:

وهنا أذكر قصة زميلي وأخي وحبيبي عبد الوهاب البتانوني، الذي كان ينام ويصحو على الجهاد في فلسطين، كأنما هو قيس، وهي ليلاه. وكان عليه أن يتخطى العقبات في سبيل تحقيق رغبته المنشودة.

كان عبد الوهاب شابا تقيا نقيا، صافي الروح صفاء البللور، يحلق في الأجواء الروحية، يكاد يطير بلا جناح. وكان أستاذنا البهي الخولي يقول: كلما رأيت عبد الوهاب لحظت دم الشهادة يترقرق في وجهه. وكان يقول عنه: سيدي عبد الوهاب البتانوني.

كان أمام عبد الوهاب لتحقيق رغبته في الجهاد بفلسطين عقبتان:

أولاهما: رضا أمه، فهي حريصة عليه، وضنينة بحياته، فقد مات أبوه وخلفه يتيما، هو وشقيقه، وأصبح أمانة في عنقها، فكيف تضحي به؟

ووسَّطَنا عبدُ الوهاب، للذهاب إلى والدته، لنحاول إقناعها بذهابه إلى فلسطين. وذهبت أنا وأخي أحمد العسال، وأخي محمد الصفطاوي إلى قريته (كفر هورين) مركز السنطة، وحدثناها عن أمهات المجاهدين الأبطال في التاريخ الإسلامي، وعن شوق عبد الوهاب للجهاد، وذكرناها بأن الجهاد لا يقدم أجل الإنسان عن موعده، وأن من لم يمت بالسيف مات بغيره، وأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.. إلى آخر هذه المعاني، التي لم تملك الأم الحنون معها إلا أن تقول: ما دامت هذه رغبة عبد الوهاب، فلن أقف في وجهه، وأسلم الأمر لله، وأدعو الله أن ينصره وإخوانه ويردهم سالمين غانمين.

واستبشر عبد الوهاب وانفرجت أساريره، وقبل رأس أمه ويدها، وطلب منها أن تدعو له باستمرار.

بقيت «العقبة الثانية» وهي قرار مكتب الإرشاد بعدم السماح لطلبة الثانوي بالسفر للقتال في فلسطين، إلا باستثناء من المرشد العام. فكان لا بد من رحلة إلى القاهرة، لمقابلة المرشد العام لاستثناء عبد الوهاب، وسافرنا نحن الثلاثة: العسال والصفطاوي وأنا، واستطعنا أن نحصل على استثناء من المرشد.

ورجعنا لنبشر عبد الوهاب، وهو لا تكاد تسعه الدنيا من الفرحة. لقد تحققت أمنيته في الذهاب إلى أرض الإسراء والمعراج، أرض أولى القبلتين، وثالث المسجدين العظيمين في الإسلام، ليقاتل أعداء الله، وقتلة الأنبياء: اليهود، الذين اغتصبوا الأرض، وانتهكوا العرض. وودعناه في يوم مشهود مع عدد من إخوانه المتطوعين من طنطا، وقد ركبوا القطار إلى القاهرة، ومن هناك يرحّلون إلى أرض الجهاد، مع إخوانهم من القاهرة والمديريات الأخرى. وكان لقاء الوداع.

وقد أرسل إلي خطابا من أرض الجهاد يقطر حبا ومودة وحنينا إلى النصر، وقد ظللت محتفظا به مدة من الزمن، ثم ضاع فيما ضاع من أوراق في محن الإخوان.

وقدر الله لعبد الوهاب أن يحقق له الشهاده مع اثنين من إخوانه، طاردهم اليهود حتى لجأوا إلى مصنع للسلاح، للاختباء فيه، ويظهر أنهم رأوا أنهم مقتولون لا محالة، وأن أفضل طريقة: أن يفجروا المصنع على من فيه وما فيه، وإن ضحوا بأنفسهم في سبيل ذلك. وقد أشار إلى ذلك الأستاذ كامل الشريف في كتابه «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين» وقد كان هو أحد القادة في هذه الحرب. كما فصَّل ذلك الأخ يحيى عبد الحليم فيما كتبه عن «معركة عصلوج».

وتحقق ما قاله الشيخ البهي: كلما رأيت عبد الوهاب، رأيت دم الشهادة يترقرق في وجهه. رحمه الله ورضي عنه، وجعله شفيعا لأهله ولنا معهم.

حسن الطويل:

ومما أذكره من قصص الجهاد من أبناء مصر الأتقياء الأنقياء: قصة أخرى، لا تقل روعة عن قصة عبد الوهاب، وهي ليست لطالب، ولكن لفلاح.

إنها قصة حسن الطويل، أحد الإخوان الفلاحين من إحدى قرى مركز «بسيون» أظن اسمها «كفر الحمر» وقد كان حسن من المتحمسين لقتال الصهاينة، تحمس عبد الوهاب البتانوني، ولكنه كان يصر على أن يذهب بنفسه وسلاحه للقتال، وكان يملك جاموسة تُعَدُّ بمثابة رأس ماله، فباعها، واشترى بها بندقية آلية حديثة. وجاء إلى رئيس منطقته في بسيون الحاج أحمد البسِّ، ليسلم نفسه وسلاحه. فقال له الحاج أحمد: كان يكفيك يا حسن أن تجاهد بنفسك، ويجاهد غيرك بماله، وتدع الجاموسة للأولاد.

قال له: يا حاج أحمد، ألم تعلمونا أن الله تعالى قال: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٤١)، وأن أربح تجارة في الدنيا والآخرة هي الجهاد بالمال والنفس ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ (الصف: ١١)؟

قال: بلى.

قال: هل قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ .... بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ أو قال: ﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة: ١١١).

قال الحاج أحمد: بل قال ﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾.

قال: وأنا أريد أن أسلم الثمن كاملا، حتى أستحق الجنة.

ولم يستشهد حسن الطويل، كما استشهد البتنانوني، ولكن جزاءه كان المعتقل مع أمثاله من المجاهدين.

هذه نماذج من الذين «استجابوا» للجهاد في فلسطين، ولا أقول: «تطوعوا»، فقد كانت نصرة إخوانهم فريضة، ومقاومة الخطر الصهيوني فريضة، والدفاع عن أرض الإسلام فريضة. فلا ينبغي أن نطلق على هذا لفظ «التطوع» إلا من باب التسامح والتساهل في التعبير.

قضية فلسطين السبب الأول في محنة الإخوان:

وقد كان دور الإخوان في قضية فلسطين، على الصعيد الدعوي، وعلى الصعيد السياسي، وعلى الصعيد العسكري: دورا مزعجا للقوى الاستعمارية المساندة للصهيونية، ورأوا في وجود هذه الجماعة واستمرار نشاطها خطرا على المشروع الصهيوني الوليد، والذي يراد له أن يهيمن على المنطقة ويؤثر فيها، ثقافيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا. فلا غرو، أن اجتمع سفراء بريطانيا وأمريكا وفرنسا في «معسكر فايد» وهو من معسكرات الاحتلال البريطاني في منطقة «قناة السويس» وطلبوا من رئيس الحكومة المصرية حينئذ محمود فهمي النقراشي باشا الإسراع بحل «الإخوان المسلمين». وهذا ثابت بالوثائق الرسمية، التي كانت سرية، ثم كشفت بعد مرور ثلاثين سنة.

وسرعان ما استجابت حكومة النقراشي لمطالب القوى الاستعمارية أو الاستكبارية، وصدر قرار حل الإخوان في ٨ من ديسمبر سنة ١٩٤٨م، معللا بتعليلات أخرى تضمنتها مذكرة وكيل وزارة الداخلية عبد الرحمن عمار، التي رد عليها الإمام البنا، ردا مفصلا، وإن كان لم يتح له أن ينشر في حينه.

لقد كان هم القوى التي خلقت الكيان الصهيوني المغتصب الذي سموه «إسرائيل» والتي شدت أزره من أول يوم، وإلى الآن: أن تختفي جماعة الإخوان - وهي العقبة الكئود ضد الصهيونية - من الساحة، وألا يمر جهادهم وكفاحهم للعدو الغاصب دون عقاب يردعهم، ويخيفهم ومن يؤيدهم في المستقبل، حتى يلزموا بيوتهم، ويعيش كل منهم لأمر نفسه.

وكانت هذه العقوبة هي الاعتقال والمصادرة والتشريد والتنكيل على كل مستوى، حتى أُخذ الشباب المجاهدون من الميدان بلبسهم العسكري إلى المعتقل، إرضاء للسادة الذين تُعَدُّ إشارتهم حكما، وطاعتهم غنما.

ولنا في المرحلة القادمة عودة إلى هذا الموضوع بإيضاح وتفصيل.

بطولات الإخوان في فلسطين:

ومما سجله التاريخ بحروف من نور: مواقف «المتطوعين» من الإخوان في حرب فلسطين. وقد أشرنا إلى شيء من ذلك في حديثنا عن صديقنا الطالب الشهيد عبد الوهاب البتانوني، وعن أخينا الفلاح حسن الطويل.

ذهب «المتطوعون» كما سموهم باختيارهم، مؤدين حق الإسلام وحق الجهاد عليهم، متاجرين مع الله في أربح صفقة، بائعين أرواحهم لله تعالى.

ولقد دخلت جيوش الدول العربية السبع، التي كانت تتكون منها الجامعة العربية إلى فلسطين، وهي لا تدري تماما الهدف من دخولها! ومع كل جيش منها، مشكلة: هذا على رأسه قائد إنكليزي، وهذا يحارب بأسلحة فاسدة كما

قيل، وهذا ليس عنده أوامر، ولم يكن ضباط هذه الجيوش أحرارا في اتخاذ قرارهم، حتى قال بعض قادة الجيش المصري: إني لا أخاف من «شرتوك»[1] تل أبيب، بقدر ما أخاف من «شراتيك» القاهرة! ومعنى هذا أن كثيرا من الضباط الكبار في الجيش المصري، لم يكونوا على دين السياسيين والزعماء المستسلمين، وكان لبعضهم دور مشكور، مثل اللواء المواوي، واللواء صادق، وسيد طه، الملقب بالضبع الأسود.

ومما شكا منه المخلصون الواعون: أن الجيوش العربية لم يكن بينها أي قدر من التنسيق، ناهيك بالتعاون والتضامن.

على أي حال لم تستطع جيوش الدول الرسمية أن تقاوم عصابات بني صهيون. وحوصر الجيش المصري في «الفالوجا» وكان فيه جمال عبد الناصر وبعض الضباط الأحرار.

وأسر بعض الضباط المصريين، ومنهم الرائد (الصاغ) معروف الحضري. وكان الذين قاموا بدور ملموس في ذلك الوقت هم المتطوعين الإسلاميين، الذين ضربوا أروع الأمثال في التضحية والفداء والإيثار، سواء منهم من كان تحت قيادة البطل أحمد عبد العزيز، أم تحت قيادات إخوانية مثل كامل الشريف وغيره من قادة الإخوان.

لقد وضع هؤلاء الشباب الأبطال رءوسهم على أكفهم، ولم يبالوا أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم، فهم لا يهابون الموت، بل يسعون إليه، وإنما هي إحدى الحسنيين: النصر أم الشهادة في سبيل الله؟ وهل هناك درجة أعلى من الشهادة في سبيل الله؟

على أنهم يؤمنون أن الأعمار أيام معدودة، وأنفاس محدودة، وأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، وأن لكل إنسان أجلا مسمى، وأن من لم يمت بالسيف مات بغيره،

---

(١) موسى شرتوك وزير خارجية إسرائيل في ذلك الوقت.

وأن الموت في سبيل الله هو عين الحياة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ (آل عمران: ١٦٩).

حتى لقد قال أحد القادة البريطانيين في أول معركة دخل فيها هؤلاء، واستشهد فيها اثنا عشر من شباب الإسلام، كان بينهم بعض طلاب الأزهر من شبين الكوم مثل صديقنا حلمي جبريل وإخوانه، قال هذا القائد: لو كان معي ثلاثة آلاف من هؤلاء لفتحت بهم الفتوح.

ولقد حكى الأستاذ كامل الشريف في كتابه التاريخي «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين» صورا رائعة، لبطولات فارعة لهؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى. حتى إنه كان إذا أراد واحدا أو اثنين أو ثلاثة لمهمة عسكرية خطيرة، تقدم إليه العشرات، يتسابقون أيهم يقوم بالمهمة، فلا يفصل بينهم إلا القرعة.

ولقد كان أحدهم يصاب في المعركة، فيفقد ساقه أو ذراعه، فينظر إلى العضو المصاب وهو ينشد ما أنشده الصحابي الأول:

ولست أبالي حين أقتل مسلما

على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ

يبارك على أوصال شلو ممزع

ولقد قال بعض ضباط اليهود للرائد معروف الحضري، وهو أسير لديهم: نحن لا نخاف من الجيوش العربية، ولكننا حقيقة نخاف من جماعة «الله أكبر»، أي من شباب المتطوعين. قال لهم: وما الذي يخيفكم منهم وهم قليلو الخبرة بالأمور العسكرية، وسلاحهم متواضع؟ قال له: نحن لا نخاف من سلاحهم ولا من تدريبهم، ولكنا نخافهم لأمر مهم، هو أننا ـ نحن اليهود ـ جئنا من أقطار شتى إلى

هذه الأرض لنعيش، وهؤلاء جاءوا من أقطارهم إليها ليموتوا، فكيف نواجه أمثال هؤلاء؟!

قيام دولة الكيان الصهيوني إسرائيل أخطر أحداث القرن:

كان من أعظم أحداث القرن العشرين خطرا، وأبعدها أثرا: قيام دولة الكيان الصهيوني العدواني المغتصب التي سموها «إسرائيل» وذلك في ١٥ من مايو سنة ١٩٤٨م، وهي الدولة التي خطط لها «هرتزل» وجماعته، وعقدوا لها مؤتمر «بازل» سنة ١٨٩٧م. وأعلن فيه أن الدولة اليهودية ستقوم بعد خمسين سنة.

كان هذا حصاد غرس مر طويل، عمل فيه اليهود بمساندة الاستعمار الغربي، عقودا مديدة من الزمن، وقاوم الفلسطينيون ما وسعتهم المقاومة، ولكن المؤامرة كانت أكبر من طاقتهم ومن إمكاناتهم المحدودة، وقد كان العرب والمسلمون في غفلة لاهية عما يجري. وكان من مكر اليهود أن كادوا كيدهم لتحطيم القلعة الإسلامية التاريخية التي كانت تصون وحدة المسلمين، وتعبر عن أمتهم، وهي «الخلافة الإسلامية» التي رفض آخر خلفائها: السلطان عبد الحميد مطالب هرتزل وجماعته، برغم ملايين الليرات الذهبية لخزانة الدولة، ولخزانته الخاصة.

وكان ضياع الخلافة هو الخطوة الأولى لضياع فلسطين. أجل، لو كان للمسلمين خليفة مطاع مسموع الكلمة، لأصدر نداء عاما للأمة المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها: أن يهبوا لإنقاذ أولى القبلتين، وأرض الإسراء والمعراج، وألا يمكنوا شذاذ الآفاق من اليهود من الاستيلاء عليها، وأن ينفروا خفافا وثقالا، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. وكان المفروض أن يهب المسلمون عن بكرة أبيهم، لإنقاذ أرضهم، ومقدساتهم، وطرد عدوهم، ونجدة إخوانهم.

لم يكن قيام دولة الاغتصاب الصهيوني نكبة للفلسطينيين وحدهم، بل كان نكبة للأمة الإسلامية كلها، عربهم وعجمهم، كما كان نكبة للعرب جميعا: مسلمهم ومسيحيهم.

وقد ظل الإعلام العربي ممثلا في صحفه وإذاعاته لا يذكر كلمة «إسرائيل» إلا ويلحقها بوصف «المزعومة» وذلك لعدة سنوات، ثم خجلنا من أنفسنا بعد أن أصبحت هذه المزعومة تعيث فسادا في المنطقة العربية، ولا نجد من يردها أو يؤدبها، فهي تصفع هذه الجهة، وتركل تلك، ونكتفي نحن بالشجب والاستنكار، والشكوى لمجلس الأمن، حتى بلغت شكاوينا عند مجلس الأمن آلافا، عند ذلك تركنا كلمة «المزعومة» بعد أن أوشكنا أن نكون نحن المزعومين!

الصراع مع حزب الوفد:

وشهدت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ظهور الإخوان قوة شعبية مؤثرة، وقيادتهم للتيار الوطني باسم الإسلام، كما برز ذلك في الأزهر وجامعته ومعاهده والجامعة المصرية والمدارس الثانوية. وكان ذلك مما أدخل جماعة الإخوان في صراع مع حزب الوفد، وهو كره لها.

فقد كان الوفد هو القوة الشعبية الأولى والكبرى على الساحة السياسية، حتى برز الإخوان، قوة فتية متوثبة، يقودها شباب متوثب. وكان الوفد هو البادئ بالاحتكاك دائما أو غالبا، وكان يملك من القدرات المادية والأدبية، نتيجة سيطرته على حكم مصر مرات عدة، ما لا يملك الإخوان، التي يناصرها أبناء الطبقة الوسطى والدنيا، لا الطبقة العليا التي منها البكوات والباشوات والإقطاعيون والرأسماليون مثل حزب الوفد.

وكانت تعليمات الأستاذ البنا لإخوانه وأبنائه تشدد على الالتزام بالصبر والمصابرة، والتعامل بالحسنى، والفرار من المواجهة والصراع ما أمكن ذلك، مؤكدا أن المستقبل للإخوان، ولدعوتهم، وأن هذه الأحزاب كلها إلى زوال ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾ (الرعد: ١٧).

ولكن الوفد دائم الحملة على الإخوان في صحفه، وفي اجتماعاته، وهو يحرِّش أتباعه للاصطدام بالإخوان، واستفزازهم وجرهم إلى معارك لا لزوم لها،

ولا فائدة منها إلا تفريق الصف، وغرس الأحقاد، في حين تحتاج الأمة إلى تجميع قواها، وتوحيد صفوفها، في مواجهة المحتل المستكبر الجبار.

وكان الطلبة الوفديون في طنطا، في المعهد الديني وفي المدرسة الثانوية يعملون على استفزاز الإخوان، ولكن شباب الإخوان - وفق التعليمات - يتجنبون الدخول في معارك معهم، فليسوا هم العدو، إنما العدو هم الإنكليز.

إلا أن هذا التحفظ من الإخوان لم يغن شيئا، وحدث الصدام في بعض البلاد، ومنها: شبين الكوم، التي قتل الوفديون فيها طالبا من طلاب الإخوان - ولا أذكر كيف تم القتل - وهو الطالب صادق سعد مرعي، الذي كان لقتله ضجة كبيرة، وثورة عارمة في نفوس الإخوان، وقد قلت قصيدة في رثائه، نشرتها جريدة «الإخوان اليومية»، لا أذكر إلا مطلعها:

قــــتلوك شلت كف من قــــتلوك

يا (صــادقــا) لهــمــو، وهم كــذبوك!

وفي اليوم التالي، نشر الشاعر الطالب بمعهد القاهرة الديني عبد الودود شلبي، قصيدة رائعة في رثاء صادق مرعي، نشرت في جريدة الإخوان جاء فيها:

يــا أخــي فـــي الـــلــه مـــا

مـــت ولــكـــن أنــت حــيّ

أيّ وحــش ذلـــك الـــقـــا

تـــل يــــا صـــادق أيّ؟

إنـه الــبــــاطــل، والبــــا

طــــل إجــــرام وغـــيّ

بـل هـي الأحـــزاب يا قـــو

م فـــهـل في مــــصـــر وعي؟

وكانت صحيفة الوفد «صوت الأمة» تتهكم على حسن البنا، وتقول عنه «مدرس الخط»، وتقول: كيف يجترئ مدرس الخط على مخاطبة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا؟

ونشرت صحيفة الإخوان خطابا قديما بعث به حسن البنا إلى النحاس باشا بمناسبة تصريحات أدلى بها إلى بعض الصحف الأجنبية، أبدى فيها إعجابه - بلا تحفظ - بكمال أتاتورك، ونشرت الجريدة هذا الخطاب القديم تحت عنوان «من مدرس الخط إلى رفعة النحاس باشا». وهو خطاب تتجلى فيه الموضوعية وأدب الخطاب، والتنبيه إلى خطورة ما صرح به رفعة الباشا، وبيان حقيقة أتاتورك وموقفه من الإسلام وشريعته وأمته.

وفي آخر كتاب الشيخ البنا ختمه بكلمات تلمس أوتار القلوب، وتهز مشاعر أهل الإيمان حين قال: «وسنستعدي على الباغين: سهام القدر، ودعاء السحر، وكل أشعث أغبر، لو أقسم على الله لأبره».

وما زال الوفد يكيد للإخوان، حتى استطاع أن يؤثر في وكيل الإخوان الأستاذ أحمد السكري، الذي كانت له ميول وفدية معروفة، حتى خرج من الإخوان، وبدأ يهاجمهم بعنف، ويصب جام غضبه على مرشدهم خاصة. وفتحت صحيفة الوفد له أبوابها لينشر بها مقالات في صفحتها الأولى، بعنوان «كيف انزلق الشيخ البنا بدعوة الإخوان المسلمين؟». وكانوا يظنون أن هذه المقالات ستشق الصف الإخواني، وينشق الجم الغفير منهم، ليسير في ركب السكري. والواقع أن السكري خرج من الإخوان كما تخرج الشعرة من العجين، لم تبك عليه عين، ولم ينعه ناع، وإنما ودع بالإشفاق عليه والإعراض عما يكتبه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ (القصص: ٥٥).

لم يتبع السكري إلا بضعة أفراد، لم يأبه بهم أحد، ولم يرفع لهم علم، منهم

أحد طلاب جامعة الأزهر، وقد كان في معهد طنطا: مصطفى نعينع، ويبدو أنه خرج ولم يعد، فلم يسمع له بعد ذلك صوت.

لم يرد الأستاذ البنا على السكري، وإنما كتب له مقالة، يذكر فيها أنه كان يتمنى أن يكون الفراق بينهما بمعروف، وألا ينسوا الفضل بينهم، وأن يبقى الود موصولا، وإن اختلف الطريق، لا أن تستخدم سياسة وخز الإبر، وتسميم الآبار. وأعلن الأستاذ البنا أنه يربأ بنفسه عن أن يدخل في معركة من هذا النوع، وأنها يكل أمره إلى الله، خاتما رسالته بهذه الآية: ﴿**اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ⦗١٥⦘﴾ (الشورى: ١٥).

نشاط دعوي مكثف:

كانت المرحلة الثانوية بالنسبة لي منطلق النشاط الدعوي الإخواني المكثف، فقد كنت أعمل في الإخوان في ميدانين أو قسمين أساسيين: قسم الطلاب، وقسم نشر الدعوة.

وكنت أتحرك في نشر الدعوة على مستوى مديرية الغربية. وكانت الغربية في ذلك الوقت تشمل كل ما يسمى اليوم «محافظة كفر الشيخ» وكذلك محافظة دمياط، ما عدا مدينة دمياط نفسها، وجزءا مما دخل اليوم في محافظة الدقهلية.

وكانت طلبات البلاد المختلفة تأتي إلى قسم الدعوة بطنطا تلح عليهم بإرسال «الداعية المحبوب» يوسف القرضاوي. وكان الإخوة المسئولون عن الدعوة في طنطا يقولون لي: ماذا نفعل أمام هذه الطلبات المتكاثرة والمتكررة، وقد رزقت حب الناس؟

وكانت هذه نعمة جزيلة من الله تبارك وتعالى علي، أن منحني حب عباده، فضلا منه ومنّة علي، مع أني في قرارة نفسي لا أراني أهلا لهذا الحب الكبير. وأسأل الله تعالى أن يغفر لي ما لا يعلمون، ولا يؤاخذني بما يقولون.

وكان بعض البلاد أكثر طلبا لي من غيرها، مثل كفر الشيخ وبسيون والمحلة الكبرى.

بل زرت بلادا خارج الغربية، وخصوصا في «المنوفية» مثل شبين الكوم، وتلا وقويسنا. كما زرت مدينة المنصورة وغيرها من الدقهلية، وزرت الزقازيق عاصمة الشرقية.

واقعة دعوية لا أنساها:

ومن الوقائع التي لا تنسى في مجال الدعوة: ما وقع لي في أحد «الرمضانات» وقد كنت في الإجازة الصيفية مقيما في القرية، وأرسل إلي الإخوة في طنطا: أن الإخوان في كفر الشيخ يطلبونك لخطبة الجمعة في أحد البلاد هناك، وسينتظرك أحدهم في موقف الأوتوبيس القادم من المحلة إلى كفر الشيخ. ونهضت مبكرا لأسافر إلى المحلة، ثم أذهب إلى موقف الأوتوبيسات الذاهب إلى كفر الشيخ، لأستقل واحدا منها إلى تلك المدينة. وقد كان. ووصلت إلى الموقف، فوجدت أحد الإخوة، وركبنا أتوبيسا آخر إلى قرية بجوار «سخا» وكان الحر شديدا، وجسمي يتصبب عرقا، ولكنا في عصر الشباب لم نكن نبالي بهذه المتاعب الصغيرة، بل لا نكاد نحس بها كما يحس الآخرون. وقد ألقيت الخطبة في القرية التي احتشدت لذلك، ثم كلمة قصيرة بعد الصلاة. ثم استأذنا في الانصراف، فلا مجال لضيافة، فنحن في رمضان. وقد طلب إلي أهل القرية أن أبقى عندهم إلى الإفطار، فاعتذرت. وقد نسيت اسم هذه القرية، وهي تابعة لمركز كفر الشيخ.

وبعد ذلك، قال لي الأخ المرافق: يمكنك أن تعود إلى كفر الشيخ، وتركب أوتوبيسا من هناك، إلى المحلة كما جئت، ويمكنك أن تمتطي قطار الدلتا من هنا، من سخا إلى المحلة مباشرة، قلت له: كم ثمن التذكرة من هنا إلى المحلة؟ فقال: نسأل عنها. ثم سأل، وقال لي: ثمنها ستة قروش. قلت: الحمد لله. ذلك أن كل

ما كان معي من نقود هو ستة قروش ونصف القرش. فقلت: أسافر إلى المحلة، ويقضي الله ما يشاء، فقد خرجت من البيت بكل ما أملك من النقود في ذلك الوقت. وكان المفروض أن يرسل لي الإخوة من طنطا نفقات هذه الرحلة، فأنا طالب ولست موظفا. ويبدو أنهم اتكلوا على الإخوة في كفر الشيخ، والإخوة هناك اتكلوا عليهم، وضعت أنا في الوسط. فالأخ الذي رافقني من كفر الشيخ خالي الذهن تماما عن هذا الموضوع.

وركبت قطار الدلتا من محطة «سخا» وهو قطار صغير بطيء، كان الناس يتندرون به، ويقولون: تستطيع أن تشير إليه فيقف لك!

وقد وصل القطار المتهادي إلى مدينة المحلة، قبيل الغروب بقليل، وكنت معتمدا -بعد الله تعالى- على قريب لي يسكن في المحلة لأفطر عنده، وآخذ منه أجرة سفري إلى صفط قريتي. وقد صحبني إلى بيته مرة واحدة، قبل ذلك، وعلامة البيت أنه قريب من مسجد التوبة.

وذهبت إلى هذا الحي. وعند مسجد التوبة، ذرعت المنطقة يمينا وشمالا، لأهتدي إلى البيت، أو أستدل عليه، فلم أوفق. وأذن المغرب، فلم أجد بدا من أن أذهب إلى المسجد لأصلي فيه المغرب، وأفطر على الماء.

ثم ذهبت بعد ذلك إلى دار الإخوان بالمحلة. وبعد قليل حضر عدد منهم، فرحبوا بي وطلبوا لي «الكازوزة» لأشرب، وعلام أشرب وبطني فارغ، ومعدتي خاوية؟ كدت أقول لهم: إنني لم أفطر بعد، ولكن منعني الحياء، وهو خلق فطري عندي. وقد وصف الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كان أشد حياء من العذراء في خدرها[1]. فهذا الخلق المحمدي هو الذي حال بيني وبين مصارحة الإخوة بأني خالي البطن بعد يوم حافل بوعثاء السفر، وشدة الحر، ومتاعب الطريق، وهو الذي منعني أن أطلب من مرافقي في كفر الشيخ أن يقطع لي هو

(١) رواه البخاري (٣٥٦٢) ومسلم (٢٣٢٠) عن أبي سعيد الخدري.

تذكرة السفر من سخا إلى المحلة كما تقتضيه الأصول، حتى لا أظهر بمظهر من يتكسب بالدعوة.

وحاولت أن أغالب حيائي وأطلب من الإخوة في شعبة المحلة أجرة السفر إلى صفط ـ وهي قرشا صاغ ـ فلم أستطع، وكان حيائي أقوى من حاجتي. ولم تكن صلتي بأحدهم وثيقة في ذلك الوقت.

وودعت الإخوان، وخرجت إلى الطريق، عازما على أن أقطع مسافة أحد عشر كيلو متر ماشيا، إن لم أجد من يركبني معه احتسابا.

وفي منطقة تسمى «الشون» في أطراف المحلة، حاولت أن أجد من أصحاب السيارات من يركبني معه، وبخاصة أن لدي اجتماعا مهما في القرية بعد انتهاء صلاة التراويح. ولكن عرضت على سيارتين من سيارات النقل، فلم يستجيبا، ولاحظ أحد الرجال ذلك، وأنا ألبس الجبة والعمامة، فسألني: مالك لم تركب؟ قلت: بصراحة، ليس معي أجرة الركوب، قال: وما هي؟ قلت: قرشان. فقال: هاهما. فقلت له: جزاك الله خيرا، فقد نفست كربتي.

وعدت إلى القرية، وأنا شديد الجوع، فكان أول ما فعلته أن آكل. ولكني قوي العزم لحضور الاجتماع، فلم يؤثر في تعب النهار، ليحجزني عن عمل الليل.

وكان الاجتماع مهما، وذلك للتشاور في تأسيس شعبة للإخوان في صفط تراب. وكان المفروض أن يكون ميلاد هذه الشعبة في تلك الليلة من شهر رمضان المبارك، ولكنها تأخرت لبعض الظروف، وقامت الشعبة بعد ذلك على كواهل عدد من شباب البلدة المخلصين، على رأسهم الشيخ عبد الستار نوير، ومعه الإخوة إبراهيم حبيب وغازي الزغلول، وأبو اليزيد عسقول، ومحمد الزكي، وبهجت الشناوي، وحمزة العزوني، وآخرون لا أذكر أسماءهم الآن. وقد حوكم بعضهم بعد ذلك في عهد الثورة وحكم عليهم بالسجن سنوات متفاوتة، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين. وكانوا

رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا.

محلة أبو علي:

في هذه المرحلة تعرفت على عدد من الإخوة من قرية «محلة أبو علي» المجاورة للمحلة الكبرى. كان أول هؤلاء الإخوة هو «مصباح محمد عبده» الذي كان زميلا لي في المعهد، وفي نفس السنة، وإن كان شافعي المذهب. وكان يتميز بالنكتة وخفة الروح، وسلامة الفطرة، والغيرة على الدعوة.

وقد دعاني الأخ مصباح لزيارة قريته، فذهبت إليها في إحدى إجازات الصيف، وحاضرت في شعبة الإخوان فيها، وألقيت خطبة الجمعة بالمسجد، وتعرفت على عدد من أهلها، ولا سيما من شباب الإخوان مثل: رمزي (أو طلبة) الدمنهوري، والسيد الغضبان، وحمدي شبند، وأحمد سوار، والسيد النفاض، وعلي عبد المقصود خفاجة، وعبد القادر عامر، وعبد المجيد بقلوله وغيرهم. كما تعرفت على بعض الرجال الكبار في القرية أمثال الحاج عبد الغني الدمنهوري، والحاج محمد الغضبان، وغيرهما.

وقد انعقدت بيني وبين «محلة أبو علي» مودة عميقة، وصلة وثيقة، حتى أصبحت كأنها بلدتي الثانية، وأصبحت كثير الذهاب إليها، والمبيت فيها، وغدا يعرفني كبارها وصغارها، ورجالها ونساؤها، كأني واحد من أهلها.

محلة زياد:

ومن القرى التي زرتها مرارا أيضا، وكان لي صلة بأهلها: قرية «محلة زيّاد» من قرى مركز سمنود. وقد تعرفت فيها على عدد من الإخوة منهم الرجل الفاضل الشيخ زكي النجار، الذي فتح لي داره، وأبى أن أبيت إلا عنده، كلما جئت إلى محلة زياد، وابنه الأخ الصالح المدرس الشاعر محمد زكي النجار، وكان رجلا نقي السريرة، محمود السيرة، عذب الشعر، ومما أذكر من شعره:

مــجــد الجــدود عــزيز أن نضــيّــعــه

مــســتــعــبــدين، وقــد شــادوه أحــرارا

هيــا بنا مــعــشــر الإخــوان نرجــعــه

مــهــاجــرين كــمــا كــانوا وأنصــارا

وقد عرفت فيها الأخ الحبيب الشيخ عبد الوهاب الشاعر، وكان في المرحلة الابتدائية، والأخ مصطفى دراج، وبعض شباب الأزهر منهم الشيخ منصور الرفاعي عبيد.

السملاوية:

ومن القرى التي زرتها أكثر من مرة، ومكثت في كل زيارة عدة أيام: قرية «السملاوية» من قرى مركز السنطة، وهي قرية أخي وحبيبي ورفيقي في الدراسة والدعوة والمسكن: محمد الدمرداش سليمان مراد. وقد تعرفت على عدد من أهل هذه القرية، منهم الحاج عبد الحليم أبو النصر المُعلم المحبوب في القرية، والشاعر المطبوع، الذي ضاع شعره كما يضيع شعر كل شعراء القرى المغمورين والمنسيين، والشيخ أحمد عمارة المدرس المتصوف، والحاج أحمد عمارة التاجر الأمين. والأخ عبد العزيز أبو سعدة الفلاح المستنير، والأستاذ إبراهيم أبو سعدة المدرس، الذي أصهر إليه الأخ الدمرداش بعد ذلك، وتزوج ابنته.. وعدد آخر من الأفاضل أذكر صورهم ومواقفهم، وغابت عني أسماؤهم أو ألقابهم، ورحم الله شوقي إذ قال في سينيته:

اخــتــلاف النهــار والليل ينسي!

وكنا نسهر في منزل الأخ الدمرداش، ويجتمع هؤلاء الأحبة وغيرهم في أحاديث دينية وعلمية وأدبية وتاريخية، ومناقشات قد تسخن أحيانا.

ومن هذه المناقشات ما حدثناه أحد الحاضرين عن شيخه ولي الله الذي أخذ عليه البيعة، وعن فضائله وكراماته، ثم فاجأنا بقوله: ولكنه يتناول «الأفيون»!

قلت له: كيف يكون وليا لله، وهو يتناول هذا المخدِّر، وهو أخو الخمر، أو هو جزء منها، فالخمر كل ما خامر العقل، وقد نهى رسول الله عن كل مسكر ومفتِّر؟!

قال: لعله يستعين به على قيام الليل وصلاة الأسحار؟

قلت له: هل يجوز الاستعانة بمحرم على طاعة هي نافلة؟

وهنا سكت الأخ، وقال: ولكن قلبي يحدثني أنه ولي لله؟

قلت له: وهل تأخذ أحكام الشرع من حديث قلبك أو من وحي ربك؟

قال: بل من وحي ربي.

قلت له: وحي ربك يحرم هذا، ولا يجيز اتباع من يرتكب مثل هذا، فإنه لا يؤمن على تربية الناس وهدايتهم إلى الله، وفاقد الشيء لا يعطيه، وقد ضل من كانت العميان تهديه!

وأذكر أنه في بعض زياراتي للسملاوية كان معي صديقي وصديق الدمرداش: الأخ أحمد العسال.

الفرستق وبسيون:

ومن القرى التي زرتها أكثر من مرة: قرية «الفرستق» بالتاء لا بالدال، وهي قرية أخي الحبيب ورفيق دربي أحمد محمد العسال، وهي من قرى مركز بسيون، وتقع على شاطئ فرع النيل الغربي (فرع رشيد)، وتقابلها على الجانب الآخر في مديرية البحيرة: قرية «نكلا العنب» التي أنجبت الشيخ الغزالي، فهذه أنجبت العسال، وتلك أنجبت الغزالي.

وقرية «الفرستق» تقع بالقرب من قرية «القضابة» وكان بها عدد من الإخوة عبد المجيد الخلالي ومحمد الحشاش وأخيه عبد الفتاح الحشاش.

وهذه كلها تابعة لبسيون التي كان لي فيها صولات وجولات، وزيارات تلو زيارات، وقد توثقت الصلة مع رئيس الإخوان فيها الحاج أحمد البس، وكان رجلا مربيا مُجمِّعا، تلتقي عليه القلوب، لبشاشة وجهه، وحلاوة حديثه، وصفاء روحه، وحسن تصرفه.

وكان معه عدد من الإخوة الأفاضل أذكر منهم الحاج إبراهيم الباجوري التاجر.

كما تعرفت على عدد من طلاب الثانوي الغيورين الوعاة المتوثبين، أذكر منهم الطالب جمال بدوي، الكاتب والمؤرخ المعروف اليوم، والذي رأس تحرير جريدة «الوفد» عدة سنين.

الشيخ البهي الخولي:

ومن أهم من تعرفت عليه في المرحلة الثانوية، واتصلت به عن قرب، واستفدت من حلقاته ومجالسه، والتقطت من لآلئه وجواهره: شيخنا الداعية الكبير البهي الخولي، الذي عرفته في المعهد الابتدائي مدرسا للمحفوظات التي حول حصتها إلى ثقافة ودعوة، ولمادة الجغرافيا التي كان يتقن رسم خرائطها، وأنا لا أتقنه.

كان الشيخ البهي هو المسئول عن نشر الدعوة في مديرية الغربية، أو بتعبير الإخوان: في المكتب الإداري، فقد قسم الإخوان القطر المصري - حسب تقسيمه الإداري - إلى مكاتب إدارية، في كل مديرية «مكتب»، وتحت كل مكتب «مناطق» في كل مكتب إداري «مناطق»، وتحت كل منطقة «مراكز جهاد» يضم كل مركز عدة قرى، وفي كل قرية «شعبة» للإخوان.

فكان الأستاذ البهي رجل الدعوة الأول في مكتب إداري الغربية، وكان يقدم

المحاضرات في دار الإخوان، بين فترة وأخرى. ثم ضم هذه المحاضرات ونشرها في كتاب قيم فريد في بابه سماه: «تذكرة الدعاة» قدم له الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان، وعَدَّه من «رسائل الإخوان المسلمين».

ولا يزال كتاب «تذكرة الدعاة» رغم تقادم العهد، يحتفظ بأصالته وحيويته، ويسد ثغرة في مجال الدعوة إلى الله، مكتوبا بقلم داعية، عاش الدعوة بعقله وقلبه، بفكره وعواطفه وسلوكه، وزامل مؤسسها في «دار العلوم»، وبايعه على العمل بها، والعمل لها، منذ مدة طويلة.

وللأستاذ البهي جملة من الكتب أصيلة في بابها، مثل «آدم عليه السلام» و«الثروة في ظل الإسلام» و«المرأة بين البيت والمجتمع» الذي ألفه بتكليف من المرشد الثاني للإخوان الأستاذ حسن الهضيبي، وعُدَّ كذلك من «رسائل الإخوان». ثم وسعه وطوره وسماه: الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة.

وللشيخ البهي وقفات عميقة مع القرآن، لم تجمع في كتاب، لعلها منثورة في أوارق مختلفة، ليت أبناءه يعنون بها، ويكلفون أحد الشباب بالبحث عنها وإخراجها ونشرها، أو نشر ما يصلح للنشر منها[1].

كما أن له ذوقا روحيا متميزا، في النظر إلى «التصوف» واستخراج اللآلئ من بحاره العميقة. ولقد تجلى ذلك فيما كتبه عن بعض الرجال الربانيين في مجلة «المسلمون» التي كان يصدرها تلميذه النجيب الداعية الشهير: سعيد رمضان في باب «مع العارفين». وقد كتب فيها عن «الإمام الممتحن أحمد بن حنبل» وعن «عتبة الغلام» وغيرهما، وإن لم يوقع عليها باسمه[2].

---

(١) عرفت أخيرًا أن الناشر المعروف الأخ الأستاذ محمد علي دولة قام بجمع قسم مهم من هذه المنثورات. وسوف ينشرها قريبا تحت عنوان: «بنو إسرائيل في ميزان القرآن».

(٢) وقد نشرته دار التوزيع والنشر والإسلامية بالقاهرة، بنفس عنوان الباب (مع العارفين) دون ذكر لاسم المؤلف، لعدم معرفتهم بمن كتب المقالات، وقد نبهتهم على أن الأستاذ البهي كتب عددا من هذه المقالات، وكتبت إدارة المجلة بقيتها، ووعدوا بتدارك ذلك في الطبعات القادمة.

كتيبة الذبيح:

ولقد فكر الأستاذ البهي في أن يصطفي نخبة من خيرة شباب الإخوان، يدنيهم منه، ويربيهم في مدرسته، ويلقنهم فكره وذوقه، ويأخذهم بعزائم السلوك. فقد أكد رجال التربية الروحية حاجة المريد إلى شيخ يأخذ عنه، ويقتبس من نوره، وأن صحبة الشيخ لا يغني عنها قراءة الكتب، حتى قال بعضهم: من لا شيخ له فشيخه الشيطان. وقد اختار الشيخ لهذه المجموعة اسم «كتيبة الذبيح».

ويراد بالذبيح: سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، والذي رفع قواعد البيت مع أبيه إبراهيم الخليل. وقد ذكر لنا القرآن الكريم في سورة الصافات قصته مع أبيه بعد أن بلغ معه السعي، وأضحى يرتجى منه ما يرتجى من الشباب في معاونة أبيه. فجاء الامتحان الإلهي البليغ للأب الذي بلغ به اليقين أن ضحى بولده وفلذة كبده، امتثالا لإشارة الوحي من ربه، وللابن الذي بلغ به اليقين أن قدم عنقه، طاعة لأمر ربه، ولم يتلكأ أو يتردد، بل كان كما قال القرآن: ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** (١٠٢) ﴾ (الصافات: ١٠٢).

يقول الشيخ البهي، وهو يشرح لنا القصة في أول جلسة: انظر إلى الابن كيف قال لأبيه، وقد عرض عليه ذبحه: ﴿ **يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ** ﴾ ولم يقل: افعل «بي» ما تؤمر، فكأنما غاب عن نفسه، وفني عن ذاته، وقال لأبيه: نفذ ما عندك من أوامر الله، ولن تجد مني إلا الطاعة والصبر على أمر الله. ولم يفعل ذلك ادعاء للشجاعة والبطولة، بل وكل الأمر إلى الله يسدده ويشد أزره، حين قال: ﴿ **سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾.

اختار الأستاذ البهي أكثر هذه النخبة من طلاب المعهد الديني، وأقلهم من طلاب المدرسة الثانوية. وأذكر من هذه النخبة: الإخوة: أحمد العسال، ومحمد الصفطاوي، ومحمد الدمرداش مراد، وعبد العظيم الديب، وعبد الوهاب

البتانوني، ومحمد وعبد الفتاح الحشاش، من أبناء الأزهر، وعبد المنعم عثمان، وسعيد شنا، وكمال العريان من الثانوية، وآخرين لا أذكرهم الآن.

كان موعد اللقاء قبيل فجر الاثنين - على ما أذكر - من كل أسبوع، وفي بيت الأستاذ، أو في دار الإخوان، نصلي معه الفجر، ثم نجلس في حلقتنا الروحية، التي يحلِّق بنا فيها إلى أجواء ربانية عالية، فنحس بأننا نشف ونصفو حتى نكاد نطير بلا أجنحة.

وكنت - على فطرتي وطريقتي - أناقش وأسأل في كل ما لا يقتنع به عقلي، أو يطمئن إليه قلبي، فطرة فطرني الله عليها، وأعتقد أنها نعمة من الله علي، بجوار نعمه التي لا تعد ولا تحصى. وقد ظن الشيخ البهي رحمه الله أن لي موقفا مضادا بإطلاق من التصوف وأهله، ثم فوجئ بكتابيّ: «العبادة في الإسلام» و«الإيمان والحياة» فوجد فيهما نزعة ربانية أصيلة، وقال لي بعد أن أهديتهما له: كيف خبأت عنا هذه الروحانية العميقة بمناقشاتك القديمة، التي جعلتنا نفهمك على غير حقيقتك؟ قلت له: يا فضيلة الأستاذ، المناقشة جزء من كياني، وربما يضيق بها الصوفية الذين يقولون: من قال لشيخه: لمَ؟ لم يفلح، ويقولون: المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل! ولكني تلميذك الأمين فيما قررته في كتابك الفريد «تذكرة الدعاة» عن «الروحانية الاجتماعية»، فأنا مع «الربانية» ولست مع «الرهبانية» كما قال الشيخ أبو الحسن الندوي.

حسن البنا والأزهر:

لم يكن الأزهر غريبا عن دعوة حسن البنا، بل كان حضوره بأبنائه وإسهامهم في الدعوة واضحا من أول يوم.

فقد كان من المؤسسين الأوائل للدعوة مع الأستاذ البنا: الشيخ حامد عسكرية، الذي ذكره الإمام البنا في مذكراته في أكثر من مكان، والذي شهد له كل من عرفوه

بأنه كان عالما وواعظا أزهريا متميزا من الرجال المخلصين والمتجردين. نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله. وكان كاتبا مجيدا، فقد شارك الأستاذ البنا بالكتابة في مجلته الأولى؛ مجلة «جريدة الإخوان المسلمين» الأسبوعية، فكتب فيها شروحا لعدة أحاديث نبوية، وغيرها من المقالات. وقد كانت شعبة الإخوان في شبراخيت بالبحيرة، هي الشعبة الثانية بعد شعبة الإسماعيلية، وذلك بسبب وجود الشيخ عسكرية في شبراخيت.

وقد قدر الله تعالى أن تخترمه المنية في شبابه، وينتقل إلى جوار ربه والدعوة لا تزال في طورها الأول.

وكان من الأوائل الشيخ أحمد عبد الحميد، وقد كان أحد المعتقلين في الطور سنة ١٩٤٩م.

ومن علماء الأزهر الذين التحقوا بالدعوة وهم طلاب عدد من الرعيل الأول، من أمثال الشيخ أحمد حسن الباقوري، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ عبد المعز عبد الستار، والشيخ محمد فرغلي، والشيخ أحمد شريت، والشيخ سيد سابق، والشيخ زكريا الزوكة، والشيخ إسماعيل حمدي، والشيخ عبد اللطيف الشعشاعي والشيخ الأباصيري. وغيرهم ممن كان له باع رحب في الدعوة، لا يجهله أحد.

وكان الشيخ البنا حفيا بالأزهر ورجاله، وكانت علاقته ـ كما علمت ـ طيبة بالأستاذ الأكبر الشيخ المراغي رحمه الله، وبكثير من كبار الشيوخ.

وحين كلف الأستاذ البنا إصدار «مجلة المنار» بعد وفاة مؤسسها العلامة المجدد محمد رشيد رضا، كتب الإمام المراغي مقدمة لأول عدد أصدره البنا، فكان مما قال فيه: «علمت أن الأستاذ حسن البنا يريد أن يبعث «المنار» ويعيد سيرته الأولى، فسرني هذا، فإن الأستاذ البنا رجل مسلم غيور على دينه يفهم الوسط الذي يعيش فيه، ويعرف مواضع الداء في جسم الأمة الإسلامية، ويفقه أسرار الإسلام. وقد

اتصل بالناس اتصالا وثيقا على اختلاف طبقاتهم، وشغل نفسه بالإصلاح الديني والاجتماعي على الطريقة التي كان يرضاها سلف هذه الأمة»[1].

وأذكر أنه في أحد الاحتفالات التي أقيمت في طنطا، حضر عدد من علماء المعهد، على رأسهم الشيخ محمد أبو طبل وكيل المعهد، وقد رحب الأستاذ بهم ترحيبا خاصا، وقال لهم: أنتم الجيش الرسمي للدفاع عن الإسلام، ونحن الجيش الاحتياطي من ورائكم، فقودوا الركب تجدونا من خلفكم.

مع الإمام البنا:

كان الإمام حسن البنا في القاهرة، وكنت في طنطا، فلم يكن لقائي إياه ممكنا إلا أن أذهب إلى القاهرة، أو يأتي هو إلى طنطا.

وكم تمنيت أن أستمع إليه - ولو مرة واحدة - في حديث الثلاثاء، الذي يلقيه في المركز العام للإخوان، في معظم أيام السنة، ولكني لم أظفر بذلك، ولا مرة واحدة. حتى المرات التي كنا نسافر فيها مجانا - نحن طلاب المعهد الديني - لم نصادف فيها حديث ثلاثاء، إما لأن الدرس كان متوقفا في تلك الفترة لأسباب ما، وإما لأن اليوم لم يكن يوم ثلاثاء. ولا يمكننا البقاء في القاهرة إلى الثلاثاء المقبل، ونحن غرباء.

فلم يبق لي سبيل إلى لقاء الشيخ والاستمتاع بحديثه وتوجيهه وفكره إلا بحضوره هو إلى طنطا، أو بعض المدن الأخرى القريبة.

ومن المرات التي حضرها إلى طنطا، وألقى فيها أكثر من حديث، منها حديث مع المعلمين، وحديث مع الطلاب، وقد أوصانا في هذا اللقاء بوصايا ثلاث: الاجتهاد في العلم، والاستقامة في الدين، والمحبة بيننا.

---

(١) انظر: افتتاحية مجلة «المنار» العدد «الخامس» من المجلد الخامس والثلاثين الصادر في غرة جمادى الثانية سنة ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م.

ومن المرات التي زار فيها طنطا، حين اشتعال قضية فلسطين، والتنادي بالجهاد، وتخاذل الحكومات العربية، وقال: ليتهم يمدون أهل فلسطين بالمال والسلاح والمتطوعين، ويكفون أيديهم عنهم.

وفي هذه الزيارة ألقيت قصيدة بين يديه في مدحه، وما مدحت أحدا من الأحياء غيره، وقد وقعت منه موقع الرضا والاستحسان، وأحسبه قال: إنه لشاعر فحل، أو شاعر مطبوع، لا أذكر تماما. وقد أخذ القصيدة مني سكرتيره الأستاذ سعد الدين الوليلي، الذي كان يرافقه باستمرار غالبا. ولم تكن عندي منها نسخة أخرى، ولكني كنت أحفظ أكثرها، وحين أراد الأخ الحبيب حسني أدهم جرار: جمع ما تيسر من شعري، أمليت ما أحفظه عليه منها، ونشرت بعنوان: «يا مرشدا قاد بالإسلام إخوانا» في ديواني «نفحات ولفحات».

وأذكر من تعليقاته على بعض الأبيات التي قلتها:

أردتَ تجديد صرح الدين إذ عبثت
به السنون، فهدت منه جدرانا

فما وهت منه أحجار ترمّمه
وما وهَى أسّه تبنيه بنيانا

ترسي الأساس على التوحيد في ثقة
وترفع الصرح بالأخلاق مزدانا

حتى بلغت الأعالي مصلحا بطلا
تطل من فوقها كالبدر جذلانا

وثلة الهدم في السفلى مواقعهم
صبوا عليك الأذى بغيا وعدوانا

ترميك بالإفك أقلام وألسنة

خانت أمانتها يا بئس من خانا

كذلك لا بد للبناء من حجر

يصيبه أو يصيب الطين أردانا

قال: يا رب سلم.

آذوْك ظلما، فلم تجز الأذى بأذى

لكن جعلت جزاء السوء إحسانا

فكنت كالنخل يُرمى بالحجارة من

قوم، فيرميهمو بالتمر ألوانا

قد أوسعوك أكاذيبا ملفقة

وأنت أوسعتهم صفحا وغفرانا

ومن تكن برسول الله أسوته

كانت خلائقه روحا وريحانا

إلى كفر المصيلحة:

ومن البلاد التي ذهبنا إليها وراء حسن البنا: كفر المصيلحة، بجوار مدينة شبين الكوم، ذهبت في فرقة الجوالة، بلبس الجوالة، وتحدث الأستاذ في ذلك الحفل الكبير - على عادته - حديثا جامعا استشهد فيه بالشعر كثيرا.

وبتنا هناك، وكانت الليلة ليلة جمعة، ففي اليوم التالي خطب الأستاذ خطبة الجمعة في «المسجد العباسي» وتحدث فيها عن هدفين أساسيين يجب أن تنصب جهود العاملين عليهما، وهما: الفكرة الإسلامية، والأرض الإسلامية، ولا بد أن يكون أكبر همنا: تحقيق الفكرة الإسلامية، وتحرير الأرض الإسلامية.

وعدنا بعدها إلى طنطا.

إلى كفر الزيات:

وفي إحدى المرات بعد زيارته إلى طنطا، كانت رحلته إلى مدينة «كفر الزيات» من مراكز الغربية، وقد خطب فيها الجمعة، وترك الحديث بعد الجمعة للشاب الداعية المتألق محمد فتحي عثمان، الذي كان يصحبه في هذه الرحلة، والذي كانت كلمته موضع القبول والرضا من الحاضرين.

وكان الأستاذ البنا يصطحب بعض هؤلاء الشباب النابهين ليدربهم من ناحية، وليبرزهم للناس من ناحية أخرى. وكان فتحي عثمان صاحب لسان وقلم، فهو خطيب مفوه، وكاتب بارع. كما أنه مترجم من الطراز الأول، فقد بعثه الأستاذ المرشد العام يوما مع السيد «عليم الله الصديقي» وهو داعية باكستاني يتكلم بالإنجليزية ولا يحسن العربية، فكان الذي يترجم له فتحي عثمان الذي أسر الحضور بحسن ترجمته، وحلاوة بيانه، الذي يرتجله.

إلى دسوق:

ومن المرات التي سافرنا فيها، لنحظى بالسماع للأستاذ البنا: سفرنا إلى مدينة «دسوق». ونظرا لثقل تكاليف الرحلة علينا، فقد قررنا أن نسافر بقطار الدلتا لرخصه، وإن كان بطيئا، وركبنا الدلتا، أنا والعسال والدمرداش، ووصلنا إلى دسوق، وكان ذلك بمناسبة الاحتفال بذكرى المولد النبوي. وكان مع الأستاذ زوج ابنته الداعية المحبوب المعروف الأستاذ سعيد رمضان، وقد ألقى كلمة موفقة قبل كلمة الأستاذ، كما تكلم الدكتور القاضي رئيس الإخوان في دسوق. ثم تكلم الأستاذ فأفاض وأبدع، كما هو المعتاد.

وبتنا في دسوق ضيوفا على الإخوان، ثم عدنا في اليوم التالي إلى طنطا.

ليلة ويوم مع المرشد في المحلة:

ومن أهم المرات التي لقيت فيها الأستاذ المرشد حسن البنا: مرة زيارته للمحلة الكبرى، قادما من زفتى.

وقد أقيم له سرادق كبير، دعي إليه جم غفير من المحلة ومما حولها من البلدان. وقد تحدث بعض الإخوة، ثم كان حديث الأستاذ في الختام.

وفي أثناء حديث الأستاذ حدث هرج ومرج، استطاع الأستاذ معه أن يسيطر على الموقف بسرعة، ويمتلك قلوب الحاضرين.

ذلك أن جماعة من الحزبيين بالمحلة أرادوا أن يفسدوا حفل الإخوان، بافتعال معركة مع الإخوان، وبمجرد حدوث ضجة سينفرط العقد، ويختل النظام، ويهيج الناس، فينفض الحفل لا محالة.

هكذا خطط المخططون، وكاد الكائدون، ولكن الله رد كيدهم في نحورهم، فقد تجمعوا يحملون عصيهم وهراواتهم، واقتربوا من الحفل وهم يهتفون هتافات معادية. وكانت الخطة أن يصلوا إلى السرادق، وهم يرددون هتافاتهم متحدِّين للإخوان، فيرد عليهم الإخوان بهتافات ضد هتافاتهم ويصطدم الفريقان، وبمجرد أن يحدث الاحتكاك، سيحدث الاختلال.

وقد كادت الخطة تنجح لولا موقف الأستاذ البنا، الذي أحس بأن شيئا بالخارج يحدث، فقال للحاضرين: أيها الإخوة، الزموا أماكنكم، فوالله ما نريد بأحد سوءا، ولكنا نريد لهذه الأمة أن تنهض من كبوتها، وأن تتوحد من فرقتها، وأن تعتصم بحبل الله جميعا ولا تتفرق. وارتفع صوت الأستاذ، وهو يقول بلهجة ثائرة لم أره ثار مثلها من قبل: إننا أقوياء بالله فلن نضعف أبدا، أعزاء بالله فلن نذل أبدا، أغنياء بالله فلن نفتقر أبدا. إننا نريد أن نؤدب الأمة بأدب جديد هو أدب الإسلام، وأن نربيها على خلق الإسلام، وأن نقودها بمنهج الإسلام، لتسير خلف أعظم قائد، وأشرف قائد، محمد عليه الصلاة والسلام.

هذه الكلمات الثائرة، التي انطلقت من فم حسن البنا كأنها القنابل في دويها، كانت بردا وسلاما على سامعيها، شدتهم إلى الرجل شدا، وأسرتهم أسرا، وبقي كل واحد في موضعه لم يتحرك يمنة ولا يسرة.

في هذه الحالة، كان جوالة الإخوان قد أنهوا تلك الحركة المشاغبة، وفرقوا جمعهم، وأمسكوا ببعضهم، وولى الآخرون هاربين.

وهنا عاد البنا يقول: كنا نتحدث عن كذا وكذا، كأن شيئا لم يكن، وانتهى الحفل على خير حال.

وذهب الأستاذ بعد ذلك إلى دار الإخوان ليلتقي بنواب الشعب، ثم بالعمال، ثم بالطلاب، وظل في اجتماعات إلى أن بقي على الفجر حوالي ساعة، فقال: أستأذنكم لأستريح هذه الساعة. ودخل حجرة ليستريح. وبعد ساعة، وجدناه خارجا، فلا أدري هل نام هذه الساعة أو لم ينم؟ الذين عايشوه قالوا: إنه إذا أراد أن ينام نام، وكان يقول: إذا أحب الله عبدا سخر له النوم!

وجاء الفجر فصلى بنا، وقرأ سورة «ق» في الركعتين.

وبعد ذلك أخلدنا نحن إلى النوم، ولا ندري ماذا فعل الشيخ بعد ذلك.

وعندما استيقظنا في الضحى، علمنا أن الشيخ مدعو إلى قرية «محلة أبو علي» بجوار المحلة، لتناول الغداء فيها، ثم إلقاء محاضرة في أحد مساجدها.

ومن هنا سافرت إلى محلة أبو علي لألتقي بأصدقائي فيها، ولننتظر الشيخ هناك، وأتناول الغداء معهم في بيت الأخ الصديق السيد الغضبان، الذي كثيرا ما كنت أبيت في منزله إذا كنت في محلة أبو علي أو عند الشيخ مصباح عبده. وقد صلينا العصر في المسجد العباسي مع الأستاذ المرشد، وألقى محاضرة بعد العصر، نوه في مقدمتها بعلماء البلدة ودعاتها، مثل الشيخ أحمد القط.

وبعد انتهاء المحاضرة ودع الشيخ إخوانه ومضيفيه في محلة أبو علي، ليولي شطره نحو مدينة «بلقاس»، وهي آخر محطة في هذه الرحلة الدعوية، ليعود من جديد إلى القاهرة، ليستعد لرحلة أخرى. فهكذا هو أبدا، حل وارتحال، وحركة وانتقال، وقد سمعته مرة يقول: نحن كالعرب أصحاب الخيام:

يومـا بحـزوى، ويومـا بالعـقـيق وبا

لعـذيب يومـا، ويومـا بالخليـصـاء!

مجلة «الإخوان» الأسبوعية:

كانت الوسائل الإعلامية للإخوان محدودة، لأن هذه الوسائل تحتاج إلى أموال، والإخوان معظمهم فقراء، لهذا كانت وسيلتهم الإعلامية الوحيدة هي المجلة الأسبوعية (الإخوان المسلمون) التي يرأس تحريرها الأستاذ صالح عشماوي، ويحرر مادتها عدد من كتاب الإخوان ودعاتهم متطوعين، لا يلتمسون أجرا إلا من الله تعالى.

وكانت هذه المجلة تقوم بدور طيب في توعية الإخوان وتثقيفهم. وعن طريق هذه المجلة ومقالاتها تعرفت على عدد من دعاة الإخوان، الذين صار لهم شأن فيما بعد، أولهم الشيخ محمد الغزالي، الذي سماه بعضهم «أديب الدعوة الإسلامية»، والذي كانت مقالاته قطعا من الأدب الإسلامي النابض بالحياة، الذي يشف ويصفو كأنه البلور، ويتوقد غيرة وثورة كأنه التنور. ولقد انعقدت بيني وبينه مودة عميقة، وإن لم أره.

والعجيب أني لم أكن أحسب محمد الغزالي من مشايخ الأزهر، فقد قرأت لعلماء الأزهر في مجلة «الإسلام» وغيرها، فكانت موضوعاتهم غير موضوعاته، وأسلوبهم غير أسلوبه، وروحهم غير روحه. ولم أعرف أنه أزهري حتى وقَّع مرة على إحدى مقالاته: محمد الغزالي الواعظ. وحسبت أن كلمة «الواعظ» هذه لقب لعائلته، فقالوا لي: إنه شيخ أزهري معمم معروف.

وثاني هؤلاء الدعاة الذين عرفتهم عن طريق المجلة: الأستاذ عبد العزيز كامل، الذي كان يكتب تحت عنوان «في صميم الدعوة» مقالات توجيهية تربوية، تهدف إلى تصحيح مفاهيم الدعوة عند الإخوان، ودفعهم إلى السلوك القويم، والبذل من

أجل الدعوة والتآخي عليها. وكان له نفس خاص في مقالاته، لا يكاد يوجد عند غيره.

وكان الأستاذ البنا أحيانا ما يكتب افتتاحيات هذه المجلة بمقالات دعوية حية بأسلوبه السهل الممتنع، فتنير العقول، وتثير العواطف، وتدفع الهمم إلى العمل. وغالبا ما كان الأستاذ صالح عشماوي يكتبها بأسلوبه الصحفي السلس، معلقا على أحداث الساعة في الساحة الإسلامية.

جريدة «الإخوان المسلمون» اليومية:

وبعد اشتعال القضية الوطنية، قضية الجلاء ووحدة وادي النيل، والقضية العربية وعلى رأسها قضية فلسطين التي يزداد كل يوم إحكام فتل الحبل حول عنقها من الصهيونية العالمية، المؤيدة بالاستعمار الغربي بشقيه الرأسمالي والشيوعي، والقضية الإسلامية في أرجاء الوطن الإسلامي من المحيط إلى المحيط، الذي هب من رقدته ينشد التحرر من نير الاحتلال الأجنبي.. بعد اشتعال القضايا كلها، وبروز الإخوان قوة إيجابية فاعلة على هذه الساحات، كان لا بد لهم من منبر إعلامي يومي، يجلي مواقفهم، ويعبر عن وجهة نظرهم، ويدافع عنها، فكانت صحيفة «الإخوان المسلمون» اليومية التي ظهر أول عدد منها في يوم الأحد الثالث من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥هـ - ٥ من مايو سنة ١٩٤٦م.

وكتب الأستاذ البنا افتتاحيتها (مطلع الفجر) أعلن فيها عن فلسفة الجريدة وسياستها.

كما كان الأستاذ يلقى القراء فيها صباح كل جمعة بحديث الجمعة، وهو حديث نوراني، يحمل نفحة روحية، تخاطب القلوب، وتزكي النفوس، وتسعى إلى الرقي بالإنسان من دنيا الطين والحمإ المسنون إلى عالم ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** ﴾ (الحجر: ٢٩).

كما كان يلقاهم، كلما جد الجد، وحزب الأمر، واقتضى سير الأحداث أن يصدر بيانا، أو يكتب شيئا يوضح الحقائق، ويزيح الشبهات.

وقد قام برئاسة تحريرها الكاتب الإسلامي المعروف والعالم المحقق السيد محب الدين الخطيب، صاحب مجلة «الفتح» ومجلة «الزهراء» الإسلاميتين الرائدتين في عالم الصحافة الإسلامية.

وقد فرحنا نحن الإخوان بهذه الجريدة، وسعينا إلى شرائها، برغم أن معظمنا لا يملك قرش الصاغ الذي هو ثمنها، فيما أذكر.

وكانت هذه الجريدة عبئا على الجماعة. فمن المعلوم أن مثل هذه الصحف اليومية لا تستطيع أن تستمر وتصمد إلا بأمرين:

أولهما: الإعلانات المكثفة، التي تغطي نفقاتها الكثيرة.

وثانيهما: الدعم الخارجي من جهة من الجهات.

أما الأول، فقد كان محدودا جدا، لأن صحيفة الإخوان لا يمكن أن تعلن عن شيء محرم، أو يشتمل على محرم، أو حتى مختلف فيه كالسجائر ونحوها. وكثير من أصحاب الإعلانات يذهبون إلى الصحف الكبرى كالأهرام.

وأما الثاني، فلم تكن هناك أي جهة تدعم الإخوان، وكيف يتصور ذلك والحكومة تحاربها، والاستعمار يحاربها، وكل القوى الخائفة من الإسلام والحاقدة عليه تحاربها؟ ولو تقدمت جهة من هذه الجهات للإخوان بالمساعدة لرفضتها يقينا.

ولهذا، حين صادرت الحكومة هذه الجريدة بعد زمن، حزن الإخوان ظاهرا، وحمدوا الله باطنا، فقد انزاح من فوق ظهورهم حمل ثقيل.

محب الدين الخطيب:

اختار الأستاذ البنا لرئاسة تحرير جريدة «الإخوان» اليومية: الأستاذ محب

الدين الخطيب، السوريّ الذي اتخذ من مصر دار إقامة له، والذي يعرفه البنا من قديم بوصفه أحد رواد الصحافة الإسلامية المتميزة، فهو صاحب مجلتي «الفتح» و«الزهراء» اللتين كان لهما صدى واسع في تنوير العقل الإسلامي، وفي توعية الأمة بقضاياها المصيرية، وبهويتها الحضارية والعقدية، وقد كان للأستاذ الخطيب شعاران رفعهما: أحدهما يقول: أنت على ثُغرة من ثغور الإسلام فلا يؤتين من قبلك. والآخر يقول: المسلمون إلى خير ولكن الضعف في القيادة.

وكان السيد محب الدين قد اكتشف من قديم موهبة الشاب النابه المتخرج حديثا في دار العلوم: حسن البنا، وطلب إليه أن يكتب في مجلته، وشجعه على ذلك، فكتب حسن البنا أول مقال في «الفتح» بعنوان: «الدعوة إلى الله». وكان الخطيب يباهي بأن حسن البنا من اكتشافه، وأنه ممن ساهم في صناعته. ففي مقال كتبه الأستاذ الخطيب في مجلته «الفتح» بمناسبة مرور عشرين عاما على تأسيس جماعة الإخوان المسلمين قال:

«إن الأستاذ حسن البنا أمة وحده، وقوة كنت أنشدها في نفس مؤمن، فلم أجدها إلا يوم عرفته في تلك الغرفة المتواضعة من دار المطبعة السلفية سنة ١٣٤٦هـ، وكنت «ابن صنعة» يوم اكتشفت بيني وبين نفسي حاجة الإسلام إلى هذا الداعية القوي الصابر المثابر، الذي يعطي الدعوة من ذات نفسه ما هي في حاجة إليه، من قوة ومرونة ولين وجلد وصبر وثبات إلى النهاية»(١).

وكان الأستاذ البنا قد اختار الأستاذ الخطيب من قبل مديرا لتحرير مجلة «جريدة الإخوان المسلمين» الأسبوعية، وهي أول مجلة للإخوان المسلمين، وقد صدرت في ٢١ من صفر سنة ١٣٥٢هـ - ١٥ من يونيو سنة ١٩٣٣م. وكان الأستاذ طنطاوي جوهري رئيس تحريرها، وكان الأستاذ البنا مسئولا عن القسم الديني بها. وقد

(١) انظر: مجلة «الفتح» العدد «٨٦١» سنة ١٣٦٧.

خلف الخطيب في إدارة تحرير المجلة الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا والد الأستاذ البنا.

كما كان الخطيب يدعم هذه المجلة، وذلك بطبعها في مطبعته المطبعة السلفية، إلى أن وصلت المجلة لسنتها الثانية، فأسس الأستاذ البنا: «الشركة التعاونية للإخوان المسلمين للطباعة والنشر» وتولت طباعة المجلة. وعلق البنا في الصفحة الأخيرة من المجلة بمقال عنوانه: «من مطبعتنا إلى مطبعتنا» قدم فيه الشكر للسيد محب الدين الخطيب قائلا عنه: «الذي لم يكن يوما من الأيام إلا ركنا من أركان الجماعة»[1].

وكان الخطيب من الخبراء بالتراث الإسلامي، والمطلعين على كنوزه، والمدافعين عنه، وكان يدعو إلى تحرير التاريخ مما أدخله عليه الأخباريون والوضّاعون من روايات زائفة شوهت الوجه الحقيقي للأمة في أزهى عصورها، ولا سيما عصر الصحابة والتابعين والأتباع خير قرون هذه الأمة.

وله كتاب «مع الرعيل الأول» كتب فيه جملة نماذج من الصحابة أعطى عنهم صورة مشرقة تليق بما ذكره القرآن الكريم، وذكرته السنة المشرفة عنهم.

كما كتب عن «حملة رسالة الإسلام الأولون» وبين مناقبهم وفضائلهم، وما كانوا يحملونه من قيم عليا، ومثل رفيعة، تجعلهم أبعد ما يكونون عما وصفهم به الذين شوهوهم ظلما وزورا.

وله تعليقاته العلمية الرصينة على ما كتبه الإمام القاضي أبو بكر بن العربي في الجزء الخاص عن الفتنة التي حدثت بين الصحابة بعد وفاة الرسول في كتابه «العواصم من القواصم» وكيف أنصف الصحابة، ورد الأمور إلى أصولها.

كما برع الأستاذ محب الدين الخطيب في فن الترجمة، من بعض اللغات

---

(١) انظر: مجلة «جريدة الإخوان المسلمين» العدد التاسع من السنة الثانية الصادر في ١٦ من ربيع الأول سنة ١٣٥٣هـ-٢٨ من يونيه سنة ١٩٣٤م.

الأعجمية، فقد كان متقنا رحمه الله للغة التركية، واللغة الإنجليزية، وصدر له في هذا اللون: ترجمة «مذكرات غليوم الثاني»، فقد ترجمها الأستاذ الخطيب عن اللغة التركية للعربية، ونشرها وطبعها في المطبعة السلفية سنة ١٩٢٩م. وترجم عن الإنجليزية كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» لمؤلفه: لوشاتلييه، وهو من أوائل الكتب المنشورة عن: التنصير والتبشير في ديار المسلمين، وخطط المنصِّرين لتنصير المسلمين.

وكان الأستاذ محب الدين الخطيب مولعا بالأدب العربي، وكان له فيه نظرات جيدة، وقد برز ذلك في مجموعته المعروفة بـ «الحديقة» بلغت مجلداتها «١٣ جزءا»، حفلت بمختارات بليغة من منثور الأدب والحكمة العربية، لطائفة كبيرة من فحول البلغاء المتقدمين والمعاصرين.

وقد أسندت رئاسة «مجلة الأزهر» في عهد الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين إلى الأستاذ محب الدين، لعدة سنوات.

ومما آسف له: أني حاولت أن ألقى السيد محب الدين الخطيب، وأجلس إليه، وأتعلم منه، ولكن لم يتح لي ذلك، وقد ذهبت مرة قاصدا لزيارته في مكتبه في المطبعة السلفية التي كان يصدر منها ما يتبناه من كتب، فلم أظفر إلا بمصافحته والسلام عليه، إذ كان خارجا لأمر آخر.

فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه خيرا عما قدم لدينه وأمته.

مجلة الشهاب:

في سنة ١٩٤٧م، فكر الأستاذ البنا في إصدار مجلة علمية شهرية، تخلف مجلة «المنار» الشهيرة التي كان السيد رشيد رضا يصدرها، وتولى إصدارها من بعده الأستاذ البنا، وأخرج منها ستة أعداد ثم توقفت بقرار من الحكومة المصرية بسبب الحرب.

يبدو أن الإمام البنا عليه رحمة الله، شعر بأن الإخوان في حاجة إلي «ثقافة إسلامية معمقة» تملأ الفراغ الثقافي لدى الإخوان، الذين اكتفى كثير منهم بما قرأه في رسائل الأستاذ، وفي الصحيفة اليومية، والمجلة الأسبوعية، فأنشأ الأستاذ البنا مجلة الشهاب لتقوم بهذا الدور.

وبين الأستاذ في مقدمة المجلة أن أول ما تعنى به من القضايا:

١ـ محاولة عرض الأحكام الإسلامية عرضا مبسطا شاملا، يوافق أسلوب العصر.

٢ـ ومحاولة تقديم الإسلام بوصفه نظاما اجتماعيا كاملا (في مقابلة الرأسمالية والشيوعية) لا مجرد دين نظري لاهوتي.

٣ـ والدفاع عن أحقية عقيدة «الإيمان بالله» (في مواجهة الفلسفات المادية).

٤ـ والانتصار للروح الإنساني (في مقابلة من يعتقد أن الإنسان مجرد حيوان متطور).

وبهذا تسهم المجلة في توسيع وتعميق ثقافة الإخوان، ومن يتأثر بهم من المسلمين.

وأعتقد أن الأستاذ كان صائب الفكرة في ذلك، فقد طغى الجانب التكويني العملي والسلوكي لدى الإخوان على الجانب العلمي والثقافي. أقصد الثقافة العميقة والمنهجية.

ومن قرأ العدد الخاص الذي أصدرته جريدة «الإخوان المسلمون» اليومية، بمناسبة مرور عشرين عاما على تأسيس دعوة الإخوان، ولحظ قائمة الإنتاج الثقافي والعلمي لدى الجماعة، وجدها متواضعة جدا، بالنظر إلى جماعة واسعة الانتشار كالإخوان، عدها المؤرخون «كبرى الحركات الإسلامية الحديثة» كما قال الدكتور إسحاق موسى الحسيني.

ولم يكن يوجد بعد رسائل الأستاذ (وهي رسائل دعوية صغيرة الحجم، معظمها

كتب بوصفها مقالات توجيهية) إلا كتب علمية محدودة مثل «تذكرة الدعاة» للبهي الخولي، و«الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية» و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» للشيخ محمد الغزالي. وجل الكتابات الأخرى خفيفة الوزن، مثل كتابات الأساتذة أحمد أنس الحجاجي، ومحمد لبيب البوهي، وصابر عبده إبراهيم وأمثالهم، على ما لهم من فضل، رحمهم الله وجزاهم خيرا.

من أجل هذا صدرت مجلة الشهاب على أساس أن تكون شهرية، وكان الأستاذ البنا صاحب الامتياز ورئيس التحرير المسئول.

وكلف تلميذه وزوج ابنته الداعية المعروف الأستاذ سعيد رمضان بإدراة تحريرها.

وقد صدر العدد الأول منها حافلا بالمقالات العلمية والفكرية في شتى أبواب الثقافة الإسلامية المعروفة، من العقيدة والتفسير والحديث وعلومه، والفقه والتشريع، وأصول الإسلام بوصفه نظاما اجتماعيا، والتاريخ الإسلامي.

وقد حرر الأستاذ البنا بقلمه معظم الأبواب، فكتب في العقيدة بادئا بالعقيدة في «الله» والأدلة على وجوده.

وكتب في التفسير بادئا بمقدمة فيه، ثم بدأ بفاتحة الكتاب ثم البقرة، بعد أن كان قد بدا له أن يبدأ من حيث انتهى الشيخ رشيد رحمه الله.

وكتب في علوم الحديث في «الرواية والإسناد». وترك لوالده الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا صاحب ترتيب المسند (الفتح الرباني) أن يأتي بمختارات من متون الحديث في كل عدد، مبتدئا بأحاديث فضل الجهاد في سبيل الله.

وكتب في «أصول الإسلام بوصفه نظاما اجتماعيا» مفتتحا بـ «السلام في الإسلام» ومشروعية الجهاد فيه.

كما كتب في التاريخ في فتح بيت المقدس (على أسوار إيلياء).

وترك لإخوانه في مصر والبلاد العربية أن يكتبوا في الموضوعات الأخرى. فكان

القاضي الفاضل الفقيه الأستاذ عبد القادر عودة يكتب في «الفقه الجنائي» وأسرار التشريع فيه. وقد أصدر فيه بعد ذلك موسوعته الشهيرة «التشريع الجنائي الإسلامي» في مجلدين.

أما مصادر التشريع، فقد كان يكتب فيها المستشار محمد الشافعي اللبان.

وقد ابتكرت المجلة بابا نافعا، سمته «سجل التعارف الإسلامي» تذكر في كل عدد منها جملة أسماء لأعلام في العلم والدعوة والفكر مع صورة شمسية لكل واحد منهم، وفي مقابل الصورة تعريف موجز مركز عن هذه الشخصية.

من هؤلاء الأعلام: الأساتذة حسن الهضيبي ومحمد أبو زهرة وعلى الخفيف ومصطفى السباعي، ومصطفى الزرقا، وعباس العقاد، ومحب الدين الخطيب، وعبد القادر عودة، والأستاذ معروف الدواليبي، ومحمد المبارك وغيرهم.

وقد حيا عدد من الشعراء المجلة بقصائد حية، منهم الشيخ الباقوري، والأستاذ محمد الأبشيهي، والأستاذ أبو النجا، وكانت أهم هذه القصائد قصيدة الشاعر الكبير محمود غنيم، والتي يقول فيها:

أرسل وميضك يا شهاب
واكشف عن الحق الحجابْ
رنت المحاجر واشرأبـ
ـت نحو مطلعك الرقاب

إلى أن قال:

حييت فيك عصابة
لبسوا على الطهر الثياب
ومضوا على سنن الهدى
والدين في شرخ الشباب

هـم في المصلى خـــاشـــعـــو
ن وفي الـكـريـهـــة أُسْــدُ غـــاب

لـيـــس الـتـــديّـــن عـنـدهـــم
مـــحض الســـجـــود والاقـــتـــراب

وتـبـــــتّل الـرهـبــــان فـــي
ربـع مـن الـــدنـيـــــا خـــراب

الـديـن زهـد واحـــتـــســـا
ب وهـو ســـعـي واكـــتـــســـاب

الـديـن أجـنحـــة مـــحـلـــقـــة
عـلى مـتن الـســـحـــاب

الـــديـن كـل الـديـن تحـــريـــر
الحـــمى من الاغـــتـــصـــاب

صدر من هذه المجلة المباركة خمسة أعداد، ولم تكن ملتزمة بمواعيدها المقررة للصدور، لانشغال الأستاذ البنا، ولأن الأمور بدأت تتطور تطورا خطيرا، ولاسيما في قضية فلسطين، وبدأت الحكومة تشدد الخناق على الإخوان، وترهقهم عسرا، تمهيدا للكيد الكبير الذي يكاد لهم. والله من ورائهم محيط.

سعيد رمضان:

كان سعيد رمضان من الدعاة الموهوبين في جماعة الإخوان، وقد بدأ صيته يذيع، وهو طالب بمدرسة طنطا الثانوية. فلما انتقل إلى القاهرة ليدخل كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول، أتاحت له الظروف أن يكون قريبا من الأستاذ البنا، وأن يصحبه في كثير من رحلاته، وأن تنتهي هذه الصحبة بالزواج من ابنته الكبرى وفاء

أم أيمن. ولما أنشأ الإمام البنا مجلته الشهرية «الشهاب» جعله مديرا لها، على حين كان الإمام هو صاحب الامتياز ورئيس التحرير.

كان سعيد يتمتع بروحانية دافقة، وعاطفية قوية، وأسلوب خطابي مؤثر، يدخل إلى القلوب فيحركها، مع جاذبية شخصية، ولباقة في الحديث، وقدرة على الحوار.

وقد أفادته صحبته للشيخ البنا، فتشرب أفكاره، واستوعب عظاته، ووظفها توظيفا حسنا، وسافر إلى بعض البلاد العربية في حياة الإمام البنا، وقابل بعض حكامها، ومنهم الملك عبد الله بن الحسين ملك شرقي الأردن، الذي عينه بعد دخول الجيش الأردني إلى القدس حاكما للقدس.

وقد سمعت الأخ سعيدا، وهو يثني على الملك عبد الله ثناء حارا، ويقول: إنه أذكى ملوك العرب، وأعلم ملوك العرب، إلى آخره..

وقد سمعت كلمة للأستاذ سعيد، ما زلت أذكر منها: أن أحدهم سأله: صار لكم عشرون سنة، وأنتم تتكلمون فماذا فعلتم؟ فكان جوابه: وأنتم صار لكم عشرون سنة، وأنتم تسمعون، فماذا فعلتم؟!

وهو جواب موفق ومفحم، فلماذا يَعُدُّ الناس المسئولية على المتكلم وحده؟ ولماذا لا يحمل المستمعون المسئولية مع المتكلمين؟ ولا ريب أن المسئولية مشتركة بين الجميع. وقد جاء في الحديث المتفق عليه: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته».

في محنة سنة ١٩٤٨، ١٩٤٩م، كان الأستاذ سعيد خارج مصر، فلم يشارك في المعتقل. وبعد انفراج الأزمة، عاد إلى مصر، ونشر شيئا من مذكراته في مجلة الإخوان تحت عنوان «مذكرات شريد يجوب الآفاق في سبيل الله» ولكنه لم يستكملها. وبعد ذلك أصدر مجلة «المسلمون» الشهرية بديلا للشهاب، وكان

يكتب فيها خواطر مشرقة، إنما هي شذرات من نبضات القلب، أو ومضات الفكر، أو تحليقات الروح!

وكانت له صلات طيبة ببعض رجال الثورة أول ما قامت، ثم ساءت بعد ذلك، واعتقل مع من اعتقل في الحل الأول (يناير سنة ١٩٥٤م).

فلما أفرج عن الإخوان في مارس بقي فترة في مصر، ثم غادرها إلى سورية مع عدد من الإخوان، ثم ساءت العلاقات بين الإخوان والثورة فصدر قرار بإسقاط الجنسية عن سعيد ومعه أربعة آخرون من الإخوان. وقدر الله ألا يعود إلى مصر، إلا ليدفن فيها.

لم يتح لي القدر أن أتعرف على الأستاذ سعيد عن كثب، وأن ألتقي معه وأجلس إليه وجها لوجه، ولكني استمعت إليه مع السامعين، ورأيته في المعتقل في عنبر رقم (٤) بالسجن الحربي مع المعتقلين، ثم نقل إلى عنبر الإدارة مع الأستاذ الهضيبي وكبار الإخوان. وذلك في اعتقال يناير سنة ١٩٥٤م.

ومع أننا جميعا من أبناء طنطا، إلا أنه غادرها سنة وصولي إليها، ولم تتهيأ لي الفرصة أن ألقاه في مواسم الحج، التي كان يحضرها، بعد إعارتي إلى قطر، ولاسيما أنه في السنين الأخيرة، كاد يكون قد اعتزل النشاط العام الذي عرف به، فقد عرفه الخاص والعام أنه كان شعلة متقدة، وقد كان من أبرز الذين سعوا إلى إنشاء رابطة العالم الإسلامي بمكة، وله في ذلك جهد يذكر ويشكر، يعرفه المؤسسون الأوائل.

ولكني أذكر أمرا أسفت له غاية الأسف، فقد أبلغني بعض الإخوة أن الدكتور سعيد رمضان حزين جدا على موقفي منه في أحد مواسم الحج! قلت للأخ: وماذا حدث مني؟ قال: لقيته أنت والأستاذ كامل الشريف، فصافحته مصافحة باردة، ولم تلق له بالا، ولم تسأله عن حاله. قلت لمحدثي ـ ولا أذكر من هو الآن ـ: هذا يا أخي لم يحدث قط، وما لقيت الدكتور سعيدا قط بعد أن خرج من مصر، لا مع

الأستاذ كامل الشريف، ولا مع غيره. وليس بيني وبينه ما يجعلني أقف منه هذا الموقف، بل إني أحبه وأقدره. وليس من خلقي أن أتعامل مع الناس بهذه الطريقة الفجة المرذولة، فكيف برجل له في الدعوة بلاء وجهاد، وله بالإمام البنا صهر وصِلة؟!

أخشى أن يكون الأمر اشتبه على الأخ سعيد، فربما ظن أحد المشايخ يوسف القرضاوي، ولم يكن هو القرضاوي، وبخاصة أنه لا يعرفني جيدا.

وشاء الله أن أكون أنا الذي أصلي على جثمانه حينما جيء به إلى القاهرة مع ابنه العزيز هاني، وصلينا عليه الجنازة في جامع رابعة العدوية بمدينة نصر بالقاهرة، ثم صحبنا الجنازة إلى مقابر الإمام الشافعي حيث دفن هناك بجوار شيخه وإمامه وصهره حسن البنا، حسب وصيته. وقلت كلمة وداع ودعاء بهذه المناسبة على القبر. فرحم الله أبا أيمن، وتقبله في الصالحين، وبارك في أولاده، وقد عرفت منهم هانئا وطارقا - وهما داعيان شهيران في أوربة، ولا سيما طارق - ولم أسعد بلقاء ابنه البكر الدكتور أيمن. نفع الله بهم جميعا حيثما كانوا.

عشرون عاما على تأسيس حركة الإخوان:

ومن المناسبات التي مرت في تلك الآونة: الاحتفالات بمرور عشرين عاما على تأسيس حركة الإخوان.

وقد أصدرت جريدة الإخوان اليومية عددا ضخما خاصا بهذه المناسبة، تضمن بعض تاريخ الإخوان، وألوانا شتى من أنشطتهم المتنوعة، ومساهماتهم في خدمة المجتمع.

كما احتفلت شعب الإخوان في أنحاء مصر بهذه المناسبة، وكان لي نصيب من المشاركات في عدد من البلدان.

وكان مما أسهمت به في هذه المناسبة «قصيدة» بعنوان «الدعوة تتحدث عن

نفسها» ألقيتها في طنطا وفي أكثر من بلد، وقد أخذها مني إخوان «محلة أبو علي» لتنشر في مجلة أو نشرة خاصة تظهر بهذه المناسبة، وكان لا بد لرجال المباحث أو القسم المخصوص كما كان يسمى: أن يوافق على مادة المجلة قبل أن تنشر، ولكن المجلة بقيت عنده مدة، فلم يوافق، ولم يرد مواد المجلة إلى أصحابها. وضاعت النسخة الوحيدة التي أملكها لهذه القصيدة.

ولكني ما زلت أحفظ أبياتا متناثرة منها، أنتهز هذه الفرصة لأسجلها هنا. منها:

يا دعوة الحق قصِّي ما لقيت فقد

يؤذى الهدى ويعان الباطل البور

قالت: ولدت وحق الشرق مكتئب

وباطل الغرب مسرور ومغرور

لا عدل في الأرض، بل ظلم وتفرقة

والعدل أعظم ما تحوي الدساتير

حق الإباحي محفوظ ومحترم

وحق ذي الدين مهضوم ومهدور

وفيها:

ظنوا وراء اللحى بُلْهًا ودروشة

مهلا، فخلف اللحى أسد مغاوير

للغرب هم أجل، للشرق هم أمل

للدين نصر، وللأوطان تحرير

وعن دعوة الإخوان:

كم أنشأت شعبا كالأنجم انتشرت

في مصر، دور هدى، يا نعمت الدور

أكرم بها شعبا، بل يا لها شعلا
تكوي وتهدي، كذاك النار والنور

تكوي أناسيّ أعيا الطبَّ داؤهمو
والكيّ آخر ما تأتي العقاقير

وترسل النور يهدي من له بصر
والعُمْي تنكر، والخفاش مذعور

ومنها:

كم من سفيه تعدَّى فابتسمت له
أصون ذيلي، فإن الكلب مسعور

وكم كبير تحداني يناطحني
فعاد من صخرتي والرأس مكسور

شعري الذي ضاع:

وبمناسبة ضياع هذه القصيدة أذكر أنه ضاع لي عدد من القصائد التي أنشأتها في تلك المرحلة، وجلها في الوطنيات والمناسبات الإسلامية، مثل قصيدتي في ذكرى الهجرة من بحر الطويل، وكان مطلعها:

سهرت إلى نجم السها أتطلع
وأصبحت من جام الأسى أتجرع

وما بي هوى ليلى ولا عشق زينب
ولا غرني قرط وعقد مرصع

ولكنني أهوى العلا في محمد
وليس لقلبي في سواه تطلع

ومن هذه القصيدة:

فـــهل كـــان أسطول، وكـــانت قنابل

وكـانت مـظـلات تـقـــيـــه وتمنع؟

عـــــديم عـــــديم كــل هــذا، وإنمــا

هو النصــر من أفق الســمــاوات يطلع

بحـــسـبك نسج العنكبــوت مظلة

وقنبلة مــن صنع ورقـاء تســـجع

وكنت لا أزال على الاعتقاد الشائع بأن هناك حمامة عششت على الغار، وعنكبوتا نسجت عليه، ولم يثبت هذا بحديث صحيح، وبخاصة ما يتعلق بالحمامة، والقرآن يقول: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ (التوبة: ٤٠)، والحمام والعنكبوت جنود مرئية.

ومن هذه القصيدة:

ومــاذا ستـجـدينا القـصـور شـوامـخًـا

وأخـلاق أهــلهـــا خـراب وبلقع؟

ومــاذا يفــيــد القــز والجلد أجـرب

وهل ينفع الطربوش والرأس أقـــرع؟

ومن القصائد الضائعة قصيدة وداع الشهداء في فلسطين، وهي من بحر الخفيف، ولا أذكر إلا مطلعها:

زمـلـوهـم بمـا بـهـم مـن ثـيـــــاب

لن يعــيب الحـســامَ بالي القـــراب!

ومن هذه القصائد قصيدة اجتماعية عنوانها «نساء اليوم» ألقيتها في دار الإخوان، تعليقا على ما نشر في الصحف من أن بعض الجمعيات النسائية، اجتمع أعضاؤها، وكان لهن مطالب منها: ضرورة حذف «نون النسوة» من لغة الخطاب! فكان مما جاء في القصيدة:

ما الذي طالب النساء به اليو

م: أطالبن انجلترا بالجلاء؟

طلب الغيد حذف نون إناث

يا لها من مطالبٍ شماء!

وغدا يطلبن (الذين) و(وهذا)

معرضات عن (هذه) و(اللائي)

وغدا يلتمسن بكرا وعمْرا

بدلا من سعاد أو أسماء

لا تقولوا: هذا بعيد وناءٍ

ليس شيء على أولاء بناءِ!

ومن أهم القصائد الضائعة التي أسفت عليها: قصيدة تأملية أنشأتها مبكرا تحمل نزعة فلسفية، وكنت في السنة الأولى الثانوية، وعنوانها «مناجاة القبر» لا أذكر إلا بيتين منها، هما:

حنانيك ماذا في حناياك يا قبر

بربك خبِّر قبل أن يفدح الخُبْر

ألا ليت شعري ما تكنُّ ليوسفٍ

أروح وريحان أم النار والجمر؟

وقصيدة أخرى أنشأتها بمناسبة سكناي في بيت كان مشبوها، وقد اتخذ وكرا للفساد، ولم نكتشفه إلا بعد سكنانا فيه، فبقينا فيه شهرا واحدا، ثم رحلنا عنه، وفيه قلت:

إن أنس لم أنس دارا كنت ساكنها
تبا لساكنها، تبا لكاريها

قد خيم الشر فيها، واستطال بها
زرع المفاسد إذ دارت سواقيها

ابن الفضيلة يبدو كاليتيم بها
وابن الرذيلة يعلي رأسه تيها

كم من عجوز بها شمطاء شائهة
هي (العُرلآء) حقا ليس تشبيها

تميس في الخز كالطاووس تائهة
والخز يخزى ويأسى من مخازيها

قوادة في اقتناء الغيد بارعة
صيادة لشباب الشر تغويها

أمضيت شهرا بها قد خلته سنة
ساءت نهاراتها، ساءت لياليها

إلى آخر القصيدة وكانت أكثر من ثلاثين بيتا.

وقصائد في مناسبات وطنية، أو دينية مثل المولد النبوي، وقصيدة في رثاء الشيخ المراغي، وغيرها، كلها ذهبت فيما ذهب. تخلص منها إخواني الذين أودعتها عندهم خوف مداهمات التفتيش، وهذه ستكشفهم وتدل عليهم، فلم

يكن منهم إلا أن أحرقوها، وهم لا يعلمون أنهم إنما أحرقوا معها قلبي، سامحهم الله، وجزى من خوفهم إلى هذه الدرجة ما يستحق.

حادث السيارة الجيب:

ومن الحوادث التي وقعت في هذه الفترة: حادثان مهمان، كان لهما أثر بارز في تاريخ جماعة الإخوان.

الحادث الأول، هو ما سمي بحادث «سيارة الجيب»، وهي سيارة ضبطت فيها أوراق خطيرة تتعلق بالنظام الخاص في الإخوان، وما يخطط له من تدبير انقلاب لنظام الحكم الملكي المصري، وتحويله إلى نظام شوري إسلامي. وقد هرب الذي كان يسوق السيارة، ولكن الأوراق كشفت كل شيء.

وقد اتهم فيها عدد من الأفراد، سيقوا إلى السجن، ثم إلى المحاكمة. وقد طنطنت الصحف ـ على عادتها ـ بهذه الواقعة، وشنعت على الإخوان بوصفهم إرهابيين يعملون على قلب نظام الحكم بالقوة. ولو أنهم نجحوا في تدبيرهم لأصبحوا أبطالا، ونثرت لهم الأزهار، ووضعت على رءوسهم التيجان، وعُدُّوا محررين للوطن، ومنقذين للأمة، وتسابق رجال القانون الدستوري يسوِّغون عملهم هذا في ضوء «الفقه الثوري» كما حدث لرجال ثورة يوليو من بعد.

ولكن لأنهم لم ينجحوا، صوبت لهم السهام من كل جانب، وسمي عملهم هذا تخريبا وإرهابا وعنفا، وجريمة يعاقب عليها القانون. وصدق الشاعر الجاهلي حين قال:

والناس من يلق خيرا قائلون له

ما يشتهي، ولأم المخطئ الهبل!

على كل حال، لقد أحيلت هذه القضية إلى محكمة مدنية، برئاسة المستشار

أحمد بك كامل، وكان قد اتهم فيها أكثر من ثلاثين شخصا، منهم عبد الرحمن السندي، ومصطفى مشهور، ومحمود الصباغ، وأحمد حسنين، وأحمد زكي، وعادل كمال، وغيرهم.

وكان الجو السياسي قد تغير، بعد سقوط حكومة إبراهيم عبد الهادي، وكانت فرصة ليصول فيها المحامون الإسلاميون والوطنيون، أمثال مختار عبد العليم، وشمس الدين الشناوي، وعبد المجيد نافع، وعزيز فهمي، وأحمد حسين وغيرهم. وأن تسمع شهادات رجال كبار مثل اللواء المواوي، و اللواء فؤاد صادق، وغيرهما.

وقد أصدرت المحكمة فيها حكما تاريخيا، برأ أكثرية المتهمين، وحكم على أفراد قليلين منهم بأحكام مخففة، ما بين سنة وثلاث سنوات. ولكن الشيء المهم في الحكم أنه أنصف الإخوان بوصفهم جماعة إسلامية وطنية. وأبرز دورهم الوطني والجهادي في مصر وفلسطين، ودورهم الثقافي والاجتماعي في خدمة مصر. ثم كانت المفاجأة أن انضم رئيس المحكمة المستشار الكبير أحمد كامل بعد ذلك إلى الإخوان، ونشرت ذلك الصحف بالخط العريض: حاكمهم ثم انضم إليهم!

قتل الخازندار:

والحادث الثاني من الحوادث التي وقعت في هذه الفترة، وكان لها أثر سيئ على الإخوان: قتل القاضي أحمد الخازندار، قتله اثنان من شباب الإخوان من المنتمين إلى النظام الخاص. هما محمود سعيد زينهم، وآخر نسيت اسمه. وقد قبض عليهما وسيقا إلى المحاكمة وحكم عليهما بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة.

لم يكن للأستاذ حسن البنا المرشد العام علم بهذه الحادثة، ولا أذن فيها، ولا أخذ رأيه فيها. إنما الذي تولى كبرها، وحمل تبعتها هو النظام الخاص ورئيسه

عبد الرحمن السندي، الذي دبر العملية وخطط لها، وأمر بتنفيذها. ولما سئل: كيف تقوم بمثل هذا العمل، دون أن تأخذ أمرا صريحا من المرشد العام؟

قال: إني سمعت من المرشد ما يفيد جواز قتل هذا القاضي، وإن لم يكن تصريحا.

قيل له: وماذا سمعت من المرشد؟

قال: عندما أصدر القاضي الخازندار حكمه على بعض شباب الإخوان في إحدى الحوادث بالحكم سبع سنوات، في حين حكم في قضية أخرى من أخطر القضايا على المتهم بالبراءة، قال: ربنا يريحنا من الخازندار وأمثاله.

قيل له: وهل مثل هذه الكلمة تعطيك فتوى بشرعية قتله، مع أن مقصود الأستاذ: ربنا يريحنا منه بتعيين القضاة العادلين الصالحين، أو بالموت أو بالعزل، وليس بالقتل. فالقتل لا يحل المشكلة قط.

ولقد سمعت من الأخ الكبير الأستاذ محمد فريد عبد الخالق، وكان رئيسا لقسم الطلاب في ذلك الوقت، وكان من القريبين من الأستاذ البنا، يقول: إنه دخل على الأستاذ البنا، بعد نشر وقوع الحادثة، فوجده أشد ما يكون غضبا وحنقا، حتى إنه كان يشد شعره من شدة الغضب، وقال له: أرأيت ما فعل إخوانك يا فريد؟ أرأيت هذه الجريمة الحمقاء؟ إني أبني وهم يهدمون، وأصلح وهم يفسدون. ماذا وراء هذه الفعلة النكراء؟ أي مصلحة للدعوة في قتل قاض؟ متى كان القضاة خصومنا؟؟ وكيف يفعلون هذا بدون أمر مني؟ ومن المسئول عن الجماعة: المرشد العام أم رئيس النظام الخاص؟

هؤلاء سيدمرون الدعوة. إلى آخر ما قال الأستاذ حسب رواية الأستاذ فريد، وقد سمعت منه هذه القصة أكثر من مرة.

لقد كان هذا خطأ، بل خطيئة ارتكبها النظام الخاص، وهو الذي يتحمل وزرها. وقد شعر الأستاذ البنا في الآونة الأخيرة بأن النظام بدأ يستقل بنفسه،

ويتمرد على سلطانه، ويجعل من نفسه جماعة داخل الجماعة، أو دولة داخل الدولة، بل يرى أن كلمته يجب أن تكون هي العليا، وهو مشكلة عويصة يبدو أن الأستاذ بدأ يفكر في حلها، ويسر إلى بعض المقربين منه بخصوصها، وإن لم يهتد سبيلا إلى حلها، أو لم يمهله القدر حتى يجد طريقا لعلاجها.

ولقد اتخذت هذه الحادثة «حجة» لاتهام الإخوان بالعنف، ووصمهم بالإرهاب، وقد ناقشت تهمة «الإخوان والعنف» في كتاب «الإخوان المسلمون سبعون عاما في الدعوة والتربية والجهاد»[1] وفندت كل الشبهات المطروحة، وخصوصا شبهة قتل الخازندار، التي كانت حادثة فريدة لم تتكرر في تاريخ الإخوان، على كثرة ما صدر ضدهم من أحكام قاسية من قضاة مدنيين وعسكريين، ولم يفكروا يوما في الانتقام من أحد منهم.

بل إن الإخوان قد رأسهم وتولى زمامهم بعد مرشدهم الأول أحد كبار القضاة، وهو المستشار حسن بك الهضيبي المرشد الثاني للإخوان. وهو مستشار بمحكمة النقض الكبرى. وكان وكيله بعد ذلك أحد القضاة المرموقين، وهو القاضي الفقيه عبد القادر عودة، صاحب الموسوعة الجنائية الإسلامية (التشريع الجنائي الإسلامي) في جزأين.

وسأعود للحديث عن «النظام الخاص» ورأيي فيه، في مرحلة لاحقة إن شاء الله.

وقفة تأملية مع الإخوان:

وأحب أن أرجع إلى الوراء أكثر من نصف قرن، بعد مضي خمسة أعوام عليّ في جماعة الإخوان؛ لأقف مع نفسي وقفة تأمل ومحاسبة، أريد أن أسأل نفسي: هل كان انضمامي إلى دعوة الإخوان المسلمين خيرا لي في ديني ودنياي؟ وهل استفدت من هذه الدعوة أو لا؟

---

(١) نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة، ومؤسسة الرسالة في بيروت.

وأود أن أقول بكل صراحة وجلاء: إنني حققت مكاسب دينية ومعرفية كبيرة، واجتنيت فوائد جمة بانضمامي إلى دعوة الإخوان:

١ـ أنها وسعت أفقي بفهم الإسلام فهما شاملا، كما شرعه الله تعالى، وكما أنزله في كتابه، وكما دعا إليه رسوله، وكما فهمه أصحابه، فهو دين ودنيا، ودعوة ودولة، وعقيدة وشريعة، وعبادة وقيادة، ومصحف وسيف، وقد قال تعالى لرسوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (النحل: ٨٩).

وقد قرر جميع الفقهاء: أن الشريعة حاكمة على جميع أفعال المكلفين، فلا يخرج فعل منها عن حكم شرعي تقرره الشريعة.

فأصبحت أفهم الإسلام بهذا الشمول، ولم يعد مقصورا على أداء الشعائر، كما كنت أتصور من قبل، وكما لا يزال الكثيرون يتصورون إلى اليوم.

٢ـ أسقطت عني فريضة «العمل الجماعي لنصرة الإسلام» فمن المؤكد اليوم: أن نصرة الإسلام بالقول والعمل والدعوة والبذل، حتى يستعيد القيادة التي عزل عنها، ويعود حكم شريعته ليشمل كل جوانب الحياة، والوقوف في وجه التيارات المعادية للإسلام ودعوته وشريعته وحضارته وأمته: كل ذلك لا يمكن أن يتم بالجهود الفردية المبعثرة، بل لا بد من عمل تقوم به جماعة، تجتمع على أهداف واضحة، ومفاهيم بينة، يجمعها الفهم الدقيق، والإيمان العميق، والترابط الوثيق، لتحقيق الأهداف الكبرى للأمة الإسلامية، بعد أن هدمت الخلافة الإسلامية، ولم يعد للأمة خليفة ولا إمام، ولا رباط ولا نظام. ومن المعلوم أن يد الله مع الجماعة، وأن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، وأن الذئب إنما يأكل من الغنم الشاردة، وأن التعاون على البر والتقوى من فرائض الإسلام.

وإذا كان أعداء الإسلام يعملون مجتمعين مترابطين، فلا يجوز أن نقابلهم منفردين متناثرين، والله تعالى يقول: ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٢، ٦٣)، فأشار إلى أن النصر إنما يتحقق بالمؤمنين المترابطين المؤتلفين.

٣ـ انتقلت من مجرد «واعظ ديني» في القرية أو القرى المجاورة إلى «داعية إسلامي». فلم يعد همي محصورا في الحفاظ على التدين الفردي في نفس المسلم، وإن كان هذا ضروريا ولا بد منه، ولكن لا بد من «يقظة إسلامية» عامة، تصحو بها العقول، وتحيا بها القلوب، وتنهض بها الشعوب.

الواعظ الديني معني بترقيق القلوب، وتذكير الناس بالموت، واستخدام الرقائق والحكايات وأحاديث الترغيب والترهيب، صحت أم لم تصح. والداعية الإسلامي مهمته أن يثقف الفكر، ويوقظ الشعور، ويشد العزائم، ويعلي الهمم، ويحشد الطاقات، ويجمع القوى، ويوثق الروابط، ويجمع الأمة ما استطاع في ساحة الإسلام.

٤ـ وبانضمامي إلى دعوة الإخوان، انتقلت من الهموم الصغيرة إلى الهموم الكبيرة، ومن المطامح التي تتعلق بشخصي إلى الآمال المتعلقة بأمتي. لم يعد كل طموحي أن أتخرج، ثم أتوظف، ثم أتزوج، وأكون لنفسي مستقبلا خاصا، بل أصبح طموحي أعمق وأكبر من ذلك، وغدت آمالي أعرض وأوسع من مجرد المكاسب الشخصية، والمستقبل الفردي.

أصبحت أطمح إلى تحرير وادي النيل وديار العرب والإسلام من كل سلطان أجنبي.

وأطمح إلى طرد الأفكار والأنظمة والقوانين الوضعية المستوردة، وإحلال الأفكار والأنظمة والأحكام الإسلامية محلها.

وأطمح إلى أن تتقدم الأمة المسلمة، وتأخذ مكانها في ركب العلم والتكنولوجيا، وتخرج من سجن التخلف الرهيب.

وأطمح إلى أن تتوحد الأمة بعد أن فرقتها العصبيات الجاهلية، والمذاهب المستوردة، والأنانيات الحاكمة، ناهيك بالفتن الاستعمارية التي كان شعارها: فرق تسد.

وأطمح إلى أن تعود الخلافة الإسلامية، لتقود الأمة تحت راية القرآن، وزعامة محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد استحالت همومي الصغيرة، إلى هموم كبيرة، هموم أمة كبرى من المحيط إلى المحيط.

٥ ـ ومما استفدته من مدرسة الدعوة: الخروج من العزلة التي فرضت على أبناء الأزهر، نتيجة التعليم المزدوج، فكان أبناء مصر طائفتين: «دينية» لمن يتخرج في الأزهر، و«مدنية» لمن يتخرج في التعليم العام، وبين الفريقين حواجز ثقافية ونفسية تفصل بينهما، ولا يكاد أحدهما يلتقي الآخر. فكان من فضل دعوة الإخوان أن أزالت الحواجز، وأذابت الفوارق المتوارثة بين الفئتين، وكانت شعبة الإخوان هي «الخلاط» الذي يمزج الجميع، ويجمع بينهم في رحاب الدعوة.

ولهذا عرفت كثيرا من شباب المدارس الثانوية، واستمعت إليهم، كما استمعوا إلي، واستفاد كل منا من صاحبه، ولم تعد أي عقدة بين أهل «العمائم» وأهل «الطرابيش» أو بين المشايخ والأفندية.

لقد تعرفت إلى كثير من هؤلاء «الأفندية» من رجال الدعوة، يصعب حصرهم، أذكر منهم الأستاذ حسني الزمزمي، وكان رجلا حقوقيا، مثقفا داعية، عالما بالعربية، قارئا مجيدا للقرآن، له نظرات نقدية فيما يقرأ ويسمع، وكان له شيخ أخذ عنه، وكثيرا ما يقول: حدثني شيخي الشيخ فهميّ. وللأستاذ

الزمزمي حديث أطول سيأتي عندما نتحدث عن «المعتقل» في المرحلة القادمة، بإذن الله.

وكان من الشخصيات التي عرفتها في الإخوان: الأستاذ علي جعفر المدرس الأول للغة العربية في المدرسة الثانوية، وكان رجلا متضلعا في اللغة مع خفة الروح، فكان في أحاديثه الدعوية يمزجها بفوائد لغوية، في أثناء حديثه، فيقول: ولن نتزحزح عن موقفنا قيد شعرة، ولا يقال: قَيد شعرة، ولو قطعونا: إرْبا إرْبا، ولا يقال: إرَبا إرَبا. وسنطلق «العنان» لشباب الأمة ليحملوا راية الجهاد، ولا يقال: (العَنان) إنما يقال: بلغ عَنانَ السماء.

ويقول الأستاذ جعفر: اعذروني، فأنا تغلبني مهنة المدرس، على مهنة الداعية.

وقفة نقدية مع الإخوان:

ومع ما اجتنيته من مدرسة الدعوة الإخوانية من ثمرات لا أجحدها، كما اجتناها أمثالي من الشباب الذين التحقوا بموكب هذه الدعوة، والتزموا بموقفها نحو إسلامهم ووطنهم وأمتهم، وتجنبوا ضياع «الشاة المنفردة» التي يلتهمها الذئب إذا بعدت عن القطيع، كما اجتنبوا متاهة الأحزاب التي أغرقت الشباب في دوامة من الصراعات من أجل السلطة، ولم تتعهدهم بأي قدر من التربية والتوجيه الديني والأخلاقي.

مع هذا أود أن أقف في هذه المرحلة ـ المرحلة الثانوية بالنسبة لي ـ وقفة نقدية أعاتب فيها الإخوان، على نهج ما يسمونه في عصرنا «النقد الذاتي» أو ما نسميه بلغتنا الإسلامية «محاسبة النفس».

لقد التقطني الإخوان، فوجهوني في نشر الدعوة هنا وهناك، واعتصروني اعتصارا، دون أن يكون لهم أدنى اهتمام لتوجيه مثلي إلى ما يجب أن يقرأه وأن يعده للقاءاته ومحاضراته في البلدان المختلفة. فكنت أنا الذي أختار الموضوع،

وأحدد عناصره، وأملأ فراغه بما يتراءى لي، وأقرأ له في إطار ما لدي من كتب وهي محدودة جدا في ذلك الوقت.

صحيح أنه كان عندي من الوسائل والإمكانات الشخصية ما يشد الناس إلي، ولكن كان يمكن أن يكون أدائي أفضل، وإنتاجي أغزر، وموضوعاتي أخصب، لو كان معها التوجيه والتنظيم والإعداد العلمي. ثم التقويم والمراجعة للدعاة وأدائهم وأثرهم في كل مدة من الزمن، كل ثلاثة أشهر أو ستة أشهر أو سنة.

وربما رد بعض الناس ذلك إلى عيب في الجماعة، هو: ضَعف الاهتمام بالجانب الثقافي أو العلمي أو الفكري فيها، حتى شيخنا البهي الخولي عندما وجهنا في «كتيبة الذبيح» كان أكبر همه التوجيه الروحي والسلوكي، وهو مهم ولا شك، ولم يكن همه التكوين العلمي أو الثقافي، ولذا لم يوجهنا إلى أي كتاب نقرؤه، أو يكلفنا بأي شيء علمي نقوم به. كانت الفكرة المسيطرة: أن يدربنا على «السمع والطاعة»، فعلينا أن نقول لقادتنا ما قال إسماعيل لأبيه: يا أبت افعل ما تؤمر. فهو يريد جنودا مطيعين، أكثر مما يريد دعاة مثقفين.

وربما كان سببه اعتمادهم على مرشدهم ومؤسس حركتهم الأستاذ البنا، فرسائله ومقالاته مصدر تثقيفهم، ودروسه الأسبوعية كل ثلاثاء معين توجيههم. فإذا شغلت الأستاذ البنا الشواغل الكثيرة: الدعوية والوطنية والإسلامية، خوى وفاضهم، ونفدت بضاعتهم، وقل المعروض في سوقهم.

وهو ما شعر به الأستاذ البنا، وجعله يفكر في إصدار مجلة (الشهاب) لتكون مددا ثقافيا مركزا للإخوان، كما ذكرنا من قبل. ولكن المجلة وحدها لا تكفي، فلا بد أن يتخلل ذلك كيان الجماعة، ويدخل مناهجها التثقيفية والتربوية، وأن يقدم العلم على العمل، كما هو منهج القرآن والسنة، فقد نزل قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ (العلق: ١) قبل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) ﴾ (المدثر: ١ - ٤).

ولكن الإخوان شاع لديهم إيثار الجانب العملي والجهادي على الجانب العلمي والفكري، وهذا المناخ هو الذي ولد فيه الاتجاه الثقافي الذي سمي فيما بعد «لجنة الشباب المسلم» التي سعت إلى ترجمة رسائل الأستاذ أبي الأعلى المودودي، ومحاولة تلقيح فكر الإخوان بفكر «الجماعة الإسلامية» في شبه القارة الهندية.

وكنت أتمنى من الإخوان أن يكون لديهم تفكير «إستراتيجي» فيما يتصل بشبابهم، والانتفاع الأقصى بمواهبهم وقدراتهم الخاصة، ومساعدتهم في التوجه إلى أفضل ما ينفعهم وينفع دعوتهم وأمتهم.

كان يمكنهم أن يوجهوا مثلي إلى تدريب قلمه على الكتابة، بدل أن تستنفد كل طاقته في الخطاب الشفهي، ولم أكن أكتب إلا عناصر الموضوع الذي أتحدث فيه.

وكان يمكنهم أن يوجهوني إلى تعلم «اللغة الإنجليزية» وأن يساعدوني ماديا عليها، وقد كان لدي قدرة لغوية غير عادية، ولدي وقت فراغ، خصوصا في عطلات الصيف، ولو تم هذا لكان فيه خير كثير، لي وللدعوة التي نذرت حياتي لخدمتها. ولكنهم لم يفعلوا، بل لم يخطر لهم ذلك ببال.

كان يمكنهم أن يرتبوا لقاءات منهجية لشباب الدعاة من الإخوان في الأقاليم بالأستاذ البنا، ليتعلموا منه، ويستمعوا إليه، ويلقوه وجها لوجه، في دروس معدة ومخططة، ولو في أثناء العُطَل، فيقبسوا من علم الأستاذ وثقافته، وحسن تجربته، ويشربوا من روحه.

وكذلك من يرشحهم الأستاذ البنا من الدعاة والعلماء الذين يراهم أهلا لتوجيه الدعاة.

ولكنهم للأسف لم يفعلوا، بل لم يفكروا مجرد تفكير في مثل ذلك، فقد كان الكثيرون تغيب عنهم النظرة الإستراتيجية أو الاستشرافية للمستقبل.

هذه ملاحظة ناقدة سريعة ولكنها لا تمس جوهر الدعوة وسمو أهدافها، وعظم مجهودها في خدمة الدين والأمة بحال.

(٨)
حل الإخوان ومعتقل الطور

حل الإخوان ومعتقل الطور

مرحلة جديدة وخطيرة:

لم تنته المرحلة الثانوية بالنسبة لي بعد، ولكني أردت أن أفرد الفترة القادمة منها بفصل خاص، لما وقع فيها من أحداث كبار، وأهوال جسام، كان لها أثرها في حياتي ومسيرتي خاصة، ومسيرة الدعوة الإسلامية والشعب المصري والعربي عامة.

حل الإخوان في ٨ من ديسمبر عام ١٩٤٨:

كان أول حدث وقع هذه المرحلة، هو: «حل جماعة الإخوان المسلمين» ومصاردة كل مؤسساتها، والاستيلاء على أملاكها، وحظر كل نشاطاتها، ومنع أي تجمعات لأفرادها والمنتمين إليها، فكل خمسة منهم ضمهم مجلس، فقد خالفوا القانون واستحقوا العقاب.

وترتب على هذا الحل في ظل الأحكام العرفية: أن صدرت أوامر الحاكم العسكري العام النقراشي باشا باعتقال عدد كبير من الإخوان في القاهرة ومختلف المديريات.

وتكهرب الجو في مصر وتوتر، وساد الغليان في الشارع المصري عامة، ولدى الإخوان خاصة. وسئل مرشد الإخوان عن رأيه في هذا الحل للجماعة، فقال: هذا بمثابة أن يفقد شخص ما «شهادة ميلاده» - وبتعبيرنا اليوم «بطاقته الشخصية» - فهو موجود بالفعل، ولكن لا يملك ورقة رسمية تثبت وجوده.

وهنا يبرز سؤال في الأذهان هو: لم وقت حل الإخوان في هذه الظروف العصيبة بالنسبة للقضية الفلسطينية؟

ولقد أجاب الأستاذ البنا رحمه الله عن هذا السؤال، فقال: إن رغبة الحكومات العربية في إنهاء قضية فلسطين، وعلى غير ما تريد الشعوب: كان من العوامل التي أوحت إلى الحكومة بهذا الموقف(١).

هذا وقد ذكر الأستاذ البنا - قبل قتله - في مذكرة أسبابا بالإضافة إلى تصفية القضية الفلسطينية ردا على المذكرة التي قدمها وكيل الداخلية الأستاذ عبد الرحمن عمار وطلب فيها حل الإخوان، ومن هذه الأسباب الضغط الأجنبي، فقد أقر وكيل الداخلية نفسه للمرشد العام بأن مذكرة قدمت إلى النقراشي باشا من سفير بريطانيا وسفير فرنسا، والقائم بأعمال سفارة أمريكا، بعد أن اجتمعوا في فايد في ٦ من ديسمبر عام ١٩٤٨م يطلبون فيها المبادرة بحل الإخوان المسلمين. وذلك بالطبع طلب طبيعي من ممثلي الدول الاستعمارية، الذين يرون في الإخوان المسلمين أكبر عقبة أمام امتداد مطامعهم وتشعبها في وادي النيل وفي بلاد العرب، وأوطان الإسلام. وليست هذه أولى المرات التي طلب فيها هذا الطلب، بل هو طلب تقليدي كان يتكرر دائما على لسان السفير البريطاني في كل المناسبات لكل الحكومات. وكانت كلها تُحْجم عن إجابتها، فلقد طلبت السفارة من النحاس باشا في سنة ١٩٤٢ والحرب العالمية على أشدها، والألمان على الأبواب: حل الإخوان المسلمين، وتعطيل نشاطهم، فأبى أن يجيبهم إلى ذلك، واكتفى بإغلاق الشعب كلها، مع بقاء المركز العام إلى حين.

وكان في وسع النقراشي أن يرفض هذا الطلب، وأن يتفاهم مع الإخوان على وضع يريحهم ويريحه. ولقد كان الإخوان على أتم الاستعداد لهذا التفاهم، وخصوصا بعد عودة المرشد العام من الحجاز، إلا أنه لم يفعل وخطا هذه الخطوة

(١) انظر: الإخوان المسلمون والمجتمع المصري ص ٣٠.

التي لا تدل إلا على أن مصر ما زالت للأجانب قبل أن تكون لأبنائها، وأنه ما زال للأجانب كل النفوذ والسلطان في هذه الأوطان. ثم مضى في تفصيل الظروف والأسباب إلى أن قال: «إن هذا من تدبير اليهودية العالمية والشيوعية الدولية، والدول الاستعمارية، وأنصار الإلحاد والإباحية، الذين يرون في الإخوان السدَّ المنيع الذي يحول بينهم وبين ما يريدون».

وهذا الذي قاله الإمام البنا عن تدخل القوى الأجنبية وسفاراتها في حل جماعة الإخوان، قد أيدته الوثائق الرسمية فيما بعد، بما يدفع أي احتمال للشك أو الجدل.

يقول الأستاذ شمس الدين الشناوي المحامي في إحدى مرافعاته:

حديثي تؤيده الوثائق. لن نفتري على أحد، ولن تأخذنا الحماسة لنجدف في بحور الوهم والادعاء.. لقد كانت بطولة الإخوان المسلمين في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ مثار دهشة للعالم أجمع، ومثار خطر داهم على الكيان الصهيوني وقيام دولة إسرائيل.. ليس هذا الكلام تحيزا للإخوان أو تعصبا لدعوتهم، فقد شهد كبار ضباط الجيش المصري في حرب فلسطين أمام محكمة الجنايات التي كانت تنظر قضية «السيارة الجيب» التي اتهم فيها نفر من شباب الإخوان المسلمين بمحاولة قلب نظام الحكم وتغيير دستور الدولة بالقوة!!.

وقد شهد اللواء أحمد علي المواوي - بعد أن أقسم اليمين القانونية أمام المحكمة - «أنه كان يستعين بالمتطوعين من الإخوان المسلمين لطلائع الجيش وكقوة حقيقة، تعمل على جانبه الأيمن في الناحية الشرقية، وكانوا يصلون إلى النطاق الخارجي للمستعمرات اليهودية، ويزرعون الألغام من تحت الأسلاك الشائكة، ويستعملونها في تلغيم الطرق الموصلة إلى المستعمرات اليهودية، وقد نتج عن ذلك خسائر كبيرة لليهود، وتقدم لي من جرائها مراقبو الهدنة يشتكون من هذه الأعمال التي كانت تعمل وقت الهدنة، ولم يكن عند الجيش المصري ألغام».

ويواصل اللواء المواوي شهادته أمام المحكمة فيقول :

«وبالنسبة لقرية «العسلوج» فقد احتلها اليهود أول يوم للهدنة ، ونظرا لأهميتها فقد طلب رئيس هيئة الأركان المصرية باسترجاعها بأي ثمن ، فكلفتُ قائد المتطوعين المرحوم أحمد عبد العزيز بإرسال قوة صغيرة من المتطوعين بقيادة ملازم من جهة الشرق ، وقوة كبيرة من الجيش من ناحية الغرب ، تعاونها جميع الأسلحة ، ولكن القوة الصغيرة هي التي تمكنت من دخول القرية !» .

وشهد الصاغ محمود لبيب بأن المتطوعين احتلوا في ١٢ يوما : العوجة والعسلوج وبير سبع والفالوجا وعراق المنشية وبيت جبريل والخليل وبيت لحم ، ودخلوا في حدود القدس الجديدة ، وأصبح النقب جميعه تحت إشراف الإخوان المسلمين . كما شهد بمثل ذلك اللواء فؤاد صادق وغيره من الشهود مثل المرحوم الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين .

وترتب على هذه الروح الفدائية القوية التي أظهرها الإخوان المسلمون في حرب فلسطين : أن دب الرعب في قلوب اليهود ، وخشي الإنجليز - الذين يحتلون منطقة القناة - على أنفسهم ، بعد انتهاء حرب فلسطين . فدبرت المؤامرة للقضاء على الإخوان ، وتغييبهم عن الميدان لهذه الأسباب ، وأولها : قيام إسرائيل وبقاؤها بعد ذلك ! !

ويضيف الأستاذ محمد شمس الدين الشناوي :

لقد عقد موشى ديان مؤتمرا صحفيا في أمريكا سنة ١٩٤٨ ، وقد سأله أحد الصحفيين هذا السؤال :

هل يستطيع أن يضمن بقاء إسرائيل وسط دول كثيرة تعاديها وتضمر لها الشر ؟ !

فرد موشى ديان قائلا :

«إن إسرائيل لا تخشى لقاء هذه الدول مجتمعة أو متفرقة ، فهي كفيلة بهزيمتهم ،

ولكنها تكره أن تلقى فئة واحدة فقط هم: الإخوان المسلمون، وستكفينا حكومتهم مؤونتهم»!!..

وحتى يكون هناك مبرر لتنفيذ الخطة المدبرة: قدم الأجانب في مصر شكوى في ٩/٧/١٩٤٨ إلى السفير البريطاني في القاهرة، يذكرون فيها أن حياتهم في مصر أصبحت لا تطاق، للاعتداءات التي تحصل عليهم في شوارع القاهرة بزعم أن لهم صلة باليهود الذين يحاربونهم في فلسطين. وذلك برغم أنهم أظهروا حسن نواياهم نحو المصريين، ويؤكدون أن سلطات الشرطة المصرية لم تتدخل لمنع هذه الجرائم، وأن الإشاعات الرائجة هي أن جماعة الإخوان المسلمين تؤدي دورا مهما في هذه الحوادث!!

وجاء في ختام الشكوى: «وسنكون عارفين لفضلكم لو أنكم اتخذتم الإجراءات اللازمة لوضع حد لهذه الحوادث المشينة» (صورة للشكوى).

وفي ١٠/ ١١/ ١٩٤٨ اجتمع سفراء إنجلترا وأمريكا وفرنسا في فايد وقرروا اتخاذ الإجراءات اللازمة بواسطة السفارة البريطانية في القاهرة لحل جمعية الإخوان المسلمين التي فهم أن حوادث الانفجارات الأخيرة في القاهرة قد قام بها أعضاؤها. وأرسلت هذه الإفادة إلى رئيس المخابرات تحت رقم ١٣ في ١٣/ ١١/ ١٩٤٨ وترجمة الخطاب كالآتي:

الموضوع: اجتماع سفراء صاحب الجلالة البريطانية وأمريكا وفرنسا في فايد في ١٠/١١/١٩٤٨.

رقم القيد ١٨٤٣/ ١س/ ٤٨

التاريخ ١٣/ ١١/ ١٩٤٨

إلى رئيس المخابرات رقم ١٣.

«فيما يختص بالاجتماع الذي عقد في فايد في ١٠ الجاري بحضور سفراء

صاحب الجلالة البريطانية وأمريكا وفرنسا: أخطركم أنه ستتخذ الإجراءات اللازمة بواسطة السفارة البريطانية في القاهرة، لحل جمعية الإخوان المسلمين، التي فُهم أن حوادث الانفجار الأخيرة في القاهرة قام بها أعضاؤها».

إمضاء

(ج. د. أوبريان ماجور)

وفي ٢٠/ ١١/ ١٩٤٨ أرسل رئيس إدارة المخابرات فرع «أ» بقيادة القوات البريطانية بالشرق الأوسط إلى إدارة المخابرات ج. س-١٣ في القيادة العليا للقوات البريطانية في مصر خطابا هذه ترجمته الحرفية:-

الموضوع: جمعية الإخوان المسلمين.

رقم القيد: ١٦٧٠/ أ ن ت: ٤٩-٢٠/ ١١/ ١٩٤٨ إلى إدارة ج-س-١٣.

القيادة العليا للقوات البريطانية في مصر والشرق الأوسط.

١- بخصوص مذكرتكم رقم ٧٣٤/ أ ن ت/ ب/ ٤٨ المؤرخة في ١٧/ ١١/ ١٩٤٨.

٢- لقد أخطرت هذه القيادة العليا رسميا من سفارة صاحب الجلالة البريطانية بالقاهرة: أن خطوات دبلوماسية ستتخذ بقصد إقناع السلطات المصرية بحل جمعية الإخوان المسلمين في أسرع وقت ممكن.

٣- فيما يتعلق بالتقارير التي كانت قد رفعت من الرعايا الأجانب المقيمين بمصر، فقد أرسلت لوزارة الخارجية للعلم.

التوقيع

رئيس إدارة حرف أ

قيادة القوات البريطانية في الشرق الأوسط

كولونيل أ. م. ماك درموت

وبناء على ذلك أبلغت السفارة البريطانية النقراشي بهذا القرار المطلوب، وهو حل جماعة الإخوان المسلمين في أسرع وقت ممكن!! وكان ذلك مصحوبا بتبليغ شفوي بأنه في حالة عدم حل الإخوان المسلمين، فستعود القوات البريطانية إلى احتلال القاهرة والإسكندرية.

استدعى رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي وزير الداخلية وقتئذ اللواء عبد الرحمن عمار وكيل وزارة الداخلية، وشرح له الأمر ـ وهو طلب السفارة البريطانية حل جمعية الإخوان المسلمين وإلا احتلوا القاهرة والإسكندرية ـ وطلب منه كتابة مذكرة تبرر حل جمعية الإخوان المسلمين أمام الرأي العام، حتى لا يظهر أنه ينفذ ما طلبته السفارة البريطانية من تدخل سافر في الشئون الداخلية لمصر، وهي دولة مستقلة ذات سيادة من الناحية الرسمية!!

تعهد اللواء عبد الرحمن عمار بذلك، واتصل بالمديرين وطلب منهم أن يوافوه بالحوادث التي كان الإخوان المسلمون طرفا فيها، ولو كان مجنيا عليهم! وقد ثبت هذا في شهادته أمام محكمة الجنايات في قضية مقتل النقراشي.

وتحدث الأستاذ الشناوي عن محاولة الأستاذ البنا الاتصال بالقصر الملكي لمنع هذه الكارثة، والتفاهم لمعالجة الموقف بما يتفق مع المصلحة الوطنية، ولكنهم سدوا في وجهه كل الأبواب. وصدر قرار الحل في ٨ من ديسمبر عام ١٩٤٨، مشفوعا بمذكرة عبد الرحمن عمار، التي تتضمن أسباب الحل الظاهرية. أما الأسباب الحقيقية، فهي الاستجابة لرغبات الإنجليز والأمريكان والفرنسيين، وتمهيد الطريق لترسيخ جذور دولة بني صهيون، وإزاحة أهم عقبة في هذا الطريق، وهم الإخوان المسلمون.

وأغلقت دور الإخوان وصودرت ممتلكاتهم، واعتقل عدد كبير منهم من القاهرة والأقاليم، إلا فردا واحدا، هو قائد الجماعة ومؤسسها، هو حسن البنا.

ويضيف الأستاذ شمس الدين الشناوي:

ولقد سمعت بنفسي من الإمام الشهيد حسن البنا في مكتب فتحي رضوان

المحامي (الذي رفع دعوى بإلغاء قرار الحل أمام مجلس الدولة) وقد كلمني تليفونيا وطلب مني الحضور، لوجود شخص يريدني عنده، فذهبت إليه، ووجدت الإمام الشهيد حسن البنا. وبعد السلام ترك فتحي رضوان لنا الغرفة. وكان الإمام الشهيد يشعر بالأسى والمرارة لهذه الأحداث السريعة المتلاحقة، فحذرته من «الاغتيال» حيث كنت قد علمت أن بعض شباب السعديين ـ وعلى رأسهم فتحي عمر وكامل الدمياطي ـ قد اجتمعوا في ناديهم، وأقسموا على اغتيال حسن البنا ثأرا للنقراشي، وطلبت من الأستاذ البنا الاحتياط والحذر، فقال عليه رحمة الله:

ماذا أصنع، وقد اعتقلوا الإخوان وتركوني وحدي؟! لقد طلبت منهم اعتقالي فرفضوا، وقلت لهم: إن كان الإخوان المسلمون عصابة إجرامية، فأنا رئيسها! إنكم بذلك تقتلونني!! لقد قطعوا التليفون.. وسحبوا مسدسي المرخص، واعتقلوا أخي عبد الباسط الضابط الذي كان يصاحبني في تنقلاتي، وسرقوا سيارتي من أمام المنزل، ومنعوني من السفر إلى الخارج. وطلبت منهم الذهاب إلى عزبة أحد الإخوان ببنها، فرفضوا!! وكنت قد طلبت منهم زيارة الإخوان في معتقلهم في هايكستب فرفضوا. والآن يطلبون مني زيارتهم لأمر يقصدونه[1].

وقد سأل أحد الصحفيين الأستاذ البنا: ما الأسباب التي دفعت بالمسئولين إلى حل الإخوان؟ فقال: كما يقال: إن من هذه الأسباب: العوامل الحزبية التي تصاحب قرب موعد الانتخابات النيابية، إذ إنه من المعروف أن الحزب السعدي يريد أن يظفر بأغلبية برلمانية تمكنه من الاستمرار في الحكم، ومن المعروف أن الإخوان قوة شعبية ينتظر منها الصمود في هذا الموقف، فمن التكتيك الحزبي أن يشوه موقفهم بمثل هذا العمل، قبل حلول موعد الانتخابات الذي سيكون في أكتوبر سنة ١٩٤٩م، ما لم تطرأ عوامل أخرى على الموقف[2].

---

(١) انظر: كتاب «المؤامرة على الإسلام مستمرة» لجابر رزق ص ٣٦-٤٥.
(٢) المرجع السابق ص ٢٩، ٣٠.

ولقد كتب الأستاذ البنا رحمه الله قبل استشهاده مذكرة فَنَّد فيها: أسباب الاتهامات الباطلة التي انتحلتها حكومة السعديين للكيد للإخوان، وتدبير قرار الحل الغاشم الذي استصدرته وعنونَ لهذه المذكرة بعنوان: القول الفصل.

ويتحدث ريتشارد ميتشيل في كتابه عن «الإخوان» عن هذه الفترة فيقول:

وفي هذه الأثناء كتب البنا رسالة «القول الفصل» بعد أن يئس من تسوية الأمر مع الحكومة، ووزعت الرسالة في الخفاء، وقد أوردت وجهة نظر الإخوان فيما حدث لهم إبان تلك الفترة. والواقع أن البنا أنكر جميع التهم التي وجهت للجماعة في قرار الحل الأول، وردها إلى ظروفها، مبينا أنها جميعا مفتريات مختلقة، أو حوادث محرَّفة. وأضاف بعض التعليقات على الحوادث المختلفة التي وقعت قبل القرار وبعده، وأصر على أن الأسلحة التي كانت في حوزة الجماعة كان معترفا بها من قبل الحكومة وبعلم منها، إذ كانت جزءا من الاتفاق بين الجماعة والجامعة العربية، ولم يكن في النية استخدامها في أي نشاط سري عدا استعمالها في فلسطين.

أما الانفجارات التي حدثت في المؤسسات اليهودية فلم تكن - ولا يمكن أن تكون - على وجه قطعي بأمر من القيادة. وأردف قائلا: إن هذه الأحداث ينظر إليها بوصفها نتائج لحرب فلسطين، ولولاء بعض «مواطنينا اليهود» وزعمائنا المصريين الذي يشك فيه دون ريب. وعلى الرغم أنه أبدى أسفه لموت أحمد الخازندار، فإنه أصر على أن الجماعة لا يجوز أن تكون مسئولة عن أعمال أفراد أعضاء فيها، مذكرا الرأي العام: أن القاضي قد عرض نفسه لنقد الشبان، وذلك بحكمه بالسجن على شاب وطني هاجم البريطانيين[1].

---

(١) حكم هذا القاضي بأقصى العقوبة على الشاب الوطني لمجرد القبض عليه سائرا في الشارع الذي نهايته يوجد النادي الإنجليزي، وضبطت معه قنبلة.. بينما هذا القاضي كان قبل ذلك قد حكم بأخف العقوبة (سبع سنوات) على «حسن قناوي» سفاح الإسكندرية، الذي ارتكب أبشع سبع جنايات: «قتل بنات صغار بعد انتهاكهن»، وهي جرائم أثارت الغضب على القاضي، والفزع عند الرأي العام، ولاسيما في الإسكندرية.

كذلك أبدى البنا أسفه لمقتل النقراشي، ولكنه ذكَّر بأنه لم تكن هناك جماعة لتُسأل، ولم يكن هناك زعماء ولا خطة، لأنهم جميعا كانوا إما في السجون، وإما تحت المراقبة، ولم يكن الحادث إلا ما خشي منه كرد فعل للموقف، كما ذكَّر الناس باستنكاره الشديد لحادث إلقاء القنبلة على دار المحكمة، وأصر مرة ثانية على أن الواقع أنه إذا كانت القيادة غير قادرة على مزاولة سلطتها، فإن المسئولين الوحيدين عن هذه الحوادث هم وحدهم الذين ارتكبوها.

واستطرد البنا واصفا الاضطهاد والتعذيب اللذين تعرض لهما أعضاء الجماعة في حملة الاعتقالات الشاملة التي تمت دون اتهام: فهناك التعذيب في السجون، وفقدان العمل والمتاع، وهناك التفتيش التعسفي والمراقبة.

كذلك أنكر البنا التهمة بأن جماعة الإخوان المسلمين أصبحت هيئة سياسية، وأنها كانت تعمل على قلب نظام الحكم. ولخص في فصل ختامي ما قدمه الإخوان المسلمون لوادي النيل وللدول العربية وللأمة الإسلامية.

كانت هذه الرسالة آخر ما كتبه البنا، إذ قتل (رحمه الله) قبيل غروب الشمس في ١٢ من فبراير سنة ١٩٤٩م، بعد أن تلقى استدعاء مجهولا إلى المركز العام لجمعية الشبان المسلمين. وإزاء مبنى الجمعية، وعلى قارعة الطريق أطلق عليه الرصاص، بينما كان يهم بركوب سيارة أجرة مات بعدها بدقائق في أحد المستشفيات القريبة[١]. وكان البنا قد أخبر زملاءه بأن إحجام الحكومة عن القبض عليه معناه إصدار أمر رسمي باغتياله. وقد دلت التحقيقات والمحاكمات المختلفة التي جرت فيما بعد على أن اغتياله كان أمرا مدبرا دون ريب، أو على الأقل مرضيا عنه من رئيس الوزراء (مع احتمال تأييد القصر)، وأنه تم على يد أعضاء البوليس السياسي. ولم يقدم الذين اشتركوا في الاغتيال إلى المحاكمة، إلا حين أعاد ضباط

---

(١) يعلق الأستاذ صالح أبو رقيق قائلا:
الأعمار بيد الله . . . وإنما صعدت روحه إلى بارئها، بسبب النزيف؛ إذ امتنع الطبيب المعالج أن يزوده بالدم خضوعا للتعليمات العليا (د. محمد الترميني).

الجيش التحقيق في القضية بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ . وفي عام ١٩٥٤ صدرت الأحكام على المتهمين الرئيسيين الأربعة : فحكم على المتهم الرئيسي في الجريمة أحمد حسين جاد بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة، وحكم على ضابطين آخرين هما محمود عبد الحميد ومحمد محفوظ بالسجن خمسة عشر عاما، وعلى ضابط آخر هو محمود الجزار بسنة واحدة[1] .

وقد جاء في مذكرة «القول الفصل» هذه الفقرة :

من الذي يفعل هذا ويحكم به؟ الحكومة المصرية التي أخفقت في المفاوضات مع الإنجليز، فقطعتها وذهبت إلى مجلس الأمن فعادت بخفي حنين، وتركت قضية الوطن على رفوفه في زوايا الإهمال والنسيان، وتجاهلت الإنجليز بعد ذلك تجاهلا تاما، وتركتهم يفعلون ما يريدون حتى أضاعت بهذا التجاهل السودان، واتبعت سياسة التردد والاضطراب في قضية فلسطين، وقبلت الهدنة الأولى . فأضاعت بهذا القبول كل شيء، وحرمت الجيش المصري الباسل ثمرة انتصاره، وأفقدت الوطن ملايين الأموال وآلاف الرجال، فضلا عن فقدان الكرامة وسوء الحال والمآل، ودَلَّلت يهود مصر، فلم تتخذ أي إجراء يتفق مع موقفهم من مناصرة أعداء الوطن، التي يعيش فيها الأجنبي آمنا مطمئنا على نفسه وماله وعبثه وفساده، ويحمي جنودها حانات المعسكرات وبيوت العاهرات، ودور المنكرات، وأبواب المراقص والبارات، والتي عجزت كل العجز عن إنقاذ شعبها من براثن الفقر والمرض والجهل، والغلاء الفاحش الذي يَئِنُّ منه الأقوياء فضلا عن الضعفاء، والتي لا يؤيدها ولا يساندها إلا نفر قليل ضئيل من أصحاب المصالح الشخصية، فهي في واد والأمة في واد، هذه الحكومة تطارد الإخوان المسلمين، وهم الشعب، وتحكم عليهم بالإجرام والنفي والتشريد ومصادرة الأموال والأملاك والحريات .

ولو أخذت الأمور وضعها الصحيح، وكانت الكلمة للحق لا للقوة لحاكمناكم

---

(١) الإخوان المسلمون لريتشارد ميتشيل (١٦٣، ١٦٤).

يأيها المفرِّطون على التفريط، ولحاسبناكم على هذا الفجور أشد الحساب، ولكن دولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون[1].

اعتقال الإخوان إلا حسن البنا:

وكان الأمر العجب: أن يعتقل العدد الكبير من أفراد الإخوان، ولا يعتقل المرشد العام للإخوان، ومؤسس الحركة حسن البنا! وكان في هذا إشارة يفهمها الشخص العادي - فضلا عن اللبيب - أن هناك أمرا يبيّت بليل للرجل، والاعتقال يُعَدُّ أمانا بالنسبة له، أما إطلاق سراحه - وإخوانه وأتباعه معتقلون - فهي الفرصة الذهبية لتنفيذ ما يريدون بشأنه.

انتهز الأستاذ البنا الفرصة، ليكتب فيها الرد على مذكرة عبد الرحمن عمار وكيل وزارة الداخلية، التي تضمنت أسباب حل الإخوان، وفند كل الشبهات التي أوردها بمنطق قوي، واحدة بعد الأخرى. ولكن من يقرأ؟ ومن يسمع؟ فلم يتح لهذا الرد أن يراه أحد.

كما انتهز هذا الوقت ليمر على عدد من رجال الدولة، يحاول أن يصل معهم إلى تقارب أو صلح مع الحكومة، حفاظا على استقرار البلد وأمنه، وحرصا على جمع الصفوف وراء قضية الوطن من ناحية، وقضية فلسطين من ناحية أخرى، وتفاديا لوقوع ما لا تحمد عقباه.

ولكن للأسف لم يجد آذانا صاغية، ولا قلوبا واعية. ولقد قال له واحد ممن اتصل بهم، عندما قال: أخشى أن يحدث ما لا تحمد عقباه. قال له: وماذا عسى أن يحدث يا شيخ حسن؟ يقتل رئيس الوزارة، يأتي رئيس غيره! أما سمعت المثل العربي: إن ذهب عَيْر فعَيْر في الرباط! يعني: إذا ذهب حمار، فإن الحمير لم تنته، هناك حمار غيره يقوم مقامه.

---

(١) انظر: حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية ص٣١٦.

قتل النقراشي بوزارة الداخلية:

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر ديسمبر - أي بعد حل الإخوان بعشرين يوما - وقع ما حذر منه الإمام البنا، فقد أذيع نبأ اغتيال رئيس الوزراء ووزير الداخلية والحاكم العسكري العام محمود فهمي باشا النقراشي، في قلب عرينه وزارة الداخلية، أطلقت عليه رصاصات أودت بحياته.

وكان الذي قام بهذا العمل طالبا بكلية الطب البيطري بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة، اسمه عبد المجيد حسن، أحد طلاب الإخوان، ومن أعضاء النظام الخاص، الذي قبض عليه في الحال، وأودع السجن. وقد ارتكب فعلته، وهو يرتدي زي ضابط شرطة، لهذا لم يشك فيه حين دخل وزارة الداخلية، وانتظر رئيس الحكومة، حتى أطلق عليه رصاص مسدسه.

وعين إبراهيم باشا عبد الهادي، نائب النقراشي، خلفا له في رئاسة الوزارة، الذي صمم على أن يضرب بيد من حديد، وأن ينتقم لسلفه النقراشي.

وقابل عامة الإخوان اغتيال النقراشي بفرحة مشوبة بالحذر، فقد رد عبد المجيد حسن لهم كرامتهم، وأثبت أن لحمهم مسموم لا يؤكل، وأن من اعتدى عليهم لا بد أن يأخذ جزاءه! وكان الجو السياسي العام في مصر يسيغ ذلك، فلا بد - لكي نكون منصفين - أن نحكم على الأمور في إطارها الزمني، ولا نحكم عليها بمنطق زمننا نفسه. فقد أثبت التاريخ أن الاغتيال السياسي لا يحل مشكلة، وأنه كما قال أحدهم للشيخ البنا: إن ذهب عير فعير في الرباط، وأن كثيرا ما يكون الخلف أنكى وأقسى من سلفه. وفي هذه القضية، كان رد الفعل هو اغتيال حسن البنا، ثأرا للنقراشي، فأي خسارة أكبر من فقد حسن البنا، وإن ذهب شهيدا عند ربه؟!

ولم يكن للأستاذ البنا صلة بهذا الحادث، ولا علم له به. ولما سئل عنه: قال: إن جماعة الإخوان لا تتحمل وزر هذا الحادث، لأنها غير موجودة بحكم القانون؛

فكيف تتحمل تبعة عمل فرد ليس لها قدرة على أن تحاسبه، بل ولا مشروعية أن تسأله. وهو الذي حذرت منه: أن ينطلق الأفراد بدوافعهم الذاتية يفعلون ما يشاءون.

وقد اعتقلت الحكومة بعض أفراد مع عبد المجيد، منهم: عبد العزيز البقلي الترزي الذي خاط له حلة الضابط، والشيخ سيد سابق، الذي قيل: إنه أفتاه بذلك، والذي أطلقت عليه الصحف اسم «مفتي الدماء» واتخذ من ذلك مصورو الكاريكاتير مادة للسخرية والتشهير. ومما يذكر من نكات الشيخ سيد سابق (وهو رجل خفيف الروح) أنه عندما قبض عليه سألته المباحث عن «مالك» فقال: رضي الله عنه، كان إماما من أئمة المسلمين. قالوا: إنما نسألك عن «محمد مالك» الإرهابي الخطير الهارب! قال: هذا لم ندرسه في الأزهر، إنما درسنا مالك بن أنس!

وقد برأت المحكمة ساحة الشيخ سيد، وكان معنا في معتقل الطور، وسألناه بصراحة عن فتواه لعبد المجيد حسن، فأقسم لنا أنه لم تصدر منه فتوى له.

وكثير من القضايا التي كان الإعلام يضخمها، ويجعل من الحبة منها قبة، كانت تتمخض في النهاية عند القضاء عن الحكم بالبراءة، ولكن بعد أن يكون الإعلام قد عمل عمله في عقول الناس، لعدة أشهر، ثم يصدر حكم البراءة في عدة أسطر، وهو ما لا يزال إلى اليوم.

وأشهد لقد عرفت الأخ محمد مالك وصحبته، وصحبني عدة أيام بعد أن أفرجت عنه ثورة يوليو بعد قيامها، فرأيته شابا في غاية الصلاح، والدماثة واللطف، على حين أوحت الصحف بأنه غول أو سبع قاتل.

وكنا نحن طلاب الإخوان في حالة ترقب، ننتظر أن يصدر الأمر باعتقالنا في أي وقت، ولا سيما الطلاب الذين لهم زعامة وتأثير في محيطهم، ويخشى أن يؤثروا في معاهدهم ومدارسهم.

ولقد قابلنا ـ نحن الشباب والطلاب ـ اغتيال النقراشي بارتياح واستبشار، فقد شفي غليلنا، ورد اعتبارنا، ومما أذكره أني نظمت بيتين في هذه المناسبة ـ يعبران عن ثورة الشباب في هذه السنّ ـ خطابا لعبد المجيد حسن، قاتل النقراشي، كان الطلاب يرددونهما، وهما:

عبـد المـجيـد تحيـة وسلام
أبشـر، فـإنك للشـبـاب إمـام
سـمّمت كلبـا، جـاء كلبٌ بعـده
ولكل كلب عندنا «سَـمَّـام»

ولكن «الكلب» أو «العير» ـ كما عبر بعضهم ـ الذي جاء بعد المقتول، استمر أشد من سابقه وأقسى وأفظع، ولم يخفه ما حدث لسلفه، بل بالغ في القسوة والتنكيل والتشديد.

وهذا ما جربه كثيرون في مثل هذه الأحوال: أن يغتال رئيس أو حاكم، فيخلفه من هو شر منه وأسوأ بمراحل ومراحل، حتى ينشد الناس:

رُبَّ يوم بكيت منه، فلما
صرت في غيره بكيت عليه!

ومن هنا كانت فلسفة «الاغتيال» فلسفة عقيمة، لا تحل عقدة، ولا تعالج مشكلة، بل كثيرا ما تزيد الطين بلة، والداء علة.

والأنظمة عادة لا تقوم على فرد واحد، بحيث إذا زال، انهار النظام، وهوى بنيانه، بل الغالب أنها تقوم على مؤسسات، يقوم بها مجموعة من الناس، كلما سقط فرد، قام بعده من يسد مسده.

وهذا ما جعل الإخوان في عقودهم الأخيرة، يتبنون فلسفة أخرى تقوم على رفض سياسة الاغتيالات والعنف عامة، وتبني فلسفة الحوار والتغيير السلمي.

حادثة محكمة الاستئناف:

في هذه الآونة وقعت حادثة كان لها صدى ودوي، وهي حادثة محاولة نسف محكمة الاستئناف بالقاهرة، التي اتهم فيها الأخ شفيق أنس، وقبض عليه فيها، وكان ذلك بحجة أن فيها أوراقا تخص بعض قضايا الإخوان. وقد أغضبت هذه الواقعة الأستاذ البنا رحمه الله، وساءته، وثار على من فعلها ثورة شديدة، مما دفعه إلى أن يصدر بيانا نشرته الصحف في حينها، يبرأ فيه ممن اقترف هذه الفعلة، ويقول في نهاية بيانه عمن فعل ذلك أو شارك فيه: «هؤلاء ليسوا إخوانا، وليسوا مسلمين» بهذا الحسم البين.

وقد زعم بعض الإخوان أن الأستاذ البنا ضُغط عليه حتى أصدر هذا البيان، والواقع أن أحدا لم يضغط على الأستاذ، أو يطلَب إليه مجرد طلب أن يصدر هذا البيان، ولكن الرجل من واقع شعوره بالمسئولية أمام الله وأمام التاريخ، أصدر هذا البيان.

الاختفاء من المعهد بالسملاوية:

اتسعت دائرة الاعتقال، لتضم أعدادا أكثر من الإخوان، في أرجاء المملكة المصرية، واعتقل عدد من الإخوان في طنطا، وقال لي بعضهم: الدور عليك لا محالة.

وفكرت في الأمر أنا وأخي ورفيقي محمد الدمرداش مراد، وتشاورنا في الأمر، وقررنا أن نغيب عن المعهد، ونختفي معا في قرية الأخ الدمرداش (السملاوية)، فهي قرية صغيرة بعيدة عن أعين الرقباء، ونستطيع أن ندخلها خلسة بحيث لا يرانا أحد، ولا نخبر بوجودنا أحدا إلا بعض الثقات المأمونين من الإخوة. وهناك نبقى فترة من الزمن، حتى تهدأ الأمور، أو يهيئ الله حلا للمشكلة.

ونفذنا ما اتفقنا عليه بالفعل، بعد أن اصطحبنا ملابسنا وكتبنا، لنستذكر فيها ما يفوتنا من دروس. وغاب عنا: أن اختفاءنا معا، سيوجه رجال الأمن إلى البحث عنا في قرية كل منا. وقد علمت أنهم ذهبوا إلى قريتنا (صفط تراب) وسألوا عني، فقالوا لهم: إنه يدرس في طنطا. قالوا: إنه مختف عندكم، واختفاؤه لا يفيده، فأين هو؟ قالوا: الدار أمامكم ففتشوا كيف شئتم؟ وفتشوا الدار، وقلبوها رأسا على عقب، ولم يجدوا فيها شيئا إلا بعض الأوراق الخاصة بي، أخذوها معهم. ودور الأرياف غاية في البساطة، فليس فيها من الأثاث والأدوات، ما يجعل التفتيش فيها عسيرا، ففي دقائق معدودة تم كل شيء.

ولما لم يجدوني في صفط، اتجه تفكيرهم إلى «السملاوية». فبينا كنا نجلس أنا وأخي الدمرداش في «مقعد» في الطابق الثاني، نتدارس في بعض ما صحبنا من الكتب، إذا طرق شديد عنيف على باب الدار، فأدركنا أنهم رجال الأمن السياسي أو القسم المخصوص، كما كان يسمى في ذلك الحين.

وقال الأخ محمد: يمكننا أن نختفي عند الجيران بواسطة «سلالم السطح» وكانت سطوح منازل القرى في الريف المصري متصلة، فليس هناك أسوار تعزل البيوت بعضها عن بعض، وكانت السطوح مغطاة بالقش والحطب ونحوها، مما يعرضها للخطر عند وجود أي حريق في أحدها.

وصعدنا سلم سطح الأخ محمد لننزل من سلم سطح الجيران، إلى الطابق الثاني، فالطابق الأرضي، فأدخلتنا جارتهم إحدى الحجرات ثم أغلقت علينا بالمفتاح، وخرجت من المنزل ذاهبة إلى الحقل.

فتحت الحاجة أم الدمرداش الباب بعد الطرق الشديد، لتجد أمامها رجال الأمن، فسألوها: أين ابنك وصديقه؟ فقالت: ابني في معهده في طنطا. اسألوا عنه هناك. ففتشوا الدور الأول من المنزل، فلم يجدوا فيه شيئا، ثم صعدوا إلى الدور العلوي، فوجدوا أحذيتنا وكتبنا وملابسنا موجودة، فتوجهوا إلى أم

الدمرداش، وقالوا لها: تكذبين وأنت امرأة كبيرة، هذه آثارهم تدل عليهم، فقولي: أين هما؟ وإلا أخذناك بديلا عنهما. قالت: لا أعرف عنهما شيئا.

واتجه تفكيرهم إلى البيت المجاور، فدخلوه، وفتشوا حجراته تحت وفوق، فلم يجدوا إلا حجرة كانت مغلقة، لم يتمكنوا من دخولها أو فتحها.

وبعد هذه الجولة، غادروا القرية مصطحبين معهم المرأة الطيبة الصالحة أم محمد الدمرداش إلى نقطة الشرطة في «نهطاي» القرية المجاورة، وبقينا نحن حبيسي الحجرة التي أغلقت علينا، ولا ندري ماذا حدث في الخارج. فلما جاءت الجارة صاحبة البيت فتحت علينا، وعرفنا ما حدث، وقلت للأخ محمد: لم يعد أمامنا بُدٌّ من تسليم أنفسنا، ولا يجوز أن تبقى والدتك ليلة واحدة في الحجز، فلنتوكل على الله، ولنبادر بالذهاب إلى نهطاي، لكيلا ندع لرجال الأمن حجة في إبقاء الوالدة عندهم.

وفعلا أبلغنا عمدة القرية، وبعث بنا إلى نقطة نهطاي، فسلمنا أنفسنا، وأفرجوا عن الحاجة رحمها الله.

إلى حجز مركز زفتي:

وبعد أن سلمنا أنفسنا إلى النقطة، أرسلت بنا إلى «مركز زفتى» ليتولى أمرنا، ويرسل بنا إلى طنطا، عاصمة المديرية.

وكان اليوم يوم خميس، وقد وصلنا إلى مركز زفتى في المساء، فلم يكن مأمور المركز ولا نائبه، ولا أحد المسئولين موجودا، ماعدا «الضابط النوبتجي» الذي سلمنا إلى جاويش المركز، ليضعنا في الحجز، حتى صباح يوم السبت، لنسلم إلى طنطا.

ودخلنا حجز المركز، لنجد فيه أكثر من أربعين شخصا، معظمهم ليسوا من أهل الجريمة، بل من الفلاحين الذين ارتكبوا مخالفات تتعلق بالزراعة أو بالري أو نحو

ذلك . وجاء وقت العشاء فأذنا في الحجز ، وأقمنا الصلاة ، وطلبنا منهم أن يصلوا معنا ، وكان عدد منهم من أهل الصلاة ، فصلوا معنا ، وقد أممتهم وقرأت بهم قراءة طويلة خاشعة تأثر الناس بها ، وسألونا عن تهمتنا فأجبناهم بقدر ما يفهمون . واغتنمناها فرصة لنحدثهم عن الدعوة ، وقد كان يوسف عليه السلام في سجنه يبلغ دعوته إلى من حوله من السجناء ، كما حكى الله عنه في قوله : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ (يوسف : ٣٩) .

ونمنا بعض ساعات في هذه الحجرة الواسعة أو العنبر ، مع الزحام والصخب ، ثم استيقظنا قبل الفجر ، لنتوضأ ونستعد لصلاة الفجر . وبعد صلاة الفجر ، ألقيت عليهم موعظة قصيرة ، ثم بدأنا أنا والأخ الدمرداش نقرأ «المأثورات» وهي جملة من الأدعية المأثورة جمعها الأستاذ البنا ، وحث إخوانه على أن يذكروا الله بتلاوتها في الصباح والمساء ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) ﴾ (الأحزاب : ٤١ ، ٤٢) .

وكنا نقرأها نحن الاثنين فقط ، حتى جاءت بعض الأذكار التي يمكن أن نشركهم معنا فيها ، مثل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وهي تقال عشر مرات ، فرددوها معنا .

وكذلك الباقيات الصالحات ، من الكلمات الأربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . وهذه تردد مائة مرة ، فرددها الجميع معنا بصوت جماعي كان يهز أركان حجز المركز . وقد أحس بذلك جاويش المركز ، وفتح باب الحجز ، فسمع هذا الدوي الهائل بالذكر ، فقال : يا أولاد الإيه ، أنتم خليتوها جامع !

وفي عصر هذا اليوم - يوم الجمعة - فوجئنا بالنداء علينا ، أن هيا معنا ، فقد طلبوكم في طنطا .

لقاء حاد مع سعد الدين السنباطي:

بعد أن رحلنا إلى طنطا، أُخذنا لمقابلة سعد الدين السنباطي، رئيس القسم المخصوص بمديرية الغربية، وكان مشهورا بالقسوة والإجرام، ولا أذكر ما كانت رتبته في ذلك الوقت، أظنه كان رائدا (صاغ)، ويبدو أن تقريرات شتى رفعت إليه عني وعن نشاطي في قسم الطلاب، ونشاطي الدعوي في أنحاء المديرية، فكون عني فكرة أحسبها أكبر من الواقع.

ولعل هذا ما جعله يلقاني لقاء حادا عاصفا، فكان يخاطبني وكأني قائد في الإخوان، وأنا مجرد جندي صغير فيهم.

أول ما لقيني تجهم في وجهي، وقال لي: حضرتك عامل زعيم؟!

قلت له: أنا طالب مجتهد في دروسي بشهادة جميع أساتذتي.

قال: ماذا يريد مرشدكم؟ يريد أن يكون «إلها» مثل «سليمان المرشد» في سوريا؟!

قلت له: حسن البنا رجل متواضع، يقول: الله غايتي، والرسول قدوتي.

قال: بتدافع عنه، لأنه سحركم، وسخركم لتحقيق مآربه؟!

قلت: ليس للرجل مأرب إلا نصرة الإسلام، وهو لم يسحرنا، بل سرنا وراءه طائعين لخدمة ديننا ووطننا.

قال: كم عدد الإخوان؟ ٢٠٠ ألف، نصف مليون؟ بناقص نصف مليون، أو مليون.. بدل أن يكون الشعب ٢٠ مليونا فليكن ١٩ مليونا، يمكننا أن نقضي على الإخوان ولا ينقص الشعب شيئا.. وسكتّ ولم أرد.

ودار النقاش الحاد على هذا النحو، كثير من الاستفزاز عنده، وقليل من الحدة عندي، ولكن الحق يقال: إنه رغم سلاطة لسان السنباطي، وتطاوله على الأستاذ البنا وعلى الإخوان، لم يمسسني بأي أذى بدني، ولم يلحقني منه أي تعذيب، غير

أن أحد مخبريه صفعني على وجهي صفعة لا أنسى مرارتها. ولكنه قام بتعذيب الذين لفق لهم تهما، كما ثبت ذلك عندما اتهم بعد الثورة، وحوكم في قضية إبراهيم عبد الهادي[1]. ومن المعروف ـ كما ثبت في المحاكمات في عهد الثورة بعد ذلك ـ أن السنباطي كان يتلقى أوامره مباشرة من عبد الهادي نفسه، متخطيا رؤساءه في المديرية، حتى مدير المديرية نفسه.

كما أثبتت المحاكمات مفاجأة، وفق ما جاء في شهادة اللواء أحمد عبد الهادي حكمدار القاهرة، الذي قال: «ضباط البوليس السياسي لا يخضعون للحكمدار، وإنهم يكتبون تقاريرهم من ثلاث صور: إحداها ترسل للسفارة البريطانية، والثانية للسراي، والثالثة للوزارة»![2].

في سجن قسم أول طنطا:

أدخلنا حجز قسم أول طنطا، مع من فيه من المجرمين والمتهمين أياما قليلة، ثم نقلنا إلى سجن خاص بنا، داخل القسم نفسه، ووجدنا فيه بعض الإخوان قد سبقونا إليه، بعضهم من مدينة طنطا، وبعضهم من كفر الزيات، ومن بسيون ومن شربين.

كان منهم الأستاذ جمال الدين فكيه الإخواني القديم في طنطا، والأستاذ حسني الزمزمي القانوني، والمهندس شفيق أبو باشا مهندس الري في كفر الزيات، وحكمت بكير المهندس، في كفر الزيات أيضا، وإبراهيم الباجوري التاجر من بسيون، والحاج محمود عبيه المدرس من شربين، وكانت تتبع الغربية، ولحق بنا الأخوان أحمد العسال، ومصباح محمد عبده من طلبة المعهد، وآخرون لا أذكرهم.

---

(١) انظر: ما ذكره عنه الأستاذ محمود عبد الحليم في كتابه «الإخوان المسلمون.. أحداث صنعت التاريخ» (٢/ ١٥٧ - ١٦٠). وانظر ما قاله عنه شاهد النفي أحمد راغب الدكروري مدير (محافظ) مديرية الغربية في ذلك الوقت.

(٢) المصدر السابق ص١٦٠.

كان السجن عبارة عن حجرة واحدة متسعة معزولة عن العالم، لا يدخلها الشمس ولا الهواء، إلا من نافذة واحدة صغيرة عالية، وكنا لا ندري شيئا عما يجري في العالم من حولنا، فلم يكونوا يسمحون لنا بدخول الصحف.

كان الأستاذ الزمزمي رجلا له طبيعة خاصة، فهو لا يستطيع أن يعمل شيئا لنفسه، حتى تقشير البرتقالة لا يحسنها، لابد أن تأتي مقشورة جاهزة، فلا غرو أن يكون الاعتقال أمرا صعبا وشديدا على نفسه، فعلى حين لم يكن يهمنا نحن الشباب ما نأكله وما نشربه، وعلى أي جنب ننام، وعلى أي فراش نرقد، ويكفي أحدنا أن يجعل ذراعه مخدة له، نرى الأستاذ الزمزمي يعنيه كل هذا، ويؤرقه ويعذبه، ويحاول إخوانه جميعا أن يهونوا عليه ويساعدوه، ولكن طبيعته المدللة المرفهة لا تحتمل هذه الحياة الخشنة المضطربة، حتى ليكاد ينطبق عليه قول الشاعر:

خطرات النسيم تجرح خديـ

ـه ولمس الحرير يدمي بنانه!

أما الحاج محمود عبيه فقد كان من دعاة الإخوان في شربين، وكان من المعجبين بالإمام أبي محمد بن حزم، ومن قراء كتابه «المحلى»، وقد تبنى آراءه في كثير من المسائل، حتى أصبحنا نسميه «ابن حزم».

وكنا نصلي الصلوات الخمس في جماعة، ويخطب أحدنا خطبة الجمعة، ونصليها داخل هذا السجن.

وقد مكثنا في هذا السجن الطنطاوي نحو أربعين يوما، حتى نودي علينا يوما بأن نتأهب للرحيل إلى القاهرة، لننضم إلى سائر إخواننا هناك.

اغتيال الإمام البنا:

وفي يوم ١٣ من فبراير سنة ١٩٤٩م خرجنا من سجن القسم الأول بطنطا، لنرى

الشمس ساطعة بعد أن غابت عنا هذه الفترة الطويلة . ولكن هذه الشمس سرعان ما أظلمت في وجوهنا حين طالعنا الصحف التي حجبت عنا هذه المدة، ووجدنا عناوينها الرئيسة تحمل هذا النبأ المفجع : اغتيال حسن البنا، كما في جريدة الأهرام، أو مصرع الشيخ البنا، كما في جريدة المصري .

ضاقت الدنيا في أعيننا، وضاقت علينا الأرض بما رحبت، وضاقت علينا أنفسنا، وظننا أن لا ملجأ من الله إلا إليه . فهذا النبأ كان صدمة هائلة لنا، وإن كنا نخافه ونتوقعه منذ أن اعتقل الإخوان، وترك قائدهم طليق السراح، ليكون صيدا سمينا لهم، ولا سيما أن الأستاذ رفض أن يختفي أو يذهب ضيفا لدى بعض القبائل العربية، أو تكون عليه حراسة مشددة، رفض الرجل ذلك كله، مفوضا أمره وحراسته إلى الله، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

عرفنا من الصحف أن الأستاذ استدرج إلى جمعية الشبان المسلمين، ليلقى بعض الناس، ضمن مساعي الوساطة التي كان يسعى إليها الأستاذ، وما أن غادر الدار حتى أطلقت عليه رصاصات المجرم الأثيم، الذي استقل سيارة كانت تنتظره . التقط الأستاذ البنا برغم إصابته رقمها، وأملاه على رفيقه وصهره الأستاذ عبد الكريم منصور المحامي، وكانت هي المفتاح الذي جر المجرمين إلى المحاكمة فيما بعد .

كان يمكن أن يسعف الأستاذ، وأن يوقف النزيف، وتنتزع الرصاصات من الجسد، بقدر الله، ووفق سنته، ولكن وقع إهمال جسيم متعمد، فظل دم الرجل ينزف، ولا يقدم له الإسعاف السريع اللازم، حتى قضى نحبه، وتحققت له «الموتة الحسنة» التي كان يدعو الله أن يحققها له، وقد فسرها في خطابه في طنطا : أن يفصل هذا الرأس عن هذا الجسد في سبيل الله، وصدق الله إذ يقول : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) ﴾ (الأحزاب : ٢٣) .

لم يجد حسن البنا شهيد الظلم والطغيان، من يشيع جنازته، بل من يحمل نعشه، حتى قيل: إن الذي حمله النساء، ولم يجد والده الصابر المحتسب، العالم المحدِّث الجليل الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا من يعزيه في ابنه الفقيد، الذي كان ملء السمع والبصر، فقد كان بيت الفقيد محاصرا برجال الأمن، وكان كل من يقترب منه أو يحوم حوله يقبض عليه. رجل واحد - فيما نعلم - هو الذي ذهب للعزاء، وهو الزعيم القبطي المعروف مكرم عبيد باشا.

وهكذا قتلوه أكثر من مرة: قتلوه بإطلاق الرصاص الآثم، وقتلوه بترك الإسعاف المتعمد، وقتلوه بمنع تشييعه والصلاة عليه، والعزاء فيه. وذلك كله ليتضاعف أجره ومثوبته، ويعلو مقامه عند الله:

جـزى الله خـيـرا من إمـام وباركت

يـد الـلـه فـي ذاك الأديم المـمـزق

في حين كان الحزن مخيما على أبناء مصر، كان الناس هناك في الغرب، في أوربا وأمريكا خاصة يحتفلون بهذه المناسبة السعيدة عندهم(!): قتل حسن البنا، وغيابه عن الساحة، فقد كانوا هم أعرف الناس بقيمة الرجل، وقيمة دعوته، وعظم خطره عليهم، كما أعلمتهم أجهزتهم الراصدة المراقبة عن كثب. فلا عجب أن شربوا أنخاب الخمر، وتبادلوا التهاني، وأظهروا السرور، مما استلفت نظر الكاتب الكبير الأستاذ سيد قطب، الذي كان في بعثة إلى أمريكا في ذلك الوقت، وتصادف وجوده معهم، ومشاهدة الفرحة في أعينهم، فسألهم عن السبب، فأخبروه باغتيال حسن البنا! وهذا ما شد انتباه الأديب الكبير الشاعر الناقد، سيد قطب إلى حسن البنا ودعوته، ونقله بعد ذلك من كاتب كبير إلى داعية كبير، وكتب فيما كتب عن «حسن البنا وعبقرية البناء».

لم يكن حسن البنا مجرد رئيس جماعة، ولو كان كذلك لأمكن بسهولة أن تستبدل الجماعة رئيسا برئيس، ولكن علاقته بأنصار دعوته، علاقة الأستاذ بتلاميذه

من الناحية العقلية، وعلاقة الشيخ بمريديه من الناحية الروحية، وعلاقة الأب بأبنائه من الناحية العاطفية، وعلاقة القائد بجنده من الناحية التنظيمية.

وكان كل من عاشر حسن البنا يحمل ذكريات عنه: مواقف يحكيها، أو كلمات يحفظها، أو نكتة يرويها، أو لمحة إنسانية يتحدث عنها.

وهو الذي بذر البذرة، وتعهدها بالرعاية، حتى نمت وأورقت وأزهرت، وامتدت جذورها في الأرض، وفروعها في السماء، وكان المرجو أن يمد الله في حياته حتى تؤتي أكلها بإذن ربها.

ولهذا كان فقده في هذا الوقت خسارة كبيرة على الجماعة، وخسارة كبيرة على الوطن، وخسارة كبيرة على الأمة، ولكن هذا قدر الله الذي لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه. وقد بذر الرجل البذرة، ووضع الأساس، وارتفع البناء، وربى جيلا من الرجال قادرا على أن يحمل اللواء، ويمضي بالسفينة برغم تلاطم الأمواج، ولن يتخلى عن دعوته، وإن سقط القائد في الميدان.

ونحن أناس لا نرى القتل سبة
إذا ما رأته عامر وسلول
إذا مات منا سيد قام سيد
قئول لما قال الكرام فعول

كان حسن البنا من الأفراد القلائل الذين يمن بهم القدر على الأمم في فترات وهنها وهوانها، لتنهض من كبوة، وتصحو من غفوة، وتبعث من همود، وتتحرك من جمود، وتقوم من قعود.

وكانت أمة الإسلام بعد سقوط خلافتها، وتمزق وحدتها، وضياع هويتها، في المرحلة التي عبر عنها الحديث الشريف بأنها «غثاء كغثاء السيل» برغم كثرة عددها، ولكنها كمّ بلا كيف.

والغثاء: ما يحمله السيل من حطب وخشب وعيدان وأغصان وأوراق وغير ذلك من الأشياء، التي لا تجانس بينها، ولكن يجمع بينها الخفة والسطحية من ناحية، وأنها ليس لها هدف، ولا مصب معلوم، ولا مجرى مرسوم، فهي تذهب يمنة ويسرة كيفما اتفق.

وكذلك الأمة في المرحلة «الغثائية» من حياتها، لا تجانس بينها، ولا يجمعها غير السطحية والخفة، وفقدان الهدف الواحد، والطريق الواحد.

جاء حسن البنا وأمتنا الكبرى هكذا، فنفخ فيها من روحه لتحيا، وصدع فيها بأعلى صوته لتستيقظ، وسقى شجرتها بدمه لتنمو وتمتد. وقد جمع الله فيه من المواهب والفضائل ما تفرق في كثيرين، فهو العالم الداعية المربي السياسي المصلح المجمِّع المنظم، كما قيل: كل الصيد في جوف الفَرَا.

لقد مات وهو ابن الثانية والأربعين، ولكن كما قال ابن عطاء الله في حِكمه: رُبَّ عمر قصرت آماده واتسعت أمداده.

لم تواته الفرصة ليؤلف كتبا علمية كبيرة، ولكنه «ألف» رجالا كبارا، ملئوا الدنيا بالكتب والعلم النافع، حسبه هؤلاء الرجال في أقطار شتى، وحسبه الدعوة العالمية التي جعلها تمتد شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، وحسبه الذكر الحسن الذي أضاف إلى عمره أعمارا.

سأل أحد الصحفيين حسن البنا ـ ضمن عدد من كبار الشخصيات ـ: من أنت؟ وكان جوابه: أنا سائح يبحث عن الحقيقة، وإنسان يفتش عن معنى الإنسانية في الناس بمصباح «ديوجين»، أنا مسلم أدرك سر وجوده، فنادى في الناس: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣).

كان حسن البنا شخصية فذة، أو قل: كان عدة شخصيات في رجل واحد. فهو العالم والداعية والمربي والمصلح والمجاهد والسياسي، وقد وفقه الله تعالى ليقوم

بدور كبير في زمن يسير، وأن يخلف وراءه كتائب من الرجال تحمل رسالة الإسلام إلى الأجيال.

وأشهد أن عيني لم تر مثل حسن البنا في شمول شخصيته، وتعدد مواهبه، والبركة في آثاره، وأني انتفعت به انتفاعا كبيرا، برغم محدودية المرات التي لقيته أو استمعت إليه فيها.

وهذا لا يعني أني مقلد له في كل ما يقوله، وإن كنت أحترم وجهة نظره، التي قد أخالفها لأدلة واعتبارات عندي، مثل موقفه من الحزبية، وموقفه من المرأة، فقد كان أميل إلى التشدد، وكذلك موقفه من ترجمة القرآن، فقد كان من المانعين من ذلك، مع الكثيرين في عصره. ومثل ذلك موقفه من الجن ودخوله جسم الإنسان، وعلاجه بالقرآن، فقد كان يؤمن بذلك ومارسه بالفعل! وأنا أرى أن ما يدعيه المدعون من ركوب الجني للإنسي، وتكلمه على لسانه، إنما هو ضرب من الأمراض النفسية والعصبية وازدواج الشخصية. وقد أخبرني تلميذي وسكرتيري الخاص الشيخ عصام تلّيمة بموقف الأستاذ البنا من هذه القضية، وسألني: ماذا تقول في ذلك؟ قلت: أنا هنا أخالف شيخي وإمامي البنا، وأرى أن الإنسان أكرم على الله تعالى من أن يسلط عليه نوعا من الجن، بحيث يركبه ويتسلط عليه، ويتحكم فيه، وينطق على لسانه. كيف وهو المخلوق الذي كرمه الله، وجعله في الأرض خليفة، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة؟!

وقد حدثنا القرآن أن الله تعالى سخر الجن لبعض بني الإنسان، مثل سليمان عليه السلام، ولم يخبرنا أنه سخر الإنسان لأحد من الجان.

وقد بين لنا القرآن مدى سلطان الجن على الإنس وحدوده، وذلك في قوله تعالى على لسان الشيطان يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (إبراهيم: ٢٢).

وما ورد في القرآن من قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥) فالمس لا يعني ولا يفهم منه الدخول في جسد الإنسان والتحكم فيه، والتكلم على لسانه، إنما هو مس معنوي عن طريق الوسوسة في الصدور، وإثارة الشكوك والشبهات والشهوات، كما قال تعالى في قصة أيوب ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١)﴾ (ص: ٤١).

وقد توسع بعض الناس في عصرنا في أمر علاقة الجن بالإنس، فأعلنوا في الصحف وأجهزة الإعلام عن فتح «عيادات للعلاج بالقرآن» وهو أمر ما أنزل الله به من سلطان، ولا قام عليه في الدين برهان، ولم يفعله صحابي ولا تابعي ولا إمام.

على أن حسن البنا لم يشتهر عنه ذلك، وكان عنده من هموم الدعوة والأمة ما يشغله عنه، وإنما هي مرة واحدة جاءت بمناسبتها.

لذا نحا الإخوان منحى موفقا، وذلك -بعد وفاة الإمام البنا بمدة من الزمن، عندما انتشر موضوع العلاج بالقرآن- بمنع أفراد الجماعة من مزاولة العلاج بالقرآن، لما يترتب على ذلك من مضار، فهو طريق محفوف بالمخاطر، وغالبا ما يشغل الداعية عن الدعوة، ويجعله عرضة للشائعات، واتهامه بالدجل، واتخاذ ذلك تكأة للهجوم على الإخوان واتهام أفرادها بالشعوذة والتجارة بالدين.

وكذلك أخالف الأستاذ البنا في موقفه من المرأة، ودعوته إلى الفصل التام بينها وبين الرجال، وإلى منعها من كل ولاية عامة، ويدخل في ذلك ترشيحها للمجالس النيابية. فهذا ما أخالفه فيه، كما خالفه كثير من تلاميذه، ومنهم الأستاذ عبد الحليم أبو شقة الذي ناقش قضية الاختلاط بتوسع، كما أفرد للعمل السياسي للمرأة المسلمة: جزءا من أجزائه الستة التي كتبها تحت عنوان «تحرير المرأة في عصر الرسالة» وهو جهد علمي غير مسبوق، موثق بالأدلة من القرآن والسنة الصحيحة، وأقوال علماء الأمة. وقد كتب الشيخ الغزالي له مقدمة، كما كتبت له أخرى.

وأحسب ـ والعلم عند الله ـ أن الأستاذ البنا لو امتد به العمر، لغير كثيرا من آرائه، إذ لم يكن رحمه الله جامدا ولا متعصبا.

ولقد قلت أبياتا خاطبت بها حسن البنا صدرت بها ديواني «المسلمون قادمون» لا بأس أن أذكرها هنا:

لك يا إمامي يا أعز معلم
يا حامل المصباح في العصر العمي
يا مرشد الدنيا لنهج محمد
يا نفحةً من جيل دار الأرقم
شيدت للإسلام صرحا لم يكن
لبناته غيرَ الشباب المسلم
وكتبت للدنيا وثيقة نصره
وأبيت إلا أن توقّعَ بالدم
حسبوك مت وأنت فينا حاضر
ما مات غيرُ المستبد المجرم
حسبوك غبت وأنت فينا شاهد
نجلو بنهجك كل درب معتم
نم في جوار زعيمك الهادي، فما
شيدت يا بناء لم يتهدم
سيظل حبك في القلوب مسطرا
وسناك في الألباب، واسمك في الفم

الرجل القرآني:

كتب كثيرون عن حسن البنا، في حياته، وبعد وفاته، بلغات شتى، وعلى مستويات مختلفة، ولكن أبلغ من كتب عنه هو ذلك الكاتب الأمريكي الذي لقيه في حياته، وكتب عنه بعد موته مقالا مطولا سماه فيه «الرجل القرآني»!

ولا أجد تسمية أدل على شخصية حسن البنا ودعوته من هذه التسمية (الرجل القرآني). قد يمكن أن تسميه الرجل الرباني، أو الرجل المحمدي، أو الرجل الإسلامي، أو الرجل الشمولي، ولكن تعبير «الرجل القرآني» أدل على حسن البنا من غيره؛ فهو رجل قرآني المرجعية، قرآني الغاية، قرآني المنهج، قرآني الثقافة، قرآني الهوى. فالقرآن لحمته وسداه، ومبدؤه ومنتهاه!

هذا المقال العجيب كتبه الصحفي الأمريكي: روبير جاكسون، وترجمه إلى العربية الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ أنور الجندي، رحمه الله.

والمقال طويل، وجدير بأن يقرأ، لما فيه من غوص في أعماق شخصية المرشد العام، ووصف لجوانب هذه الشخصية الفذة، ولكنا نجتزئ منه هذه الفقرات.

«في شباط سنة ١٩٤٦، كنت في زيارة للقاهرة.. وقد رأيت أن أقابل الرجل الذي يتبعه نصف مليون شخص، وكتبت في النيويورك كرونيكل بالنص:

«زرت هذا الأسبوع رجلا قد يصبح من أبرز الرجال في التاريخ المعاصر، وقد يختفي اسمه إذا كانت الحوادث أكبر منه، ذلك هو الشيخ حسن البنا زعيم الإخوان.

وقد صار الإخوان عاملا مهما في السياسة المصرية، ويقال: إن جملة الإخوان ٨٠٪ من لجان العمال والطلبة الذين كانوا في طليعة الحوادث الأخيرة في مصر. ويقول الأستاذ البنا: إن حركة الإخوان فوق الأحزاب، وسبيلها هو العودة إلى القرآن، وغايتها جمع كلمة المسلمين في كل أرجاء الأرض».

هذا ما كتبته منذ خمس سنوات، وقد صدقتني الأحداث فيما ذهبت إليه، فقد

ذهب الرجل مبكرا وكان أمل الشرق في صراعه مع المستعمر. وأنا أفهم جيدا أن الشرق يطمح إلى مصلح يضم صفوفه، ويرد له كيانه، غير أنه في اليوم الذي بات فيه مثل هذا الأمل قاب قوسين أو أدنى انتهت حياة الرجل على وضع غير مألوف، وبطريقة شاذة..

هكذا الشرق لا يستطيع أن يحتفظ طويلا بالكنز الذي يقع في يده.. لقد لفت هذا الرجل نظري إليه بصورته الفذة، عندما كنت أزور القاهرة، بعد أن التقيت طائفة كبيرة من زعماء مصر ورؤساء الأحزاب فيها.

كان هذا الرجل خلاب المظهر، دقيق العبارة، بالرغم من أنه لا يعرف لغة أجنبية. لقد حاول أتباعه الذين كانوا يترجمون بيني وبينه أن يصوروا لي أهداف هذه الدعوة، وأفاضوا في الحديث على صورة لم تقنعني.

وظل الرجل صامتا، حتى إذا بدت له الحيرة في وجهي، قال لهم: قولوا له شيئا واحدا: هل قرأت عن محمد؟ قلت: نعم. قال: هل عرفت ما دعا إليه وصنعه؟ قلت: نعم. قال: هذا هو ما نريده.

وكان في هذه الكلمات القليلة ما أغناني عن الكثير مما حاول البعض من أنصار البنا أن يقولوه لي.

لفت نظري إلى هذا الرجل سمته البسيط، ومظهره العادي، وثقته التي لا حد لها بنفسه، وإيمانه العجيب بفكرته.

كنت أتوقع أن يجيء اليوم الذي يسيطر فيه هذا الرجل على الزعامة الشعبية، لا في مصر وحدها، بل في الشرق كله.

ولا تدهشك خطابة حسن البنا بقدر ما تدهشك إجابته عن الأسئلة التي كان بعضها يتصل بشخصيته وحياته وأسرته.

وقد سئل مرة بعد أن ترك عمله في الحكومة ورفض مرتب الجريدة الضخم الذي

يبلغ مائة جنيه: ممَّ تأكل؟ فقال في بساطة: كان محمد صلى الله عليه وسلم يأكل من مال خديجة، وأنا آكل من مال «أخي خديجة» يقصد صهره.

وكان أعجب ما في الرجل: صبره على الرحلات في الصعيد.. هذه الرحلات التي لا تبدأ إلا في فصل الصيف حيث تكون بلاد الوجه القبلي في حالة غليان وفي أحشائها يتنقل الرجل بالقطار والسيارة والدابة وفي القوارب وعلى الأقدام!!

وهناك تراه غاية في القوة واعتدال المزاج.. لا الشمس اللافحة، ولا متاعب الرحلة تؤثر فيه، ولا هو يضيق بها. تراه منطلقا كالسهم، منصوب القامة، يتحدث إلى من حوله ويستمع ويفصل في الأمور!!

وقد أمدته هذه الرحلات في خمسة عشر عاما، زار خلالها أكثر من أربعة آلاف قرية، وزار كل قرية بضع مرات، بفيض غزير من العلم والفهم للتاريخ القريب والبعيد، للأسر والعائلات والبيوتات وأحداثها وأمجادها وما ارتفع منها وما انخفض، وألوانها السياسية وأثرها في قراها وبلادها ورضا الناس عنها أو بغضهم لها، وما بين البلاد أفرادا وأحزابا وهيئات وطوائف من خلافات أو حزازات.

وكنت إذا قلت له فلان.. الحسيني مثلا أو الحديدي أو الحمصاني قال لك: إن هذا الاسم تحمله خمس أسر أو أربع.. إحداهما في القاهرة، والثانية في دمنهور، والثالثة في الزقازيق، والرابعة في... فأيها تقصد؟

ولا شك في أن هذا الجهد الضخم قد أتاح له أن يلتقي بعشرات الآلاف من الناس خصوما وأنصارا، وشيوخا وشبابا، مثقفين وغير مثقفين، وأنه قد استمع إليهم وحدثهم، وأفاد منهم خبرة ضخمة واسعة أضافها إلى علمه وثقافته.

وإنني على ثقة بأن حسن البنا رجل لا ضريب له في هذا العصر، وأنه قد مر في تاريخ مصر مرور الطيف العابر الذي لا يتكرر..

لقد كان حسن البنا قديرا على فهم الأشخاص، لا يفاجئك بالرأي المعارض،

ولا يصدمك بما يخالف مذهبك، وإنما يحتال عليك حتى يصل إلى قلبك ويتصل بك فيما يتفق معك عليه، ويعذرك فيما تختلفان فيه.

كما كان له من صفات الزعماء صوته الذي تتمثل فيه القوة والعاطفة، وبيانه الذي يصل إلى نفوس الجماهير ولا تنبو عنه أذواق المثقفين، وبتلك اللباقة والحنكة والمهارة في إدارة الحديث والإقناع.

لقد كانت شخصية حسن البنا جديدة على الناس.. عجب لها كل من رآها واتصل بها. كان فيه من الساسة دهاؤهم، ومن القادة قوتهم، ومن العلماء حججهم، ومن الصوفية إيمانهم، ومن الرياضيين حماستهم، ومن الفلاسفة مقاييسهم، ومن الخطباء لباقتهم، ومن الكتاب رصانتهم.

وكان كل جانب من هذه الجوانب يَبْرُزُ طابعا خاصا في الوقت المناسب. ولكل هذه الصفات التي تقرؤها في كتب شمائل الصحابة والتابعين، لم يكن مقدرا لصاحبها أن يعيش طويلا في الشرق.. وكان لا بد أن يموت مبكرا، فقد كان غريبا عن طبيعة المجتمع، يبدو كأنه الكلمة التي سبقت وقتها، أو لم يأت وقتها بعد.

ولم يكن الغرب ليقف مكتوف الأيدي أمام مثل هذا الرجل الذي أعلى كلمة الإسلام على نحو جديد، وكشف لرجل الشارع حقيقة وجوده ومصيره، وجمع الناس على كلمة الله، وخفت بدعوته ريح التغريب والجنس ونزعات القومية الضيقة، واعتدلت لهجات الكتاب، وبدأ بعضهم يجري في ركب «الريح الإسلامية».

وجملة القول في الرجل القرآني: إنه يفهم الإسلام فهما واضحا سهلا يسيرا كما جاء في حديثه معي، على الطريقة التي فهم بها محمد الإسلام. إنه قريب في نظري من أبي حنيفة الذي أصر على رفض القضاء، ومالك الذي أفتى في البيعة، وابن حنبل الذي أريد على هوى فلم يرد.

وأجد حسن البنا قد حرر نفسه من مغيرات المجد الناقص، ومفاتن النجاح المبتور، ومثل هذا التحرر في نظر «أمرسون» هو غاية البطولة، ولذلك لم يكن عجيبا أن يقضي الرجل على هذه الصورة العجيبة فكان فيها شأنه دائما غير مسبوق.

كان الناس يرونه غريبا في محيط الزعماء بطابعه وطبيعته، فلما مات كان غريبا غاية الغرابة في موته ودفنه، فلم يصل عليه في المسجد غير والده، وحملت جثمانه النساء، ولم يمش خلف موكبه أحد من هؤلاء الأتباع الذين كانوا يملئون الدنيا، لسبب بسيط هو أنهم كانوا وراء الأسوار.

إنه كان يدهش الناس في كل لحظات حياته، فلا بد أن يدهش الأجيال بختام حياته. إن الألوف المؤلفة قد سارت في ركب الذين صنع لهم الشرق بطولات زائفة، أفلا يكون حسن البنا قد رفض هذا التقليد الذي لا يتم على غير النفاق؟

إن هناك فارقا أزليا بين الذين خدعوا التاريخ وبين الذين نصحوا لله ولرسوله. إن هذا الختام العجيب سيظل مدى الأجيال يوقد في نفوس رجال الفكر النور والضياء، ويبعث في قلوب الذين آمنوا معه ما بعثه الحق في نفوس أهله حتى يمكنوا له.

إن الأمر الذي أسأل عنه فلا أجد له جوابا: هل هناك علاقة ما بين الإسلام كما كان يفهمه حسن البنا ويدعو إليه وبين نهايته؟ إن كثيرين يدعون إلى الإسلام ويحملون اسمه، فهل هناك خلاف جوهري بين ما كان يدعو إليه حسن البنا وما يدعو إليه هؤلاء؟

لأني لا أعرف الإجابة الصحيحة أدع ذلك للتاريخ»[1].

---

(١) انظر: الرجل القرآني لروبير جاكسون ترجمة الأستاذ أنور الجندي، طبعة دار المختار الإسلامي بالقاهرة.

إلى هايكستب فالباخرة عايدة:

وضعنا في سيارات الشرطة الكبيرة، التي نقلتنا إلى القاهرة، ووضعنا في معتقل هايكستب، في ضواحي القاهرة، الذي جمعت فيه أعداد كبيرة من الإخوان. وفي الصباح، نقلونا إلى مدينة السويس حيث كانت تنتظرنا الباخرة «عايدة».

ركبنا الباخرة، وقلنا ما قال سيدنا نوح عليه السلام: ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٤١﴾ ﴾ (هود: ٤١). كما قرأنا قول الله تعالى لنوح: ﴿ **فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴿٢٨﴾ **وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ** ﴿٢٩﴾ ﴾ (المؤمنون: ٢٨، ٢٩).

وعرفنا أن الباخرة ستنقلنا إلى جبل الطور، فاستبشرنا به خيرا: أن هذا الجبل الذي آنس موسى عليه السلام من جانبه نارا، ﴿ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ** ﴿١١﴾ **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى** ﴿١٢﴾ **وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ** ﴿١٣﴾ ﴾ (طه: ١١-١٣).

ومضت السفينة تمخر عباب خليج السويس، متجهة إلى الطور، وقد شغل الإخوان أنفسهم بما حلا لكل منهم، فهذا يتلو القرآن، وهذا يقرأ كتابا في يده، وهذا يذكر الله، وهذا يتحدث مع أخ له أو بعض إخوة له.

ثم حدث فجأة هرج ومرج في الباخرة لا أدري ما سببه، وقد شكا قائد السفينة من ذلك. وهنا ظهر شاب قصير القامة، أبيض الوجه، مشرق القسمات، حاسر الرأس، يلبس ثوبا أبيض، فتكلم بكلمات موجزة بليغة وقوية، طالبا من الإخوان: أن يلزموا الهدوء، ويحترموا النظام، حتى يصلوا إلى تلك الأرض التي انطلقت منها شرارة الوحي المقدس، لتحرير أمة مستعبدة. واستمع إليه الإخوان كأن على رءوسهم الطير، واستجابوا لندائه بسرعة وطواعية. وسألت أحد إخوان القاهرة: من هذا المتحدث؟ فقال لي: ألا تعرفه؟ إنه الشيخ الغزالي.

وكانت فرحتي لا تقدر، حين علمت أن الشيخ الغزالي معنا. هذا الشيخ الذي قرأت له، وأحببته من بعيد، فها أنذا اليوم أراه وجها لوجه، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فهذه أولى ثمرات هذه المحنة، التي نرجو أن تكون منحة، بفضل الله تعالى.

إلى الطور:

وعندما وصلت الباخرة «عايدة» إلى الطور نزلنا منها، لنوضع في الأماكن التي أعدت لتكون معتقلاتنا، وهي الأماكن التي كان الحجاج يحجزون فيها قبل نزولهم إلى مصر، لتكشف عليهم السلطات الصحية، فتستوثق من خلوهم من الأمراض الخطيرة المعدية، التي قد تكون تسربت إليهم من حجاج آخرين جاءوا من قارات العالم.

وكان المكان مقسما إلى «حذاءات» وكل حذاء مقسم إلى «عنابر» والعنبر: قاعة أو حجرة واسعة.

وقد حللنا في الأحذية الثلاثة، حذاء رقم (١) وحذاء رقم (٢) وحذاء رقم (٣)، أما حذاء رقم (٤) فكان فيه قليل من الشيوعيين سبقونا إليه، وكان حظي أن أكون في حذاء رقم (٢).

إمامنا الشيخ الغزالي:

بمجرد نزول الإخوان إلى حذاءاتهم، كان أول ما فكروا فيه أن ينشئوا في كل حذاء مسجدا، ويختاروا له إماما يؤم الإخوة في الصلوات الخمس. ولم يكن المسجد إلا قطعة أرض، معلّمة ببعض الحجارة المحددة لمساحة المسجد، وتحدد محراب الإمام.

ومن حسن حظي أن كان إمامنا الشيخ محمد الغزالي، فقد من الله تعالى عليّ أن كنت مع الغزالي في حذاء واحد، وأن يكون هو إمامنا في كل الصلوات.

وامتثالا للأمر النبوي: «إن كنتم ثلاثة في سفر فأمروا أحدكم»[1]، واتباعا لمنهج السلف الذين كانوا في أسفارهم يختارون واحدا منهم أميرا لهم، ويقولون: هو أميرنا، أمّره علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، اختار الإخوان أميرا لهم في المعتقل، هو أستاذنا «البهي الخولي» أكبر الدعاة الموجودين في المعتقل، ورفيق الأستاذ البنا، وصاحب «تذكرة الدعاة». ولكن المقام لم يطل بالأستاذ البهي، فاستدعي إلى القاهرة للتحقيق معه في قضية تتعلق بالنظام الخاص، كما استدعي الأستاذ عمر التلمساني المحامي الشهير إلى القاهرة أيضا، فاختار الإخوان أميرا آخر اجتمعت كلمتهم عليه، هو الشيخ محمد الغزالي، الذي كان في بداية السنة الثانية والثلاثين من عمره، وكان يتوقد ذكاء وفتوة وغيرة وعزيمة.

مظاهرة ضد سياسة التجويع:

وقد لاحظ المعتقلون أن ما يصرف لنا من أطعمة غير مقبول كما ولا كيفا. فمن ناحية الكم لا يكاد كل معتقل يعطى ما يشبعه، أو يقرب من الشبع، ومن ناحية الكيف كانت الأطعمة غاية في الرداءة.

ومن هنا، خطب الشيخ الغزالي خطبة الجمعة، ثم قاد المعتقلين في مسيرة أو مظاهرة، تطالب بحقوقهم المنهوبة، وتشهر باللصوص الذين يتاجرون بأطعمة المعتقلين. وهتف الشيخ الغزالي ورددنا وراءه: تسقط اللصوصية المنظمة، تسقط سياسة التجويع.

وبلغ القائد العسكري للمعتقل - ويسمونه «القومندان» - واسمه عباس عسكر بلغه ما جرى بعد صلاة الجمعة، وهيجان المعتقلين ومطالبهم، فجاء إلى المعتقل، ليفاوض ممثلي المعتقلين، ففاوضه الشيخ الغزالي وبعض الإخوة، واتفقوا على أن تتخلى قيادة المعتقل عن التصرف في الأشياء المصروفة للإخوان من قبل الحكومة، وتسلمها إليهم «عينية» ويتولى الإخوان طهيها وتوزيعها بأنفسهم.

وكانت معظم الأغذية جافة من الفول والعدس والفاصوليا الجافة والبطاطس

(١) رواه أبو داود (٣٦٠٨) عن أبي سعيد الخدري.

والجبنة والحلاوة الطحينية وعلب اللحم المجفف (البلوبيف) ونحوها. وقليل منها ما كان طازجا، ولكن الكميات كانت كافية ومشبعة، وخصوصا في يد الإخوان. وما كان يفضل من طعام يوصي الإخوان بالمحافظة عليه نظيفا ليعطى لأهل هذه المنطقة، أهل الطور الذين كانوا في غاية الفقر والأمية والجهل، حتى إنهم لا يعرفون بدهيات الدين، ولا أن نبيهم محمد، وكأنهم منسيون في هذا الجزء المهم من الوطن من دولتهم، التي لا تعرف عنهم كثيرا ولا قليلا. كان أحدهم إذا سئل: من نبيك؟ يقول: موسى! وإذا سئل: من ربك؟ يقول أيضا: موسى! فأين الدولة؟ وأين الأزهر والأوقاف من هؤلاء؟!

وكان كل حذاء يتسلم حظه من هذه الأطعمة حسب عدد الأفراد الذين فيه: ويتسلم كل عنبر مسئولية الطهي والتنظيف يوما، ثم يسلمه للعنبر الذي يليه في اليوم التالي دوريا، ولهذا يقال: عليه الدوري.

معتقل الطور هو المخيم الدائم للإخوان:

كيف كنا نقضي يومنا في المعتقل؟

إن يومنا يبدأ من قبل الفجر بأكثر من ساعة، يستيقظ الإخوة تباعا استعدادا لصلاة الفجر، وقيام الليل. وما زلت أذكر أحد الإخوة، الذي كان يمر على العنابر في السحر، وينشد بصوت ندي رخيم:

يا نائما مستغرقا في المنامْ
قم فاذكر الحي الذي لا ينام
مولاك يدعوك إلى ذكره
وأنت مشغول بطيب المنام

وحين نسمع صوته ننهض من نومنا، لنتوضأ، ويصلي من شاء منا ما يتيسر له، أو يتلو كتاب الله تعالى، أو يذكر الله كثيرا، فكانت العنابر إذا مررت عليها قبل الفجر، وجدتها تدوي بالذكر وتلاوة القرآن كدوي النحل.

وما أن يؤذن الفجر، حتى يهرع الجميع إلى المسجد، لصلاة ركعتين قبل صلاة الفرض، ثم يتقدم الشيخ الغزالي ليصلي بنا، ويقرأ من القرآن ما توقف عنده ورده، كما هي عادته، فهو يقرأ من حيث انتهى.

واعتاد الشيخ أن يقنت بعد القيام من ركوع الركعة الأخيرة لا سيما من الصلوات الجهرية، قنوت النوازل، الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن نزلت به نازلة من نوازل الدنيا، وكربة من كربها الكبيرة: أن يدعو الله في صلواته، كما كان عليه الصلاة والسلام يدعو للمستضعفين من أصحابه الذين يؤذون في مكة بعد الهجرة، كما كان يدعو على ظالميهم من مستكبري قريش.

وكان قنوت الشيخ أو دعاؤه مختصرا جامعا، يقول: اللهم افكك بقوتك أسرنا، واجبر برحمتك كسرنا، وتول بعنايتك أمرنا. اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، اللهم عليك بالظالمين.

هذا أكثر ما كان يدعو به.

وبعد صلاة الفجر وختام الصلاة، نقرأ المأثورات، التي تحدثت عنها من قبل، ثم نجتمع في حلقات دراسة مع المشايخ، حول بعض الموضوعات الدينية والعلمية: حلقة مع الشيخ الغزالي حول السيرة النبوية، وحلقة مع الشيخ سيد سابق حول الفقه، وأحيانا حلقات أخرى لبعض الإخوان، مثل الأستاذ عبد البديع صقر: كيف ندعو الناس؟

وقبل طلوع الشمس ننفض من هذه الحلقات، كي يبدأ نشاط آخر، هو النشاط الرياضي. فإذا كانت الصلاة حق الروح، والحلقات الدراسية حق العقل، فالنشاط الرياضي حق الجسم، والإسلام يريد الروح النقي، والعقل الذكي، والجسم القوي. ودعوة الإخوان منذ قامت تعمل على تربية الشخصية المسلمة تربية متكاملة: روحيا بالعبادة، وعقليا بالثقافة، وجسميا بالرياضة.

وكان الذي يقود هذا النشاط الرياضي هو الأخ محمد المهدي عاكف الذي كان

طالبا في المعهد العالي للتربية الرياضية، وكان يعطينا التمرينات التي يسمونها «التمرينات السويدية» ثم تمرينات الركض (الجري) والوثب والزحف، وغيرها، نستمر في ذلك صباح كل يوم نحو ساعة.

ثم ننصرف لتناول الفطور، وغالبا ما يكون من الفول أو العدس، أو نحو ذلك. ثم يقوم كل عنبر بتنظيف عنبره وتجميله، وإبرازه بأحسن مظهر ممكن، فإن الله جميل يحب الجمال. ويقوم العنبر المكلف بالطهي بواجبه اليومي، وتكون هناك ساعات حرة، كثيرا ما تقضى في القراءة، يعير الإخوان بعضهم بعضا ما معهم من كتب قليلة.

وأذكر أن الشيخ الغزالي كان يقرأ مع بعض الإخوان كتاب «مدارج السالكين، شرح منازل السائرين» للإمام ابن القيم، وكان قد اصطحبه الأخ القديم الشيخ أحمد عبد الحميد.

وكنا نحن ندرس معا - أنا والأخ الدمرداش والأخ مصباح - بعض الكتب المقررة علينا في السنة الخامسة الثانوية، أملا في أن يتاح لنا دخول الامتحان في وقته.

كما كان بعض الإخوان يقضون هذا الوقت أو بعضه في الزيارات وتعرف بعضهم على بعض، توثيقا لروابط الأخوة في الله، والحب في الله، الذي جاءت الأحاديث النبوية الشريفة تنوه به، وتشيد بفضل أصحابه، الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، حتى إن المتحابين في الله تعالى، ليغبطهم الأنبياء والشهداء، وما هم بأنبياء ولا شهداء، لمكانهم من الله يوم القيامة، فو الله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور.

كما تجد في العنابر في ذلك الوقت من يصلي صلاة الضحى، وبخاصة من لم يتح له أن يصلي قيام الليل لسبب من الأسباب.

فإذا جاء وقت الظهر هرع الإخوان إلى المسجد، لصلاة السنة القبلية، ثم أدوا صلاة الظهر جماعة، لا يتخلف واحد، إلا من كان مريضا أو له عذر.

ثم بعد ختام الصلاة، وصلاة السنة البعدية يعود الإخوان إلى عنابرهم، ليتهيئوا لتناول وجبة الغداء.

وبعد وجبة الغداء تكون هناك قيلولة، يستعان بها على قيام الليل، وصلاة الفجر، وقد أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ (النور: ٥٨)، ومن لم يكن له رغبة في نوم القيلولة، شغل نفسه بشيء، لا يشوش على إخوانه، ويقلق راحتهم، فكل فرد يَعُدُّ نفسه عضوا في جسم حي، يتأثر به، ويؤثر فيه، إذا اشتكى بعضه اشتكى كله، فهو يحرص على راحة إخوانه حرصه على نفسه، يسهرليناموا، ويتعب ليرتاحوا، ويجوع ليشبعوا، ويجود بالشيء لإخوانه، وهو محتاج إليه. وبهذا اقتربوا من النموذج الأول الذي تعلم في مدرسة النبوة، ودرج في حِجر الرسالة، وقام بهم المجتمع المثالي، الذي نزل القرآن مشيدا بمكانته ورفعة قدره عند الله حين قال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩).

وقبل العصر يهب الجميع مستعدين لصلاة العصر. وبعد صلاة الجماعة، تبدأ فترة ثقافية جديدة، محاضرات يلقيها الدعاة من تأملاتهم ومخزون قراءاتهم، أو مما توافر عندهم من مراجع محدودة.

وكان من المحاضرات التي استمتعنا بها في تلك الفترة: محاضرات الشيخ الغزالي عن «الإسلام والاستبداد السياسي»، وهي التي ظهرت بعد ذلك في كتابه المعروف بهذا الاسم، وأصله محاضرات الطور.

وكثيرا ما كنا نجتمع لننشد الأناشيد الإسلامية والإخوانية، بصوت جماعي مؤثر يهز أوتار القلوب، مثل نشيد «العروبة» الذي أنشأه أديب العربية والإسلام الشاعر الثائر مصطفى صادق الرافعي:

ربنا إياك ندعو ربنا

آتنا النصر الذي وعدتنا

إننا نبـــــغي رضـــــاك إننا

مــا ارتضــينا غــيــر مــا ترضى لنا

ونشيد «هو الحق» الذي أنشأه شاعر الإخوان وسكرتيرهم العام الأستاذ عبد الحكيم عابدين، صهر الأستاذ البنا، وصاحب ديوان «البواكير»، وهو النشيد الذي كان يحفظه الإخوان ويرددونه باستمرار:

هو الحق يحـــــشــــــد أجناده

ويعتـــــد للمـــــوقف الفـــاصل

فـــصـــفُّــوا الكتـــائب آســاده

ودكـــــوا به دولـة البــــاطـل

* * *

نبيَّ الهـدى قـد جـفـونا الكرى

وعـــفنا الشـــهي مـن المطعم

نهـــضنا إلى الله نجلو الســـرى

بـروعـة قـرآنـه الـمــــــحكم

ونشـــهـــد من دب فـــوق الثـــرى

وتحت الســـمــــا عـزة المسلم

دعــــــاة إلى الحق لسـنا نـرى

لـــه فــديــة دون بـذل الــدم

ومنه في وصف الإخوان:

رقـــــاق إذا مـــــا الدجى زارنا

غـــمـــرنا مـــحـــاريبنا بالحـزَنْ

وجند شـــــداد، فـــــمن رامنا

لبـــــــأس رأى أسُـــدا لا تـهـــن

ونشيد آخر ألفه الشيخ أحمد الباقوري:

يا رســـــول الله هل يرضـــيك أنا

إخـــوة في اللــه للإســـلام قـــمنا

ننفض اليـــوم غـــبـــار النوم عنا

لا نهــــاب الموت، لا بل نتـــمنى

أن يرانا الله في ســـــاح الفـــداء

إن نفـــســـا ترتضي الإســـلام دينا

ثم ترضى بعــــده أن تســـتكينا

أوترى الإســـلام في أرض مـــهـــينا

ثم تهـــوى العـــيش .. نفس لن تكونا

في عــــداد المسلمين العظمـــــاء

وقد اعترض بعض الإخوة السلفيين من بعد على هذا النشيد: أنه يتوجه بالرضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمسلم إنما يعمل لإرضاء الله وحده، ولهذا كان بعض الإخوة يغيّرون في صيغة هذا النشيد، ويقولون: يا إله الكون هل يرضيك عنا؟ ولا ريب أن هذا أسلم وأبعد عن كل شبهة، فإنما يكون الرضا لرسول الله، مقترنا بالرضا لله لا منفردا، كما قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ** (٦٢) ﴾ (التوبة: ٦٢).

وقد كان من شعارات حسن البنا: الله غايتنا، أي رضا الله وحده هو غايتنا،

وليس رضا أحد سواه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣).

ومما كنا ننشده: أناشيد من شعر الضابط عبد الباسط البنا، شقيق الإمام الشهيد الذي اعتقل معنا، وألف جملة أناشيد منها:

يا ظلام السجن خيم

نحن لا نخشى[1] الظلاما

ليس بعد الليل إلا

نور فجر يتسامى

ومنها:

الله أكبر في سبيل الله أدخلنا السجونْ

الله أكبر وليكن بعد الحوادث ما يكونْ

لا نستعين بغير ناصرنا، وما نلقى يهون

ومنها:

حسن البنا، حسن البنا

ما غاب بطلعته عنا

وبعد صلاة المغرب يتلو الإخوان «مأثورات» المساء، وبعض الإخوان كانوا يتركونها في بعض الأوقات حتى لا يظن وجوبها من ناحية، وعملا بما رجحه الإمام الشاطبي من عدم الالتزام بالعبادات على صورة معينة، إلا إذا ألزم به

(١) في الأصل: إننا نهوى الظلاما، فغيرتها بما هو أنسب وأليق.

الشارع. وبعض الإخوة كان يغير في صورة المأثورات، ولا يلتزم الترتيب الذي ذكره الأستاذ البنا، لأنه ترتيب غير مقصود، وإنما جاء اتفاقا.

بعد المغرب يتناول الجميع وجبة العشاء من أطعمة خفيفة، مثل الجبنة أو الحلاوة أو الزيتون أحيانا، ونحو ذلك.

ثم نختم اليوم بصلاة العشاء. وبعد صلاة العشاء بقليل، يطلب إلى الجميع النوم، فلا سمر بعد العشاء، إلا أن يكون هناك مناسبة معينة يراد الاحتفال بها، أو حفل سمر خفيف يراد به الترفيه عن الإخوان، كما ورد: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلب إذا أكره عمي، أو: إن القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقا، وكان أصحابه يمزحون، ولهم في ذلك وقائع وطرائف تحكى[(١)].

كما كنا نسمع أزجالا طريفة من بعض الإخوان، منها القصيدة الزجلية الشهيرة (ليه وليه) وهي تقول:

ليه وليه، عملنا إيه، يا حكومة ظالمة، جرى لك إيه؟!

أنا كنت قاعد جُوّا البيت... دخل عليّ كم عفريت.

وفتشوني وقالوا: جنيت!.. يا متهم، قلت لهم: إيه؟!

قالوا لي: إنت من الإخوان.. وضبطنا في بيتك قرآن.

ومأثورات وسبحة كمان... ومربّي ذقنك. جاوب: ليه؟

بتصلي من غير إذن بوليس.. وتصوم الاثنين من غير ترخيص.

وعلى صلاة الفجر حريص.. والمصطفى بتصلي عليه.

ليه وليه.

---

(١) انظر: فتوانا «الدين والضحك» فتاوى معاصرة (٢/ ٤٤٥-٤٥٧).

ومنها :

في الصبح نفطر عدس وفول . . . أما الفاصوليا دي على طول .

يا اخوانّا محنة وبكرة تزول . . . وكل ظالم وزره عليه .

ليه وليه .

وإلا فالأصل أن ننام مبكرين ، لنستيقظ مبكرين ، غير متعبين ، وهذا هو الأصل في نظام الحياة اليومي عند المسلمين ، قبل عصر الإعلام والتلفزيون والمسلسلات .

وكان شعارنا ما تعلمناه في الكتائب الإخوانية : نم وأنت يقظان ، وتيقظ وأنت نائم . ومعنى «نم وأنت يقظان» : أي عندما يطلب من الجميع النوم عليك أن تنام أي تتكلف النوم ، وإن كنت في الحقيقة يقظان ، حتى لا توقظ جيرانك أو تقلقهم . ومعنى «تيقظ وأنت نائم» : أن تكون متأهبا - وأنت مستغرق في نومك - لتقوم بخفة عندما ينادي المنادي طالبا اليقظة والقيام .

ليت شعري هل ترى حياة أطيب وأمثل من هذه الحياة؟ وهل ترى مجتمعا أرقى وأتقى من هذا المجتمع؟ وهل ترى يوما حافلا بكل ألوان الحق والخير والجمال والمثالية مثل أيام المعتقلين في الطور؟

لقد حول الإخوان معتقل الطور إلى جامع للعبادة ، وجامعة للعلم ، وجمعية للتعاون ، ومنتدى للثقافة ، وناد للرياضة ، وملتقى للتعاون والترابط ، وبرلمان للتشاور والتفاهم ، وعاشوا تلك الفترة من حياتهم متعاونين على البر والتقوى ، متواصين بالحق والصبر ، متواسين في السراء والضراء ، متآخين في الحق والخير ، متعاهدين على الثبات على الدعوة في العسر واليسر . ولا عجب أن قلنا بحق : معتقل الطور هو المخيم الدائم للإخوان المسلمين لسنة ١٩٤٩ . السفر والمصاريف ، والنفقات ، والتكاليف ، على حساب الحكومة المصرية!

ولقد صورت معتقل الطور في قصيدتي النونية التي ألقيتها بعد خروجنا من المعتقل في ميدان السيدة زينب بالقاهرة ، وكان منها :

يا قوم قد أيد التاريخ حجتنا

وحصحص الحق للمستبصر الآنا

إنا أقمنا على إخلاص دعوتنا

وصدقنا ألف برهان وبرهانا

لقد نَفَوْنا فقلنا: الماء أين جرى

يحيي الموات ويروي كل ظمآنا

قالوا: إلى السجن، قلنا: شعبة فتحت

ليجمعونا بها في الله إخوانا

قالوا: إلى الطور، قلنا: الطور مؤتمر

فيه نقرر ما يخشاه أعدانا

فهو المصلى نزكي فيه أنفسنا

وهو المصيف نقوي فيه أبدانا

معسكر صاغنا جندا لمعركة

ومعهد زادنا بالحق عرفانا

من حرموا الجمع منا فوق أربعة

ضموا الألوف بغاب الطور أسدانا

راموه منفى وتضييقا فكان لنا

بنعمة الحب والإيمان بستانا

هذا هو الطور شاءوا أن نذوب به

وشاء ربك أن نزداد إيمانا

***

وكان مما يشد ظهر الإخوان ويضيء الطريق أمامهم: إيمانهم بأنهم على الحق، وأنهم لم يقوموا بدعوتهم لدنيا أو غنيمة، إنما قاموا قومتهم للإسلام، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى. لم يرضوا أن يكون لليهودية من يتحمس لها ويعمل لإحياء مجدها، وإقامة دولة لها في عقر دارنا بعد آلاف السنين، وأن يكون للنصرانية من يبشر بها، وينشرها في أنحاء العالم، حتى في بلاد المسلمين، وأن تكون لها جيوش من المبشرين والمبشرات، وأن يكون للشيوعية من يؤمن بها، ويستعذب عذاب السجن والنفي من أجلها، ولا يوجد للإسلام من يحمل دعوته، ويحتضن قضيته، ويحيي أمته، ويرفع رايته!

لقد قال رجل أجنبي درس الإسلام وأعجب به: ياله من دين لو كان له رجال! فأراد الإخوان أن يكونوا هم هؤلاء الرجال. قد يكونون أخطئوا في أثناء مسيرتهم، أو ارتكبوا بعض ما لم يكن يجوز أن يرتكب، ولكنهم بشر يجتهدون في خدمة الإسلام ليسوا معصومين، وهذا كله لم يمس جوهر الدعوة، وأصول الفكرة، وأهدافها الأساسية. لهذا كانوا مؤمنين أعمق الإيمان وأوثقه بأنهم أصحاب حق، وأنهم منتصرون في النهاية، وأن العاقبة الحسنى لهم، وإن أصابهم ما أصابهم من لأواء، فهذه سنة الله في الدعوات: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** (٢١٤) ﴾ (البقرة: ٢١٤).

وكانوا يؤمنون - بما تعلموه من كتاب الله - أن النصر أقرب ما يكون، حين تتفاقم الأزمات، وتضيق الحلقات، ويشتد البأس، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** (١١٠) ﴾ (يوسف: ١١٠).

كان هذا الأمل الباسم هو الذي يفتح لهم نوافذ النور كلما ادلهم الظلام، وهم

يقرءون قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ (الشرح: ٥، ٦) ويقول ابن مسعود: لو دخل العسر جحرا لتبعه اليسر حيث كان.

وأقرب ما يكون اليسر إذا غلب العسر وتمادى، كما قال الشاعر:

اشـتـدي أزمـة تـنفـرجي

قـد آذن لـيـلـك بـالـبـلـج

وقال الآخر:

ولـرب نازلة يضـيـق بهـا الفـتـى

ذرعـا، وعند الله منهـا المخـرجُ

ضـاقت، فلمـا اسـتحكمت حلقـاتهـا

فـرجت، وكنت أظنهـا لا تفـرج

حياة وحياة:

كانت هذه حياة الإخوان في معتقلهم: علم وعمل، وإيمان وأمل، وحب وإخاء، وتلاوة ودعاء. ولا يعرف قيمة هذه الحياة إلا من رأي حياة الشيوعيين بجوارنا في حذاء رقم (٤)، وقد ابتلي بعض إخواننا بالعيش معهم عدة أيام، مرت عليه كأنها أعوام. إنها حياة جافة ليس فيها روح، يائسة ليس فيها أمل، أنانية ليس فيها إخاء، ولا يعرف إليها الإيثار سبيلا، كل يقول: نفسي نفسي، يتقاتلون على أدنى شيء. وكيف لا، وقد فقدت النور الذي يهدي، والروح الذي يحيي: نور الإيمان، وروح اليقين بالله والدار الآخرة.

إن المؤمن إذا ضاقت به الدنيا، اتجه إلى ربه الذي خلقه وسواه، يدعوه ويتضرع إليه، ويقول: يا رب، يا رب، يا رحمن يا رحيم، يا حي يا قيوم، ياذا الجلال والإكرام.

يا مـن ألـوذ بـه فـيـمـا أؤمـلـه

ومـن أعـوذ بـه ممـا أحـاذره

لا يجـبـر الناس عظمـا أنت كـاسـره

ولا يهـيـضـون عظمـا أنت جـابره

ولكن الشيوعي القُح، الذي يجحد كل ما وراء الحس، وما بعد الطبيعة، ويعيش سجين الفكرة المادية الجدلية أو المادية التاريخية، إلى من يلوذ؟ وبمن يعوذ؟ وبأي حبل يعتصم؟ وإلى أي ركن يرتكن؟ ومن أي كوة تنفذ إليه أشعة الرجاء، وقد سد كل الكوى، وأغلق كل المنافذ، وأطفأ كل المصابيح؟! فأمسى ﴿ **كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ** ﴾ (الأنعام: ٧١).

إن الإنسان بلا إيمان يهديه أشبه بغريق نجا من سفينة تحطمت، فهو وإن أحسن السباحة، كيف يغالب البحر، والبحر يغلبه؟ وكيف يصارع الموج، والموج يصرعه؟ إنه سيظل يهبط ويطفو، دون أمل في أن يجد شاطئا يرسو عليه، أو قاربا ينجو به، حتى تخور قواه، ويبتلعه اليم.

إن صبر الإخوان على محنتهم، وثباتهم على دعوتهم، وتماسكهم فيما بينهم، واستفادتهم من هذه المحنة ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، كل ذلك لم يأت اعتباطا، بل كان نتيجة تربية إيمانية طويلة المدى، راسخة الدعائم، عميقة الجذور، وَصَلَتهم بكتاب الله تعالى، وسيرة رسوله صلى الله عليه وسلم، وصقلت معادنهم، في حلقات «الأسر الإخوانية» وتضامنها وتدارسها وتعاونها، وفي سهرات «الكتائب» التي يقضون فيها الليل معا يصلون العشاء جماعة، ويتعشون عشاء خفيفا، ويتلقون بعض الدروس من بعض الدعاة، ثم يخلدون إلى النوم، مع حراسة دورية. وفي السحر ينهضون لقيام الليل، يبيتون لربهم سجدا وقياما، ﴿ **يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا**

﴿عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)﴾ (الفرقان: ٦٥، ٦٦).

ثم يصلون الفجر في جماعة، ويقرءون المأثورات، ويستمعون إلى كلمة توجيهية ربانية، ثم يقومون إلى التمرينات الرياضية، ثم يتناولون الفطور وينصرفون.

وفي المخيمات التي تضم أعدادا أكبر، وتستمر أياما أطول، ما بين عبادة وثقافة ورياضة، وتعود على حياة الخشونة والقناعة في المأكل والمشرب والمسكن والمنام، يتمرنون على حياة الجندية والطاعة والنظام، والتضامن والإيثار.

لجنة العكننة:

ومع هذه الحياة العامرة بالرضا والتفاؤل والأمل، حياة المنفى أو المعتقل الذي حوله الإخوان (بنعمة الحب والإيمان بستانا) كما ذكرت.. كان هناك أفراد قليلون لم يصبروا على المعتقل، ولم يرضوا به، ولم يكيفوا أنفسهم وفقا للحياة الجديدة: والناس تتفاوت طاقاتهم في الاحتمال، فمنهم من يقارع الأهوال ولا يبالي، ويواجه الأحداث كالطود الأشم، ومنهم المتوسط الاحتمال، ومنهم من لا يحتمل أي مكروه يصيبه.

وكان من هؤلاء الذين قل احتمالهم، وعز عليهم فراق أهليهم: أخونا وصديقنا الداعية الطنطاوي الأستاذ حسني الزمزمي، الذي تحدثت عن موقفه ونحن في سجن طنطا. وقد وصل معنا إلى الطور، ولكنه لم يخف تبرمه بالمعتقل، وضجره منه، وانضم إليه نفر قليل على شاكلته، سماهم الإخوان «لجنة العكننة» ورئيسها الأستاذ الزمزمي.

والحق أن لجنة العكننة كانت مصدر ترويح وفرفشة للمعتقلين. فقد كان الأستاذ الزمزمي، رجلا فكها خفيف الروح بطبيعته وبطريقته. وكان إذا ناداه أحد:

ياأستاذ زمزمي، يرد عليه بقوله: إن شاء الله خرّاب يتعمي! و«خرّاب» هذا لقب «عبد الرحمن عمار» وكيل وزارة الداخلية، الذي كتب المذكرة المسمومة لحل الإخوان، فسماه الزمزمي «خرابا».

وكان له أرجوزة نظمها في سعد الدين السنباطي الذي اعتقله في طنطا، ومطلعها:

يا رب أخـــز الظالم السنبـــاطي

واجـــعله في كل الأمـــور واطي

يا رب واجـــعل كـــيـــده في نحـــره

ورد سـم سـهـــمـــه لـصـــدره

وكان الإخوة - ولا سيما أهل العلم والأدب منهم - كلما سمعوا أرجوزته أضاف إليها كل منهم بيتا من عنده.

البسابس:

إلا أن العكننة الحقيقية كانت تتمثل في وجود عدد من العملاء والجواسيس، زرعتهم الحكومة وجهات الأمن زرعا في أوساط الإخوان، سماهم الإخوان (البسابس)، مهمتهم أن يتجسسوا على الإخوان، وينقلوا أخبارهم أولا بأول إلى الحكومة. وليس عند الإخوان ما يتجسس عليه، فكل أمورهم وأنشطتهم في وضح النهار. ولم يطق هؤلاء البسابس الحياة الروحية للإخوان، واستيقاظهم لصلاة الفجر، وحرصهم على الصلوات، ولهذا سرعان ما ينكشف هؤلاء؛ فالإخوان ينهضون للصلاة وهم نائمون. وفي يوم كان الإخوان يصلون، وهم يهتفون: عاش جلالة الملك، مما أثار حفيظة الأخ الشهم الحاج إبراهيم كروم فتوة القاهرة المعروف، الذي جمع عددا من الشباب الأقوياء، وانهالوا على هؤلاء «البسابس» ضربا حتى

أصابوهم بجراح، وعملت قضية للحاج كروم، وعلمت أنه حكم عليه فيها ـ بعد خروجه من المعتقل ـ بستة أشهر.

من الطور إلى هايكستب (رحلة قاسية لا تنسى):

وبينما كنا نستمتع مع إخواننا بهذه الحياة الإسلامية الفريدة في الطور، مشاركين في النشاط الإسلامي المتعدد الألوان، إذا بنا نفاجأ بالنداء علينا ـ نحن طلاب الثانوي ـ لنقلنا إلى القاهرة، أو قريب منها، وقد قيل: ربما ليفرجوا عنا، فالكبار يبدو أنه سيطول اعتقالهم.

ولم نفرح بهذا الخبر، بل كان وقعه علينا وقع الصاعقة، فما كنا نحب أن نفارق إخواننا وشيوخنا، بل كنا نحب أن نبقى إلى جوارهم، يجري علينا ما يجري عليهم.

وهكذا جمعونا نحن طلبة الثانوي: أنا وأحمد العسال، ومحمد الدمرداش ومصباح عبده، الذين كنا في سجن قسم طنطا، ومن انضم إلينا من زملائنا الطلاب: السيد النفاض من محلة أبو علي، وكمال السيد جروين من كفر طبلوها من معهد شبين الكوم بالمنوفية، ومحمد التاجي من معهد أسيوط الديني بالصعيد، وآخرون لا أذكرهم، وقد كان لمعهد طنطا نصيب الأسد في المعتقلين من الطلاب.

وكانت وسيلة نقلنا سيارة نقل للبضائع (لوري) ألقينا فيها كأننا أبقار أو أغنام تنقل من بلد إلى بلد، والمسافة طويلة من الطور إلى القاهرة، والطريق غير معبد، وعلينا أن نجتاز بهذه الوسيلة صحراء سيناء، وهي قاسية، شديدة شمسها نهارا، شديد بردها ليلا، ولم يكن معنا من الأغطية ما يكفي ويرد عنا عادية برد الصحراء، وأحسب أننا كنا في شهر إبريل، أو نحو ذلك.

وصبرنا على هذه الرحلة القاسية المضنية، فقد كنا شبابا، وكانت أجسامنا تحتمل

هذا العناء، واستعنا بأدعية السفر التي كنا نحفظها: اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل. اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد. اللهم هوِّن علينا سفرنا واطو عنا بعده. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى.

واختلفنا فيما بيننا: هل نختم الدعاء بما أثر: «آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون»، التي كان رسول الله يقولها في عودته من السفر، لأننا لم ندر: هل نحن آيبون وراجعون من سفرنا، أو نحن ننتقل من مرحلة إلى مرحلة؟ وترجح الرأي الأخير.

ومع احتمال مجموعنا لقسوة الرحلة، كان منا من لم يحتمل لأواءها وشدتها، مثل أخينا مصباح الذي أصيب بـ «الروماتزم» وتعب تعبا شديدا، حتى اجتزنا الصحراء، ووصلنا إلى السويس، واقتربنا من القاهرة. وانفرجت أساريرنا عندما رأينا خضرة القمح والشعير والفول والبرسيم، لأول مرة منذ أشهر، فلم نكن نرى غير اللون الأصفر، لون الصحراء.

الوصول إلى هايكستب:

وأخيرا وصلنا إلى معتقل «هايكستب» بالقرب من القاهرة.

و«هايكستب» كان معسكرا للجيش الإنكليزي (كامب) تخلى عنه، فاستخدمته الحكومة المصرية معتقلا لبعض المصريين.

وكان فيه قبل الإخوان: جماعة من الشيوعيين، وبعض الوفديين اليساريين، وكان معظم الشيوعيين من جماعة (حدتّو) وهي اختصار لكلمات: «الحركة الديمقراطية التحررية الوطنية»، وكان زعيم هذه الجماعة ومؤسسها المليونير اليهودي الإيطالي (هنري كورييل) وهو الممول الأكبر لهذه الحركة. ومن العجب أن يحمل هذا المليونير اليهودي الإيطالي قلبا يرفق ويحنو على العمال والفقراء

والمستضعفين في مصر، فمتى كان اليهود يحملون هذه القلوب الرحيمة على البشر؟ ومتى كان الرأسماليون يحنون على الطبقات الأخرى، وفلسفتهم قائمة على أن يربحوا من كل الطبقات ما استطاعوا؟ ولا يهم الرأسمالي أن يشيد قصرا من جماجم البشر، وأن يزخرفه بدمائهم؟ ومتى كان الإيطالي حريصا على إنقاذ الطبقات المسحوقة في مصر؟ ولحساب من هذا كله؟

إن الذي يقرأ تاريخ الشيوعية في المنطقة يتبين بوضوح: أن الذي حمل لواءها، وقام بنشرها في أول الأمر هم اليهود. ومن المعلوم للدارسين أن الشيوعية بنت اليهودية، ودور اليهودية في قيام الثورة الشيوعية، ونجاحها في روسيا دور غير مجهول ولا منكور.

ثم انضم بعض النصارى إلى اليهود في الانضمام إلى الأحزاب الشيوعية في المنطقة العربية. وكان أول مسلم ينضم إلى الحزب الشيوعي في بلاد الشام هو «خالد بكداش» في سورية، وكانت فرحة الشيوعيين به لا تقدر، فهو أول الغيث.

كما أن كثيرا من الأحزاب الشيوعية في مصر والبلاد العربية: كانت من صنع أمريكا والغرب، لتتخذها أداة في تحقيق أهدافها، ولا سيما في ضرب الحركة الإسلامية إذا اشتد خطرها.

المهم أن الشيوعيين سبقوا الإخوان إلى «هايكستب» وكان «كوريل» يأمرهم وينهاهم فيسمعون له ويطيعون كأنهم الخاتم في أصبعه.

على كل حال، وصلنا إلى هايكستب ووضعنا في أحد عنابره، ووجدنا بعض الأخوان قد سبقونا إليه، منهم الطبيب الأديب الشاعر د. حسان حتحوت الذي تخرج حديثا، ومنهم العالم الداعية الشيخ محمد جبر التميمي، ومنهم العربي الأصيل الأستاذ صالح أبو رقيق، ومنهم الطالب الأزهري الأديب

الشاعر عبد الودود شلبي، ومنهم الأخ سعد كمال، والأخ علي الخولي[1]، ومنهم أصغر طالب في المرحلة الثانوية، وهو الطالب النابه محيي الدين عطية، ومنهم عدد من طلبة معهد دمياط الديني الابتدائي، كانوا قد قاموا بإضراب في المعهد، فاقتادتهم المباحث إلى المعتقل مع الإخوان، ولم يكونوا من الإخوان، وقد أصبحوا منهم بعد ذلك، أذكر منهم أصغر طالب فيهم: محمد أحمد العزب، الذي أصبح الدكتور الأديب الشاعر الباحث الإسلامي فيما بعد.

ومن اللطائف التي أذكرها: أنا وجدنا المراحيض في هذا المعتقل على الطريقة الإفرنجية، التي لم تكن معروفة ولا مشتهرة بين الناس في هذا الوقت. ولم يسترح مجموع المعتقلين إليها، وقال الدكتور حتحوت: إن المرحاض البلدي أصح من المرحاض الإفرنجي، فهو أبعد عن نقل العدوى، حيث لا يجلس معتقل مكان غيره ويلامسه بجسده. ثم إن الحمام البلدي بجلسة القرفصاء المعتادة يساعد على التفريغ أكثر، وهو يقوي عضلات الساقين.

وانتهى الرأي إلى أن نحول «الإفرنجي» إلى «بلدي» بواسطة حجارة موجودة في المعتقل. وقد كان.

وبدأنا ننظم حياتنا في هذا المعتقل، مستفيدين من تجربتنا في الطور، وإن لم تبلغ مبلغ الإخوة هناك، وبخاصة أنه كان بيننا بعض العناصر من غير الإخوان منهم طلبة معهد دمياط، الذين ظلوا في بعض الليل يصيحون ويهرجون، ونحن قد أوينا إلى النوم، مما جعلني أثور عليهم، وأهاجمهم مهاجمة عنيفة، ندمت عليها بعد ذلك، وطلبت السماح منهم.

وكنا نصلي الصلوات في جماعة، وقد اختارني الإخوان إماما لهم، كما كنت أخطبهم الجمعة، وأحيانا يساعدني بعض الإخوة مثل الأخ العسال، أو عبد الودود.

---

(١) الذي قتل تحت التعذيب في محنة سنة ١٩٥٤م في عهد الثورة، وكتب عنه مصطفى أمين في عموده اليومي (فكرة) في جريدة الأخبار القاهرية.

وكان الأخ مصباح قد اشتد به مرض «الروماتيزم»، وغدا تحت رعاية الدكتور حتحوت، ومع ذلك فإن مرض مصباح، كان مصدرا للترفيه عن الإخوان وإضحاكهم بنكاته الفطرية، وتعليقاته الهزلية، التي هي نوع من الكاريكاتير الشفهي، وكان من شعره (الحلمنتيشي):

ولست بشارب شايا بقرش

ولكن أشرب الشاي البلاشا!

وكان كلما اشتد به الألم يقول: الله يخرب بيتك يا اللي في بالي!

وكان كلما صمت الإخوة من حوله، يصدر صيحة يقول: عبادك يا كريم!

وكان من طرائفه أنه إذا سئل عن ترتيبه في الدفعة، يقول: أنا والشيخ يوسف نحيط بالدفعة من طرفيها، هو في أولها، وأنا في آخرها، فأنا الأول ولكن في الطرف الآخر!

وكنا نأمل أن يسمحوا لنا بدخول امتحان الشهادة الثانوية، بأن يأخذونا تحت الحراسة إلى لجنة الامتحان بمعهد القاهرة، أو يأتوا إلينا بلجنة تمتحننا في المعتقل، وكلا الأمرين حدث لمعتقلين قبلنا، وهو من حقنا.

ولهذا ظللنا نتذاكر المقررات الدراسية في الكتب التي معنا، يسأل بعضنا بعضا، ويعين بعضنا بعضا، حتى اقترب موعد تقديم «استمارات الشهادة الثانوية»، فطلبنا من إدارة المعتقل أن تحضر لنا هذه الاستمارات، فاستجابت لنا، وأحضرتها وملأناها، وبقيت «الصور الشمسية» التي توضع في الاستمارات، فطلبنا منهم أن يأتوا بمصور يصورنا في المعتقل، حتى تستكمل الاستمارة مقوماتها، فرفضوا. وقدمنا الاستمارات بدون صور.

وبقينا نترقب الامتحان، ونستعد له بقدر ما تسعفنا ظروفنا، راجين أن تنفرج الأمور، فيأذنوا لنا بأداء الامتحان، حتى جاء موعد الامتحان بالفعل، والباب مغلق أمامنا ولم يحدث أي انفراج.

فلم نملك إلا أن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وألقينا كتبنا واعتقدنا أن السنة قد ضاعت منا، ولا بأس بذلك في سبيل الدعوة، وعلى الجميع أن يصبروا على ما أصابهم، ويسألوا الله أن يعوضهم خيرا، فهناك من الإخوة من كسدت تجارته وأغلق محله، ومنهم من أوقف مرتبه، ولا دخل لأهله غيره، ومنهم.. ومنهم.. وعلينا نحن الطلبة أن نصبر على ما يضيع من سنوات عمرنا.

كان المعتقلون يقضون أوقاتهم في أنشطة مختلفة. كان منا من يقرأ بعض الكتب إذا تيسرت، وقد كان معي كتابان اصطحبتهما، وهما: إحياء علوم الدين للغزالي، الذي أهداه إلي جارنا الشيخ بيومي الغزوني وأجزاء من كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه في الأدب.

فكنت أستفيد من الوقت بالقراءة في هذا فترة، وفي ذاك أخرى، أحيانا وحدي، وأحيانا مع بعض الإخوة.

وكنا نقيم بعض أحفال السمر في الليل، للترويح عن الأنفس، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم لحنظلة: يا حنظلة، ساعة وساعة.

وكما قال الشاعر:

ولله مني جانب لا أضيعه

وللهو مني والبطالة جانب

وكان الشعراء يلقون بعض ما عندهم، مثل الدكتور حسان حتحوت، وقصيدته عن القرآن والسياسة، والتي يقول فيها:

هذا الكتاب، وإن فيه سياسة

أتراه أمرا في الكتاب عجيبا؟

إن كان تغضبكم سياسته دعو
ه ونقبوا عن غيره تنقيبا
أو فاعرضوه على الرقيب، فربما
أفتى فغادر نصفه مشطوبا!
يا قوم سحقا للرقيب وأمره
فكفى برب العالمين رقيبا

وكذلك الأخ محمد التاجي الشاعر الصعيدي المجيد، وقد أسمعنا بعض قصائده الوطنية، وأذكر له قصيدة قافية منها:

أنا إن رضيت فإن ناري جنة
وإذا غضبت فإن مائي محرق!

وقصيدته بعنوان (أخي) ومطلعها:

أخي في فؤادي وفي سمعي
وفي خاطري أنت والأضلع

ومنها:

كلانا إلى الهول بارى أخاه
وخلف أخيه لدي المطمع!

أي عند الهول يسابق كلانا الآخر، وعند المغنم والمطمع يتأخر كل منهما، ليقدم أخاه، ويمشي خلفه، وهو ما وصف به الأنصار قديما: أنهم يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع.

ومن طرائف شعر التاجي، قصيدته عن حياته في المعهد، ومنها عن «سريره» الذي يقول فيه:

ســـريـــر نــال مـــنـــه الـــدهـــــــ

ـــــر من أيام بيـــــــبــــــــرس

هـو المـضـــــــــجع والمـكـتـــــــ

ـــب و(البـــوفـــيـــه) والكرسي

ومما يؤسف له: أن يختفي التاجي وشعره المطبوع الجيد، لا لشيء إلا لأنه يعيش هناك في الصعيد، بعيدا عن الأضواء، في حين طفا على السطح كثيرون لا هم في العير ولا في النفير، وهذا من جملة العبر، ودليل على اختلال الميزان عند البشر.

ولولا أننا نبهنا عليه الأخوين: أحمد الجدع، وحسني جرار، لينوها به وبشعره في «شعراء الدعوة الإسلامية» ما سمع به أحد إلا القريبون منه.

وكان الأخ الشاعر عبد الودود شلبي ينشدنا من شعره أحيانا، ومن شعر اليساريين الثائر حينا آخر. مثل قوله:

أيـهـــــا الشـــــعب تحـــــرك

أفــلا تبـــــصـــــر قبـــــرك؟

هـاهـو الجـــــلاد قـــــد ألـــــ

ــهب بالكـرباج ظهـــــرك

هـاهـو الحـــــفـــــار قـد أو

شـك أن يـنـهـي أمـــــرك

مـــــوكـب الأحـــرار أنـصـــا

رك لـلـســـجـن تحـــرك

فـــــتــــــحــــــرك أنت يا شــــ

ـعب لـكي تهـــدم قـــبـــرك

وكنت أشارك في هذه الندوات ببعض شعري القديم، وبعض الحديث مثل نشيد «يا سجون اشهدي» وقد ألفته في هذا المعتقل:

مـــرحـــبـــا بـالحـــرابْ

مـــرحـــبـــا بالســـجـــونْ

في ســــبـــيـل الكتـــاب

كــل شـيء يـهــــــــون

إنـــا لا نــهـــــــاب

كـل مــــا يـوعــــدون

كـــيف نخــشى العـــذاب

ومـــنـــانـــا المـــنـــون؟

حـــســـبنا يا شـــبـــاب

أنـــنـــا مـــؤمـــنـــون

* * *

نـــحــــن جــنــد الإلـــه

ولــه مـــســلمـــون

هـمـنـا فـي رضـــــاه

لا نــنـي لا نــخـــــون

لا نـبــــالي ســــواه

كــــــائـنـا مـن يـكـون

فـــاقـــبــســـوا من هـداه

أيـهـــا الحــــائـرون

وانـهـضـــو لـلحـــيـــاة

أيـهـــا الـنـائـمـــون

* * *

يا ســجـــون اشـــهــدي

قـــســـوة الـظـالمـينْ

واذكـــري لـلـغــــد

صـــبـــر أهـل الـيـــقـين

فــتـــيـــة المســجـــد

وحــمـــاة الـعـــريـن

كـــلـهـم مـــقـــتـــد

بـــالـرســـول الأمــين

صـــامـــد مـــهــتـــد

لا ، ولـــن يـســـتـكـين

* * *

وكان من المعتقلين معنا الدكتور أحمد شوقي الفنجري ، وكان عنده هواية التنويم المغناطيسي ، فكان يمارسها مع المعتقلين ، ولا سيما الطلبة ، ونراهم ينامون بالفعل ، ويسألهم أسئلة يجيبون عنها بما يصيب حينا ، ويخطىء أحيانا .

وأذكر أننا سمعنا نبأ بانقلاب في سوريا قام به أحد الضباط الكبار في الجيش

السوري، اسمه حسني الزعيم، ولم تكن الصحف تدخل إلينا، ولا سماع الإذاعة يجوز لنا، فلم نكن ندري عن أخبار الدنيا في الخارج، وخصوصا الأحوال السياسية شيئا.

وطلب بعض الإخوة من الفنجري أن ينوم أحدهم، ليسأله عما يجري في سورية، وكنت أومن أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأن التنويم المغناطيسي وغيره لا يكشف الغيوب المستورة عن الخلق، وقد قال تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ**﴾ (الأنعام: ٥٩).
﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ (النمل: ٦٥).

فإذا كنا نمارس التنويم على أنه «طرفة» نسلي بها الوقت فلا مانع. أما أن نمارسه على أنه وسيلة لمعرفة الغيب، فهو مرفوض شرعا.

وكان بجوارنا جماعة من كبار الإخوان، اعتقلوهم بعيدا عنا، تنكيلا بهم، وتكديرا لهم، وعلى رأسهم الأستاذ عبد الحكيم عابدين السكرتير العام للإخوان، وصهر الأستاذ البنا(زوج أخته) والشيخ الداعية عبد المعز عبد الستار.

وقد ضيقوا عليهم في المأكل والمشرب، حتى سمعت من الشيخ عبد المعز أنه قال: حاولنا يوما أن نشرب من الماء المخزن في «سيفون» المرحاض، فوجدناه كأنه طين لا يمكن شربه.

وكنا سمعنا أنهم ركبوا لهم «أجهزة تسجيل» خفية، تسجل أحاديثهم بعضهم مع بعض، فأردنا أن نبلغهم بذلك، فأبلغناهم بذلك بطريقة ملحنة كأنما نقرأ القرآن، حتى لا يحس الحراس، وقد فهموا عنا ما أردنا.

العلقة:

ومن الأحداث المهمة والأليمة والتي لا تنسى في معتقل «هايكستب»: حادثة «العلقة» الساخنة التي تلقيناها في أحد الأيام، والتي سلط علينا فيها جنود «بلوك

النظام»، وهم جنود تابعون للشرطة، يجندون عند الأزمات فقط، لفض المظاهرات، أو مقاومة الشغب، أو نحو ذلك، وهم في غالبهم أميون قساة، كأنما هم أدوات في أيدي قادتهم، ينفذون بهم ما أرادوا.

ولا ندري حقيقة السبب الذي استدعي من أجله هؤلاء الجنود للانقضاض علينا، كأنهم وحوش مفترسة، أو كأنما يهاجمون عدوا قد اعتدى على أرض الوطن، وانتهك حرماته.

قيل: إن الأخ عبد الودود شلبي - الذي كانوا يغلطون في اسمه إذا نادوه، ويقولون: عبد الودّ ودّ - تشاجر مع إدارة المعتقل لسبب من الأسباب، فأراد الضابط المسئول - واسمه فَرِيد القاضي - أن ينتقم من الجميع، ويعلمهم أدب التعامل مع القادة.

أيا كان السبب، فقد فوجئنا بالجنود يدخلون علينا عنبرنا الرئيس كالتتار، يحملون العصي الغليظة والهراوات الطويلة، يضربون بها الكبير والصغير، والصحيح والمريض، لا يتحاشون أحدا.

ولا ننسى موقف الأخ صالح أبو رقيّق، وهو يحامي عن الإخوة صغار السن، ويتلقى الضربات عنهم، وموقف الأخ حسان حتحوت، وقد أصيب في أصبعه.

كما لا ننسى موقف الأخ عبد الودود حين نزلت عليه الضربات، وهو يصيح ويقول: عثمان بن عفان، شهيد الدار من جديد!

ولا موقف الأخ مصباح - على مرضه - ينكت ويقول:

ولقد ذكرتك والجنود تعجني
وسط العنابر بالعصا يا سوسو

على غرار ما قاله عنترة لعبلة:

ولقـــــد ذكـــــرتك والـرياح نـواهل

منـي، وبـيض الـهنـد تـقـطـر مـن دمـي

فـــوددت تقـبـيـل الـســيــوف لأنهــا

لـمـــعت كبـــارق ثغـرك المتـــبـــسم

بهذه الروح العذبة المستخفة، واجهنا هذه المعركة التي سميتها في قصيدة لي «معركة بغير قتال».

وكان بجوارنا العنبر الآخر الذي فيه عدد من كبار الإخوان، عزلوهم عنا، منهم الأستاذ الشيخ عبد المعز عبد الستار، والأستاذ عبد الحكيم عابدين، وعدد من الإخوة، كما أشرت من قبل.

وكان الجنود يوجهون ضرباتهم إلى الشيخ عبد المعز وهو يصرخ فيهم: اضربوا يا أنذال، اضربوا يا كلاب.

وانفضت المعركة المفتعلة بقليل من الإصابات والجراحات الخفيفة، وكثير من العجب والاستغراب لما حدث. ولكن في عهود الظلم والاستبداد لا يستغرب أي شيء يقع، لأنه لا يوجد من يحاسب الظالم، ولا من ينصف المظلوم.

وقد نظمت قصيدة بهذه المناسبة، قلت فيها:

مـــا للجنود ذوي العـــصيّ ومـــالي؟

مـــا كنت بالبـــاغي ولا المحـــتـــال؟!

مـــا بالـهم هجـــمـــوا علينا بغـــتـــة

مـــتـــوثّبين كـــهـــجـــمـــةِ الأغـــوال؟!

قـــد كـــشّـــروا عن نابهم، وتقـــدّمـــوا

ببـــســـالة للثـــأر من أمـــثـــالي!

حملوا العصيّ غليظة كقلوبهم

ومضوا كسيل من كل مكان عال

لم كلُّ هذا الحشد من جندٍ، ومن

حرسٍ، كأن اليوم يوم نزال؟!

وإذا عجبت فإن أعجب ما أرى

إضرامُ معركة بغير قتال!

ضربٌ بلا هدف، ولا معنىً، ولا

عقلٍ، سوى تنفيذ أوامر الوالي!

كم بيننا من ذي سقام يشتكي

لكن لمن يشكو أذى الجهال؟

كم بيننا شيخ ينوء بعمره

يعدو الجهول عليه غير مبال

كم بيننا من يافع ومرفه

لم ينج من ضرب وسوط نكال

لم أنس وقفة (صالح) بشجاعة

يحمي الضعاف بعزة وجلال

وثباتَ حسَّان ومحيي حوله

وأخي الدمرداشي والعسال

ومزاح مصباحٍ وحلوِ نكاته

رغم الضنى في الجسم والأثقال

وبقـــربنا شـــيخ يجلجل صـــوته

في الجند يصـــرخ صـــرخـــة الرئبـــال

عـبـد المعـزِّ يقـولُ: دونكمـو اضـربوا

ضرب الـخـسـيس لشـامخ مـتـعـال

* * *

قـل للطغـــاة الحاكـــمين بأمـرهم:

إمـــــهـــال ربـــي لـيس بـالإهــمـــال

إن كـــان يومكمـــو صـــحت أجـــواؤه

فـــمـــآلكم والـلـه شـــــر مـــآل

ســـتـــدور دائرة الزمـــان عليكمـــو

حـــتـــمـــا، ويؤذن ظلكم بزوال

ستـرون من غـضب السـمـاوات العـلا

وإذا غـــضبن فـــمـــا لكم من وال

وتـزلـزل الأرض الـتـي دانـت لـكـم

يومـــا، ومـــا أعـــتـــاه من زلزال!

البـغي فـي الدنيـا قـصيـر عـمـره

وإن احـــتـــمـى بالـجند والأمـوال

* * *

يا جنـد فـــرعـــون الـذين تميَّـــزوا

ببـــذيء أقـــوال، وســـوء فـــعـــال

لا تحسبوا التعذيبَ يخمد جذوتي

ما ازددت غير تمسك بحبالي

إن تجلدوا جسدي فحسبيَ أسوةً

إيذاء عمار، وجلد بلال

ضربُ الرجالِ وهم أسارَى قيدهم

من شيمة الأوغاد لا الأبطال

والليثُ ليس يعيبه إيذاؤه

مادم في الأقفاص والأغلال

يا قادرين على الأذى ليَ، هل لكم

أن تستطيعوا ساعة إذلالي؟!

الجسم قد يؤذى، وليس بضائر

نفسا تعز على أذى الأنذال!

* * *

مسرحية ابن جبير والحجاج:

وكان مما كتبته في هذه الفترة في «هايكستب» مشروع مسرحية عن الإمام سعيد بن جبير، ومواجهته للحجاج. وكان هذا من ثمرة قراءتي للعقد الفريد، وقد كتبتها في مسودة في كراسة، وقد صحبتها معي إلى الطور بعد عودتنا إليه مرة أخرى. وحين أفرج عني تركتها مع بعض الإخوة، وقد علمت أنهم مثلوها في المعتقل، عقب الإفراج عني وتحسن الأحوال كثيرا، وذلك بعد أن أضافوا إليها بعض اللمسات، وهو ما دفعني إلى أن أعود إلى الفكرة بعد ذلك، وأعيد كتابة

الموضوع تحت عنوان «عالم وطاغية»، وهي مسرحية مثلت في أكثر من بلد ولقيت قبولا عاما.

العودة إلى الطور:

وكما فوجئنا بالنداء علينا لنرحّل من الطور إلى هايكستب، فوجئنا في أحد الإيام بالنداء علينا لنرحّل من هايكستب إلى الطور، ونعود إلى قواعدنا سالمين. وكنا فرحين بهذه العودة، لنأخذ مكاننا في القافلة الإخوانية الكبرى، ونستقبل رمضان فيها في رحاب الطور، ونسعد بالحياة الإسلامية التي عشناها من قبل.

نقلتنا السيارات إلى الطور، ومما أذكره في هذه الرحلة: أننا مررنا بمنطقة تسمى «أبوزنيمة» بها مصانع للمنجنير، وبها عدد من العمال يشتغلون بها، وقد توقفنا عندها قليلا للاستراحة، ولنشم نفسنا، وكان مما استلفت نظري: أن وجدت قسيسا قبطيا بعثت به الكنيسة إلى عمالها هناك، فقلت في نفسي: تذكرت الكنيسة القبطية أن لها أبناء في هذه المنطقة البعيدة، فأرسلت إليهم قسيسا يعظهم، ويصلهم بكنيستهم ورجالها، فهل تذكر الأزهر أو تذكرت وزارة الأوقاف أن هنا عمالا مسلمين يحتاجون إلى من يرشدهم ويعلمهم ويفقههم في دينهم؟ هل تذكرهم الأزهر، وأرسل إليهم واعظا؟ وهل تذكرتهم وزارة الأوقاف لترسل إليهم إماما وخطيبا؟ هل فكرت أصلا في بناء مسجد لهم من أوقاف المسلمين وهي كثيرة بحمد لله؟

كلا، لم نجد أثرا لا للأزهر ولا للأوقاف، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته» متفق عليه عن ابن عمر.

وعدنا إلى الطور لنستقبل فيه شهر رمضان المبارك. ومن حسن حظنا، أن وضعنا في حذاء رقم (٢) الذي يؤمه الشيخ الغزالي، واستمتعت بصلاة التراويح خلفه، ثماني ركعات يتلو فيها كل ليلة جزءا من القرآن، بحيث يختم القرآن في آخر ليلة، كما استمتعنا بخطبه للجمعة، ومواعظه القصيرة في الترويحة كل ليلة.

وكان إمام حذاء رقم (١) هو الشيخ عبد المعز عبد الستار، وإمام حذاء رقم (٣) هو الشيخ عبد اللطيف الشعشاعي الداعية الكفيف، وكان من أحلى الشهور الرمضانية التي قضيناها في حياتنا صياما وقياما وتلاوة وذكرا ونشاطا.

درس لي في معتقل الطور:

وفي بعض الأيام طلب مني الشيخ الغزالي أن ألقي درسا بالنيابة عنه، فألقيت درسا لا أزال أذكر عنوانه: لا ندم على الماضي، ولا جزع من الحاضر، ولا يأس من المستقبل.

واستدللت بالقرآن والحديث والحكم والشعر على ما أوردت من مفاهيم. ومما أذكره ما قلته في الندم على الماضي: التذكير بالحديث الصحيح «استعن بالله ولا تعجز، ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان» رواه مسلم.

وقد نهانا القرآن أن نتشبه بالكفار في استعمالهم (لو) المتحسرة، التي لا ترد ما فات، ولا تحيي ما مات، ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ (آل عمران: ١٥٦).

وقال الشاعر:

سبقت مقادير الإله وحكمه

فأرح فؤادك من (لعل) ومن (لَوِ)

ويقول الآخر:

وليس براجع ما فات مني

بـ (لهف) ولا بـ(ليت) ولا (لوانّي)

ويقول الآخر:

ليت شـــعـــري وأين منّيَ (ليتٌ)

إن (ليــتــا) وإن (لــوّا) عنـــاء

وقد استقبل الإخوان هذا الدرس بقبول حسن، وأكثروا من الثناء عليه، وكان هو أول درس عام ألقيه في الطور.

الاحتفال بليلة القدر:

دخلنا في العشر الأواخر من رمضان، وهي أفضل لياليه، وهي ختام الشهر، والأعمال بالخواتيم، وفيها تلتمس ليلة القدر، وهي خير من ألف شهر، وهي أفضل ليالي العام بإطلاق، وفيها أنزل القرآن.

وكان الرسول الكريم إذا دخل العشر، شد المئزر، وأحيا ليله أي كله، وأيقظ أهله.

لهذا توفّرت الهمم للتفرغ للعبادة والطاعة وذكر الله في هذه الليالي المباركة، وكثر فيها دعاؤنا وتضرعنا إلى الله تعالى، ولا سيما في ساعات الأسحار والثلث الأخير من الليل، إلى جانب الدعاء عند الإفطار، وللصائم عند فطره دعوة لا ترد. وقد روى الترمذي حديثا وحسنه: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر، أو حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم: يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: لأنصرنك ولو بعد حين».

ونحن صائمون ومظلومون، فأخلق أن يستجاب لنا، وفينا رجال صالحون - إن شاء الله - يستنزل بهم الغيث.

ولقد اتجه تفكير الإخوان ونيتهم إلى أن يحتفلوا بـ«ليلة القدر» على عادة أكثر المسلمين في ليلة السابع والعشرين من رمضان، وأبلغوني قبلها بيومين أن أعد قصيدة لهذه المناسبة، وقد كان.

قصيدة ليلة القدر:

وفي ليلة ٢٧ تحدث الشيخ الغزالي، وتحدث بعض الإخوة، ثم قدمت لألقي قصيدتي، وكانت قصيدة نونية من بحر البسيط، الذي يحلو لي كثيرا هو وبحر الكامل، مطلعها:

عشقتها فاسترقت قلبيَ العاني
فقمت أعزف فيها عذب ألحاني
سموه شعرا، وإني لا أراه سوى
آهات قلبي وإحساسات وجداني

ومنها:

يا ليلة زانها ربي وشرفها
تنزيله في دجاها نور قرآن
دستور حق وتشريع وتربية
يبقى وإن زال هذا العالم الفاني
ربى رجالا ميامين اهتدوا وغزوا
إن الرجولة من نور ونيران
أمسى بلال به من ذلة مَلِكا
وصار سلمان شيئا غير سلمان
لله فتيان حق لو رأيت فتى
منهم ترى مَلَكا في زي إنسان
فمن يداني أبا بكر وصاحبه
ومن يداني عليا وابن عفان

* * *

هذا الكتاب غدا في الشرق وأسفا

شمسا تضيء ولكن بين عميان

يحاط بالطفل حرزا من أذى وردى

وفيه حرز الورى من كل خسران

يتلى على ميّت في جوف مقبُرة

وليس يحكم في حي بديوان

فكيف نرقى، ومعراج الرّقي لنا

أمسى نجر عليه ذيل نسيان؟

ومنها:

قالوا: اسجنوا واغمروا الأقسام واعتقلوا

فجمّعونا على حب وإيمان

وصادروا مالنا من جهلهم، ونسوا

أن يحجزوا رزق رزاق ورحمان

وأسرفوا وعلوا في الأرض واضطهدوا

وعُكّر النيل من هامانه الثاني

وعذبوا كي يذلوا أنفسا طمحت

وعزت النفس أن تعنو لسلطان

والليث لن تحني الأقفاص هامته

وإن تحكم فيه ألف سجان!

قالوا: اقتلوا المرشد البناء وانتظروا

فبعده يتهاوى كل بنيان

كذبتمو، سيظل الصرح مرتفعا

فكلنا حسن من بعده بان

* * *

وفي ختام القصيدة كانت مناجاة وتضرع إلى الله:

يا رب إن الطغاة استكبروا وبغوا

بغي الذئاب على قطعان حُملان

يا رب كم أسرة باتت مشردة

تشكو تجبر فرعون وهامان

يا رب كم يوسف فينا نقي يد

دانوه بالسجن، والقاضي هو الجاني

يا رب كم من صغير صفدوا، فمضى

يبكي كضِفدعة في ناب ثعبان

يا رب رحماك أنجز ما وعدت به

وانصر، فنصرك من أهل الهدى دان

* * *

وكان للقصيدة قبول حسن من الإخوة الذين سمعوها في حذاء (٢) وطلبها الإخوة في الحذاءات الأخرى، وظل عدد من الإخوان يحيون تلك الليلة بالذكر والدعاء، والاستغفار والتلاوة حتى مطلع الفجر.

سقوط وزارة عبد الهادي:

وقبل ليلة العيد، أذيع النبأ السعيد: سقوط وزارة إبراهيم عبد الهادي، هدية من الملك إلى الشعب بمناسبة عيد الفطر، وذهبت الوزارة التي اقترفت ما اقترفت من المظالم، مشيعة بلعنات الناس من كل الفئات والطبقات، وقال القائل:

تـولـت دولـة الـزرقـــــــــــا
ألا سـحـقـا لهـا سـحـقـا
تقـــفَّت إثر فـــرعـــون
فـــبـــات رجـــالهـــا غـــرقى

وحين سمع الإخوة الخبر خروا لله ساجدين سجدة الشكر، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)﴾ (الأنعام: ٤٥).

وجاءني الإخوة، يقولون لي: مناجاتك في ليلة القدر لم تذهب هباء، وإن الله يمهل ولا يهمل، وفي الحديث الصحيح: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم تلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ (هود: ١٠٢).

ومن اللطيف أن أحد إخوان زفتى - واسمه حسين بطة - كان دائم الدعاء طوال الشهر قائلا: اللهم اجعل لنا نصيبا من رمضان بين أهلينا وأولادنا، إلى أواخر أيام رمضان وهو لا ييأس من ترداد هذا الدعاء، والإخوة يقولون له: يا شيخ حسين، هل يعقل أن تقضي شيئا من رمضان مع أهلك، ولم يبق منه إلا أيام؟ فيقول: أنا لا أسألكم، ولا أسأل الحكومة، ولكني أسأل ربا كريما قادرا يقول للشيء: كن فيكون! فيبتسم الإخوان، ويسلمون له.

فلما سقطت حكومة عبد الهادي انتعش الأخ حسين بطة، وقال: كنتم تسخرون

مني، وأنا أقول: اللهم اجعل لنا نصيبا من رمضان بين أهلنا وأولادنا، فانظروا ماذا صنع الله؟ لكأني الآن بين أهلي وأولادي.

كان سقوط وزارة عبد الهادي التي قتلت حسن البنا، ومنعت تشييع جنازته، وشردت الإخوان كل مشرد، وزارة «العسكري الأسود» والتعذيب داخل السجون، كان سقوطها نعمة من الله على الإخوان، جزاء صبرهم ومصابرتهم وثباتهم على حقهم: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾ (آل عمران: ١٤٦-١٤٨).

فكان سقوط وزارة الطغيان من ثواب الدنيا، الذي أثاب الله به الإخوان، وهم يرجون حسن ثواب الآخرة.

وأصبح باب الأمل مفتوحا للإفراج عن المعتقلين، بعد سقوط وزارة السعديين من يوم إلى آخر.

وقد قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م بعد ذلك، وحاكمت عبد الهادي، وحكم عليه بالإعدام، ثم خفف إلى المؤبد. وفضح الدفاع والشهود حكمه الأسود، وبينوا أنه تضاعفت ثروته عشر مرات منذ تولى المناصب الكبرى في مصر، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.

الإفراج عني في الفوج الأول:

ولم تمض أيام حتى جاء أول كشف يتضمن أسماء المفرج عنهم، الذين يمثلون الفوج الأول، وكان اسمي ضمن هؤلاء ومعي عدد من الزملاء: محمد الدمرداش، مصباح عبده، السيد النفاض، وعدد من الإخوان من مختلف المديريات.

وكان من الذين أفرج عنهم معنا الأستاذ حسني الزمزمي، ولم تفارقنا طرائفه، طوال رحلتنا من الطور إلى القاهرة ثم إلى طنطا. إنه أبدا ساخط ثائر، إنه يعترض على ترحيلنا في وسائل نقل ليست مريحة ولا مناسبة. ثم عندما وصلنا إلى القاهرة، بيتونا في أحد أقسام الشرطة، هو قسم الخليفة، وقد وضعنا في حجز القسم، وكان رديئا جدا، فلم يحتمل الأستاذ الزمزمي هذا الجو الخانق، وهذا المكان غير النظيف، فكان يقول عن قسم الخليفة هذا: لعن الله خليفة هذا قسمه! هذه صدقة ملوثة بالدم، هذا بمثابة من يتصدق عليك ثم يصفعك على قفاك، وهكذا هؤلاء أفرجوا عنا ثم وضعونا هذا الموضع المزري!

ويبدو أن الوزارة تغيرت، ولكن رجال القسم المخصوص - أمن الدولة - لم يتغيروا، فلا زالوا هم المتحكمين.

وبعد هذه الليلة المتعبة في قسم الخليفة، نقلنا إلى طنطا، وأخذ علينا تعهد ألا نمارس أي نشاط سياسي، ثم فك أسرنا، وذهب كل منا إلى موطنه أو منزله.

لقد خرجنا من المعتقل أصلب عودا، وأشد قوة مما كنا من قبل، وكنا نتمثل بقول الله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)** ﴾ (الأحزاب: ٢٢).

ونردد قول الشاعر اليمني محمد محمود الزبيري:

خرجنا من السجن شُمَّ الأنوف

كما تخرج الأسد من غابها

نمر على شفرات السيوف

ونأتي المنية من بابها

إلى قريتنا:

وعدت إلى قريتي (صفط تراب) بعد غياب هذه الأشهر. وجاء الناس إلى دارنا ليسلموا علي ويهنئوني بالعودة، وحسب بعض الناس أنهم سيجدون إنسانا قد قهره الاعتقال، وأخرس لسانه، وهد كيانه، ولكنهم فوجئوا بأني أحدثهم عما صنع الإخوان في المعتقل، وكيف حولوه إلى جامع وجامعة وجمعية ومنتدى، حتى أسر بعضهم إلى بعض قائلا: إن الاعتقال لم يغيره. وبعضهم خشي على نفسه أن يسمع مثل هذا الكلام، ويسكت عليه فأسرع بالقيام، حتى لا يتهم بأنه سمع هذا.

ولم أبق في القرية غير يومين فحسب، فقد كان ورائي أمر مهم جدا، وضروري جدا، وهو الاستعداد لدخول امتحان الدور الثاني للشهادة الثانوية، فلم يبق على موعد الامتحان سوى خمسة عشر يوما، لا بد أن أتفرغ فيها لمراجعة المقررات الدراسية، متوكلا على الله تعالى، مستمدا منه التوفيق، وما توفيقي إلا بالله.

إلى طنطا استعدادا لامتحان الثانوية:

وهنا سافرت إلى طنطا، لأتفرغ تفرغا تاما لمراجعة الكتب المقررة في هذه المدة القليلة، وبخاصة أني كنت قد ألقيت هذه الكتب جانبا، بعد أن حرمنا من دخول امتحان الدور الأول، وبارك الله في هذه الأيام القليلة، وواصلت الليل بالنهار، لا أكاد أنام إلا القليل.

وقد بدأ الامتحان بمادة «الفقه» كما كان هو المعتاد في معاهد الأزهر. ومن قدر الله أن الأستاذ الذي كان يراقب فصلنا، لاحظ أن استمارتي ليس فيها صورة شمسية، فسألني عن سبب ذلك، فقلت له: ظرف خارج عن إرادتي. فقال: أي ظرف يمنع من إلصاق صورة بالاستمارة؟ قلت: بصراحة كنت معتقلا.

وهنا قال الشيخ (واسمه أحمد ربيع): كنت في جبل الطور؟ قلت: نعم. قال: حدثني حديثا حزينا أو جميلا عن الطور وبعض ما وقع فيه. والرجل يصغي إلي بتأثر وإعجاب، ونسيت ونسي الشيخ ربيع أني في امتحان، وأني في حاجة إلى الوقت. وهنا أدرك الشيخ أن الوقت قد ضاع منه الكثير، فقال: أنا آسف يا بني، توكل على الله واكتب.

وأنا عادة أطيل الكتابة في إجابة الأسئلة الأولى، وكانت الأسئلة أربعة، ولما كنت في نهاية إجابة السؤال الثالث، دق الجرس، ولم أجب عن السؤال الرابع، وكان في الميراث، وأنا أعرف الإجابة تماما.

لقد خرجت من الحصة الأولى في غاية الهم والحزن على ما ضاع مني من أسئلة الفقه، الذي كنت كثيرا ما أحصل فيه ٤٠ من ٤٠.

وقد بدا ذلك على وجهي حينما خرجت من الحصة الأولى، وقد ركبني من الغم ما ركبني. وحاول إخواني أن يهونوا عليّ الأمر، وظنوا أني حزين على عدم النجاح، وقالوا: إن الكل يعرف ظروفك، وأنك أول الفصل، فإذا لم توفق في سنة ما، لظروف خارجة عن إرادتك، فلا جناح عليك، ثم ألا تحصل على عشرين درجة - النهاية الصغرى -؟ قلت لهم: أنا ضامن نحو ثلاثين درجة، أو تسعا وعشرين.

قالوا: وتضمن هذا ثم تكفهر وتتكدر هذا التكدر، قلت: إني حريص على التفوق حرصي على النجاح.

وهذا جعلني أهتم برعاية الوقت في جميع حصص الامتحان القادمة، ووفقني الله تعالى غاية التوفيق.

الثاني على الثانوية:

وحينما ظهرت النتيجة كانت المفاجأة السارة، وهو أني حصلت على الترتيب

الثاني في الشهادة الثانوية، على طلاب المعاهد الدينية في المملكة المصرية في الدورين الأول والثاني، ولم يكن بيني وبين الطالب الأول إلا نصف درجة، وكان الأول من المحلة أيضا هو صديقنا حامد محمود إسماعيل. (الدكتور حامد الآن).

وكان هناك مكافأة للأول والثاني اقتسمناها معا بالتساوي، وكانت حوالي ثلاثة وثلاثين جنيها. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله!

(٩)
إلى القاهرة وكلية أصول الدين
وثورة يوليو

إلى القاهرة وكلية أصول الدين
وثورة يوليو

الالتحاق بكلية أصول الدين:

بعد حصولي على الشهادة الثانوية وتفوقي فيها، اقترح بعض الأصدقاء علي أن أقدم إلى كلية «دار العلوم»، وقد أصبحت إحدى كليات جامعة فؤاد الأول، وهي تأخذ عادة المتفوقين من أبناء الأزهر. وقالوا لي: ستبرز فيها في مجالي تخصصها: مجال الدراسات اللغوية والأدبية، ومجال الدراسات الشرعية. ثم إنها تعين المتفوقين معيدين فيها، وتتيح لهم فرصة الابتعاث إلى الخارج، والأزهر حتى الآن ليس فيه نظام المعيدين.. إلى آخر هذه الإغراءات التي ظل بعض الزملاء يزوقها في عيني.

ولكني في قرارة نفسي كنت مصمما على ألا أتخلى عن الأزهر، وأن من حقه علينا أن نبقى فيه وأن نعمل على إصلاحه وتجديده، ولهذا لم أقبل التوجه إلى «دار العلوم».

واقترح أصدقاء آخرون أن أقدم إلى «كلية اللغة العربية» بالأزهر، فأنا معروف بتفوقي في علوم العربية نحوها وصرفها وبلاغتها، كما عرفت بأني أديب وشاعر، وهذا كله يتلاءم مع كلية اللغة العربية، ويتيح لي فرصة للإبداع والبروز فيها.

ولكني كنت أحس من نفسي أني نهلت من علوم العربية وآدابها، ما يروي ظمئي، وعندي منها ما يمنحني الأهلية للتوسع والمزيد إن أردت. وقد سمى

سلفنا العلوم العربية «العلوم الآلية» يعنون: أنها آلة ووسيلة لفهم مصادر الإسلام من القرآن والسنة، وليست مقصودة لذاتها، فكيف أقف عند الوسيلة وأدع المقصود؟ لهذا كانت نيتي متجهة إلى التقديم لكلية أصول الدين، وهو اتجاه قديم عندي، حتى إني كتبت على أحد كتبي وأنا في السنة الثانية الابتدائية - وهو كتاب القدوري في الفقه الحنفي - يوسف القرضاوي الطالب بالسنة النهائية بكلية أصول الدين، تفاؤلا بالمستقبل.

لقد كان يعجبني في كلية أصول الدين أنها كلية الثقافة الإسلامية الواسعة والمتنوعة، تدرّس العلوم العقلية والنقلية، تدرس التفسير والحديث في كل سنواتها، وتدرس العقائد والتوحيد في كل سنواتها، وتدرس الفلسفة في كل سنواتها، وتدرس التاريخ الإسلامي في كل سنواتها، وتدرس المنطق وأصول الفقه وعلم النفس، ونظريات الأخلاق وغيره. فأنا لا أعدل بها بديلا.

وكان الأزهر في هذه السنة قد أنشأ ما يشبه مكتب التنسيق لتوجيه الطلبة إلى كليتي أصول الدين والشريعة خاصة. فمن كانت درجاته في الفقه أعلى ألحق بكلية الشريعة، ومن كانت درجاته في التوحيد والمنطق والتفسير والحديث أعلى ألحق بكلية أصول الدين.

وكان المعتاد أن تكون درجاتي في الفقه أعلى، ولكن الظروف التي حدثت في امتحان الفقه، نقصت درجاتي في الفقه كثيرا، وجعلت درجاتي في العلوم الأخرى أعلى كثيرا جدا، فحول اسمي إلى «كلية أصول الدين» بغير معاناة ولا طلب ولا وساطة، على حين التحق أخي أحمد العسال بكلية الشريعة.

البحث عن سكن:

كانت هذه أول مرة آتي فيها إلى القاهرة مقيما، وكان أول ما يشغلني هو البحث عن سكن، وكنا نسكن عادة مجموعة من الزملاء. وكانت كلية أصول الدين بجوار

جامع الخازندارة بشبرا، فلا بد أن يكون سكننا بشبرا، قريبا من الكلية، حتى نصل إليها بسهولة وعلى أقدامنا، بدون أن نتعنى ركوب المواصلات، بما فيها من تكاليف وضياع وقت.

وكان التطور الجديد في قضية السكن: أنه يكون في «شقة» لا في حجرة، كما كنا في طنطا، وكل حجرة يكون فيها عادة اثنان، والشقة عادة من ثلاث حجرات، فلا بد من ستة يسكنون، ووجود ستة متفاهمين متجانسين قد لا يتيسر دائما.

كما أن من التطور أن يكون لكل طالب سريره الخاص. فلم تعد «الفرشة أو المرتبة» على الأرض تكفي، ولا الكنبة التي كانت في طنطا، فلا بد إذن من شراء «سرير» لكنه سرير متواضع جدا، مصنوع من الحديد يسمونه «سرير سفري» أي يصلح للسفر، لأنه يطوى ويطبق، فيصبح قطعة واحدة يمكن نقلها من مكان إلى آخر بسهولة.

وكانت المساكن في ذلك الوقت موفورة ميسورة، ولافتة (شقه للإيجار) تجدها في كل مكان، ولكن المهم أن نجد الأنسب والأرخص، نظرا لقلة دخلنا نحن الطلاب.

وقد وجدنا شقة معقولة بشارع الترعة البولاقية، وسكنت فيها مع عدد من الزملاء، ولكن كان عيبها أنها تطل على موقف للأوتوبيس، فهي كثيرة الإزعاج، ولذا بقينا فيها سنة دراسية واحدة.

وفي السنة التالية غيرت السكن، وغيرت الرفقاء، ما عدا الأخ الدمرداش رفيقي الدائم، فسكنت مع الأخ الشيخ مناع القطان، وهو يسبقني بسنتين في كلية أصول الدين، ومع عدد من القريبين منه، وكان سكننا في شارع راتب باشا، في شقة استمرت سكنانا بها لعدة سنوات، حتى اعتقلنا منها سنة ١٩٥٤م.

وقد تغير رفقاء السكن بها، ولا سيما بعد تخرج الشيخ مناع، فكان يسكنها

معي: الحسيني أبو فرحة، وفهمي شاهين، ومحمد بسيوني قنديل، وكلهم من الغربية، وإبراهيم إبراهيم بهنساوي سعيد من البحيرة، وزميلنا في معهد طنطا، ومحمود نعمان الأنصاري من أسيوط، وكانت أجرة السكن توزع علينا بالتساوي.

وكان كل واحد يدبر طعامه لنفسه، وأحيانا نشترك في أكلات جماعية، وخصوصا في الغداء. وكثيرا ما كنا نأكل في مطعم الكلية وجبة الغداء، نظير اشتراك زهيد يدفعه الطلاب.

وكنا نقتر على أنفسنا ولا نتوسع في النفقات ما استطعنا، لضيق ذات يدنا، وقلة مواردنا، لولا أن الله وسع علي بعد عدة أشهر من السنة الدراسية، وذلك حين صرفوا لي مكافأة الأولية في الشهادة الثانوية، وكانت فيما أذكر ١٦,٥ ستة عشر جنيها ونصف الجنيه.

وفي سائر السنوات لم يكن يصرف للمتفوقين شيء، كما يحدث الآن لطلبة الجامعات. وكما كان يصرف لنا مكافأة مقطوعة ونحن طلاب في المرحلتين الابتدائية والثانوية.

بداية الدراسة بالكلية:

كانت كلية أصول الدين كما ذكرت في شبرا، في مبان ملحقة بجامع الخازندارة الكبير والشهير، فكنا نصلي الفرائض بالمسجد ولا سيما صلاة الظهر، ونتلقى الدروس في مبنى الكلية المجاور. كما كنا نحرص على صلاة الجمعة في الجامع، لنستمتع بتلاوة القارئ المُجيد المتفرد بطريقته المؤثرة، الذي إذا تلا أنصتت الآذان، وخشعت القلوب، وبكت الأعين، وحلَّقت الأرواح. إنه الشيخ سعيد محمد نور، الذي لم يعرف الكثيرون قيمته إلا بعد وفاته، وباتوا يبحثون عن تسجيلات له هنا وهناك، فلم يظفروا إلا ببضعة أشرطة، سجَّلت له قليلا من السور وبعض أرباع القرآن الكريم.

كانت «الخازندارة» هذه امرأة ثرية صالحة، جعلت همها في إسداء الخير للناس، فأنفقت من مال الله على عباد الله، فأنشأت المسجد الجامع للعبادة، والمباني الدراسية من حوله لنشر العلم. كما أسست مستشفى خيريا - بجوار المسجد - لعلاج الفقراء، وعلمت أيضا أنها بنت ملجأ لإيواء اليتامى.

وتلك كانت عادة كثير من أهل الخير من الرجال والنساء في المجتمعات الإسلامية، يتقربون إلى الله تعالى بهذه الصدقات الجارية التي تضيف إليهم أعمارا بعد أعمارهم، فهم أموات في قبورهم، وآثارهم حية، تنطق بفضلهم، وتُنطق ألسنة الناس بالثناء عليهم والدعاء لهم بالرحمة والمغفرة والرضوان من الله. وفي صحيح مسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (الحديد: ١٨).

بدأت الدراسة بالكلية مع بداية العام الدراسي، وانتظمت صفوف الدراسة من أول يوم، وأقبلت على الدراسة بشغف وحرص وعزم، بعد أن سلمونا عددا من الكتب، واشترينا عددا منها، وكانت سُنَّة حميدة من الكلية أن تسلم الطلاب معظم الكتب المقررة، وكتبا أخرى للمطالعة والاستزادة.

وكان من هذه الكتب الإضافية كتاب «زاد المعاد» للإمام ابن القيم (طبعة صبيح) وهي طبعة غير محققة، ولكنها أفادتني كثيرا.

وكان هذا من التطور الذي حدث في عهد الإمام المراغي: أن تقبل كتب ابن تيمية وابن القيم وتوزع على طلاب الأزهر، فقد كان الأزهر قبل ذلك يقاوم فكر هؤلاء، ويحشرهم في زمرة «المجسّمين».

وكان يدرسنا عدد من الأساتذة بعضهم من خريجي «تخصص المادة» أو حملة «العالمية من درجة أستاذ» وأكثرهم من مشايخ الأزهر القدماء.

وكان من الأولين الأستاذ الشيخ محمد عبد الرحمن بيصار، (الذي عين شيخا للأزهر فيما بعد) الذي كان يدرسنا علم التوحيد في كتاب «العقائد النسفية»، وهو كتاب قديم مصوغ صياغة مركزة على مذهب الأشاعرة. وقد شرحه علامة عصره سعد الدين التفتازاني، ثم وضعت عليه حاشيتان: حاشية للخيالي، وحاشية أخرى للعصام الإسفراييني، ووضعت على حاشية الخيالي حاشية أيضا لعبد الحكيم السيالكوتي، فكانت هذه الكتب الخمسة: المتن والشرح والحواشي الثلاثة كلها في صفحة واحدة، بعضها في الصلب وبعضا في الحاشية، وبعضها في الهامش، ويفصل بينها بخطوط حاجزة.

ظل الشيخ بيصار عدة أسابيع يشرح لنا الجملة الأولى من العقائد النسفية، وهي: قال أهل الحق: حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق، خلافا للسوفسطائية.

ثم سافر الشيخ بيصار - قبل أن يكمل شرح الجملة! - في بعثته إلى إنجلترا، ليلحق بزميله العلامة الدكتور حمودة غرابة، الذي بعث من قبل.

صدام مع أستاذ التفسير:

ومما وقع لي في السنة الأولى: أني اصطدمت بأستاذي في التفسير، وهو الشيخ محمد مختار بدير. وكان الشيخ بدير رجلا قارئا مطلعا أديبا شاعرا، ولكنه ضاق صدره بنقاشي في قضية علمية عرض لها، خالفته فيها وهي: هل كانت دعوة نوح عليه السلام عالمية أولا؟ وقد رجح الشيخ أنها عالمية، بدليل أن الطوفان عم العالم، فلو لم تكن عالمية ما عوقب العالم كله بالطوفان.. وكنت في مناقشتي معتمدا على النصوص المسلَّمة، فالقرآن يقول: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (نوح: ١)، والحديث المتفق عليه عن جابر في الخصائص المحمدية: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة».

ولكن في اليوم التالي لقيني الشيخ بدير هاشا باشا، وقال: لقد ظلمتك يا

قرضاوي، وراجعت المسألة، فوجدت الحق معك، وقد سألت عنك، فعرفت أنك من أهل العلم، كما علمت أنك شاعر مثلي.

وانعقدت بيني وبين الشيخ بدير مودة عميقة، استمرت حتى تخرجت، وكان كثيرا ما يشيد بي ويثني علي عند زملائه من علماء الكلية.

من شيوخي في الكلية:

ومن شيوخي في الكلية غير الشيخ مختار بدير: الشيخ محمد أمين أبو الروس، الذي درسني التفسير، والشيخان محمد أحمدين، وعبد الحميد الشاذلي، درساني الحديث، والشيوخ صالح شرف والعيسوي، ومحمد يوسف الشيخ والشافعي الظواهري درسوني التوحيد، والشيوخ عبد الفتاح شحاته ومحمود فياض وأبو زيد شلبي، درسوني التاريخ، والشيخ أبو بكر ذكري درسني النظريات الأخلاقية، والشيخ منصور رجب درسني علم الأخلاق، والدكتور محمد غلاب درسني الفلسفة الشرقية واليونانية، والدكتور عبد الحليم محمود درسني الفلسفة الإسلامية والحديثة، والشيخ الطيب النجار درسني أصول الفقه، والدكتور جمال الدين درسني علم النفس، والشيخ علي الغرابي درسني الفرق الإسلامية، ونسيت اسم من درسني المنطق من كتاب «القطب على الشمسية» لمدة سنتين، كما كان هناك من درسوني اللغة الإنجليزية لمدة أربع سنوات.

وكان لبعضهم طرائف في حياته يحكيها لنا، توثيقا للصلة بين الشيخ وتلامذته، مثل ما حكاه لنا الشيخ أبو الروس: أنه تزوج مبكرا، وكان له أبناء يدْرسون، وهو يدرس أيضا، فكلهم طلبة. يقول الشيخ: فقد تكون النتيجة في بعض الأحيان أن أرسب أنا وينجح الأولاد، وأحيانا يعرف زملاؤهم ذلك فيقولون معيِّرين لهم: ياأولاد الساقط!

ومما حكاه لنا: أنه كان يكره مادة الفلسفة ولا يطيقها، فرسب فيها وحدها مرة،

إذ لم يحصل على النهاية الصغرى، ولم يكن هناك دور ثان، وكان الذي يرسب في مادة يعيد السنة كلها من أجلها.

الدكتور عبد الحليم محمود:

وكان من أبرز من درسني: الدكتور عبد الحليم محمود، فقد درسني في السنة الثالثة: "الفلسفة الإسلامية" وقد اختار لنا كتاب الدكتور إبراهيم بيومي مدكور: «الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيقه» ليكون موضوع دراستنا، كما درس لنا فصلا من كتاب «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا، يتعلق بالتصوف.

كما درسنا في السنة الرابعة: فصولا في التصوف في ضوء «المنقذ من الضلال» للغزالي، كما أعطانا فكرة عن فلسفة الأندلس، في ضوء «قصة حي بن يقظان لابن طفيل»، بالإضافة إلى نظرات في الفلسفة الحديثة، التي درسنا فصولا منها في «النظريات الأخلاقية».

كان الدكتور عبد الحليم في تلك الآونة، يلبس الحلة (البذلة) الإفرنجية، كما كان حليق اللحية، ولكنه كان رجلا متصوفا: فكرا وعاطفة وعملا، وكان لا يهتم بالمظاهر لا في نفسه، ولا في بيته.

وقد زرته في بيته بضاحية الزيتون عدة مرات، وحدي أحيانا، ومع الأخ عبد الودود شلبي أحيانا، فكان بيته متواضعا في أثاثه وفراشه، لا يليق برجل تخرج من فرنسا.

وكان كثير الصمت، لا يتكلم إلا قليلا، وكان معجبا بشيخه في فرنسا، وهو «رينيه جينو» أو عبد الواحد يحيي، وهذا اسمه بعد أن أسلم، وكان متصوفا كبيرا، وكثيرا ما حدثنا عنه، وكتب عنه رسالة نشرت.

وقد عين بعد ذلك عميدا لكلية أصول الدين، ثم وزيرا للأوقاف، ثم شيخا للأزهر، وكان من أبرز شيوخ الأزهر، الذين لهم مواقف تذكر، وإن أخذ بعض

الناس عليه ـ وأنا منهم ـ في تصوفه ما أخذوا مما قد يعد من الغلو. ولكنه مغمور في بحر حسناته. يغفر الله له ولنا معه، ومن ذا الذي أجمع عليه الناس؟

شيوخ لم يدرسوني:

وهناك شيوخ لم أحظ بتدريسهم لي، ولكن كانت بيني وبينهم صلة قوية بعد.

من هؤلاء: الدكتور محمد البهي أستاذ الفلسفة والعقيدة في كلية أصول الدين، وصاحب المؤلفات المعروفة في الفكر الإسلامي، مثل: (الجانب الإلهي في التفكير الإسلامي) و (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) وغيره. ولكن من سوء حظي أنه ترك كلية أصول الدين، وانتقل إلى كلية اللغة العربية ليدرس فيها الفلسفة، ويرأس قسمها، سنة ١٩٥٠م، وعملت معه بعد ذلك حين كان مديرا عاما للثقافة الإسلامية بالأزهر في عهد الشيخ شلتوت رحمه الله.

ومنهم: الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الفلسفة والأخلاق في كلية أصول الدين، والذي ترك الكلية قبل التحاقي بها، وانتقل إلى كلية الحقوق بالجامعة المصرية أستاذا للشريعة الإسلامية. ولكن كانت بيني وبينه صلة علمية وثيقة، فزرته في بيته عدة مرات واستشرته في قضايا تمس مستقبلي فأشار علي بالرأي الأسدّ.

ومنهم: الشيخ محمد الأودن، الرجل الرباني، الذي كان يتدفق إيمانا وروحانية. ولم يدرسني في الكلية، ولكني زرته في بيته في الزيتون، والتقيته، واستمعت إليه، وهو يعطي جليسه شحنة روحية قوية، لأن كلامه يخرج من قلبه فيلامس القلوب، بخلاف من يخرج كلامهم من أطراف اللسان، فهو لا يتجاوز الآذان.

ومنهم ـ من خارج الكلية ـ الشيخ محمود شلتوت الفقيه المجدد الذائع الصيت،

الذي كنت أزوره في بيتـه في حي «الظاهر» قـبل أن ينتـقل إلى مـصـر الجـديدة. وأستفيد من فقهه ونظراته التجديدية. وكنا تعودنا أن نزوره جماعة: أنا والأخ أحمد العسال، والأخ أحمد حمد، وكنا ثلاثتنا متلازمين في هذه الزيارات للمشايخ الكبار. وقد قال لنا الشيخ شلتوت مرة: أرجو أن تظلوا مترابطين، وأن تظل أخوتكم دائمة، ولا تفرق الأيام بينكم، كما حدث لإخوة قبلكم. وكنا نستغرب هذا الكلام الذي ليس له أي مقدمات.

وكأنما كان الشيخ يقرأ الغيب، فقد فرقت الأيام بيننا بالفعل. فقد انفصل عنا الأخ أحمد حمد، وشن الغارة على إخوانه وأصدقائه واحدا بعد الآخر، بادئا بالأخ عبد الودود شلبي، ومثنيا بالأخ أحمد العسال، الذي هاجمه هجوما عنيفا لا مبرر له، وبأسلوب غير لائق بحال، ثم مثلثا بي، مشنعا علي في كل مجلس. مع أني سعيت لاستقدامه إلى قطر، ثم ضمه إلى هيئة تدريس كلية الشريعة، ولم أفكر والله أن أمسه بأذى طول مدة عمادتي كلية الشريعة في قطر (اثني عشر عاما) مع إيذائه المستمر لي، مراعيا ما كان بيني وبينه ـ بل ما كان بيني وبين إخوانه وأسرته عموما ـ من مودة صادقة، وأخوة سابقة، لا أقول إلا: سامحه الله، وسامحني معه؛ فهو لم يكن سيئ القصد، بل كان سيئ التصور، واستمع إلى بعض الوشاة الكاذبين الذين أوغروا صدره علي، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وهب أنني أخطأت في حقه، أو أخطأ العسال أو عبد الودود، فهل يقابل ذلك بأن يفقد إخوانه ويقطعهم ويهاجمهم، ويعاملهم على أنهم أعداء؟ وهل يقطع حبل الأخوة والصداقة الطويلة بهذه السهولة؟! هل نسي ما حفظه وما حفظناه، من قبل من قول بشار:

إذا كنت في كل الأمور معاتبا

صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحدا، أو صل أخاك، فإنه

مقارف ذنب مرة، ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى

ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه؟

من ذا الذي ترجى سجاياه كلها؟

كفى بالمرء نبلا أن تعد معايبه!

شيوخي في الإخوان:

وكما استفدت من شيوخي في الأزهر، استفدت أيضا من شيوخي في جماعة الإخوان.

ومن شيوخي في الإخوان: الشيخ محمد الغزالي، فقد كنا نزوره أنا والعسال والدمرداش في بيته في درب سعادة، قبل أن ينتقل إلى شارع الأزهر، ثم إلى الدقي.

ومنهم: الشيخ سيد سابق، الذي كنا نزوره في بيته القديم في سوق السلاح، حارة زرع النوى، قبل أن ينتقل إلى «جاردن سيتي».

ومنهم: الشيخ البهي الخولي الذي كنا نزوره في بيته بالمطرية، قبل أن ينتقل إلى شارع قصر العيني.

وكلهم أخذت عنهم، واقتبست منهم، فجزى الله كل من علمنا حرفا خيرا.

تتبع النشاط الثقافي في القاهرة:

وقد كنا نتتبع النشاط الثقافي ونبحث عنه، لنغترف من معينه حيثما وجدناه، لنتعلم من شيوخ العلم، ورواد الفكر، ما وجدنا إلى ذلك سبيلا.

وكان من الموارد العذبة التي ازدحم عليها القصاد في تلك الفترة: محاضرات «دار الحكمة» في تفسير القرآن الكريم. وكان الذي يقوم بهذه المحاضرات أربعة من رجال العلم المشاهير في ذلك الوقت.

أولهم: الفقيه المفسر الشهير الشيخ محمود شلتوت، الذي ذاع صيته، وانتشرت دعوته إلى التجديد، وغدت له شعبية واسعة بين الناس بأحاديثه الصباحية في إذاعة القاهرة، هو والشيخ محمد المدني، حتى إن السيدة أم كلثوم سئلت مرة عن أحب الأصوات التي تحب أن تسمعها، فقالت: صوت الشيخ محمود شلتوت.

كان الشيخ شلتوت يحضر درسه التفسيري تحضيرا جيدا. وكانت له نظرات ووقفات تأملية في كتاب الله، أودعها بعد ذلك في مقالاته التي نشرها في مجلة «رسالة الإسلام» التي كانت تصدر عن (دار التقريب) بين المذاهب في القاهرة.

ثم خرجت بعد ذلك في كتاب في التفسير حول العشرة الأجزاء الأولى. وكنت أنا وأخي أحمد العسال، كلفنا بنقلها من المجلة لتأخذ صورة الكتاب، حتى إن الشيخ شلتوت رحمه الله - وقد كان وقتها شيخا للأزهر - أذن لي بأن أملأ الفجوات التي أراها بقلمي وأسلوبي الخاص، ثقة منه بي.

والمفسر الثاني: كان الفقيه المعروف الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف أستاذ الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق، والذي تخرجت على يديه أجيال، وهو صاحب كتاب «أصول الفقه» وغيره من الكتب الشرعية.

والثالث: كان الأستاذ عبد الوهاب حموده أستاذ اللغة العربية بكلية الآداب. ونسيت الرابع.

كما كنا نذهب إلى استماع المحاضرات التي تلقى بجمعية الشبان المسلمين، أو الندوات التي تقام بها نصرة لبعض القضايا الإسلامية.

ومما أذكره الندوة التي أقيمت تحت عنوان «يوم كشمير» وتحدث فيها عدد من الخطباء والشعراء، ومنهم الشاعر خالد الجرنوسي، الذي ألقى قصيدة رائعة تحية لكشمير، أذكر مطلعها:

يا يوم كشمير تحية مسلم

مطلولة عبرى ترقرق بالدم

ومنها:

في كل محكمة قضية مسلم

يشكو بليته لغير المسلم

ومن الرزية أن حزب محمد

قد سادهم في الأرض حزب جهنم

الاحتفال بالمولد في ميدان السيدة:

كان الإخوان في هذه الفترة المحظور فيها نشاطهم رسميا، ينتهزون الفرص لإثبات وجودهم، وأنهم لم يغيبوا عن الساحة، لهذا احتفلوا بذكرى الهجرة في ميدان السيدة، وتحدث في هذا الحفل الشيخ الغزالي، والشيخ عبد المعز عبد الستار والأستاذ عبد العزيز كامل، والأستاذ عبد الحكيم عابدين، وغيرهم من دعاة الإخوان. وكنت في القرية في ذلك الوقت، فلم يتح لي حضور هذا الحفل.

وبعد شهرين أهلَّ شهر ربيع الأول، وقد اعتاد المصريون أن يحتفلوا بذكرى المولد، واعتاد الإخوان منذ عهد الإمام البنا أن يتخذوا من هذه المناسبات وسائل لربط الناس برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وتعريفهم بهدي سيرته العاطرة، فأراد الإخوان أن يقيموا حفلا كبيرا بميدان السيدة أيضا، يتحدث فيه خطباؤهم وشعراؤهم، وقد طلبوا مني إنشاء قصيدة بهذه المناسبة.

وفعلا هيأتها وألقيتها في الحفل، وكان لها صدى واسع وعميق في أنفس الإخوان، واستعادوا كثيرا من أبياتها، ومطلعها:

هو الرسول فكن في الشعر حسانا

وصُغ من القلب في ذكراه ألحانا

ذكرى النبي الذي أحيا الهدى وكسا

بالعلم والنور شعبا كان عريانا

وفيها:

يا سيد الرسْل طب نفسا بطائفة

باعوا إلى الله أرواحا وأبدانا

قادوا السفينة فما ضلت ولا اضطربت

وكيف لا؟ وقد اختاروك ربانا

أعطوا ضريبتهم للدين من دمهم

والناس تزعم نصر الدين مجانا

أعطوا ضريبتهم صبرا على محن

صاغت بلالا وعمارا وسلمانا

باتوا على الحب أفواها وأفئدة

عاشوا على البؤس والنعماء إخوانا

الله يعرفهم أنصار دعوته

والناس تعرفهم للخير أعوانا

والليل يعرفهم قوام هجعته

والحرب تعرفهم في الروع فرسانا

دستورهم لا فرنسا قننته ولا

روما، ولكن قد اختاروه قرآنا

زعـيـمـهـم خـيـر خلق الله، لا بشـر

إن يهـد حـينا يضل القـصـد أحـيـانا

«الله أكـبـر» مـا زالت هتـافـهـمـو

لا يسـقطـون ولا يحـيـون إنسانا

ومنها:

رباه نصـرك، فـالطاغـوت أشـعلهـا

حـربا على الدين إلحـادا وكـفـرانا

نشكو إليك حكـومـات تكيـد لنا

كـيدا، وتفتح للسكسـون أحـضـانا

تتـيـح لـلهـو حـانات وأنـدية

تؤوي ذوي العـهـر شـرًّابا ومُـجَّـانا

فـمـا لدور الهـدى تبـقى مـغلَّقـة

يمسي فـتـاها غـريب الدار حـيـرانا؟

هنا هتف الأستاذ سعد الدين الوليلي هتافا ردده الحاضرون بقوة، وكأنه يبلغ عنان السماء: على العهد وإن طال الأمد، على العهد وإن طال الأمد!

وانتهى الحفل بسلام.

صلاة الجمعة عند الشيخ الشرباصي:

وكان كثير من الإخوان يصلون الجمعة وراء العالم الأديب الشهير الشيخ أحمد الشرباصي، الذي كان مسجده في المنيرة، وكان يلتقي عنده الجمُّ الغفير من الإخوان يتواعدون اللقاء هناك، ليستمتعوا بسماع خطبة الشيخ، وهي قطعة من

الأدب الديني، الذي يخاطب العقل والوجدان، ثم يصافح بعضهم بعضا، ويتبادلون التحيات والأحاديث، ويظلون مدة غير قليلة بعد الصلاة حتى ينصرفوا.

وكان الشيخ الشرباصي قد اعتقل فترة مع الإخوان، وأصدر في ذلك كتابه «مذكرات واعظ أسير».

مجلة منبر الشرق:

كما كان الإخوان يلتقون على مجلة «منبر الشرق» لصاحبها الصحفي الشاعر الأستاذ علي الغاياتي، وهو من الوطنيين الأحرار، الذين لقوا الأذى والنفي والتشريد، وقاسوا البلاء في سبيل وطنيتهم، وكان شعار صحيفته:

باسم الكنانة واسم شعب ناهض
لا باسم أحزاب ولا زعماء
كلٌّ يزول وينقضي، أما الحِمى
فوديعة الآباء للأبناء

وكان كثير من الإخوان يكتبون فيها، وهذا ما جعل الجريدة تحيا بعد موات، وتشتهر بعد خمول.

مجلة المباحث القضائية:

ثم استأجر الإخوان مجلة كانت مهجورة، فشهروها، وهي مجلة «المباحث القضائية»، وكان يكتب فيها الأستاذ صالح عشماوي، والأستاذ عبد العزيز كامل، والشيخ الغزالي، وغيرهم.

وظلت هذه المجلة لسان حال الإخوان، حتى استصدر الأستاذ صالح عشماوي رخصة بمجلة «الدعوة» التي أصبحت لسانهم الرسمي.

الرد على كتاب الشيخ خالد:

كان قلم الشيخ الغزالي هو أبرز الأقلام في تلك الفترة، سواء في عرض الدعوة أم في الدفاع عنها. وقد بدأ يكتب عن العقيدة الإسلامية بنفس جديد، وأسلوب جديد، بعيدا عن المنهج التقليدي القديم، وإن استفاد منه في جوانب شتى. وهذه المقالات هي التي جمعها بعد ذلك في كتابه «عقيدة المسلم».

وكان من أشهر المعارك التي خاضها الغزالي بقلمه في تلك الفترة، معركة الرد على الشيخ خالد محمد خالد في كتابه الجديد الذي أحدث ضجة في المجتمع المصري، بل ربما في المجتمع العربي في ذلك الوقت. وهو كتاب «من هنا نبدأ».

كان الشيخ خالد في صف الإسلاميين قبل ذلك، وكان من المحسوبين على «الجمعية الشرعية» أتباع الشيخ السبكي. وقد قرأت له بعض مقالات في مجلة «الاعتصام» مغرقة في النزعة الصوفية، عرفت أنها جمعت بعد ذلك في كتابه «والموعد الله». وقال لي بعض الإخوة البارزين في الجمعية الشرعية بالمحلة الكبرى ممن كانوا قريبين في فكرهم من الإخوان: إن الشيخ خالدا كان من أبرز الوعاظ المؤثرين بالجمعية، وكان من أحسن الناس تلاوة للقرآن، حتى إن بعض من صلوا خلفه قالوا: كأنما تسمع ضربات قلبه من شدة خشوعه وتأثره بالقرآن. وهذا يدل على أن الرجل لم يكن يوما دجالا ولا ممثلا.

وكان هو مع الشيخ الغزالي وبعض الأزهريين قد أنشأوا فيما بينهم لجنة سموها «لجنة النشر للأزهريين» شعارها: «الدين في خدمة الشعوب» ردا على الماركسيين الذين يقولون: «الدين أفيون الشعوب». وكان مما تبشر به اللجنة: كتاب للشيخ خالد، عنوانه «يا أربعمائة مليون هبوا»! وكان هذا الرقم هو العدد الشائع عن المسلمين في ذلك الوقت. وكانت اللجنة قبل محنة الإخوان ودخول المعتقلات، تقول: انتظروا هذا الكتاب المثير.

فلما خرجنا من المعتقلات، وجدنا بدل الكتاب المنتظر للشيخ خالد كتابا آخر مناقضا على طول الخط، هاجم فيه الفكر الإسلامي في أكثر من فصل، وخصوصا في فصل «قومية الحكم» الذي أنكر فيه «إسلامية الحكم» وهاجم مقولة إن الإسلام دين ودولة، أو دعوة ودولة.

وكان الشيخ خالد صاحب قلم رشيق أنيق، وأسلوب شائق رائق أخاذ، يخاطب العقل المعاصر، ويتفنن في كسبه وجذبه وإقناعه. ثم إنه ليس غريبا على الإسلام، فهو واحد من الذين تخرجوا في أزهره، وحملوا عالميته، كما أنه أحد الذين عاشوا في رحاب الجمعيات الدينية، ولهذا كان الشيخ خالد حريصا على أن يضع تحت اسمه هذه العبارة «من العلماء»!

وهذه هي المرة الثانية التي يصدر فيها كتاب من عالم أزهري يهاجم ما استقر عليه الفكر الإسلامي، والإجماع الإسلامي، بعد كتاب علي عبد الرازق الشهير (الإسلام وأصول الحكم) الذي صدر منذ أربعة وعشرين عاما، أي في سنة ١٩٢٥م، وكانت له ضجة كبيرة في زمنه، ورد عليه كبار العلماء مثل الشيخ محمد بخيت والشيخ محمد الخضر حسين وغيرهما، وقد ثار الأزهر عليه، واحتجت هيئة كبار علمائه، وقررت تجريده من شهادة العالمية... إلى آخره.

وكما رحبت به الدوائر الصليبية والاستشراقية والتبشيرية والعلمانية وغيرها من القوى المعادية للرسالة الإسلامية، والأمة الإسلامية، بكتاب الشيخ علي عبد الرازق: رحبت هذه الدوائر نفسها، وعلى نطاق أوسع بكتاب الشيخ خالد وروجت له؛ فهذا تحقيق لمقولة المبشر المعروف (زويمر): إننا ننجح حقا حين يهاجم الإسلام بأقلام أبنائه أنفسهم، لا بأقلامنا نحن الغرباء عنه. فكيف إذا كان هذا الابن من علماء الأزهر؟!

من أجل هذا احتفوا بكتاب الشيخ خالد، كما احتفوا بكتاب الشيخ علي عبد الرازق. على أن كتاب الشيخ علي كان كتيبا صغيرا لم تتبعه كتب أخرى، بل كان أشبه بما يسمونه «بيضة الديك».

أما خالد، فقد أتبع كتابه بجملة كتب، تسير في الخط نفسه، كل واحد منها يجرد الإسلام من مقوم من مقوماته. فكتاب «من هنا نبدأ» جرد الإسلام من حقه في الحكم وإقامة الدولة، وكتابه «الديمقراطية أبدا» جرد الإسلام من حقه في التشريع، وكتابه «هذا أو الطوفان» جرد الإسلام من حقه في توجيه الأخلاق، ورعاية الفضائل، ورأى أن الأخلاق المدنية أهدى وأقوم من الأخلاق الدينية!

فماذا بقي - يا ترى - للإسلام بعد أن جرد من الحكم ومن التشريع ومن الأخلاق؟

رد كثيرون على الشيخ خالد، منهم الأستاذ محمد فريد وجدي في مجلة الأزهر في عدة مقالات تحت عنوان «ليس من هنا نبدأ». والشيخ عبد المتعال الصعيدي في مجلة الأزهر في سلسلة مقالات بعنوان: «من أين نبدأ؟».

ولكن كان قلم الشيخ الغزالي هو أقدر الأقلام التي تصدت للرد على دعاوى الشيخ خالد، بعلمية وموضوعية، وبلغة أدبية عالية، وبأسلوب لا يحتد كثيرا على خالد، برغم ما يعرفه الكثيرون عن قلم الغزالي الذي يصبح أحيانا شعلة من نار.

ولكن كان الشيخ الغزالي يعرف الشيخ خالدا، ويحسن الظن به، ويرى أن فيه خيرا كامنا في أعماقه، وأنه رجل حر لا يبيع نفسه لأحد، وأن الجمعيات الدينية هي المسئولة في نظره عما وصل إليه الشيخ خالد؛ فقد مرت عليه أوقات كان فيها شديد الحاجة إلى المعونة، ولم تمتد إليه يد بالعون.

وحين ذُكر أن الأزهر يفكر في تجريد الشيخ خالد من شهادة العالمية، انتقد الشيخ الغزالي ذلك بحدة، وقال: لماذا يكيل الأزهر بكيلين؟ لقد كتب الشيخ عبد المتعال الصعيدي ما يفهم منه إنكار الحدود في الشريعة الإسلامية، ولم يجرده الأزهر من العالمية؟ وقد سحبها من الشيخ علي عبد الرازق، ثم عاد وردها إليه.

كان الغزالي حسن الظن بصديقه القديم خالد، برغم خلافه الفكري الجذري معه، ورده عليه في مقالات نشرت في كتاب سماه «من هنا نعلم». ولكنه لم يكن قاسيا عليه، كما قسا على آخرين ممن رد عليهم. وقد صدقت الأيام حسن ظن الغزالي في خالد، وأنه كان في محله، فما أسرع ما دار الزمن حتى وجدنا خالدا يصدر كتابا يعلن فيه بصراحة وشجاعة قلما يتوافر مثلها لغيره، رجوعه عما سطره في كتابه «من هنا نبدأ» عن الدولة والحكم في الإسلام، وهي أهم وأبرز نقطة اختلف فيها مع الغزالي خاصة والإسلاميين عامة، وبين الدوافع التي دفعته إلى اتخاذ هذا الموقف الفكري في ذلك الزمن، وذلك في كتابه «الدولة في الإسلام».

لم يتح لي أن ألتقي بالشيخ خالد في حياتي، برغم حرصي على ذلك، لوجودي خارج مصر من أول الستينيات، ولكني لقيته وجها لوجه مصادفة دون أن أعرفه في منزل الشيخ الباقوري، بعد خروجه من الوزارة، وكان يتحدث في مجلسه بثقة وجدارة، ثم استأذن وانصرف، فسألت بعض الجلساء: من هذا؟ فقالوا: إنه خالد محمد خالد. وكانت هي المرة الأولى والأخيرة.

ومن المواقف التي أذكرها ولا أنساها، كما لا يمكن أن ينساها كل مصري يجري في عروقه دم الحرية والكرامة: ما سمعته بأذني - وأنا في ذلك الوقت في الدوحة - حين انعقد المؤتمر الوطني الكبير الذي دعا إليه عبد الناصر سنة ١٩٦٢م، ليحشد القوى الوطنية من ورائه، لتأييد اتجاهه الجديد في التحول الاشتراكي، ولا سيما المثقفين من الكتاب والأدباء والعلماء والصحفيين والإعلاميين وغيرهم.

وقد كان عبد الناصر يريد أن يجمع الخيوط كلها في يديه، وأن تكون مصر وشعبها ومقدراتها كلها رهن إشارته، وطوع إرادته، وكما قال لبعض الإخوان في أحد الاجتماعات بصراحة: أريد أن أضغط على زر فتتحرك مصر كلها، وأضغط على زر آخر فتتوقف كلها!

وقد حضر الجميع في هذا المؤتمر، مسالمين ومسلِّمين، سائرين في الركاب، متمسحين بالأعتاب، مهللين للاشتراكية، مسبحين بحمد القومية العربية، مباركين ممجدين للاتجاهات الناصرية.

ولم يشذ عن هذا الموكب المساير إلا رجلان: أحدهما الشيخ محمد الغزالي الذي تحدث عن وجوب تميزنا بتشريعنا وقيمنا وآدابنا وأزيائنا، سواء كانت أزياء الرجال أم أزياء النساء، بدل هذا التبذل والتكشف الذي نراه، تقليدا للمرأة الغربية، والحضارة الغربية، في وقت نريد أن نتحرر منها ومن أغلالها.

وقد ثارت الثائرة، وقامت القيامة على الشيخ الغزالي، وهاجمه صلاح جاهين في جريدة «الأهرام» بزجله ورسومه الكاريكاتورية، وكان فيما قاله:

في وسط المؤتمر حامي الوطيسْ شغالْ

من أجل قوت العيال، أجيال وراء أجيالْ

صاحب الفضيلة الغزالي قام على حيله

قال لك: كمام النسا لازم يكونوا طوالْ!

وأما الرجل الثاني الذي خرج عن خط المؤتمر، وتكلم بصوت عال، وبشجاعة نادرة، بكلمات في غاية الصدق والقوة والروعة، فهو الشيخ خالد.. تكلم عن «الحرية» التي هي أم التنمية، وينبوع التقدم، ومصدر القوة الحقيقية للوطن والمواطنين، وبدون هذه الحرية وتوفيرها للقريب والبعيد، والمؤيد والمعارض، لا أمل في تقدم، ولا رجاء في مستقبل، الحرية بكل صورها وكل معانيها... إلخ ما قاله في هذا السياق، مما لم أعد أذكره كله. ولكنه كان ضد عبد الناصر وفلسفته في حكم البلد حكما فرديا، لا حرية فيه لصحافة، ولا لأحزاب، ولا لمعارضة.

ولم يستطع أحد أن يهاجم كلمة الشيخ خالد، كما هاجم كلمة الشيخ الغزالي،

لأن خالدا كان يتكلم باسم العالم الحر، وباسم الديمقراطية، وباسم الدنيا الجديدة، التي يتغنى الجميع بها. ولا يستطيع أحد أن يتهم خالدا بأنه رجعي أو عميل لأي قوة كانت بخلاف الغزالي الذي كان يتكلم باسم الإسلام.

كما أسجل هنا موقفا آخر ذكره أخونا عبد الحليم خفاجى في كتابه: «عندما غابت الشمس» نقله عن أحد رجال الثورة المعروفين، وهو أبو الفضل الجيزاوي. قال عبد الحليم:

«كان من بين المعقلين: أبو الفضل الجيزاوي أحد الضباط الأحرار الذين شاركوا عبد الناصر في قيام الثورة، دفع ثمن مطالبته بالإفراج عن المسجونين السياسيين بمجلس الأمة، ويومها رد زكريا محيي الدين قائلا: ليس لدينا سوى مساجين عاديين.. وقد بكى الرجل وهو يرجونا أن نقدم على خطوة التأييد، لننجو من قبضة الشياطين الذين يدبرون لنا أسوأ مصير، فشكرنا عاطفته وأحببناه، وأكدنا له أن ثقتنا في الله تحمينا من أي سوء، وما زالت تتوالى في كل يوم.

وعندما وقف خالد محمد خالد مدافعا عن الحريات في اللجنة التحضيرية للميثاق (يعني: المؤتمر التحضيري) شعرنا بالاعتزاز بأن في مصر رجالا لم تتزلزل، وشاركنا أبو الفضل تقديره، وزاد على ذلك بقصة عنه لا يعلمها غيره.. سأقصها عليكم للتاريخ لأنكم أصحابها: هكذا قال لنا أبو الفضل.

قلم لا يشترى:

وقال: كنت يومها مسئولا عن التوجيه المعنوي للجيش، حين قامت الثورة بضرب الإخوان عام ١٩٥٤. اشترينا كل الأقلام وسخرناها للهجوم عليكم، وبخاصة فتاوى العلماء ومن لهم وزن في الحقل الإسلامي، ولم يعد أمامنا سوى قلم خالد محمد خالد الذي سيفوق وزنه كل ما سبق من الأقلام.. ومعي مجموعة من ضباط الجيش قصدنا منزله، وعرضنا الأمر عليه قائلين: أعطنا مسودة هجومك على الإخوان، وقدر بنفسك ما تشاء من ثمن، ونحن سنطبع منها ما تشاء من

أعداد . . ولوَّحنا له في حالة الرفض بالمصير، فلم يهتز له طرف، وأجابنا في هدوء:

لقد جاء عرضكم السخي في وقت أحتاج فيه للجنيه الواحد لدفع إيجار شقتي الذي تأخرت في دفعه شهرين لأول مرة لخلو يدي. ومع هذا يمنعني من الاستجابة لطلبكم ثلاثة موانع:

الأول: أن الكاتب الحر تنبع فكرته من نفسه، ولا تفرض عليه.

الثاني: أنه ليس من المروءة أن أجهز على الإخوان وهم في محنتهم، عاجزين عن الرد عن أنفسهم، حتى لو كان لي رأي خاص فيهم.

الثالث: أن سكوتكم أنتم على ما يفعل بالإخوان من أساليب دكتاتورية سيجعل عبد الناصر يستمرئ هذا الأسلوب مع البلد كلها بعد ذلك، وستكونون أنتم أول الضحايا»[1].

فما أروعه من موقف، وما أبلغه من جواب!

وحين انتقل خالد إلى جوار ربه رثيته بكلمة مناسبة على منبر جامع عمر بن الخطاب بالدوحة، بوصفه أحد الأقلام الحرة الشجاعة، التي لم تبع ولم تستأجر لأحد في يوم من الأيام.

كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» وسيد قطب:

لئن كان الصف الإسلامي خسر قلما وكاتبا بظهور كتاب «من هنا نبدأ» وانضمام خالد محمد خالد إلى زمرة العلمانيين، وإن لم يكن معروفا من قبل به، لقد كسب الصف الإسلامي رجلا هو أسَدّ قلما، وأرسخ قدما، وأعرق في عالم الأدب والثقافة من خالد، وهو الكاتب والشاعر الأديب الناقد سيد قطب، الذي دخل بكتابه الجديد «العدالة الاجتماعية في الإسلام» في ساحة الدعوة الإسلامية، وغدا

---

(١) انظر: عندما غابت الشمس لعبد الحليم خفاجى ص٤٤٧ـ٤٤٩. طبعة دار الوفاء.

واحدا من الدعاة والمفكرين الإسلاميين. وقد أهدى كتابه بعبارته إلى «الفتية الذين كنت ألمحهم بعين الخيال قادمين، فوجدتهم في واقع الحياة قائمين.. مجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، مؤمنين في قرارة نفوسهم: أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

إلى هؤلاء الفتية الذين كانوا في خيالي أمنية وحلما، فإذا هم حقيقة وواقع، حقيقة أعظم من الخيال، وواقع أكبر من الآمال.

إلى هؤلاء الفتية الذين انبثقوا من ضمير الغيب، كما تنبثق الحياة من ضمير العدم، وكما ينبثق النور من خلال الظلمات.

إلى هؤلاء الفتية الذين يجاهدون باسم الله، في سبيل الله، على بركة الله.. أهدي هذا الكتاب».

كان سيد قطب من أبناء دار العلوم، ومن زملاء حسن البنا، أو بعده بقليل، وإن لم يحدث بينهما تعارف في أثناء الدراسة، ولكنه انتبه إليه حين كان في أمريكا، ورأى بعينه احتفال الأمريكيين وفرحتهم بمقتله.

وقد ذكر الأستاذ محمود عبد الحليم في كتابه «أحداث صنعت التاريخ» أن سيد قطب كتب مقالا في جريدة «الأهرام» القاهرية اليومية يدعو فيه الناس دعوة صريحة إلى العُرْي التام، وأن يعيش الناس عرايا كما ولدتهم أمهاتهم. وأن الأستاذ محمودا كتب مقالا في الرد عليه، وعرضه على الأستاذ البنا، فأشار عليه ألا ينشره، حتى تموت الفكرة في مهدها، فقد يؤدي الرد عليها إلى إحيائها والأخذ والرد في شأنها، وهذا في صالحها.

وهو أمر مستغرب من مثل الأستاذ سيد قطب الذي لم يعرف عنه طوال حياته مثل هذا التوجه إلى الإباحية، وهو ابن دار العلوم، وابن الصعيد، ولكننا لا نملك أن نكذب الأستاذ محمودا، ولا سيما أنه أشرك معه الإمام البنا.

كان سيد قطب شاعرا رومانسيا محسوبا على جماعة «أبولّو»، وكان أديبا

مرموقا محسوبا على مدرسة العقاد، التي تخاصم مدرسة الرافعي. وكان ناقدا أدبيا يملك حاسة نقدية عميقة، كما كان له أصوله النظرية في النقد، ضمنها كتابه المعروف «أصول النقد الأدبي».

وقد تجلت قدرته النقدية الموهوبة والمكتسبة في كتابيه الرائعين «التصوير الفني في القرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن» اللذين لم ينسج فيهما على منوال أحد قبله، وأبدع فيهما غاية الإبداع.

ويُعَدُّ بهذا من رواد النقد الأدبي الإسلامي. ولكن كتابه الجديد (العدالة الاجتماعية) كان نقلة نوعية لسيد قطب من أديب مسلم، إلى داعية إسلامي، ومفكر إسلامي.

وقد سبقه إلى الكتابة في جانب العدالة الاجتماعية الإسلامية رجال، أبرزهم الشيخ محمد الغزالي، الذي صدر له كتابان في هذا المجال (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) و(الإسلام والمناهج الاشتراكية)، كما نشر له مجموعة مقالات، جمعت بعد ذلك في كتاب «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين».

ولقد قرأ الأستاذ سيد قطب هذا كله وغيره، وذكره في مراجع الطبعة الأولى من «العدالة» ولكنه أحسن حين وظفه توظيفا حسنا، ووضعه بطريقة منهجية، تخاطب النخب المثقفة بأسلوب العصر.

ولقد سررنا نحن شباب الدعوة الإسلامية بظهور كتاب سيد قطب، وما يحمله من توجه جديد لهذا الأديب الكبير، نحو الرسالة الإسلامية، والفكرة الإسلامية.

وقد سار سيد قطب في هذا الدرب المضيء، وأصدر أكثر من كتاب في الاتجاه نفسه، منها كتاب «معركة الإسلام والرأسمالية» وكتاب «السلام العالمي والإسلام». وغدا يكتب في عدد من الصحف التي تُعَدُّ من صحف

المعارضة، بعضهما إسلامي مثل صحيفة «الدعوة» للإخوان، وبعضها إن لم يكن إسلاميا خالصا، فهو يحمل رائحة إسلامية، مثل صحيفة «الاشتراكية» لحزب العمل الاشتراكي (مصر الفتاة من قبل)، وصحيفة «اللواء» للحزب الوطني، ولكنه كان يكتب حينما يكتب تحت راية الإسلام، وفي سبيل نصرته، وبعث أمته. وقد جمع هذه المقالات التي كتبت في تلك الفترة في كتاب بعنوان «دراسات إسلامية».

كما أنشأ سيد قطب مع مجموعة من المفكرين الثائرين مجلة «الفكر الجديد»، كان الإعلان فيها، وهو شعارها: «تحررها أقلام قوية مؤمنة بحق الشعوب في الحياة. يشترك في تحريرها: سيد قطب».

كما كان يدعى لإلقاء محاضرات في بعض الكليات وغيرها، ومنها محاضرة ألقاها في كلية الآداب بجامعة عين شمس أوائل قيام ثورة يوليو، شهدتها مع عدد من طلاب كلية أصول الدين التي كانت قريبة جدا من كلية الآداب حيث تقع قبالتها في شبرا. وقد قدمه عميد الكلية الأستاذ الدكتور مهدي علام تقديما أشاد فيه بنبوغ المحاضر منذ كان طالبا. وكانت المحاضرة عن «الثورة في الإسلام» وأن الإسلام كان ثورة في عالم التصور، وفي عالم الشعور، وفي عالم الواقع.

وكان الأستاذ سيد أول ما قامت الثورة قريبا من رجالها، ومن جمال عبد الناصر بخاصة، حتى إنهم في أول الأمر، حينما أرادوا أن ينشئوا «هيئة التحرير» لتكون حزب الجيش أو الثورة، كان توجههم أن يحملوا سيد قطب مسئولية أمانتها العامة، ولكن يبدو أن فكره لم يتفق مع أفكارهم، واتجاهه لم ينسجم مع اتجاهاتهم، فكان فراق بينه وبينهم. والتفاصيل في ذلك عند شقيقه الأستاذ محمد قطب حفظه الله.

وفي هذه الفترة، اقترب الأستاذ سيد قطب من جماعة الإخوان، وإن لم ينضم إليهم بصورة رسمية، وكان يصحب الأستاذ الهضيبي المرشد العام للإخوان، في بعض رحلاته إلى الأقاليم.

وأذكر أنه زارنا في منطقة المحلة الكبرى بمناسبة الاحتفال بالهجرة النبوية، وتحدث في هذا الحفل الكبير الأستاذ الهضيبي والأستاذ عبد الحكيم عابدين، السكرتير العام للإخوان، والفقير إليه تعالى، وكان الأستاذ سيد قطب مستمعا فقط.

وأذكر أن الأستاذ سيد رحمه الله قال للأستاذ عابدين بعد أن سمع كلمته الضافية في المناسبة: لماذا لا تكتب هذا الكلام يا أستاذ عابدين؟ إن الكلمة المكتوبة لها أهميتها، فهي أخلد وأبقى من الكلمة المسموعة. وكان كثير من دعاة الإخوان يلقون كلمات نيرة وقيمة في هذه المناسبات، ولكنها لا تكتب.

وبعد ذلك اندمج سيد قطب في الإخوان، وأصبح رئيسا لقسم نشر الدعوة، ورئيسا لتحرير مجلتهم الأسبوعية، وسيأتي الحديث عن هذا الطور في حينه، ثم الطور الذي يليه: طور «معالم في الطريق» وما تلاه وصاحبه من كتب عبرت عن «فكر المحنة» التي ابتلي بها الإخوان ودعوة الإسلام بصفة عامة، وما كان لها من أثر على تفكير الشهيد رحمه الله. وسيأتي الحديث عن ذلك في حينه من حلقات هذه السيرة إن شاء الله.

لقي كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» قبولا عاما لدى المثقفين المسلمين في مصر والعالم العربي والإسلامي، ولكن فصلا منه أثار جدلا طويلا لدى بعض العلماء المعنيين بتراث الأمة وتاريخها في مصر وفي باكستان. هذا الفصل هو ما يتعلق بـ «الواقع التاريخي في الإسلام» فقد قسا الأستاذ سيد رحمه الله في نقده لبعض مواقف سيدنا عثمان الخليفة الثالث في الإسلام، كما قسا على بني أمية بصفة عامة، وخصوصا في الطبعة الأولى للكتاب.

وهذا ما أغضب العالم الشاعر الأديب المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر، فكتب نقدا مرا، بل هجوما عنيفا على الكتاب في عدة مقالات نشرتها مجلة «المسلمون» التي كان يصدرها الأستاذ سعيد رمضان، تحت عناوين

مختلفة، أذكر منها «حكم بلا بينة» و«ألسنة المفترين» و«تاريخ بلا إيمان» و«لا تسبوا أصحابي».

كما هاجم بعض علماء باكستان سيد قطب لأنه تطاول - في نظرهم - على الخليفة الراشد، صهر الرسول الكريم، عثمان بن عفان، وهو من الصحابة الذين توفي رسول الله، وهو عنهم راض.

ولا يتسع المجال هنا لأحكم بين الرجلين الكبيرين، ولا سيما أن القضية شائكة، وهي من القضايا المهمة التي تضيع فيها الحقيقة بين الغلو والتفريط. وفي رأيي أن في كلام كل منهما شيئا من الحق، وشيئا من الغلو، والعدل في الوسط بينهما.

والحقيقة أن تاريخنا - وخصوصا في عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهي خير قرون الأمة كما صحت بذلك الأحاديث - يحتاج إلى تحقيق علمي رصين، وتمحيص لرواياته في ضوء الموازين العلمية التي وضعها علماؤنا لتوثيق الأخبار أو تصنيفها، فلا يؤخذ كل ما في الكتب قضية مسلّمة، برغم الشكوك والشبهات التي تحيط بها، وبرغم ما يعرفه الدارسون المتخصصون من وهن أسانيدها، واتهام ناقليها في عدالتهم ونزاهتهم، فكثير منهم له أهواؤه وفرقته الخاصة التي ينتمي إليها، ويتعصب لها بالحق أو الباطل، بل قد يستحل الكذب لترويج دعاويها، وإضعاف خصومها.

ولم يهتم مؤرخونا الأوائل بنقد الأسانيد - برغم قدرتهم على ذلك مثل الطبري - لأن التاريخ في نظرهم لا تترتب عليه أحكام في الحلال والحرام، فنقلوا إلى الناس ما نقل إليهم بأسانيده، وتركوا لهم البحث في هذه الأسانيد. وغفلوا عن مسألة مهمة، وهي أن التاريخ، وإن لم تترتب عليه أحكام، تترتب عليه أشياء أخرى، مثل تشويه صورة الأمة في خير قرونها وأفضل عصورها.

والواجب علينا أن ننظر إلى تاريخنا نظرة منصفة بحيث لا نقدسه، ولا نظلمه، بل ننصفه، ونحكم له أو عليه بالعدل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

والشهيد سيد قطب رحمه الله لم يسعه إلا أن يعترف بأن الإسلام ظل راسخ البناء، مرفوع اللواء، منفردا بالفتوى والقضاء والتشريع للأمة الإسلامية، في كل شئونها، اثني عشر قرنا من الزمان، وبهذا أنصف الإسلام، وأنصف التاريخ، وأنصف نفسه كذلك.

يقول في آخر كتاب ألفه، وقد نشر حديثا (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م)، أي بعد استشهاده رحمه الله بعشرين عاما. يقول في مقدمة كتابه «مقومات التصور الإسلامي»، وهو الجزء المكمل لخصائص التصور الإسلامي: «وارتفع لواء الإسلام عاليا، وظل مرفوعا أكثر من ألف عام، بل حوالي مائتين وألف عام، ممثلا في النظام الإسلامي في ظل الأقطار الإسلامية، وهو النظام، الذي يرجع الناس فيه إلى شريعة الله وحدها، ولا يحكم قضاة هذه الأمة إلا بالشريعة الإسلامية في كل أمر من أمور الحياة، ولا يتحاكم الناس إلى غير هذه الشريعة، في شأن واحد من شؤون المعاش»[1].

النشاط الإخواني:

كانت جماعة الإخوان محظورة أو محلولة من الناحية الرسمية، ولكن هذا لا يعني أكثر من فقد البطاقة الشخصية أو شهادة الميلاد الرسمية، كما قال الأستاذ البنا، أما وجود الإخوان على أرض الواقع، فأمر لا شك فيه.

ولقد خرج الإخوان من معتقلاتهم أشد عزما، وأقوى إصرارا على دعوتهم، واستمساكا بعروتها الوثقى، ونشاطا في سبيلها.

وكانت هذه الفترة من أخصب الفترات في تاريخ الدعوة، فلم يكن للدعوة دور ولا لافتات، ولا أي مظاهر رسمية، وإنما كان هناك عمل هادئ صامت، يقوم به أبناء الدعوة في كل مكان، وخصوصا بين الطلاب. وكان العمل أشبه ببذر البذور الطيبة في أرض خصبة، بأيد أمينة، وكان لا بد أن

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص٢٦ طبعة دار الشروق الأولى.

يؤتي أكله. وكنا نكسب باستمرار شبابا وجنودا جددا ينضمون إلى الدعوة مخلصين، لا يرجون إلا الله والدار الآخرة، وقد كان هذا أمرا جليا بالنسبة لطلاب الجامعة والأزهر، وقد جمعت بيننا لقاءات دعوية للتفاهم وتنسيق العمل المشترك.

تأييد مرشحي الإخوان في الانتخابات:

وكان من أهم جولات النشاط العلني الذي قمت به في هذه الفترة: تأييد مرشحي الإخوان في الانتخابات، فقد رشح عدد منهم في بعض الدوائر، وكان ذلك لغاية مهمة، وهي أن الانتخابات تتيح لهم - رسميا - الحديث عن الدعوة وأهدافها ومنجزاتها ومستقبلها، وإن لم يكن لديهم أمل في النجاح.

رشح الشيخ الباقوري في دائرة القلعة، والأستاذ طاهر الخشاب في العباسية، والأستاذ مصطفى مؤمن في الجيزة، والأستاذ علي شحاته في شبرا، والشيخ عبد المعز عبد الستار في فاقوس، والأستاذ فهمي أبو غدير في الواسطى وأسيوط.

وكنا ننتقل من دائرة إلى أخرى لنشارك في المسيرات المؤيدة، أو في حملات الدعاية، بدافع من أنفسنا، ورغبة صادقة في مساندة إخواننا، الذين لا يملكون من وسائل الدعاية والتجنيد ما يملك خصومهم المرشحون.

ثم إن الإخوان طلبوا إليّ أن أسافر إلى أسيوط لأسهم في تأييد مرشح الدعوة المحامي فهمي أبو غدير، الذي رشح نفسه في دائرتين: دائرة الوسطى، ومنها «درنكه» بلدة حامد جودة النائب السعدي الكبير، ووكيل مجلس النواب السابق. وقال الأستاذ أبوغدير: إن قصدي ليس النجاح، ولكن إحياء الدعوة في الدائرتين، وكان معي في هذه الرحلة الأخ أحمد العسال.

وقد قمنا بجهد طيب - ولله الحمد - في زيارة قرى دائرة الوسطى، نحدث الناس عن الإسلام، ودوره في علاج مشكلاتهم، وبناء حياتهم على أسس صالحة، كما

أن الأمة في حاجة إليه لتحريرها من الاحتلال البريطاني، وتحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني.

وكانت أياما حافلة تلك التي قضيناها في أسيوط، وتعرفت فيها على إخوة كرام: محمد الراوي، ومحمد التاجي، وعلي عبد المنعم عبد الحميد، وعيسى عبد العليم، وأحمد نصير، والدمرداش العقالي وغيرهم، من شباب الدعوة الناهض.

كما التقينا بالأخ الداعية المربي الحاج عباس السيسي الذي كان يعمل في أسيوط حينذاك، وكذلك الحاج عبد الرزاق هويدي (والد الكاتب المعروف الأستاذ فهمي هويدي).

وبعد رجوعي من أسيوط كلفت أن أسافر إلى «فاقوس» بالشرقية، لتأييد مرشحها، فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، وبقيت هناك نحو أسبوع، أنتقل في أحياء فاقوس، وفي قرى الدائرة، لمساندة ابنها البار، عالمها الجليل، وخطيبها المفوه، الذي دوى صوته في جنبات الأزهر، وفي أنحاء مصر، ووصل إلى فلسطين، فهز المنابر، وأيقظ المشاعر، وزلزل عروش الظالمين.

ثم ودعت الشيخ، وعدت بعد ذلك إلى القاهرة، لأواصل نشاطي الدراسي والدعوى، وقد أبى الشيخ عبد المعز - وهو رجل اشتهر بالسخاء والجود - إلا أن يحملني سلة من «المانجو» من حديقة دارهم، استمتعت بها أنا وإخواني في السكن.

وقد جرت الانتخابات بعد أيام قليلة، ولم ينجح أي مرشح من الإخوان، وهو ما كان متوقعا، فالانتخابات فن لم يتقنه الإخوان بعد، ويحتاج إلى تهيئة وإعداد طويل.

زيارة الشيخ أبي الحسن الندوي لمصر:

ومن الأحداث التي وقعت في تلك الحقبة، وكان لي بها صلة: زيارة الشيخ أبي الحسن الندوي لمصر في يناير سنة ١٩٥١م، وذلك حين بدأ الشيخ يتحرك من وطنه بالهند إلى العالم من حوله، وكانت زيارته لمصر الأولى والأخيرة.

كنت وقتها طالبًا في كلية أصول الدين، مشغولاً بدعوة الإخوان المسلمين، مسئولاً عن طلبة الإخوان في جامعة الأزهر، مع أخي أحمد العسال وعدد من الإخوة الكرام، وأخطب الجمعة في مسجد بمدينة المحلة الكبرى - القريبة من قريتي - وكنت قد قرأت كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟» الذي نشرته «لجنة التأليف والترجمة والنشر» التي يرأسها الأستاذ الكبير أحمد أمين رحمه الله.

وقد أعجبت بالكتاب، ودللت عليه بعض الأصدقاء ليقرءوه، وإن كنت لا أعرف عن صاحبه شيئًا إلا أنه عالم هندي مسلم. وقد كتب الأستاذ أحمد أمين مقدمة للكتاب، ولكنه لم يوف صاحبه حقه كما ينبغي.

ولكن الكتاب كان نظرة جديدة إلى التاريخ الإسلامي، وإلى التاريخ العالمي من منظور إسلامي، وهو منظور عالم مؤرخ مصلح داعية، يعرف التاريخ جيداً، ويعرف كيف يستخدمه لهدفه ورسالته.

وقد ساعده على ذلك معرفته باللغة الإنكليزية، كما ساعده الحس النقدي، والحس الحضاري، والحس الدعوي، والحس الإصلاحي (وكلها من مواهبه) على تقديم هذه النظرة الجيدة من خلال كتابه الفريد.

الندوي في مصر ومع المصريين:

اتصل بي بعض الإخوة من الطلاب الهنود الذين يدرسون في مصر، وقالوا لي: هل تعرف الأستاذ أبا الحسن الندوي ؟ قلت لهم: أليس هو صاحب كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» قالوا: بلى، قلت: وما شأنه ؟ قالوا: سيصل إلى القاهرة يوم كذا. قلت: أرجوكم أن توصلوني إليه عند حضوره.

وما هي إلا أيام حتى حضر الشيخ، ومعه اثنان من إخوانه ورفقائه الندويين أحدهما: الشيخ معين الندوي، والثاني نسيت اسمه.

كان الشيخ ومن معه يسكنون في شقة متواضعة في زقاق من أزقة شارع الموسكي بحي الأزهر؛ فالشيخ لا يقدر على سكنى الفنادق، ولا يحبها، وإن قدر عليها. وفي اجتماعات مجلس رابطة العالم الإسلامي بالمملكة العربية السعودية يَدَع الفنادق التي ينزل فيها الضيوف - وهي من فنادق الدرجة الأولى - وينزل عند بعض إخوانه.

كما أنه يرفض النزول ضيفًا على بعض الكبراء من الأغنياء والموسرين؛ لعل ذلك للشبهة في أموالهم، أو لئلا يكون أسيرًا لإحسانهم.

كان الشيخ حين زار مصر في شرخ الشباب، لحيته سوداء، ووجهه نضر، وعزمه فتي، وروحه وثابة، وغيرته متوقدة. كان يحمل حماسة الشباب، وحكمة الشيوخ، يحمل فكر العالم المدقق، وقلب المؤمن الغيور في آن واحد.

ذهبت لزيارة الشيخ في مسكنه المتواضع أنا وأخي وصديقي (محمد الدمرداش مراد رحمه الله) رفيقي في الدراسة، ورفيقي في الدعوة، ورفيقي في المحنة، ورفيقي في السكن، ودعوناه إلى بيتنا في شبرا؛ ليلتقي ببعض إخواننا من شباب الأزهر الملتزمين بالدعوة في صورة ما يسميه الإخوان «كتيبة»، وهو تعبير عن ليلة جماعية تقضى في العلم والعبادة والرياضة، وقليل من النوم. وكان الشيخ حريصًا على أن يستمع منا، كما نستمع إليه، فكان يسأل عن حسن البنا، وكلامه وطريقته، ومواقفه وتصرفاته في الأمور المختلفة، كبيرة كانت أو صغيرة؛ مما كوَّن معه فكرة عن الشيخ البنا، وأنه كان «إمامًا ربانيًا» بحق، ولم يكن مجرد زعيم يطالب بحكم إسلامي، بل كان قبل كل شيء «مربيًا» يريد أن ينشئ للإسلام «جيلاً جديداً» يحسن الفهم له، والإيمان به، والالتزام بتعاليمه، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله.

وتكرر لقاؤنا معه، ولقاؤه معنا، نحن شباب الدعوة الإسلامية (أنا والأخ أحمد العسال والأخ الدمرداش والأخ مناع القطان، والأخ عبد الله العقيل وآخرون).

كانت أيام الشيخ أبي الحسن في مصر أيامًا خصبة مباركة، لا يكاد يوم منها يخلو عن محاضرة عامة يدعى إليها، أو درس خاص يرتب له، أو لقاء خاص يعد له.

ألقى محاضرة تحت عنوان «المسلمون على مفترق الطرق» في دار الشبان المسلمين على ما أذكر، وعقب عليها الشيخ عبد المتعال الصعيدي، والشيخ الغزالي. كما ألقى محاضرة عن «محمد إقبال» شاعر الإسلام في الهند في كلية دار العلوم، كان لها تأثيرها ودويها. والشيخ من المعجبين بشعر إقبال، ويحفظ منه الكثير الكثير، وقد أخرج كتابًا عنه بعنوان «روائع إقبال».

التقى الشيخ في القاهرة كثيرا من العلماء والدعاة والمفكرين، وسجل عنهم ملاحظاته الدقيقة في كتابه الذي أصدره بعد رجوعه: مذكرات سائح في الشرق العربي.

التقى الأديب الكبير والناقد الشهيد سيد قطب، وأعجب به الشهيد، وكتب مقدمة أخرى لكتابه «ماذا خسر العالم ؟» أنصف فيها الكتاب وصاحبه، وقدره حق قدره.

والتقى كثيراً الشيخ محمد الغزالي ورافقه في بعض رحلاته الدعوية، وأعجب كل منهما بصاحبه، وكتب عنه الشيخ في «مذكراته» تلك .

وأذكر أن الشيخ الندوي كان قد اصطحب معه عدة رسائل من أوائل كتاباته الإسلامية الدعوية، وهي جملة رسائل تعبر عن حس رقيق، وفكر عميق، وبيان أنيق، وعن رهافة الحاسة الأدبية، وعمق الحاسة الروحية عند الشيخ .

وأذكر أن الشيخ الغزالي قرأها، ومنها رسالتان، إحداهما: من العالم إلى جزيرة العرب، والأخرى: من جزيرة العرب إلى العالم. وفيهما يستنطق الشيخ ما يريده العالم من الجزيرة من الهدى ودين الحق وهو ما قدمته الجزيرة قديمًا للعالم، ورد الجزيرة على هذا التساؤل.

قال الغزالي معقبًا: هذا الإسلام لا يخدمه إلا نفس شاعرة محلقة، أما النفوس البليدة المطموسة فلا حظ لها فيه!

لقد وجدنا في رسائل الشيخ لغة جديدة، وروحًا جديدة، والتفاتًا إلى أشياء لم نكن نلتفت إليها. إن رسائل الشيخ هي التي لفتت النظر إلى موقف ربعي بن عامر ـ رضي الله عنه ـ أمام رستم قائد الفرس وكلماته البليغة له، التي لخصت فلسفة الإسلام في كلمات قلائل، وعبرت عن أهدافه بوضوح بليغ، وإيجاز رائع: «إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام!». أبو الحسن الندوي - فيما أعلم - هو أول من نبهنا إلى قيمة هذا الموقف وهذه الكلمات، ثم تناقلها الكاتبون بعد ذلك وانتشرت.

وقد لقي الشيخ أستاذنا البهي الخولي، وقد أعجب به الأستاذ البهي غاية الإعجاب، وسجل ذلك في رسالة سطرها إليه[1]. كما لقي الأستاذ صالح عشماوي وغيره من قادة الإخوان، وجلس إليهم وتحدث معهم حديثًا نشره في رسالة بعد ذلك، عنوانها: أريد أن أتحدث إلى الإخوان المسلمين.

ولقي كذلك أستاذنا العلامة الدكتور محمد يوسف موسى، وقد كتب له مقدمة لكتابه «ماذا خسر العالم؟».

كما لقي الأديب الداعية الشيخ أحمد الشرباصي، الذي سجل معه مقابلة عن سيرته نشرت في مقدمة «ماذا خسر العالم؟».

ومما ذكره في هذه المقابلة: أنه سئل عن أغرب ما رآه في مصر؟ فكان جوابه: أني وجدت العلماء حليقي اللحى! ولا ريب في أن هذه صدمة شديدة لعالم لم ير في حياته في وطنه عالمًا واحدًا حليقًا، وحلق اللحى عندهم من شأن المتفرنجين، والبعيدين عن الدين، أما أن يكون هذا هو الطابع العام للعلماء في بلد، فهو الشيء

---

(١) انظرها في كتاب «رسائل الأعلام» للشيخ الندوي.

الغريب ! ومن العجب أن بعض شيوخ الأزهر المتحمسين لإعادة الأزهر إلى مكانته القديمة يحاولون أن يفرضوا على الطلبة لبس العمامة، وهي مجرد تقليد! ولا يفكرون في أن يفرضوا عليهم إطلاق اللحية، وهو سنة إسلامية بلا ريب!

رحلات الندوي في ريف مصر:

ولم يكتف شيخنا بالنشاط والحركة في مدينة القاهرة على سعتها، بل امتد إلى مدن أخرى، سمعت بالشيخ فدعته إلى زيارتها ولقاء الجمهور المسلم فيها.

ومن ذلك: مدينة «المحلة الكبرى» التي كنت أخطب في أحد مساجدها، وقد دعاه إليها الدكتور محمد سعيد ـ رحمه الله ـ رئيس الجمعية الشرعية بمدينة المحلة، وهو طبيب أسنان معروف، نذر حياته لإحياء السنة، والدعوة إلى الله على طريقة «إخواننا في الجمعية الشرعية»، وقد عرف الشيخ أن بينه وبين الإخوان شيئًا: فهو يأخذ عليهم أنهم لا يلتزمون بالآداب التي يلتزمونها هم من إعفاء اللحية، وإحفاء الشارب، وإرخاء العذبة، وإطالة الصلاة. وقال الشيخ للدكتور: «إن دعوة الإخوان دعوة عامة، مهمتها أن تجمع الجماهير على الأصول الكلية للإسلام، ثم تربيهم بالتدريج على الآداب الخاصة. ولابد أن يكون في الأمة المنهجان: النهج العام للإخوان، والنهج الخاص للجمعية». واستراح الدكتور سعيد ـ رحمه الله ـ لكلام الشيخ، ودعاني معه على الغداء عنده.

ولكن سرعان ما كاد هذا يذهب هباءً، عندما ذهبنا مع الشيخ إلى بلدة «نبروه»، وتكلمت كلمة أغضبت الدكتور سعيد ـ غفر الله لنا وله ـ ولا أدري: لماذا ؟ ولكن الشيخ تدارك الموقف بهدوئه وحكمته، وبات الناس تلك الليلة في المسجد سجداً وقياماً، بدعوة من الشيخ واستجابة كثيرين من الحضور.

كانت زيارة الشيخ لمصر هي بداية لقائي به، ومعرفتي به، ثم زادتها الأيام قوة على قوة[1].

---

(١) انظر: كتابنا «الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته» ص١٦ ـ ٢١ نشر دار القلم ـ دمشق.

اختيار الأستاذ الهضيبي مرشداً:

وفي هذه الفترة، كان قد تم اختيار مرشد عام للإخوان، هو الأستاذ حسن الهضيبي بك المستشار بمحكمة النقض، والذي كان على صلة قديمة بالإخوان، وبالأستاذ حسن البنا، ولكن منصبه القضائي جعله يبتعد عن الظهور العلني في الإخوان. وكانت مجلة «الشهاب» قد نشرت صورته في «سجل التعارف الإسلامي» في العدد الأول، وكتبت عنه: مصري ولد في «عرب الصوالحة» سنة ١٣٠٩هـ. قبيلته عربية عريقة في عروبتها ودينها، ودرس في كلية الحقوق وتخرج منها سنة ١٣٣٥هـ واشتغل بالمحاماة، ثم عين في القضاء، وهو الآن مستشار في محكمة النقض. سعادته خير قدوة لرجال القانون، فقد عرف في جميع مراحل حياته باللباقة وسمو الخلق، والغيرة على الإسلام والدعوة إليه. وهو يحفظ القرآن، وذو رأي مسدد في كل ما يتصل باللغة والإسلام، كما أن لسعادته دراسات واسعة في القانون المقارن والتشريع الإسلامي، واطلاعا واسعا على كتبه وموسوعاته، انتهى.

وكأنّ هذا التعريف الشامل المركز من الأستاذ البنا، كان يحمل ترشيحا لصاحبه، ليقود سفينة الجماعة من بعد مرشدها الأول، رحمهما الله جميعا.

كما نوه الأستاذ البنا بالأستاذ حسن الهضيبي في خطاب مفتوح إلى رئيس الوزراء في ذلك الوقت (وهو النقراشي) بشأن «التشريع الإسلامي، والدستور القرآني» الذي كان نسيانه أو تناسيه، أساس البلاء، ومصدر النكبات. وقال لرئيس الوزراء: لستم بحاجة إلى من يذكر كم بفضائل التشريع الإسلامي، ويعدد لكم مزاياه، ويبرهن لكم على حاجة الأمة إليه، بعد أن قام يدعو إلى تطبيقه الرجل المسلم الغيور، والمؤمن القوي، والموظف المسئول، الأستاذ الهضيبي بك، هذا الرجل العظيم الذي كلف رسميا ببحث إصلاح التشريع في مصر، فقال: إن هذا الإصلاح لا يحتاج إلا إلى مادة واحدة، هي أن يكون دستورنا القرآن، وتشريعنا مستمدا من هذا النبع الخالد الزاخر: الفقه الإسلامي الذي وسع كل شيء، وحل

كل مشكلة . . . . . إلخ . ثم قال : يا صاحب الدولة ، إن الهضيبي بك قد أدى واجبه ، وأبرأ ذمته ، وذكَّر قومه بأن سعادتهم في تطبيق الشريعة الإسلامية الغراء[1] .

وقد حل اختيار الأستاذ الهضيبي مرشدا عاما عقدة اختيار المرشد من رجال الصف الأول البارزين : صالح عشماوي وكيل الإخوان ، وعبد الرحمن البنا عضو مكتب الإرشاد ، وشقيق المرشد الأول ، وعبد الحكيم عابدين السكرتير العام للجماعة ، وزوج أخت الأستاذ ، والشيخ أحمد الباقوري أحد قدامى الإخوان ، وغيرهم من المتطلعين إلى منصب المرشد العام ، وكل يزعم - أو يزعم له - أنه أحق به من غيره . فكان اختيار رجل من خارج المجموعة كلها حلا للإشكال .

وكان الإخوان قد اختاروا مقرا مؤقتا في حي الظاهر بالقاهرة ، يلتقون فيه ، حتى يكسبوا قضيتهم ، وتعود إليهم ممتلكاتهم ، ومنها المركز العام بالحلمية الجديدة .

وكان أول لقاء عام بالإخوان للأستاذ الهضيبي في هذا المقر المؤقت ، وقد أوصى الإخوان بتقوى الله عز وجل ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وطلب منهم أن يقلوا الحديث عما أصابهم من بلاء في سبيل الدعوة ، فهذا أول الطريق ، وكأنه كان يستشف ما يكنه ضمير المستقبل من محن كبيرة مخبأة للإخوان .

وبعد جهود واتصالات ومظاهرة أمام مجلس النواب ، وضغط على حكومة الوفد ، ألغي قرار حل الإخوان ، وعادوا رسميا ليمارسوا نشاطهم تحت سمع القانون وبصره ، وتسلموا مركزهم العام ، ليقيموا فيه أحاديث الثلاثاء ، التي أمسى يتعاقب عليها عدد من دعاة الإخوان ، ولكن أين من يملأ مكان حسن البنا؟

وفي هذا الوقت طلب من الأستاذ الهضيبي أن يزور الملك فاروق ، وحدد موعد

---

(١) نشرت في مجلة «الإخوان المسلمون» الأسبوعية في العدد (٢١١) الصادر في ٢٣ من شوال سنة ١٣٦٧هـ - ٢٨ من أغسطس سنة ١٩٤٨م . وقد دلني على هذا النص ابننا عصام تليمة .

الزيارة، وكأن الملك أراد بذلك أن يقيم صلة، أو يعقد هدنة مع الإخوان، بعد أن اغتيل مرشدهم الأول لحسابه. وذهب الأستاذ الهضيبي للقاء الملك، وجرى بينهما حديث عن الله ثم الملك، ثم الشعب، فعقب الهضيبي قائلا: بل الله ثم الشعب، ثم الملك.

وبعد خروج الأستاذ الهضيبي من الزيارة الملكية، سأله الصحفيون عن مضمون هذه الزيارة، فقال: لقد كانت زيارة كريمة لملك كريم.

واستغلها خصوم الدعوة، ليشوشوا على الإخوان، وعلى مرشدهم الجديد، وليجعلوا منها مقدمة لدوران الإخوان في فلك القصر، وأن الهضيبي إنما جاء ليؤدي هذا الدور. وكل هذه أوهام وأباطيل، وإنما قالها الرجل على سجيته جملة يريد بها المجاملة لا أكثر من ذلك، وما غير الإخوان من أهدافهم ولا من مناهجهم قيد شعرة، كما يعرف ذلك كل مراقب للأحداث، مطلع على مسيرة الإخوان.

وقد ذكر الأستاذ محمود عبد الحليم في الجزء الأول من كتابه (الإخوان المسلمون.. أحداث صنعت التاريخ) بعض التفاصيل عن هذه الزيارة، منها: أنهم بعثوا إلى الأستاذ الهضيبي من القصر حلة خاصة لا يقابل الملك إلا بمثلها، يسمونها «الردنجوت»، فرفض الهضيبي أن يلبسها، وأصر على أن يلقى الملك بحلته المعتادة، وقبلوا ذلك لأول مرة.

ومنها: أن الملك ظل يتحدث نحو الساعة، معتذرا عما أصاب الإخوان، وأنه من عمل حزب السعديين وحكومتهم، وأنه هو الذي أقال حكومة إبراهيم عبد الهادي، وأمر بالإفراج عن الإخوان.. إلخ، والأستاذ ساكت.

ومنها: أن الملك أرسل إلى الهضيبي صورة فاخرة له موقعة بخطه، وكان ينتظر أن يعلقها في مكتبه، فلم يفعل، ولكنه أخذها إلى بيته، ووضعها على الأرض في مكان لا يراه أحد.

مسجد آل طه بالمحلة:

كانت نفقات الحياة بالقاهرة كثيرة: المسكن والمعيشة والتنقل والملبس، والكتب، وغيرها، وليس لي مورد يغطي هذه التكاليف؟

أخي وزميلي محمد الدمرداش حل هذه المشكلة بالتقدم إلى وزارة التربية والتعليم ليعين بالشهادة الثانوية مدرسا، وقد كان، وعين بالصعيد. ولكن مثل هذا العمل لا يلائمني بالمرة، فأنا لا أريد عملا يقطعني عن الحضور بالكلية، ويبعدني عن القاهرة مركز الدعوة والنشاط والحركة.

ولهذا فكرت في أن أعمل خطيبا بأحد المساجد الأهلية، وآخذ مكافأة تكفيني. وقد دلني بعض الإخوة على مسجد ينشأ في المحلة الكبرى في شارع البحر، وهو أكبر الشوارع في المحلة، وهو يوشك أن ينتهي، والذي أنشأه أسرة آل طه، من أعيان المحلة، وسيحتاجون قطعا إلى خطيب للمسجد، ودلوني على الحاج رشاد طه، وهو ضابط مهندس كبير بالجيش، ومن أهل الصلاح والتقوى. وبالفعل سألت عن مسكنه في القاهرة وزرته وعرفته بنفسي، وحاجتي إلى العمل بالمسجد، وطلبت منه أن يسأل عني، فقال لي: الكتاب يقرأ من عنوانه، وسأجتهد في إقناع عمي الحاج حسن بذلك.. والله يختار الخير.

وتم الأمر بحمد الله، وافتتحت المسجد بأول خطبة حضرها عدد ملأ المسجد، وهو صغير نسبيا. وفي الجمعة التالية، صلى الناس خارج المسجد، ومازال العدد يتضاعف، حتى أصبح الذين يصلون في الشارع أضعاف الذين يصلون داخل المسجد، مما اضطر أصحاب المسجد إلى أن يبنوا ملحقا بجواره من عدة طوابق، حتى يتسع للناس.

وكان الناس يفدون إليه من طنطا، ومن سمنود، ومن طلخا والمنصورة، وبات مدرسة متميزة يقصدها الكثيرون للاستفادة منها. وكنت كثيرا ما أجعل الخطب سلسلة متماسكة الحلقات، بعضها في العقائد، وبعضها في العبادات، وبعضها في

أخلاق المؤمن، وبعضها في مشكلات الحياة والمجتمع، وبعضها في قضايا أمة الإسلام.

وقد اشتهر المسجد باسم «مسجد الشيخ يوسف»، وقلت للإخوة: أنا حريص على أن يظل اسمه (مسجد آل طه) تشجيعا لهم، وتنويها بعملهم الصالح، فقد قرروا لي مرتبا: عشرة جنيهات كل شهر، حلوا بها مشكلتي الاقتصادية، جزاهم الله خيرا. كما أنهم لم يضيقوا علي في حضور ولا غياب، فلي أن أباشر أنشطتي كما أشاء، وحسبهم السمعة الكبيرة التي جاءتهم من وراء المسجد. وكنت آتي إلى المسجد مساء كل خميس، لألقي درسا في المسجد، وأصلي الجمعة، وكثيرا ما يكون هناك حلقة بعد الجمعة. وبعد عودة الإخوان الرسمية، كنا نخرج من المسجد في تجمع كبير إلى دار الإخوان، وهي قريبة من المسجد، وأصلي المغرب والعشاء في المسجد، ثم أسافر مساء الجمعة أو صباح السبت إلى القاهرة. وفي الصيف كنت أقيم بصفة دائمة في المحلة.

وقد استأجرت مع بعض الإخوة شقة صغيرة من حجرتين لأسكن بها، وكان معي الأخ حلمي عبد الحميد مولانا من صفط ويعمل بشركة المحلة، والأخ محمد السعيد من طنطا.

وبعد أن أصبح للإخوان دار مستقرة، وكان بها حجرة مستقلة على السطح، اقترحوا علي أن أنتقل إلى هذه الحجرة، وقد عاينتها فوجدتها مناسبة جدا، وتجعلني قريبا من الإخوان. وقد نقلت إليها سريري وفراشي وغطائي، وأضفت إليها خزانة صغيرة لكتبي، وبهذا أصبح لي مسكنان، مسكن في القاهرة، ومسكن في المحلة.

كان شهر رمضان شهر النشاط المضاعف، درس بعد صلاة العصر، وصلاة التراويح بجزء من القرآن، ودرس في الترويحة. وفي بعض الليالي نذهب إلى قرية من قرى مركز المحلة، أو سمنود وخصوصا ليالي الاحتفال بغزوة بدر، وفتح مكة، وليلة القدر.

كان مسجد آل طه مصدر إشعاع وإحياء، وكانت سنوات حافلة بالنشاط والعطاء، وكان من بواعث إنعاش الإخوان ونموّهم في منطقة المحلة وما حولها وظهور عدد من الدعاة الشباب، أمثال مصباح عبده، والسيد النفاض، ومحمد حوطر، وعبد الستار نوير، وعبد الوهاب الشاعر، وغيرهم، ممن أصبحوا بعد ذلك نجوما زاهرة في سماء الدعوة.

وقد تعرفت في المحلة على إخوة كرام: محمد محمد عبد العال رئيس الإخوان، وعدد من أعوانه المتجردين المخلصين من أمثال: حسين عتيبة ومصطفى الغنيمي، وسليمان مطاوع، وسيد أحمد الغزالي، وعبد الخالق عيطه وغيرهم، ممن يعملون في مصنع المحلة، وعبد الحي غالي الذي كان يعمل مدرسا ثم ناظرا في وزارة التربية والتعليم.

كما عرفت عددا من الشباب الواعد الصاعد، الممتلئ بالحيوية والطموح، وعلى رأسهم الأخ محفوظ السيد حلمي، الذي يعمل بشركة المحلة، وقد اشتهر بنشاطه الرياضي، فكان يتولى تدريبنا فجر أيام الجمع والإجازات حتى ننهك. كما اشتهر بطرائفه وملحه، فكنا نوزع الأطعمة في الكتائب والرحلات بالتساوي، فيقول: يا جماعة، الحصة على قدر الجثة! وكان يرفض شرب «الكوكاكولا» ويقول: أنا لا أشرب إلا مصر كولا، يعني: العرقسوس! وكان من هؤلاء الشباب: مقبل أبو رحال، والسيد العزب صوان، وعلى إبراهيم حمزة، وقد استشهد الاثنان السيد وعلي، في مجزرة ليمان طرة.

وكان من هؤلاء الشباب: كمال السامولي، وعبد الرحمن الكموني، وعبد الغني العنتري، وزين العابدين البلاوي، وآل البيطار، ومحمود الفوَطي، وماجد المالكي، ومحمد جحا، وإهاب الصياد، ومجدي السعدي، وعدد آخر، لا يتسع المقام لذكرهم جميعا، وبعضهم لا يحضرني اسمه الآن. وكان الأخ على العوضي يعمل بالبنك، ويشرف على الطلاب، وزارنا في ذلك الحين الأستاذ عمر شاهين، من طلاب القاهرة، لإنعاش العمل الطلابي.

وكـان الأخ الأديب الشاعـر: محـمـد حوطـر قد التزم أن يكتب خطبي كل جمعة بقلمه الرصاص، يعد لها عدة أقلام وكشكولا، ويكتبها بطريقة مختصرة، فهو يكتب أول الآية، وأول الحديث، ويترك بقيته، ثم يأتي آخر النهار فيبيضها، وهو يذكرها، فإذا باتت لم يحسن قراءتها في الغد، ولم يكن التسجيل قد شاع بعد.

وقد قرأت ما كتبه فأعجبني، وشجعني أن نصدره في صورة «ديوان خطب منبرية» أسميه «نفحات الجمعة»، ولكن بعد أن أقرأه وأحسن وأجوّد صياغته، حتى يظهر على وجه أرضاه.

وقد طلب إليّ الإخوان بالمحلة أن أكتب لهم رسالة مبسطة تتضمن «أحاديث نبوية» يحفظونها في الأسر، ويستشهدون بها عند الحاجة، فكتبت رسالة «قطوف دانية من الكتاب والسنة»، رأيت أن أربط فيها الأحاديث النبوية بالآيات القرآنية، فالقرآن هو مصدر الإسلام الأول، والسنة هي المصدر الثاني المبين للقرآن.

كما رأيت أن أرتب هذه النصوص ترتيبا معينا، عن الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، والحكومة المسلمة، وأقسم كل فصل من هذه الفصول إلى عناصر، وقد طبعت هذه الرسالة ونشرت أكثر من مرة.

وقد شجعتني هذه الرسالة أن أمسك بالقلم لأكتب، فقد كان نهجي السابق أن أقتصر على استخدام اللسان، ولا أكاد أستخدم القلم إلا في كتابة عناصر الموضوعات التي أتحدث فيها غالبا، مع أن العرب قالوا: القلم أحد اللسانين، وقال الله تعالى في أول آيات أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾ (العلق: ٤) ومن أوائل ما نزل من القرآن سورة سميت «سورة القلم» بدأها تعالى بقوله: ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾ (القلم: ١) فأقسم الله فيها بالقلم، ولا يقسم الله بشيء إلا لينبه على أهميته.

ومع هذا لم أكتب، ولم ينبهني أحد من الإخوان الكبار على ذلك، أو يدفعني

إليه. وأول ما كتبته في هذه الفترة: كتيب بعنوان «رسالتك أيها المسلم». وكان من حظ هذه الرسالة أن تصادر مع ما أعددته من كتاب «نفحات الجمعة» حين أغلقت دور الإخوان في عهد الثورة، كما سيأتي في الحديث بعد.

كان من الشخصيات الكبيرة التي زارتنا في المحلة:

١ـ الأستاذ أبو الحسن الندوي. وقد أشرت إلى ذلك من قبل، وكان قبل عودة الإخوان بصورة رسمية.

٢ـ الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام، وقد زارنا مرتين: مرة زار فيها مصنع الغزل والنسج بالمحلة، وكنا رفقاءه في هذه الزيارة. ومرة كان معه الأستاذ سيد قطب والأستاذ عبد الحكيم عابدين، وكان بمناسبة الاحتفال بالهجرة النبوية.

٣ـ الأستاذ الدكتور الشيخ مصطفى السباعي المراقب العام للإخوان في سورية، وقد ألقى محاضرة قيمة، احتشد له فيها عدد كبير، وظل نحو الساعتين، والجميع مشدود إليه. فقد كان يأسر العقل والقلب معا، رحمه الله.

معارك القناة مع الاحتلال البريطاني:

وفي هذه الآونة سنة ١٩٥١م ألغت حكومة الوفد معاهدة سنة ١٩٣٦م، وقال مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة كلمته الشهيرة أمام البرلمان: من أجل مصر وقعت معاهدة سنة ١٩٣٦م، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها. وكان إلغاء المعاهدة مع الإنجليز، بداية لمرحلة جديدة من مراحل الجهاد ضد الاحتلال البريطاني الذي طال أمده، وكان لجماعة الإخوان القدْحُ المُعَلَّى في هذا الجهاد، وخصوصا بين شباب الجامعات المصرية، الذين يُعَدُّونَ طلائع العمل الوطني دائما. فقد تنادى شباب الجامعات في مصر بضرورة مقاومة الإنجليز، وإقلاق مضاجعهم، حتى يفقدوا الإحساس بالأمان، ولا يجدوا سبيلا لأمنهم غير الرحيل، والعودة من حيث جاءوا. ولا يجوز لشعب مصر أن يستسلم للاحتلال، ويرى وجوده أمرا عاديا. علينا ألا نرضى به بوصفه جزءا من الواقع، وبهذا يعيش بين ظهرانينا آمنا قرير العين.

تجاوبت هذه الصيحات، وقامت معسكرات التدريب في الجامعات، وكان الإخوان هم قادة هذه المسيرة، وموقدي هذه الشعلة، ومحركي الشعب للتفاعل مع هذا النداء، مستفيدين من جو الحرية، الذي توافر إلى حد كبير في ظل حكومة الوفد.

وقد زاد اشتعال الشعب المصري حين قدم أبناء الجامعة شهداءهم فداء وطنهم، باذلين مهجهم في سبيل الله، وعلى رأسهم عمر شاهين، الذي عرفه الكثيرون شعلة من النشاط، ومثلا حيا في الحركة والبذل والعطاء في سبيل الله، وكذلك الطلاب أحمد المنيسي، وعادل غانم، والأعسر. وكانت جنازة عمر شاهين ووداعه، مسيرة هائلة ورائعة، التقى فيها شباب الجامعة وشباب الأزهر، والتقى الطلاب مع غيرهم، كما التقى الطلاب والأساتذة ومدير الجامعة الدكتور عبد الوهاب مورو باشا، وألقى زعيم طلبة الجامعة حسن دوح كلمة ثورية، ألهبت المشاعر، وحفزت العزائم على مواصلة الجهاد.

وقد أقمنا نحن طلاب الأزهر معسكرا لشباب الأزهر، بجوار الجامع الأزهر هناك، وفي جوار قاعة الإمام محمد عبده وكلية الشريعة، واختار الإخوة الأخ محمد عبد العزيز خالد قائدا للمعسكر، وبجواره الصفطاوي والعسال وعلي عبد الحليم وغيرهم. وقد استحوذ المعسكر على نشاطنا في تلك الآونة، نتدرب فيه على استخدام ما تيسر من الأسلحة، كما نعنى فيه بالتربية الإيمانية، فهي نبع القوة المعنوية، ولهذا كان المعسكر يشتمل - مع التدريب العسكري والرياضي - على دروس توجيهية، تنمي معاني الإيمان والرغبة في الجهاد، وحياة الخشونة والجندية، القائمة على الطاعة واحترام النظام.

وقد عرفت في هذا المعسكر عددا من الإخوة الكرام: منهم الأخ عبد اللطيف زايد، الذي كان من أصفى الشباب نفسا، وأحرصهم على خدمة إخوانه، فهو أول من يعطي، وآخر من يأخذ. وكذلك الأخ محمد الصوابي الديب من كلية الشريعة، الذي استشهد من آثار التعذيب في السجن الحربي، في عهد الثورة.

ومنهم الأخ عبد الرحمن الديب من طلاب معهد القاهرة الديني، وكان من أصلح الشباب وأحسنهم خلقا. ومنهم الأخ طاهر الريس من فلسطين، وغيرهم وغيرهم.

توديع كتيبة الأزهر:

وقد هيأ المعسكر عددا من الشباب الذي أخذ نصيبا كافيا من التدريب، ليسافر إلى الشرقية قريبا من القناة، ليستكمل تدريبه، ويستعد لمهمته في الجهاد، وفق أوامر القادة في الميدان.

ولقد أردنا أن تكون هذه مناسبة طيبة لإبراز مكانة الأزهر ودوره في هذه المرحلة الحساسة من حياة مصر. ودعونا عددا من كبار الشيوخ في الأزهر والدعاة من خارج الأزهر، منهم الشيخ محمد عبد اللطيف دراز، والشيخ محمد عبد الله دراز، والأستاذ عبد الحكيم عابدين من الإخوان، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء بالجزائر وضيف القاهرة. وقدم الأخ أحمد العسال الحفل، وألقى بعض هؤلاء الضيوف كلمات، ثم قدمت لألقي كلمة المعسكر وشباب الأزهر، فارتجلت كلمة قوية، ختمتها بقصيدة نظمتها بهذه المناسبة، وقد ضاعت فيما ضاع، أذكر منها:

دع المداد، وسطر بالدم القاني
وأسكت الفم، واخطب بالفم الثاني

فم المدافع في صدر العداة له
من الفصاحة ما يزري بسحبان

وكان من هذه القصيدة:

يا أزهر الخير قدها اليوم عاصفة
فإنما أنت من نور ونيران

هـذا شـــبــابك لـلمـــيـــدان منطلق

فـهل نرى في الشـيـوخ اليـوم كـاشـاني؟

وكان آية الله كاشاني في تلك الفترة في إيران قد لفت أنظار العالم حين لبس الكفن وقاد المظاهرات، ضد شاه إيران، ولذا جاء في هذه القصيدة أيضا:

مـــتى أرى ألسُن الدنيـــا تحـــدّث عن

«حـمـروش» مـصـر ككاشـانيّ إيران؟

وكان شيخ الأزهر في تلك الفترة هو الشيخ إبراهيم حمروش.

إلى تل بسطة:

وبعد ذلك سافرنا مع الكتيبة إلى منطقة «تل بسطة» بالقرب من الزقازيق، بالشرقية، وهي منطقة صالحة تماما للتدريب. ففيها يمكن أن نتدرب على ما لم نستطع التدريب عليه في معسكر القاهرة القائم بين البيوت والمباني.

هنا تدربنا على استخدام القنابل الشديدة الانفجار، استخداما فعليا، كما تدربنا على «التهديف» وغيره.

وكان من مدربي هذا المعسكر شاب فلسطيني متحمس في كلية الهندسة، اسمه «ياسر». هذا كل ما عرفناه عنه، وهو ياسر عرفات. وقد وقع منه حادث جعلني أشكوه إلى قائد المعسكر الأستاذ المربي محمود عبده. ذلك أنه رفع البندقية في وجه أخ وقع منه خطأ، والرسول الكريم نهانا أن يشير أحدنا بالسلاح إلى أخيه جادا ولا لاعبا. فأحضره الأستاذ محمود، ونبهه على هذا الخطإ الشرعي، فتعهد أن لا يعود لمثله.

وقد زارنا كثير من الرجال في هذه المنطقة أذكر منهم الشيخ عبد الحليم الديب، شيخ معهد القاهرة الديني، وكان أحد شيوخنا بمعهد طنطا، فرآني في صفوف

المتدربين بالملابس العسكرية، فحياني وقال: ربُّ السيف والقلم؟! فقلت له: يافضيلة الشيخ، أين نحن من السيف والقلم؟ فثار عليّ، وقال: التواضع مطلوب، ولكن ليس إلى حد أن تهضموا حق أنفسكم، إن غيركم يعمل عشر ما تعملون، ولكنه يملأ الدنيا صراخا بما يعمل.

اتحاد طلاب كلية أصول الدين:

وقد اجتهدنا ـ نحن طلاب كلية أصول الدين ـ وأنا في السنة الثانية: أن ننشئ اتحادا لطلاب الكلية، رأسه الأخ الشيخ مناع القطان في سنته الأولى بانتخاب من الطلاب. فلما تخرج الشيخ مناع، اختارني الطلبة لرئاسته.

وكانت الفكرة: أن ننشئ في كل كلية اتحادا لطلابها، وكذلك في المعاهد الدينية، ثم ننشئ «اتحادا عاما» لجميع طلاب الأزهر يتحدث باسمهم، ويعبر عن أمانيهم، ولكن الظروف لم تساعدنا، ولا سيما بعد أن قامت ثورة يوليو.

مسابقات في الكلية:

لم تكن الكلية تمنح مكافآت لأوائل الكلية، كما كان الحال في المعهد الابتدائي والثانوي، فلم يكن لديها مثل هذا الوقف. ولكن الكلية عوضتنا عن ذلك بمسابقات علمية تعقدها كل سنة، في كتب علمية تحددها، ويتقدم إليها الطلاب المتفوقون عادة، وتعطي الأول منهم خمسة وعشرين جنيها، والثاني عشرين جنيها، والثالث خمسة عشر جنيها.

وقد دخلت هذه المسابقات التي أتيحت لي ثلاث مرات: مرتين في «تفسير المنار». أولاهما: في «الجزء الخامس» من التفسير والأخرى في «الجزء الثامن» منه. والمرة الثالثة: كانت في «علم المنطق».

والحمد لله، وفقت في المرات الثلاث، وحصلت على الترتيب الأول، وحظيت في كل مرة بخمسة وعشرين جنيها، وكانت يومها تسد مسدا، وتقضي حاجات.

مجالات نشاطي في الإخوان:

كنت أعمل في مجال النشاط الإخواني في المركز العام على مستويات عدة، ومع جملة من أقسام الجماعة.

١ـ فقد كنت أعمل في قسم نشر الدعوة، الذي يبعث بي إلى البلاد المختلفة في أنحاء مصر، وربما في خارجها.

٢ـ وكنت أعمل في قسم «الاتصال بالعالم الإسلامي»، وهو قسم أنشأه الإخوان، ليهتم بقضايا العالم الإسلامي مشرقه ومغربه، ويجمع معلومات عنها، ويتصل بالجهات المؤثرة فيها، وبخاصة الإسلامية منها، ويستقبل الوافدين منها، ولاسيما الطلاب الذين يدرسون في مصر عامة وفي الأزهر خاصة؛ فالمسلمون أمة واحدة، جمعتهم العقيدة الواحدة، والشريعة الواحدة، والقبلة الواحدة، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، ومن لم يهتم لأمر المسلمين فليس منهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، وقد كلفني القسم برئاسة الأستاذ عبد الحفيظ الصيفي، بالإشراف على الطلبة السوريين، ولا سيما بعد زيارتي لسورية، ومعرفتي بعدد منهم.

٣ـ كما كنت أعمل مع قسم الأسر، وهو الذي يعنى بتربية شخصية الأخ المسلم، وتكوينه تكوينا متكاملا في روحه وعقله وبدنه، وهو الذي رشحني للذهاب إلى سورية، حيث كانت لقاءاتي هناك خاصة بالأسر.

٤ـ وكان أهم الأقسام التي تركز فيها نشاطي: قسم الطلاب الذي كان الأستاذ محمد فريد عبد الخالق يرأسه، ثم رأسه الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال، وقد حملني الإخوان مسئولية الدعوة في الأزهر وطلبته، بعد أن تخرج الأخ الشيخ مناع القطان الذي كان مسئول الأزهر قبلي.

وكان يحمل العبء معي عدد من الإخوة الأقوياء الأمناء، من أبناء الأزهر: أحمد العسال، ومحمد الصفطاوي من كلية الشريعة، وصلاح أبو إسماعيل،

وإسماعيل الطحان، والمحروقي من كلية اللغة العربية، وحسن الشافعي، ومحمد المطراوي وعلي عبد الحليم من معهد القاهرة. وكانت لنا كتائب ورحلات إلى المقطم وحلوان، ومخيمات لتربية الإخوان وتدريبهم على الحياة الخشنة والتعاونية، وغرس روح الجماعة فيهم.

وكان نشر الدعوة بين طلاب الأزهر قائما على قدم وساق، حتى أصبحنا في وقت من الأوقات، وكأن الأزهر أصبح بطلابه وشيوخه قلعة إخوانية. حتى شيوخنا كانوا متجاوبين معنا إلى حد كبير.

وكان هذا توفيقا من الله لنا، وكان هو الذي يتفق مع طبيعة الأشياء، فالأصل في الأزهر أن يكون حصنا للإسلام، ومعقلا لدعوة الإسلام، ودعاة الإسلام، وقد تعلمنا في الأزهر أن ما جاء موافقا للأصل لا يسأل عن علته.

مع الأخوات المسلمات:

ومن المجالات التي كنت أشارك فيها: دروس كنت ألقيها للأخوات المسلمات، وكان الأستاذ البنا قد أنشأ قسما للأخوات المسلمات ليكون مكملا وموازيا للإخوان المسلمين، ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١).

وكانت زوجة الأخ الفاضل الأستاذ محمود الجوهري، تشرف على هذا القسم وهو يساعدها، ولكن القسم كان ضعيفا، ولم يرق إلى المستوى المطلوب، باعتبار أن المرأة نصف المجتمع، وأن النساء شقائق الرجال، وإن كان للأخوات دورهن المشكور في أيام «المحن» حيث يوصلن المساعدات إلى أسر المعتقلين الذين لا مورد لهم.

ولم يرق العمل الإسلامي النسوي إلا في عصر الصحوة الإسلامية المعاصرة، حيث انتشرت ظاهرة الالتزام بالزي الشرعي الذي أطلق عليه «الحجاب»، وهو توجه طوعي اختياري من النساء والفتيات المسلمات، لم يجبرهن عليه أحد، وحيث أقبل الكثير منهن على الإسلام علما وعملا وغيرة وحماسة.

ولكن حتى الآن لا توجد زعامات وقيادات نسائية إسلامية، كما عند العلمانيين والماركسيين، إلا الزعامات التاريخية أمثال الحاجة زينب الغزالي حفظها الله، في مصر، والدكتورة سعاد الفاتح في السودان.

وسبب ذلك: أن الرجال هم الذين يقودون العمل النسائي ويحركونه، وكثير منهم لا يسمحون لزوجاتهم بممارسة النشاط الإسلامي المطلوب، إلا قليلا منهم، مثل الأخ الدكتور أحمد عبد الله، وزوجته الداعية المثقفة المتألقة، الدكتورة هبة رءوف عزت، والأخ المهندس سراج، وزوجته الداعية الناشطة المهندسة كاميليا حلمي مديرة فرع المرأة في المجلس العالمي للدعوة والإغاثة.

رواق الشوام:

ومن الإخوة الذين تعرفت عليهم في فترة الدراسة في الكلية: الإخوة الفلسطينيون في «رواق الشوام» بالجامع الأزهر. وقد كان عدد من الأخوة الفلسطينيين على صلة وثيقة بالإخوان، منهم صلاح خلف (أبو إياد) وفتحي البلعاوي وغيرهما.

وقد كان من المباني الأساسية الملحقة بالجامع الأزهر من قديم: أروقة لسكنى الطلاب القادمين من البلدان الإسلامية، مثل رواق المغاربة، ورواق الأتراك، ورواق الأكراد، ورواق الشوام، وغيرهم.

وكثيرا ما تكون هناك أوقاف رصدها أهل الخير من أثرياء المسلمين لسكان هذه الأروقة من طلبة العلم الذين نفروا من أقطارهم لطلب العلم في الأزهر، استجابة لقول الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ (التوبة: ١٢٢).

وكان رواق الشوام لأهل «برّ الشام» كما يقول المصريون، وهو يشمل: سوريا ولبنان وفلسطين والأردن. وكثيرا ما يعبر المصريون عن دكان فلان الشامي، وهو من أهل الخليل.

وكـان الذين يقـودون الرواق ويهـيـمنون عليـه في ذلك الوقت هـم الطلبـة الفلسطينيون، وعلى رأسهم وكيل الرواق الشيخ يس الشريف سفير فلسطين الآن في دولة قطر.

وكثيرا ما كان الشيخ يس وابن عمه الشيخ عزت الشريف (الذي استشهد في أحداث أيلول الأسود الشهيرة، عليه رحمة الله)، وبعض أقربائهم يدعوننا في الرواق على «المقلوبة» وهي أكلة شامية لم يكن يعرفها المصريون، وهي أرز وباذنجان ولحم أو دجاج، ويوضع اللحم عادة في أسفل الوعاء، ثم بعد الطهي، يقلب الوعاء أو (الحلة) فيكون اللحم حينئذ على السطح، وقلت لهم عندئذ: إنها جديرة بأن تسمى «المعدولة» لأنها تطبخ مقلوبة، وتؤكل معدولة. لأن قلب المقلوب تعديل له.

عبد الله العقيل:

وكنت على صلة وثيقة بعدد من طلاب البعوث الذين جاءوا من أوطانهم يدرسون في الأزهر الشريف.

وأبرزهم الطالب النجيب الذي جاء من مدينة «الزبير» في العراق، وكان شعلة متقدة من النشاط والحركة والتقرب من العلماء والدعاة من مصر، أو القادمين عليها. وهو الأخ النابه عبد الله العقيل، الطالب في كلية الشريعة. والذي سكن مع الأخ أحمد العسال فترة من الزمن، وكان له نشاطه المتميز في قسم الطلاب، وقسم الاتصال بالعالم الإسلامي.

وكان وثيق العلاقة بي وبالأخ الدمرداش رحمه الله. ومما أذكره أنه كان في أول أمره يأنف من أكل «الملوخية» ويقول: كيف يأكل المصريون هذه الحشائش التي لا تصلح إلا للمواشي؟! ثم لم تمر فترة طويلة، حتى أصبح من عشّاق الملوخية، ويقول: كيف حرمت نفسي من هذه الأكلة اللذيذة طول تلك المدة؟

وقد صحبني الأخ عبد الله في إحدى الرحلات الدعوية إلى مدن الصعيد، فكان نعم الصاحب والرفيق، وقد قالوا قديما: الرفيق قبل الطريق، والجار قبل الدار.

وقالوا: إنما سمي السفر سفرا، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، وقال سيدنا عمر لمن شهد لرجل بالصلاح: أصاحبته في السفر، الذي يكشف من أخلاق المرء ما لا يكشف في الحضر؟

وقد استمرت الصلة بيني وبين الأخ عبد الله، حتى تخرج وعاد ليعمل في مناصب القضاء في الكويت، ثم نقل ليعمل مديرا للشئون الإسلامية في وزارة الأوقاف بالكويت، فجعل من هذه الإدارة مؤسسة عالمية حية للعلاقات الإسلامية، وكون صلات لا تحصى بالجهات الناشطة والعاملة للدعوة الإسلامية في العالم، وأمدها بالكتب والمساعدات، التي آتت أكلها في حينها بإذن ربها. ثم نقل أمينا مساعدا لرابطة العالم الإسلامي، واستقر بالرياض بعد أن أحيل على التقاعد.

وقد أصدر حديثا كتابا قيما عن «أعلام الحركة الإسلامية» ترجم فيه لعدد من أعلام العلم والدعوة والجهاد، منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا. وأحسب أنه ـ شكر الله سعيه ـ وفاهم حقهم، وعرّف بفضلهم الأجيال الصاعدة، وأسقط فرض كفاية عن علماء الأمة، فكثيرا ما ذهب رجال كان لهم دورهم المشكور في الدعوة والجهاد والتربية والتثقيف، ولم يكتب عنهم أحد، فطمست آثارهم، وجهلت أخبارهم، على حين تمتلئ الساحة بالنّكرات والإمّعات الذين أصبح يشار إليهم بالبنان، وهم لا في العير ولا في النفير.

فجزى الله الأخ عبد الله العقيل خيرا على ما قدم لأمته. وهذا العمل يذكرني بعمل آخر أوسع، قام به أحد الجهابذة من علماء الأزهر الذين جمعوا بين العلم والأدب والتاريخ، وهو العلامة الدكتور محمد رجب البيومي، الذي ترجم للنهضة الإسلامية الحديثة في سير أعلامها المعاصرين، وأصدر منها خمسة مجلدات، فشكر الله له وجزاه خيرا عن العلم والثقافة والدعوة والأمة.

اضطراب الأوضاع السياسية بمصر:

انتهت هذه الفترة التي شهدت تلك الفورة من فورات المقاومة للإنجليز، ولم تحقق هدفها النهائي، وإن أقَضَّت مضاجع الإنجليز، وأفهمتهم أن في مصر شعبا يمكن أن يصنع العجائب إذا تهيأ له المجال وأتيحت له الفرصة.

وقد بدأ الجو السياسي يتوتر في البلاد، وبدأت روائح الفساد الملكي تفوح، وتزكم الأنوف. تنفق الأموال في بذخ وسرف على رحلات الملك ومتعه في أوربا وغيرها، في حين لا تجد بعض المؤسسات ما يقيم أودها، وينفق على الضروريات من مطالبها، وهذا ما جعل شيخ الأزهر العلامة الجليل الشيخ عبد المجيد سليم يقول لممثلي الحكومة، حين رفضوا بعض ما يطلبه الأزهر لموازنته، كلمته الشهيرة التي كان لها دوي هائل: تقتير هنا، وإسراف هناك!

وهذه الكلمة الموجزة القوية هزت قوائم عرش الملك، ولم يجد لها جوابا إلا أن يعفى الشيخ من منصبه، فأوحي إليه بالاستقالة، فقدمها وقبلت.

وكانت تصدر من الشيخ بعض كلمات تحمل نقدا للأوضاع المنحرفة في البلد، فذهب إليه بعض المقربين من القصر، وقال له: إن هذه الكلمات خطر على الشيخ! فقال له: أهذا الخطر يمنعني أن أتردد بين بيتي ومسجدي؟ قال: لا. قال: إذن لا خطر.

واجترأ الطلاب في مظاهراتهم على الهتاف ضد القصر، وكان هتاف إحدى المظاهرات: يسقط عفيفي، وحافظ عفيفي! يقصدون بـ«عفيفي» حافظ باشا عفيفي، رئيس الديوان الملكي، أما حافظ عفيفي، فهي تورية يقصدون بها: حاميه، وهو الملك.

كما اجترأت الصحف على التوسع في النقد. ومن ذلك ما نشرته جريدة «الاشتراكية» التي كان يصدرها الزعيم أحمد حسين مؤسس مصر الفتاة، وزعيم الحزب الاشتراكي، من الصور المعبرة عن بؤس الشعب المصري، مرضه وجوعه وعريه وضياعه، وتحتها عنوان كبير يقول:

رعاياك يا مولاي!

وأهم حدث وقع في هذه الفترة هو حريق القاهرة، الذي قضى على عدد من المباني والفنادق الكبرى، في يناير سنة ١٩٥٢م. ولم نعرف في ذلك الوقت من الذي دبر هذا الحدث الخطير، وذكر بعد ذلك أن هذا كان من تدبير جمال عبد الناصر، لتمهيد المناخ للقيام بانقلابه المنشود.

أقيلت وزارة الوفد بعد حريق القاهرة، وشكلت وزارات عدة في الأشهر الستة بين حريق القاهرة، وقيام ثورة يونيو.

حركة الضباط الأحرار:

وكان الضباط الأحرار في الجيش المصري بقيادة جمال عبد الناصر، قد استفادوا من سوء الأوضاع في الحياة السياسية المصرية، ومن رصيد الكراهية للملك في نفوس الشعب، ومن الوعي العام الذي أحدثه الإخوان بالدرجة الأولى، ومعهم الحزب الاشتراكي وغيره من أحزاب المعارضة، وبدءوا يرتبون أنفسهم، ويعدون العدة ليوم مشهود، يعلنون فيه انقلابهم على الملك.

ولقد اعترف عبد الناصر بأن أول من لفت نظره إلى التفكير في عمل وطني داخل الجيش كان هو الصاغ (م. ل)، وقال عنه: الصاغ ذو الوجه الأحمر. ذكر ذلك الصحفي المعروف حلمي سلام رئيس تحرير مجلة المصور الأسبوعية في مقالاته التي نشرها في أوائل عهد الثورة، وسماها: الثورة من المهد إلى المجد.

والصاغ م. ل. هو الصاغ محمود لبيب الذي كان وكيلا لجماعة الإخوان في المدة الأخيرة من عهد حسن البنا، الذي كان حريصا على إبراز هذا الوجه العسكري الوطني، وصاحب التاريخ الجهادي المشرف، في هذا الوقت خاصة، للدلالة على أهمية الجهاد المسلح في مقاومة الاحتلال البريطاني، والمشروع الصهيوني.

وقد ظهرت قوة الضباط الأحرار عندما نجح مرشحهم لرئاسة نادي الضباط اللواء محمد نجيب، وسقط مرشح الحكومة.

قيام ثورة ٢٣ يوليو:

وكان كل شيء يبشر بأن تغييرا لا بد أن يقع، فكان التغيير هو قيام «ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م» التي سميت أول الأمر «حركة الجيش المباركة»، ثم أطلق عليها «الانقلاب» ثم استقرت على اسم «الثورة».

لقد استبشر الشعب بانقلاب هؤلاء الضباط الذين قالوا عنهم «حَمَلَة المصاحف»، كما قالوا عنهم: إنهم من تلاميذ الشيخ محمد الأودن، كما قيل: إن منهم عددا من الإخوان.

وقد طلب منا نحن الإخوان أن نحرس المنشآت الأجنبية، من احتمال تحرك أي أيد مخربة، تحاول أن تصطاد في الماء العكر، والوضع حساس لا يحتمل وقوع أي حادث يكدر صفو الأمن، ويظهر وجود معارضة للانقلاب.

كان رجال الجيش يَعُدُّون الإخوان هم سندهم الشعبي، فلا غرو أن اعتمدوا عليهم في حراسة المنشآت ومراقبة أي تحرك مريب.

ولكن من الأيام الأولى بدأ لون من الحساسية يظهر عند رجال الانقلاب، حتى صدر بيان يعلن أن حركة الجيش حرة مستقلة عن الجماعات والأحزاب، وليس لأي منها وصاية عليها. وكان البيان يعني الإخوان خاصة.

ويبدو أن الأستاذ الهضيبي منذ أول لقاء معهم، لم يسترح لهم، كما لم يستريحوا له. وهذا الشعور بعدم الارتياح المتبادل من الطرفين، كان له أثره فيما بعد.

وحين كان عبد الناصر يزور بعض المناطق كان الإخوان يستقبلونه على طريقتهم بالتهليل والتكبير، وخصوصا أن الكثيرين من عوام الإخوان كانوا يحسبون أن حركة الجيش حركة إخوانية، أو على الأقل موالية ومساندة للإخوان. وقد سمعت بأذني في مدينة الحوامدية، حين كبر الإخوان وعبد الناصر يتكلم، ما قاله وهو

غاضب ثائر: إلى متى تظلون كالببغاوات، تهتفون وتصرخون ولا تدرون ما تقولون؟!

اللواء محمد نجيب:

كان معظم الضباط الأحرار من ذوي الرتب الصغيرة، أكبرها رتبة «بكباشي» وهي رتبة مقدم الآن، وكانوا في حاجة إلى «ضابط كبير» يعلنون الانقلاب باسمه، واختاروا لذلك اللواء محمد نجيب، الذي رشح قبل ذلك لرئاسة نادي الضباط، وفاز بأغلبية ساحقة.

وحين أعلن الجيش بيانه الأول عن حركته الانقلابية بصوت البكباشي أنور السادات، أعلن باسم قائد الانقلاب اللواء محمد نجيب.

وكان محمد نجيب رجلا شعبيا بفطرته، قريبا من قلوب الناس، سهلا في تعامله، بسيطا في خطابه. فبدأ يلتقي جماهير الشعب، ويحثهم على الاتحاد والنظام والعمل، والناس يتجاوبون معه، ويلتفون حوله، وهذا ما ضايق «البكباشي» جمال عبد الناصر، منشئ تنظيم الضباط الأحرار، والمدبر الحقيقي لحركة الجيش، والذي حجبته الظروف من أن يظهر في الواجهة من أول يوم.

ولكن الواقع أن محمد نجيب هو الذي تحمل المسئولية، وعرض نفسه لحبل المشنقة، لو أخفقت حركة الجيش لأي سبب من الأسباب.

ولهذا بدأت الثورة من أول يوم وهي محملة بهذه المشكلة الداخلية، وهي ازدواج المسئولية بين الرئيس العلني والرئيس السري، وكلما ازدادت شعبية محمد نجيب ومكانته بين الناس، تعقدت المشكلة أكثر، وخصوصا بعد أن أصبح محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر، بعد التخلص من النظام الملكي، ومن الوصاية على العرش، وأعلنت مصر جمهورية مستقلة.

على أي حال كان لا بد لهذا الصراع الداخلي المستور أن يظهر على السطح يوما، بل كان لا بد أن ينفجر إذا بلغ مدى معينا لا بد أن يصله، وقد حدث هذا في سنة ١٩٥٤م، كما هو معروف، وسنشير إليه في حينه.

رشاد مهنا:

وكان من رجال الثورة أو الانقلاب: الضابط رشاد مهنا، الذي كان له تنظيم محدود خاص في الجيش، فضمه عبد الناصر إلى تنظيم الضباط الأحرار، وأمسى جزءا منهم. وحين قام الجيش بانقلابه، وطرد الملك في ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢م، وعين ابنه الصغير أحمد فؤاد ملكا على مصر، عين مجلس الثورة: رشاد مهنا وصيًا على العرش، ومعه اثنان آخران.

وحين أعلنت الثورة دستورا مؤقتا لمصر، وألغي الدستور القديم، حذف من الدستور مادة: الإسلام دين الدولة الرسمي، فاعترض على ذلك رشاد مهنا ومعه عدد من الضباط الموالين له، فعقدت لهم محكمة للثورة برئاسة جمال عبد الناصر، حوكموا أمامها، بتهمة العمل ضد الثورة، وحكم عليهم بالسجن لسنوات متفاوتة.

أول رحلة إلى بلاد الشام:

في أوائل شهر أغسطس سنة ١٩٥٢م، أي بعد حوالي مضي أسبوعين على قيام ثورة ٢٣ من يوليو جاءني أمر من الأستاذ الهضيبي المرشد العام أن أتهيأ لرحلة إلى بلاد الشام: لبنان وسوريا والأردن، أنا والأخ الفاضل الأستاذ محمد علي سليم من إخوان الشرقية، توثيقا للصلة بالإخوة هناك، وتعميقا للتربية عندهم.

وكانت هذه أول رحلة لي خارج مصر، وقد رحبت بها كل الترحيب. فالسفر نصف العلم، وفي أمثالنا: قالوا: الذي يعيش يرى كثيرا، قيل: لكن الذي يسافر يرى أكثر، وقد حفظنا من شعر الإمام الشافعي:

مـــا في المقـــام لـذي عـــقـل وذي أدب

من راحـــة ، فـــدع الأوطان واغـــتـــرب

إني رأيت وقـوف الماء يفـــســـــده

إن ســـال طاب ، وإن لـم يجـــر لـم يطب

والتـــبـــر كـــالتـــراب ملقى في أمـــاكنه

والعـــــود في أرضـــه نوع من الحطب

فـإن تغـــــرّب هـذا عـز مطلبـــــه

وإن تغـرّب ذاك اعـــتـــزّ كـالذهب

لهذا استبشرت بهذه الرحلة لأرى فيها الدنيا والناس ، وأتعلم من مدرسة الحياة لا من الكتب وحدها . وفيها كانت لي هناك أوليات شتى : فهي أول مرة أستخرج فيها جواز سفر ، وأول مرة أركب فيها الباخرة إلى خارج مصر ، فقد ركبت الباخرة «عايدة» إلى الطور ، وأول مرة أركب فيها الطائرة عائدا إلى مصر من عمَّان ، وأول مرة ألبس فيها قميصا وبنطلونا ، وأول مرة : أضطر للتعامل مع إخواني باسم غير اسمي ، وأول مرة أحمل فيها نقدا غير العملة المصرية ، وأتعامل به . . . إلى آخره .

كانت الثورة في أيامها الأولى ، ولم يكن يسمح لأحد بالسفر إلا بتصريح من رجال الثورة ، ولا بد أن يكون التصريح مسببا . ولكن كانت العلاقة حسنة بين رجال الثورة والإخوان ، فاستطاع الأستاذ منير دلّة عضو مكتب الإرشاد أن يستخرج لي تصريحا بالسفر ، مندوبا لشركة أدوات كهربائية يملكها أحد الإخوان .

وكان علينا أن نسافر بأرخص الوسائل حتى لا نكلف الجماعة الكثير ، فكانت الباخرة هي الأرخص ، وعلينا أن نختار أرخص الدرجات في الباخرة ، وهي ما يسمونه «أون دك» أي على السطح ، وكان الأخ سليم هو الذي يتولى الصرف .

ووصلنا إلى الإسكندرية، وألقيت محاضرة بدار الإخوان هناك، وبتُّ عند صديقي السيد الغضبان، ابن محلة أبو علي، ومندوب طلبة الإخوان في جامعة الإسكندرية، لنسافر من الغد إلى بيروت.

وركبنا الباخرة «سيبيريا» على ما أذكر، وأخذنا موقعنا على سطحها، وقلنا: بسم الله مجراها ومرساها. وكان السطح جميلا جدا، وخصوصا بالليل، تطالعنا نجوم السماء، التي جعلها الله زينة ومصابيح للسماء، وزينها للناظرين، وكان البحر الأبيض في غاية الروعة والجمال والجلال، والباخرة الكبيرة تشق عبابه في قوة وانسياب، وأتذكر قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢)﴾ (الشورى: ٣٢).

وفي اليوم التالي، وصلنا إلى بيروت، وهي مدينة هادئة جميلة، ومعظم شوارعها لا تتسم بالسعة، ولم يكن فيها في ذلك الوقت أي ازدحام في الشوارع أو في المواصلات، بل الحياة رخية ندية كنسيم البحر الذي يهب عليها. ولم يكن للإخوان وجود رسمي بها، ولكن كانت هناك جماعة «عباد الرحمن» التي أسسها الداعية والمربي الفاضل الأستاذ محمد عمر الداعوق، فتعرفنا على من لقيناه منهم، ولا أذكرهم الآن، ولم يكن الأستاذ الداعوق حاضرا ببيروت.

وكان في بيروت الأستاذ الفضيل الورتلاني أحد مشاهير علماء الجزائر الذين نفتهم فرنسا من الجزائر، لخطورتهم ونشاطهم، وقد بقي في القاهرة مدة من الزمن، وكان على صلة وثيقة مع الأستاذ البنا، وقد كلفه الأستاذ البنا بملف «اليمن» والاتصال بأحرارها ورجال الإصلاح فيها. وكان له دور معروف غير منكور في انقلاب اليمن على الإمام يحيى حميد الدين، وقد فشل الانقلاب الذي قام به ابن الوزير، وسيف الإسلام إبراهيم ابن الإمام يحيى، بعد أن نجح أول الأمر، ولكنه لم يستقر، لأسباب كثيرة. وقد فر الأستاذ الورتلاني من اليمن، وحاول أن يجد بلدا يؤويه، فلم يجد، وظل على ظهر الباخرة شهرين، حتى استطاع بوسيلة أو أخرى أن ينزل إلى بيروت، ويعرف بين الناس باسم «أبو مصطفى». وكانت فرصة طيبة

لي أن التقيت به وتحدثت طويلا إليه، واستمعت إلى أفكاره في الإصلاح، واقترحت عليه أن ينزل إلى مصر، بعد تغير الوضع وزوال الملكية، ووافق على ذلك، على أن ينزل في صورة تليق بمكانته وتاريخه.

بقينا في بيروت نحو ثلاثة أيام، ثم عزمنا متوكلين على الله أن نتوجه إلى دمشق عن طريق البر طبعا. وكان الأخ محمد سليم قد اقترح علي أن أغير زيي الأزهري، لأنه يلفت النظر في سوريا، في حين أننا نريد أن نقضي أيامنا في ربوعها بلا ضجيج ولا إعلان.

ولهذا اشتريت قميصا وبنطلونا، وخلعت الكاكولة والعمامة، ولبستهما لأول مرة، وكان هو الأليق بالحال في سورية؛ فقد دخلت سورية عصر الانقلابات العسكرية من حسني الزعيم إلى الحناوي إلى أديب الشيشكلي، الذي يحكم سوريا حاليا، وقد كانت قبضة الحكم العسكري قوية، ورجال المكتب الثاني يسيطرون على أزِمَّة الأمور.

لهذا لم يكن من الحكمة أن أتحرك بالزي الأزهري الذي يجعل الأصابع تشير إليّ حيثما ذهبت. بل اقترح علي الإخوة المسئولون في دمشق، ومنهم الأخ كاظم نصري، والأخ «علي الحسن» المسئول عن الأسر، أن أختار اسما آخر أتعامل به مع الإخوان، فاخترت اسم «عبد الله المصري» حتى لا يكون فيه كذب، فأنا عبد الله، ومصري.

وعرفني عامة الإخوان السوريين بهذا الاسم، إلا أخوين أو ثلاثة، ورتب لي الأخ على الحسن لقاءات مع عدد من الأسر، ألتقي بهم في سرية وتكتم حتى لا نكشف أمام جهات الأمن المفتحة الأعين.

كما هيئ لنا معسكر في بعض القرى الجبلية القريبة من دمشق، كنت أقوم فيه بالتربية الإيمانية والفكرية، ويقوم بالتدريب الأخ عبد العزيز علي، الذي لحق بنا هناك.

وفي ليلة من الليالي كنت في بيت أحد الإخوان الدمشقيين، ألقي عليهم درسا، ومع حرصي على خفض صوتي، إلا أن طبيعتي غلبتني، وارتفع صوتي دون أن أشعر، وهو صوت مصري اللهجة! وسرعان ما سمع الإخوة طَرْقًا على الباب، فقالوا: المكتب الثاني! وهنا أدخلوني إلى مكان الحريم في الداخل، وفتح الباب، وإذا هو أحد رجال الأمن، اقتحم عليهم الباب، ودخل الحجرة التي فيها الإخوان، فقال: هل عندكم ضيف؟ فقالوا: ليس عندنا أحد، ولكنا نجلس لتلاوة القرآن، ويحدثنا أحدنا في تفسير بعض الآيات! ولم يجترئ الرجل على أن يفتش حجرات الحريم، ومرت الليلة بسلام.

إلى مدينة حمص:

ورأى الإخوان أن الجو في دمشق غير مساعد، وأن أعين الأجهزة الأمنية متيقظة، ولذا ينبغي أن نشد الرحال إلى «حمص»، فهي أخف وأهدأ، وليس فيها من ترصد الأجهزة ما في دمشق. وفعلا سافرت أنا والأخ محمد سليم إلى حمص، وهي مسقط رأس الداعية الكبير الشيخ الدكتور مصطفى السباعي، المراقب العام للإخوان في سورية، والذي اضطره الحكم العسكري إلى أن يغادر سوريا إلى لبنان، فلا يمكن لمثله المقام تحت وطأة هذا الحكم، إلا أن يكون داخل السجن، ولذا لم أسعد بلقاء الشيخ الجليل في أثناء وجودي بسورية. ولم يكن هناك إمكان للعمل العلني، فلم يبق إلا عمل الأسر السري، وهكذا تضطر الأنظمة الدكتاتورية الإخوان ـ وغيرهم ـ إلى العمل تحت الأرض، بدل العمل تحت سمع القانون وبصره.

وقد استضافني أخ كريم في بيته، وهو نور الدين شمسي باشا، وكان يعمل بالتعليم على ما أذكر، وكنت ألتقي الإخوان يوميا في إحدى المزارع أو الحدائق القريبة، نلتقي على صلاة الفجر، ثم نجلس جلسة روحية، ألقي عليهم فيها بعض المعاني والخواطر الربانية، ونتذاكر بعض المسائل الشرعية، والقضايا العامة، ثم

نقوم إلى التدريبات الرياضية، ونتناول الفطور، ثم ننصرف، وأحيانا نلتقي لقاءات خاصة في بعض البيوت.

وكان على رأس الإخوان في حمص الأستاذ عبد المجيد الطرابلسي، مدير المعهد العربي الإسلامي في حمص، والذي كان يتوقد حماسة ونشاطا في ذلك الوقت. ثم تغير حاله بعد ذلك في عهد الوحدة مع مصر، وانضم إلى الناصريين، ثم والى الحكومة، وعين وزيرا للأوقاف في سورية، واستمر في الوزارة عدة سنوات! والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم يا مقلب القلوب والأبصار، ثبت قلبي على دينك.

بقيت في حمص نحو عشرة أيام مليئة بالحيوية والنشاط في إطار السرية المفروضة على العمل الإسلامي، وكان يقيم في حمص أخونا محمد نجيب جويفل رجل النظام الخاص، وهو صديق رفيقي محمد علي سليم، وكلاهما شرقاوي، ولكنه لم يكن موجودا بحمص ولا بسورية فترة بقائي بها، فلم يتح لي أن ألقاه.

وقد اختلف الإخوة السوريون في دور جويفل في إخوان سورية، وبعضهم يحمله تبعة ما حدث من انقسام هناك، وليس عندي علم بتفاصيل ذلك. وقد أفضى إلى ما قدم، سامحه الله وجزاه بنيته. ولقد نزل مصر بعد ذلك، وكان من الرجال الذين تعاونوا مع الثورة ومخابراتها.

وفي حمص ودعت رفيقي الأخ محمد علي سليم، لأنطلق في زيارة سريعة إلى مدينة حماة.

إلى مدينة حماة:

ومن حمص انتقلت إلى مدينة «حماة» لألتقي بالشيخ عبد الله الحلاق المسئول عن الإخوان بها، والتقيت عدداً من الشباب بها في عدة جلسات. ومن أهم ذكرياتي بحماة: أن زارني في مقري، عالم حماة وخطيبها ومرشدها العلامة الشيخ

محمد الحامد، الذي أبى إلا أن يحمل لي معه الحلوى الحموية الشهيرة (الشعيبيات). وقد احتفى بي الشيخ الجليل، وسألني عن أحوال الإخوان، وعن عدد من أصدقائه منهم. وأول من سألني عنه هو صديقه الشيخ عبد المعز عبد الستار، فقد كانت بينهما أيام دراسته في بمصر مودة عميقة، ورابطة وثيقة.

ولحقنا ـ ونحن في حماة ـ الأخ أحمد عادل كمال، قادما من القاهرة، وهو من الإخوان المسئولين بالنظام الخاص، ولا أدري هل قدم بأمر من الأستاذ الهضيبي المرشد العام أو جاء بترتيب من النظام الخاص؟

على أي حال، لم يطل بنا المقام في حماة، إنما بقينا بها ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع ودعتها عائدا إلى دمشق، لأولي وجهي شطر عمَّان، استكمالا للرحلة المقررة.

إلى الحدود السورية:

بعد عودتي إلى دمشق، كان لا بد من ترتيب السفر إلى الأردن، وودَّعني الإخوة في دمشق الأخ كاظم نصري وإخوانه، وودعتهم متجها إلى الأردن. وعندما وصلنا الحدود السورية فاجأتني مشكلة لم أتوقعها، فقد نظروا في جوازي، وقالوا لي: يا أستاذ، ليس في جوازك تأشيرة إقامة، ولا يمكنك الخروج حتى تحصل عليها! قلت: والله لا علم لي بذلك، ولم يخبرني الناس الذين كنت ضيفا عليهم بذلك، وعلى كل حال أنا الآن مغادر، ولا حاجة لي إلى تأشيرة الإقامة. قالوا: ياأستاذ هذا قانون، ولا بد من التأشيرة من دمشق، قلت: أمري إلى الله، لا بد من الرجوع إلى دمشق بعد قطع هذه المسافة الطويلة، ومن أين لي أن أجد مواصلة؛ ونحن في المساء؟ ولكن الله يسر ذلك، إذ وجدت رجلا تبدو عليه مخايل الصلاح، يركب سيارة خاصة، فشرحت له ظروفي، وضرورة عودتي إلى دمشق، فرحب بي، وأركبني معه لوجه الله.

وعدت إلى دمشق معاتبا الإخوة الذين لم يتنبهوا لأخذ تأشيرة إقامة لي،

وبخاصة أن هذه أول مرة أسافر فيها ولا علم لي بإجراءات التأشيرات وما شابهها. فاعتذر الإخوة لي عن هذا الخطإ الذي يحملون تبعته بلا شك. وفي الصباح سارعوا بالحصول على التأشيرة، وسافرت مرة أخرى إلى الحدود، مستوفيا الشروط، وبالفعل منحوني تأشيرة الخروج من سورية.

إلى الحدود الأردنية:

وخرجت من الحدود السورية، لأصل إلى الحدود الأردنية، وهناك فاجأتني مشكلة أخرى جديدة لم أحسب لها حسابا. فقد نظر المسئول في جواز سفري، ثم وجه الخطاب إلي، وكنت قد خلعت القميص والبنطلون، ولبست العمامة والكاكولة، فقال لي: يا شيخ يوسف، جوازك ليس فيه تأشيرة دخول.

قلت: نعم، فأنتم ليس لكم سفارة في دمشق، (كانت العلاقة مقطوعة بين البلدين).

قال: كان عليك أن تحصل على التأشيرة من القاهرة قبل أن تغادرها.

قلت: ربما لم يكن عندي نية لزيارة الأردن في أول الأمر، ثم وجدت نفسي على مقربة من القدس، وأريد أن أصلي في المسجد الأقصى الذي تشد إليه الرحال، هل تمنعني من ذلك؟

قال: يا أستاذ، أنت رجل جامعي، ورجل مثقف، وتعلم أنه لا يجوز لأحد دخول بلد أجنبي إلا بتأشيرة.

قلت له: إن الثقافة التي يعلمونها لنا في الأزهر، لا تَعُدُّ الأردن بالنسبة لي بلدا أجنبيا. إنهم يعلموننا أن المسلمين أمة واحدة، وأن بلاد المسلمين وطن واحد اسمه (دار الإسلام) وأن ابن بطو[illegible]ج من طنجة من المغرب وجال في البلاد الإسلامية شرقا وغربا، ولم يوقفه أ[illegible]: أمعك تأشيرة أم لا؟..

وضحك الرجل، واتصل بأحد كبار المسئولين في الداخلية، أظنه وكيل

الوزارة، وقال له: عندي طالب مصري أزهري لا يحمل معه تأشيرة دخول، وهو يجادلنا، ويقول: كيف تمنعوني من الصلاة في الأقصى؟ ويبدو أن هذا المسئول كان رجلا سمحا، فقال له: أعطه تأشيرة.

وأخيرا وصلت إلى «عمّان» واستقبلني الإخوة بها استقبالا طيبا، وحكيت لهم ما وقع لي على الحدود، وحمدوا الله أن ذلل لي العقبات. وكان الإخوان في عمان دعوة علنية لها دورها وشعبها ووضعها القانوني، وكان على رأسهم الحاج عبد اللطيف أبو قورة المراقب العام للإخوان الذي دعاني على وليمة في منزله، ودعا إليها عددا من الإخوان والوجهاء. وكان هو أول مراقب للإخوان في الأردن، ولكن الذي كان يشرف على العمل وينظمه حقيقة الأخ ممدوح كركر، ومعه مجموعة من الإخوة في عمان: ممدوح السرايرة، ومنصور الحياري، ووليد الحاج حسن، وأبو حكمت وغيرهم.

وكانت «عمان» بلدة محدودة جدا، أشبه بقرية كبيرة، وبيوتها متواضعة، وسكانها قليلون، والحركة فيها خفيفة، والنشاط فيها محدود.

وقد رتب لي الإخوة عددا من المحاضرات في عمان، وفي عدد من مدن المملكة الأردنية في الضفة الشرقية، مثل الصلت، وقد حضر هذه المحاضرة بعض الشباب الذين أصبحوا قادة بعد ذلك، مثل: د. إسحاق الفرحان، وغيره. وكذلك ألقيت محاضرة في مدينة إربد، التي أقيمت المحاضرة فيها في إحدى دور السينما، وحضرها جمهور غفير، وكان من الحضور الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة الذي كان نائبا للأحكام، من الوظائف القضائية في الدولة، وقال لي الأخ الذي عرفني به فيما بيني وبينه: إنه من الإخوان المهمين، الذين يرجى أن يكون لهم شأن.

كما لقيت عددا من الشخصيات في عمّان منهم الأستاذ أمين بروسك الزعيم الكردي.

وأذكر من الرجال الذين لقيتهم ممن ينسب إلى حزب التحرير: الشيخ عبد العزيز الخياط، وقد عاد من القاهرة، وكنت أقرأ له مقالات في «مجلة الإخوان» عن العالم الإسلامي، وإن لم يفصح لي بأنه ينتمي إلى التحرير.

معسكرات للتدريب:

وكان من النشاط الذي شاركت فيه في هذه الفترة: معسكر أقيم للتربية والتدريب في أحد الجبال الغربية من عمان، واشترك فيه عدد من الإخوة من مناطق مختلفة من أنحاء الأردن. وكان الأخ أبو أسامة عبد العزيز علي، المدرب العريق في دعوة الإخوان، والذي تخرج على يديه أجيال، وشارك في معارك شتى من معارك الجهاد، هو الذي يقوم بالتدريب الرياضي العنيف الذي يربي الشباب على الخشونة والتحمل والمخاطرة. وقد كنت تركته في سورية، ثم لحق بي إلى الأردن.

وكنت أقوم بالتوجيه الروحي والثقافي في المعسكر، وأشارك الشباب في تدريباتهم الرياضية.

وبقينا أياما طيبة في ظل هذا المعسكر، ثم انتهى، وعاد الإخوان إلى مدنهم ومناطقهم، حاملين ذكريات طيبة، وربما بعض إصابات في أبدانهم تذكرهم بأبي أسامة ومخاطراته. وأذكر ممن كان معنا في هذا المخيم الأخ عبد الله خليل شبيب الأديب والكاتب الذي ذهب بعد ذلك إلى الكويت، وبقي بها سنوات طويلة.

ثم عدت إلى عمان، لترتيب زيارات إلى مدن الضفة الغربية، ولقاء الإخوان بها خاصة، والمسلمين عامة.

إلى مدينة الخليل:

ومن عمّان سافرت إلى «الخليل» المدينة التاريخية التي تحتوي قبر إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد سميت باسمه. وقد قال علماؤنا: إنه لا يعرف قبر نبي على

التحقيق، إلا قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقبر الخليل إبراهيم، فهو في المدينة المسماة باسمه يقينا، وإن كان موضع قبره غير مستيقن، ولكن توارثه الناس. وقد كان رفيقي في زيارة الخليل أحد أبنائها من زملائنا في الأزهر، وهو الأخ حامد التميمي.

والخليل مدينة تستريح إليها النفس، وتشعر فيها بالعبق الإسلامي أينما ذهبت، وقد تعرفت فيها على عدد من الإخوة الكرام على رأسهم أسرة عبد النبي النتشة، الحاج عيسى عبد النبي، والدكتور حافظ، والحاج عبد الغني وابنه الحاج صالح، وقد نزلت ضيفا عليهم، ووسعني كرمهم وحسن ضيافتهم، وزرت مصنعهم لتعليب المنتجات الزراعية.

وهناك الشيخ شكري أبو رجب، والدكتور الزير، والأخ فوزي النتشة الشاعر، الذي زادت صلتي به بعد ذلك، بعد مجيئه إلى قطر مُعَلِّما بها، والأخ القارئ المتقن محمد رشاد الشريف الشهير بـ «أبو رفعت» وغيرهم.

وقد بقيت عدة أيام في الخليل كانت من أكثر الأيام فائدة وبركة، وقد ألقيت أكثر من محاضرة بها. وكان أهم ما وقع لي هو النقاش الحاد مع جماعة «حزب التحرير» وقد كان في بداية نشأته، وفي نشاط وتحرك مستمر، وكان الإخوان في حالة ضعف وخمول. وكان التحريريون في الخليل نشيطين جدا، وكان لهم جملة أفكار جديدة شغلوا بها الإخوان، وكانوا مدربين على الجدل فيها، ولم يكن لدى الإخوان دربة على الجدل في مثلها.

ولقد لقيت عددا من التحريريين، وجادلتهم في هذه القضايا، مثل قولهم: إن الدعوة التي لا تنتصر بعد ثلاثة وعشرين عاما ـ وبعضهم يقول: ثلاثة عشرة عاما ـ لا بد أن تكون على خطإ، وعليها أن تغير طريقها.

قلت لهم: ما دليلكم على دعواكم؟

قالوا: السيرة النبوية.

قلت: ليس في السيرة دليل على أن هذا أمر لازم، فقد يتحقق الهدف بعد زمن أقل أو أكثر، وفقا للظروف والإمكانات، ووجود العوائق أو عدمها.

ثم قلت لهم: ما قولكم في سيدنا نوح؟

قالوا: رسول من أولي العزم من الرسل.

قلت لهم: كم بقي يبلغ دعوته؟

قالوا: ألف سنة إلا خمسين عاما.

قلت: هل حقق هدفه من دعوته؟ فسكتوا.

قلت لهم: أنا أجيبكم من القرآن نفسه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ (نوح: ٥-٧).

وقال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ (هود: ٤٠).

حتى إن امرأة نوح لم تؤمن به، وحتى ابنه من صلبه لم يؤمن به، كما صرح بذلك القرآن. هل كان نوح مخطئا في طريقته؟ هل قصر في تبليغ دعوته؟ كلا. إنه دعا وبلغ وأدى ما عليه، وهو إنما عليه الدعوة، وعلى الله الهداية، عليه البلاغ، وعلى الله الحساب، عليه أن يبذر الحب، ويرجو الثمر من الرب، وهذا هو عمل الداعية.

وهنا صمت التحريريون، ولم يجدوا جوابا.

وقضية أخرى أثاروها ضد الإخوان، وهي أنهم يشغلون أنفسهم بأعمال هي من صميم أعمال الدولة الإسلامية، مثل الأعمال الخيرية والاجتماعية، من مثل إنشاء المستوصفات والمستشفيات، ودور الأيتام، وأقسام البر والخدمة الإجتماعية، وهذا

تخدير للناس عن المطالبة بإقامة الدولة وتنصيب الخليفة، وشغل للناس بالعمل الخيري عن الدعوة ونشرها.

وكان جوابي عن هذه النقطة يتمثل في عدة أمور:

أولا: أن فعل الخير واجب من واجبات المسلم، وشعبة من شعب وظيفته، فهو مأمور بفعل الخير، كما أنه مأمور بالعبادة والجهاد، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (الحج: ٧٧، ٧٨).

ثانيا: أن الفقهاء قد أجمعوا على أن إزالة الضرر عن المسلم، من جوع وعري ومرض وغير ذلك؛ فرض كفاية على الأمة المسلمة، فإذا أهملت الأمة كلها هذه الفريضة الكفائية أثمت جميعا، وفي الحديث: «أطعموا الجائع، وفكوا العاني»[1]. وفي الحديث الآخر: «ليس منا من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع»[2].

ثالثا: أن نشر الدعوة ليس بالكلام وحده، ولا بمجرد تأليف الكتب والرسائل؛ بل يدخل في ذلك الوسائل العملية، التي تحبب الإسلام ودعاته إلى الناس، وهذا ما يستعمله دعاة التنصير، من بناء المستشفيات والمدارس ودور الأيتام والأندية وغيرها، مما يتخذونه وسيلة لكسب قلوب الناس، وضمهم إلى عقيدتهم بعد ذلك.

رابعا: أن للدعوة أهدافا بعيدة مثل إقامة الدولة الإسلامية، وأهدافا قريبة مثل الإسهام الجزئي في إصلاح المجتمع، وهذه الأهداف لا تتعارض. مثل من يزرع النخيل والزيتون، فهو لا يثمر إلا بعد سنوات، ولكن الزارع الموفَّق هو الذي

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤٦) عن أبي موسى.

(٢) رواه الحاكم (٤/ ١٦٧) وصححه ووافقه الذهبي عن عائشة. وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير».

يستفيد من الأرض الفضاء بين الأشجار والنخيل بعضها وبعض، ليزرعها ببعض الخضراوات السريعة النمو والنافعة، فيستفيد من أرضه، ويستفيد من جهده، ويستفيد من وقته، ولا يقعد عاطلا ومعطلا أرضه حتى يثمر الزيتون أو يثمر النخيل بعد زمن طويل.

خامسا: إن في كل جماعة مستويات متفاوته من الأفراد وقدراتهم المختلفة، بعضهم يبدع في المجال الفكري، وآخر يبدع في المجال الدعوي، وآخر لا يبدع إلا في المجال الاجتماعي، فلماذا لا توظف طاقات هذا النوع من الناس في خدمة المجتمع، وتخفيف المعاناة عن عباد الله، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن نفَّس عن مؤمن كربة من كربات الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة.

هذا خلاصة ما رددت به على الإخوة التحريريين الذين جادلوني، وكان منهم الأستاذ أسعد بيوض التميمي خطيب المسجد الأقصى، والذي تخلى عن حزب التحرير بعد ذلك. بالطبع لم يكن ردي بهذه الألفاظ، ولكنها الأفكار الأساسية التي رددت بها عليهم، وكانت حجتي قوية بفضل الله تعالى وتوفيقه، لهذا لم يجدوا ما يقولونه إزاءها.

وانتعش الإخوان في الخليل واستبشروا، وعلق الأخ فوزي النتشة على هذا النقاش العاصف بقول الشاعر:

إذا جـــاء مـــوسى وألقى العـــصـــا

فـــقـــد بطل الســـحـــر والســـاحـــر!

إلى نابلس وجنين:

وبعد أن أديت مهمتي في الخليل، كانت وجهتي بعدها ـ وفق الخطة الموضوعة ـ إلى مدينة نابلس، وألقيت فيها محاضرة احتشد لها عدد كبير، ثم دعاني عالمها

الفاضل الشيخ مشهور الضامن إلى بيته، وهيأ لنا في اليوم التالي غداء دعا إليه عددا من رجال البلدة وذوي الشأن فيها، ثم التقيت الإخوة في نابلس لقاء خاصا.

ثم غادرت نابلس إلى جنين، والتقيت الإخوان فيها، ورتبوا لي محاضرة في دار الإخوان بها. ومنها وليت وجهي شطر أولى القبلتين، القدس الشريف، فقد طال شوقي إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وكان ينبغي أن أبدأ به، ولكني أسير وفق الترتيب الذي وضعه الإخوان في عمان، فكانت زيارة القدس مسك الختام لمدن الضفة الغربية.

إلى القدس الشريف:

سافرت إلى القدس، ونظمت لي محاضرة فيها شهدها جم غفير، وبت بها، وصليت في المسجد الأقصى، لأول مرة في حياتي. كما زرت مسجد قبة الصخرة، وهو تحفة فنية رائعة حقا، وصليت فيه. وزرت رئيس الهيئة العلمية الإسلامية في رحاب المسجد، الشيخ عبد الله غوشة، وسر الرجل بلقائي. كما زرت مسجد عمر بن الخطاب وصليت فيه ركعتين، ثم زرت كنيسة القيامة، وأهم معالم المدينة العربية الإسلامية، ورأيت السلك الشائك الحاجز بين القدسين الشرقية والغربية، ولكن على قرب المسافة بينهما، ما كان أعظم الفرق بينهما في اليقظة والحذر والإعداد والتخطيط للمستقبل؟

كان أهل القدس الشرقية يمارسون حياتهم العادية، يغدون ويروحون، ويبيعون ويشترون، وهم في غفلة عما يجري من حولهم، وما يدبر لهم من مكايد العدو الذي يحيط بهم إحاطة السوار بالمعْصَم، وكان أهل القدس الغربية في عمل دائب، وسهر دائم، يواصلون الليل بالنهار، لبناء المستقبل على أنقاض فلسطين والفلسطينيين.

وكان اليهود المغتصبون للأرض يعملون لأهداف حددوها، في ضوء تخطيط واضح الطريق، بيِّن المراحل. كانوا يعملون للحاضر مستشرفين المستقبل، وكنا-

نحن العرب والمسلمين ـ مشغولين بتوافه الأمور عن كبارها، وبأعراضها عن جواهرها، حتى فوجئنا يوما باجتياحنا واغتصاب القدس منا، واحتلالها بجيوشهم، حتى غدونا لا نستطيع أن نقيم صلاتنا في مسجدنا الأقصى إلا بإذن منهم.

زيارة المخيمات (الكرامة وعقبة جبر):

بعد ذلك رتب لي الإخوان زيارة للمخيمات الكبيرة التي تضم اللاجئين الذين فقدوا ديارهم، وأخرجوا منها بغير حق، وقد زرت من قبل مخيم «العرّوب» بجوار الخليل، والآن ننوي زيارة مخيمي عقبة جبر، والكرامة، ولا أذكر أيهما زرته أولا، وأيهما ختمت به، والأرجح أني ختمت بـ «الكرامة» وقد ولد لأحد الإخوة هناك مولود ذكر سموه «يوسف». وقد لقيني مرة في إحدى رحلاتي الدعوية، وقال لي: أنا يوسف... الذي سميت على اسمك حين زرت مخيم الكرامة سنة ١٩٥٢. ولقد لاحظت ما يعانيه الإخوة اللاجئون، في مأكلهم ومشربهم ومسكنهم وعلاجهم وتعليمهم ورعاية أطفالهم، في هذه المخيمات التي لا توفر الحد الأدنى للعيش الآدمى الكريم، الذي يليق بالبشر في عصر يتشدق بحقوق الإنسان.

ولقد خرجت من زيارة هذه المخيمات حاملا أمرين: أولهما: هم ثقيل، وقلق شديد، لمعاناة هؤلاء الإخوة وعائلاتهم. والثاني: عدوى حُمَّى الملاريا، التي بدأت أشعر بها، ثم اشتدت علي بعد عودتي إلى عمّان، وأصابتني الرعشة الشديدة المصاحبة عادة للملاريا.

العودة إلى عمان ومستشفى. د. ملحس:

وكان لا بد من العودة إلى عمّان، بعد أن طالت الجولة، استعدادا للسفر إلى القاهرة، فقد أوشك العام الدراسي أن يبدأ، وهو العام النهائي لي في كلية أصول

الدين، ولكن «الملاريا» حمي وطيسها، واشتدت حرارتها، وهي الحمى التي اشتكى منها أبو الطيب المتنبي حين قال:

وزائرتي كـأن بهـا احـتـشـامـا
فـلـيـس تـزور إلا فـي الـظـلام
بذلت لهـا المطارف والحـشـايا
فـعـافـتـهـا وباتت في عظامي!

أحضر الإخوان لي بعض الأطباء ليفحصوني، ويصفوا ماذا يجب أن أتناول من الأدوية التي تبرد حرارة الحمى، ولكن لم يغن ذلك شيئا، فرأى الإخوة جزاهم الله خيرا أن يدخلوني مستشفى خاصا في أحد جبال عمان، اسمه «مستشفى الدكتور ملحس»، وبقيت فيها نحو أسبوع.

زيارة الشيخ النبهاني:

بقيت في مستشفى ملحس، حتى أبللت من مرضي، وقد عادني في المستشفى كثيرون، ولكن أهم من زارني شيخ يلبس جبة وعمامة، أقرب ما تكون إلى عمامة المشايخ المصريين، سألني عن رحلاتي إلى مدن الضفة الغربية والشرقية، وأجبته بأنها كانت طيبة ومفيدة، وأعتقد أنها أفادتني شخصيا، وقديما قالوا: السفر نصف العلم، وأسمعته بعض ما أحفظ في فوائد السفر من الشعر، وتناقشنا مناقشات خفيفة في بعض المسائل العلمية، بما يليق بإنسان على فراش المرض. وفي نهاية الزيارة صافحني الشيخ حفظه الله ولا أذكر هل أنا الذي سألته عن اسمه أو هو الذي بادرني، وقال: الداعي تقي الدين النبهاني، ورحبت به وشكرته على اهتمامه وزيارته، واعتبرت ذلك فضلا منه، ولعل رجاله رفعوا إليه تقريرا عن هذا الشاب المصري الأزهري الذي غالبهم في مجادلاتهم، فأراد أن يتعرف على شخصي باللقاء المباشر، ولعلها مجرد مجاملة منه، وهي مشكورة

على كل حال، وكانت هي المرة الوحيدة التي لقيت فيها الشيخ النبهاني، ولم يتح لي لقاؤه بعد.

وبعد ذلك خرجت من المستشفى مستعدا للعودة إلى مصر، ولم يكن أمامي إلا السفر بالطائرة، وكانت أول مرة أركب فيها الطائرة، وودعني إخواني وودعتهم، واستودعتهم الله الذي لا تضيع ودائعه، كما دعوا لي أن يزودني الله التقوى، ويهون عليَّ السفر، ويصحبني في الحل والترحال.

ما بعد رحلة الشام

إلى شهادة العالمية

العودة إلى مصر:

عدت - والحمد لله - إلى مصر، وقدمت تقريرا إلى فضيلة المرشد العام عن الرحلة، وقد لقيت فضيلته بعد ذلك، وعلمت منه أنه قرأ تقريري، واهتم منه بما جاء عن حزب التحرير ومقولاته ومجادلاته.

وكانت الخلافات قد بدأت تبرز بين الإخوان ورجال الثورة، وخصوصا بعد أن طلبوا من الإخوان أن يرشحوا لهم أسماء للاشتراك في الوزارة، فرشح مكتب الإرشاد لهم ثلاثة من أعضاء الجماعة، هم الأساتذة منير دلَّة، وحسن العشماوي، وثالث لا أذكره الآن، لعله الأستاذ عبد القادر حلمي.

ولكن جمال عبد الناصر ورجاله كانوا يريدون أسماء لها رنين وشهرة لدى الشعب المصري، من أمثال الشيخ أحمد حسن الباقوري، والشيخ محمد الغزالي، ولذا رفضوا ترشيح المرشد أو مكتب الإرشاد، وعرضوا الوزارة بالفعل على الشيخ الباقوري، فقبل مبدئيا، وأبلغ الإخوان بذلك، فلم يمنعوه من القبول، ولكن اشترطوا عليه أن يستقيل من الجماعة.

وبدأت الخلافات تتسع بين الجماعة والثورة، ولا سيما عندما أرادت أن يكون لها حزب يمثلها، فلم تعد تقبل أن يكون الإخوان هم سندها الشعبي، بل لابد أن يكون لهم رجالهم وجماعتهم المؤيدة لهم، والمؤتمرة بأمرهم، فبدأوا بإنشاء «هيئة التحرير» وأنشئوا لها فروعا في كل العواصم والمراكز، وحتى

بعض القرى، وبدأ شباب هيئة التحرير يحتكون بشباب الإخوان، وكان الإخوان حريصين على عدم الاصطدام بالهيئة الوليدة، وكانت هذه تعليمات المرشد العام.

رحلة إلى مدن الصعيد:

ومن ثم كلَّفني الأستاذ المرشد بتطواف مدن الصعيد في توعية للإخوان، وتوجيههم للثبات على دعوتهم، وعدم الذوبان في الآخرين، وتجنب الصدام معهم.

وقد طفت مدن الصعيد، وخصوصا عواصم المديريات ابتداء من الفيوم، فبني سويف، فأسيوط، فسوهاج، فقنا، فأسوان، كما مررت ببعض المدن المهمة، مثل ملّوي والقوصية بأسيوط، وأخميم بسوهاج، والمنشاة والعسيرات وجرجا بها، والأقصر ونجع حمادي وإسنا وفرشوط بمديرية قنا، وإدفو بمديرية أسوان.

وكان لي بكل هذه المدن محاضرات عامة ودروس ولقاءات خاصة، بنواب الشُعَب وبالطلاب وبغيرهم، لإبلاغهم تعليمات المرشد العام.

وكانت هذه أول مرة أزور الصعيد كله بعد زيارة أسيوط لتأييد الأستاذ «أبو غدير» في الانتخابات، وقد تعرفت على عدد غير قليل في كل بلد من هذه البلدان، جمعنا بهم السجن الحربي بعد ذلك.

وكانت لي زيارة أخرى للصعيد بعد ذلك، بطلب من إخوان الصعيد أنفسهم، وكانت الزيارة الأولى لي في أيام الشتاء، فكانت ملائمة جدا، ومما أذكره في هذه الرحلة وكانت في أوائل الشتاء: أنه قابلني في إحدى محطات قطار الصعيد في أحد مراكز قنا الجنوبية - نسيت اسم البلد - اثنان من شباب ضباط الإخوان في الشرطة، وهما: عباس أبو كرم، ومحمد الدمرداش، وقالا لي: إن عبد الناصر بدأ يشرد ضباط الإخوان، ويفرقهم في أماكن بعيدة، حتى لا يشاركوا في حل ولا

عقد، وكان هذا من الحرب الخفية التي لا يعرفها أمثالنا، ولم تكن ظاهرة على السطح، وإنما اتضحت آثارها بعد ذلك بزمن.

أما الأخ عباس أبو كرم فقد عرفته بعد ذلك في المعتقلات وغيرها، وأما الأخ الدمرداش فلم أعرف عنه شيئا منذ لقيته في مديرية قنا.

وكانت الزيارة الثانية في مقدم الصيف، وهناك عرفنا جو الصعيد الحار، ولكن كنا في عصر الشباب لا نبالي بحرارة ولا برودة، مع الحماسة للدعوة والاستغراق في آمال مستقبلها، وهموم حاضرها، فتكاد الفصول تستوي عندنا.

ومما أذكره هنا: أن الأخ عبد الله العقيل الذي قدم من مدينة الزبير بالعراق للدراسة في كلية الشريعة بالأزهر، وأحد الناشطين في قسم الاتصال بالعالم الإسلامي وقسم الطلبة، كان يرافقني في إحدى هذه الرحلات، التي مررنا بها معا على كل مدن الصعيد المهمة، وكان لنا فيها محاضرات ودروس عامة، ولقاءات وجلسات خاصة، وكان لها أثرها الطيب في أنفس الإخوان حينما التقيناهم، كما تركت في نفوسنا ذكريات حسنة، لا زلنا نتحدث بها كلما لقيت الأخ عبد الله العقيل أو لقيني.

زيارة الورتلاني وتوصيته بالأقصري:

وفي تلك الفترة زرت الداعية المجاهد الشيخ الفضيل الورتلاني، أحد رجالات الجزائر ومجاهدي علمائها المرموقين، وقد كنت لقيته من قبل في بيروت في رحلتي الشامية السابقة، وكانت هذه الزيارة بناء على طلبه.

وقد عاد من بيروت معززا مكرما من رجال ثورة يوليو بوصفه أحد رموز الجهاد الوطني والعربي، وقد رجا أن يراني في القاهرة حين يعود إليها، وقد أرسل إلي لأزوره حيث يقيم، فاصطحبت أخي محمد الدمرداش، وذهبت لزيارته، وحدثنا عن بعض تجاربه في حياته الحافلة، وهي مثيرة وخصبة. وسألته أن يحدثنا عن

شيخه الشيخ عبد الحميد بن باديس مؤسس «جمعية علماء الجزائر» التي قامت بدور معروف غير منكور في نهضة الجزائر، وأعادتها إلى هويتها العربية الإسلامية، بعد استماتة فرنسا في القضاء على هذه الهوية بالفرنسة التي تريد أن تلغي - أول ما تلغي - الإسلام والعروبة من الجزائر، وقام الشيخ ابن باديس وإخوانه البشير الإبراهيمي والعربي التبسي وغيرهما بمقاومة الفرنسة، بحركته التعليمية التربوية التثقيفية في كل ربوع الجزائر، وأنشأ الشيخ ابن باديس نشيده الذي كان يحفظه الجزائريون ويرددونه:

شـــعب الـجـــزائر مـــسلـم

وإلـى الـعـــروبـة يـنـتـــســب

مـن قـــــال: حـــــاد عـن اصلـه

أو قـــال: مـــات، فـــقـــد كـــذب

وأسس ابن باديس مجلة «الشهاب» التي كان يكتب فيها هو وإخوانه لتعميق فكرتهم، وتوصيلها إلى الشعب الجزائري.

وتحدث الشيخ الفضيل طويلا عن شيخه بإعجاب وحب، وأنه كان يحول دروسه كلها بقدرة فائقة إلى دروس تربوية ودعوية.

ومما ذكره لنا: أن ابن باديس كان يشرح لهم «الألفية» في النحو، ووقف عند البيت الأول فيها، وهو الذي يقول:

كـــلامنا لفظ مـــفـــيـــد كـــاســتـــقم

واسم وفـــعـل ثم حـــرف الكـلم

فبعد أن شرح الشيخ البيت من الناحية النحوية، عرج على الناحية التربوية فقال: انظروا إلى براعة الاستهلال في هذا البيت، فهو يقول: كلامنا لفظ مفيد، إنه يتكلم عن الجماعة المسلمة، ليعلن أنها لا تهرف بما لا تعرف، ولا تلقي الكلام

جزافا، ولا تقول ما يضرها في دينها أو دنياها، إن كلامها «لفظ مفيد» ليس عبثا ولا ضارا.

ثم اختار التمثيل بكلمة «استقم» وهي التي أمر الله بها رسوله في كتابه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (هود: ١١٢)، وأوصى بها رسوله من سأله من أصحابه عن وصية جامعة، فقال: «قل: آمنت بالله ثم استقم» رواه مسلم.

وذكر لنا أشياء من هذه المواقف، تُعَدُّ غاية في الروعة.

وفي هذا اللقاء حاول الشيخ الورتلاني أن يملأني ثقة بنفسي، فقال: أرى فيك مشابه من الأستاذ حسن البنا، وهذا يلقي عليك تبعات. فقلت له: يا أستاذ وأين يوسف القرضاوي من الأستاذ حسن البنا؟ وأين الثرى من الثريا؟

فثار عليّ وقال: لا تحقر نفسك، إن حسن البنا عنده قدرات ليست عندك، وأنت عندك قدرات ليست عنده، ومجموع مواهبك يؤهلك لتقوم بدور، فلا تنسحب منه، ولا تبخس نفسك حقها.

قلت: أسأل الله أن يجعلني أهلا لثقتك وحسن ظنك.

قال: ستثبت لك الأيام حسن ظني.

قلت: أرجو الله. وقد قرأت في حكم ابن عطاء الله السكندري: إن الناس يمدحونك لما يظنونه فيك، فكن أنت ذاما لنفسك لما تستيقنه منها، أجهل الناس من ترك يقين نفسه لظن ما عند الناس.

قال: وهذا يزيدني ثقة بك.

وكان أخي الدمرداش يستمع إلى حديثه عني، وهو منفرج الأسارير، فقد كان ـ رحمه الله ـ شديد الحب لي، والاعتزاز بي، إلى حد الإسراف أحيانا.

وفي نهاية اللقاء قال لي: هنا أحد إخواني من شباب علماء الجزائر النابهين،

وقد جاء ليكمل دراسته بالأزهر، وهو من قريتي، ولا آمن أن يعيش مع أحد من مصر إلا معك، فأنا أوصيك به خيرا، ولعلها تكون فرصة له لينهل منك شخصيا ومن الإخوان وروحهم بصفة عامة. وكان هذا الأخ في الخارج فناداه فحضر، وقال: هذا هو «محمد الأقصري» أمانة في عنقك.

وكان محمد الأقصري شابا أديبا قارئا مثقفا، وقد التحق بكلية أصول الدين، فكان من المناسب أن يسكن معنا في شقتنا بشبرا.

وقد انعقدت بيني وبين الأخ الأقصري صلة عميقة، وصداقة وثيقة، وظل حتى تخرج، وكان له دور في ثورة الجزائر، فقد كان له خطاب يومي أو ليلي إلى ثوار الجزائر كلفته به القيادة، يذاع بصوته من إذاعة «صوت العرب» بالقاهرة كل ليلة، يعبئ الروح المعنوية، ويحرض على القتال. وظل هذا حتى انتصرت الجزائر.

وبعد أن تخرج الأقصري في «أصول الدين» من الأزهر، التحق بمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية، ليدرس فيها في قسم القانون والشريعة، الذي كان يرأسه علامة القانونيين العرب الدكتور عبد الرزاق السنهوري، وقد قبله في القسم استثناء، مع أنه لا يقبل من الأزهر إلا خريجي الشريعة، وقد رفض قبولي برغم إلحاحي لأني خريج أصول الدين.

كان الأقصري كلما حضر خطبة أو محاضرة لي، يقول: كم أتمنى أن يأتي اليوم الذي أراك تخطب فيه وتحاضر في قلب الجزائر! إنه يوم أترقبه وعسى أن يكون قريبا.

ولكن هذا اليوم لم يأت إلا في سنة ١٩٨٢م، حينما حضرت أول «ملتقى للفكر الإسلامي» بالنسبة لي، وكان في مدينة تلمسان، وشهدت في الجزائر من جماهير الصحوة، ما لم أشهده في بلد آخر، حتى كان يحضر أحيانا نحو مائتي ألف شخص يستمعون إليّ في خطبة الجمعة.

والعجيب أني حين ذهبت إلى الجزائر سألت عن الأقصري، فلم أجده، فقد كان سفيرا للجزائر في إندونيسيا وفي غيرها.

ولم أره في الجزائر إلا بعد عدة سنوات، ورأيته عزبا كما تركته من قديم، لم يتزوج. فلما سألته عن السبب، قال: أهملت الأمر حتى فاتني القطار! والآن من تقبل أن تتزوجني لا أريدها، ومن أريد أن أتزوجها لا تقبلني!

وقد تقطعت الصلة بيننا بعد أحداث الجزائر المأساوية، ولا أدري ما مصيره؟ فإن كان حيا فأدعو الله أن ييسر له أمره، وإن كان ميتا فأسأله تعالى له المغفرة والرحمة، وأن يتقبله في عباده الصالحين.

ولنا عودة في الحديث عن الجزائر في حينها إن شاء الله.

امتحان الشهادة العالمية

كان من أهم الوقائع التي وقعت لي في تلك المرحلة: امتحان الشهادة العالمية - أو العالية - التي تختم بها الكلية، وبها يصبح الطالب أحد علماء الأزهر، ويستحق رسميا لقب «الشيخ» ويكتب له في شهادته.

وكانت شهادة العالمية لها شأن ووزن كبير، وكان الملك يوقعها بنفسه في عهد الملكية، أما في عهد الثورة فأصبح الذي يوقعها شيخ الأزهر.

وكنت برغم انشغالي بالدعوة وأنشطتها المتنوعة بالقاهرة، وبجامع آل طه بالمحلة الكبرى - حريصا على التفوق في دراستي. وهذا مما أكرمني الله به منذ السنة الأولى الابتدائية حتى الآن. فقد حافظت في معظم السنوات على ترتيب «الأول» بين فرقتي، وفي قليل من السنوات تأخرت عن الأول لأكون الثاني أو الثالث.

ولكني في الشهادة العالمية كنت حريصا كل الحرص على أن أكون الأول،

والمسلم ينشد الأحسن والأمثل دائما ـ كما قال تعالى ـ ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر: ١٧، ١٨).

والله تعالى يحب معالي الأمر ويكره سفسافها، والرسول الكريم يقول: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى»(١).

فلا تلوموني إذا كان طموحي إلى الأولية، واشتد حرصي عليها، وقد استعددت لها بما يسره الله لي ووفقني إليه من الاستذكار ومن المراجعة، التي أعتبرها كافية بالنسبة لي، ولتكويني العلمي السابق المؤسس على قواعد متينه، ولله الحمد.

ولكن كنت أخاف من أمر واحد، هو «الامتحان الشفهي» وخصوصا امتحان «التعيين» وكان عندنا امتحان شفهي عادي في بعض المواد مثل «المنطق» واللغة الإنجليزية.

وقد أديت امتحان المنطق أمام لجنة كان يرأسها العالم الأزهري النابه المتألق الدكتور حمودة غرابة، أحد الأزهريين المرموقين والمأمولين، لتفوقه العلمي والفكري والأخلاقي. وهو أستاذ الفلسفة والعقيدة، وقد قدم حديثا من لندن بعد أن حصل على الدكتوراه منها، إضافة إلى العالمية من درجة أستاذ، التي كانت رسالته فيها عن «ابن سينا بين الدين والفلسفة»، وقد نشرت وكتب مقدمتها الأستاذ الدكتور محمد البهي. ولكن شاء قدر الله أن يتوفى بعد مدة قليلة، أحوج ما يكون الأزهر إلى مثله، رحمه الله رحمة واسعة.

سألني د. غرابة عدة أسئلة في «المنطق» فوفقت في إجابتها، وخرجت من اللجنة مسرورا.

أما اللغة الإنجليزية، فقد كانت إجابتي على مايرام، وكنت أحصل في التحريري

---

(١) رواه البخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة.

ـ غالبا ـ على عشرين من عشرين، ولكن مما يؤسف له: أن ما حصلته من الكلية في سنواتها الأربع من اللغة الإنجليزية، قد ضاع وتبخر من ذاكرتي بعد ذلك ـ إلا قليلا ـ نتيجة الإهمال وعدم الاستعمال، ولأني تعلمتها على كبر، والتعليم في الصغر كالنقش في الحجر كما قيل.

امتحان التعيين:

بقي امتحان التعيين، وكان في مادتين أساسيتين: التفسير والتوحيد. ومعنى «التعيين»: أن يُعَيَّن للطالب موضوع معين أو فقرة معينة من المقرر، وعليه أن يراجعها فيما شاء من مراجع، ويسأل فيها من شاء من مشايخه، بل إن الكلية تكلف بعض المشايخ ليراجعهم الطلاب في الموضوع، ويسألوهم عن كل ما يعن لهم حوله.

وعلى الطالب أن يستعد للسؤال في كل ما يحيط بموضوعه، فقد يسأل في النحو أو الصرف أو البلاغة أو المنطق، أو الحديث أوالفقه، أو ما شاء الممتحن أن يسأله، وعليه أن يجيب في كل ما يسأل عنه، فكأنّ هذا التعيين امتحان عام لمدى تحصيل الطالب العلمي خلال سني دراسته كلها، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

وكان امتحان التعيين في سنتنا في التفسير في آيتين من سورة الرعد، وهما قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ (الرعد: ١٧) إلى آخر الآيتين.

وفي التوحيد: فقرة من كتاب العقائد النسفية، فيها خلاف معروف بين أهل السنة والمعتزلة، وهي التي تقول: «المقتول ميت بأجله عندنا أهل السنة».

كما أن لجنة التعيين تمتحن الطالب أيضا في حفظ القرآن الكريم.

عشر لجان لامتحان التعيين:

وكان في الكلية عشر لجان قد ألفت لامتحان «التعيين، والقرآن»، وكنت مستعدا للامتحان أمام أيّ واحدة منها، إلا واحدة، خوفني زملائي الطلبة من رئيسها، وهو أستاذنا الشيخ صالح شرف، الذي درسني علم التوحيد في إحدى السنوات، ولكن كان من زملائنا من هو بلديه وقريبه، وهو ممن ينافسونني على الأولية، وخفت - أو خوفني إخواني - أن ينحاز الشيخ إلى قريبه، ويبخسني حقي، وكان هذا من سوء ظني، ولكن سوء الظن عصمة - كما قالوا - في كثير من الأحيان.

بيد أني ما كنت مهتما بهذا الأمر، وأقول: هناك عشر لجان، فلماذا أفترض أن يكون حظي في اللجنة المخوفة؟

ولم تكن لجنة الطالب تعرف إلا في يوم امتحانه نفسه. وفي يوم امتحاني ذهبت إلى الكلية، لأفاجأ بأن اسمي أمام اللجنة التي حذروني منها.

وهنا شاورت بعض الأساتذة الذين هم على صلة طيبة بي، مثل الشيخ مختار بدير الذي قال لي: من حقك أن تعتذر عن عدم الامتحان أمام هذه اللجنة دون إبداء الأسباب، وكذلك قال لي الدكتور محمود فياض أستاذ التاريخ.

وكذلك سألت قريبي وبلديّي الشيخ أحمد محمد صقر، أستاذ الحديث بالكلية، فقال لي: أحد زملائك (وهو الحسيني عبد المجيد هاشم الذي عين وكيلا للأزهر بعد ذلك) دخل على لجنتنا، وكان فيها الشيخ أحمد علي، ونظر إليه الطالب فوجده عابسا، فقال له: يا فضيلة الشيخ مالي أراك مكشرا؟ والله ما أنا ممتحن على هذه اللجنة! وغادرنا، ودخل لجنة أخرى.

كل هذا شجعني أن أذهب إلى عميد الكلية، وهو شيخنا الشيخ الحسيني سلطان، (الذي كان شيخا لمعهد طنطا من قبل، وأصبح وكيلا للأزهر بعد ذلك) فطلبت منه أن ينقل اسمي من اللجنة التي أنا فيها إلى لجنة أخرى.

فقال لي: وهل نحن على هوى الطلبة، إذا لم تعجب أحدهم لجنة نقلناه إلى أخرى، كأن الطلاب هم الذين يختارون لجانهم؟!

قلت له: يا فضيلة الشيخ، هذا لو كنت أطلب منك أن تدخلني لجنة معينة من اللجان العشرة، ولكني أرفض لجنة واحدة فيها لي تحفظ عليها، وأطلب منك أن تضعني في أي لجنة أخرى، أو تكوِّن لجنة ترأسها فضيلتك وتمتحنني كما تشاء. ثم قلت له: إنها شهادة عالمية واحدة، ولن أفرط في حقي فيها، وضربت بيدي على المنضدة (الطاولة) في شيء من الغضب.

فقام الشيخ رحمه الله من مكتبه في هدوء، وذهب إلى اللجنة، وسحب أوراقي منها، وحولها إلى لجنة أخرى، برئاسة الشيخ عبد القادر خليف، وعضوية شيخنا محمد علي أحمدين أستاذ الحديث، ود. فياض أستاذ التاريخ.

ومن غرائب المصادفات: أن يكون في اللجنة الثانية الشيخ أحمدين، وكنت قد اصطدمت به في أثناء الدراسة في آخر سنة، وساءت العلاقة بيني وبينه، حتى أخرجني من الفصل، فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، خرجنا من عقدة لندخل في عقدة أشد.

وكان سبب الخلاف بيني وبين الشيخ أحمدين: أنه كان يدرس لنا حديث «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» برواياته المختلفة، وذكر لنا رأي العلماء في هذه الخيرية، وأن رأي الجمهور أن الخيرية بالنسبة لقرن التابعين إنما هي للمجموع لا للجميع، فلا يمتنع أن يوجد فيمن بعد التابعين من هو أفضل من بعض أفراد التابعين، ولكن لا يوجد قرن بعد التابعين أفضل من قرنهم في مجموعه.

أما بالنسبة لقرن الصحابة، فالخيرية والأفضلية فيه، إنما هي للجميع لا للمجموع، فلا يوجد بعد قرن الصحابة فرد ما - وإن بلغ ما بلغ من العلم والفضل والتقى والجهاد - يبلغ مبلغ أي واحد من الصحابة، مهما دنت منزلته.

وللإمام ابن عبد البر رأي خالف فيه الجمهور، وقال: هناك من الصحابة من لا يبلغ أحدهم مبلغهم، مثل السابقين الأولين، وأهل بدر، وأهل أحد، وأهل بيعة الرضوان، ومن كان له فضيلة معينة، ثم من عدا هؤلاء يكون التفضيل للمجموع لا للجميع، فلا يمتنع أن يأتي ممن بعد الصحابة من يفضل على واحد من عامة الصحابة، ممن لم يكن له من الصحبة إلا أنه حج معه صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، ورآه من بعيد.

وهنا قلت للشيخ أحمدين: والله يا مولانا، إن رأي ابن عبد البر رأي جيد، فقد استثنى من الصحابة من لا يلحق أحد بغبارهم، ولكنه أبقى الباب مفتوحا بالنسبة للصحابة الذين لم يعرف لهم فضيلة معينة، فلا مانع أن يكون مثل عمر بن عبد العزيز أو الإمام الشافعي، أو عز الدين بن عبد السلام، أو صلاح الدين الأيوبي أو ابن تيمية أو غير هؤلاء ممن حملوا راية الدعوة والجهاد، أفضل من بعض الصحابة الذين ليس لهم إلاّ فضل الصحبة.

وهذا يفتح نوافذ الأمل للعلماء والدعاة المجاهدين في عصرنا، الذين بذلوا جهودهم في إصلاح أحوال المسلمين والنهوض بهم.

وهنا قال أحد الإخوة في الفصل (وهو الأخ محمد حسن راضي من بسيون): مثل الشيخ حسن البنا وما قام به من دعوة وجهاد.

وما إن ذكر اسم حسن البنا، حتى ثار الشيخ أحمدين ثورة عارمة، ، وقال: تريد أن تجعل حسن البنا أفضل من الصحابة؟ وهاجم الشيخ الأستاذ حسن البنا بعنف. وهنا قلت للشيخ: يا مولانا هذا رجل أفضى إلى ربه، وقد نهينا عن سب الموتى، وما ذنب حسن البنا إذا اختار أحد تلاميذه رأيا يخالف رأي فضيلتك أو رأي الجمهور؟

واشتد النزاع بيني وبين الشيخ، فطلب إلي أن أخرج من الفصل، وألا أحضر دروسه، وكنا على وشك انتهاء السنة الدراسية، فظل التوتر قائما بيني وبين الشيخ

أحمدين، ولكن ها هو ذا القدر وضعه أمامي في اللجنة التي سأؤدي الامتحان أمامها، وليس مقبولا ولا لائقا أن أرفضها، بعد أن رفضت اللجنة الأولى. فليكن ما قدر الله، ودعوت الله تعالى أن يعلمني ما جهلت، ويذكرني ما نسيت، وأن يسدد رميتي، ويلهمني الصواب، وفصل الخطاب.

وبدأت اللجنة تقوم بواجبها في امتحان الطالب الذي أضيف إليها بأمر من العميد، ولم يكن من طلابها، وكأنها في حالة تحدٍّ مع هذا الطالب. وتولى رئيس اللجنة الشيخ خليف معظم الأسئلة، التي شملت العلوم المختلفة التي درسناها في الأزهر، وكان الشيخ أحمدين يساعده في الأسئلة، وكان التوفيق حليفي في إجاباتي، كأني أغرف من بحر، أو أتدفق من سيل، وذلك من فضل الله وعونه، وما أصدق ما قال الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأول ما يجنى عليه اجتهاده!

وبعد انتهاء اللجنة من امتحان التعيين في التفسير والتوحيد، أخذت تمتحني في حفظ القرآن.

قال الشيخ خليف: هل تحفظ القرآن أو أنت من الذين يدخلون الأزهر حافظين للقرآن، ويتخرجون منه وقد نسوه؟

قلت: بل أحمد الله أني أحفظه حفظا جيدا، تستطيع أن تسألني فيما شئت من القرآن من الفاتحة إلى الناس، وتسألني عن الآية في أي جزء؟ وفي أي ربع؟ وفي الصفحة اليمنى أم اليسرى؟ وفي أول الصفحة أو وسطها أو آخرها؟

قال الشيخ: يعني واثق من نفسك؟

قلت: نعم بحمد الله.

وبدأ الشيخ يسألني، وينتقل بي والمصحف أمامه، وقد أراد أن يجربني في أول سؤال: في أي سورة وأي جزء وأين تقع . . . إلخ، وأجبته بالتفصيل.

وبعد أكثر من عشرين سؤالا، وأنا أقرأ بترتيل وصوت مؤثر، كان آخر سؤال من سورة الصف: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ (الصف: ١٠) وقرأت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الصف: ١٣).

وهنا قال رئيس اللجنة: فتح الله عليك.

وخرجت من اللجنة، باسم الثغر، منشرح الصدر، مستبشرا بهذه الآية التي ختم بها الامتحان كله: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

وكان عميد الكلية الشيخ الحسيني سلطان قد شهد الامتحان كله، كأنما أراد أن يعرف حقيقة هذا الطالب الذي أصر على أن ينتقل من لجنة إلى لجنة، حرصا على السبق والتفوق، ـ والحمد لله ـ قد سترني الله بستره الجميل، وحسن صورتي أمامه، فضلا منه ومنّة.

وبعد دقائق قال بعض زملائي: الشيخ أحمدين يسأل عنك، ويريد أن يلقاك، فقلت في نفسي: يا رب استر، ترى ماذا يريد الشيخ الآن؟

وما إن لقيت الشيخ حتى بادر بمصافحتي وعانقني، وقال: سامحني يابني، أنا ظلمتك من قبل، وأسأت الظن بك، وما كنت أعرفك على حقيقتك. واليوم اكتشفت خطئي وعرفت من أنت، بارك الله فيك، وجعلك من علماء الأمة العاملين المخلصين.

كان هذا اللقاء العاطفي الحار مع الشيخ أحمدين مفاجأة لي، لم أكن أتوقعها، كنت أرجو أن يغير موقفه مني، ولكن ما كنت أتوقع أن يصل إلى هذا الحد من الود

والتعاطف. وشكرت للشيخ حسن ظنه بي، وقلت له: أدعو الله تعالى أن يجعلني عند حسن ظنك، وأن يغفر لي ما لا تعلم. وقد دلني هذا على إخلاص الشيخ وصفاء سريرته، وشجاعته في الرجوع إلى الحق إذا تبين له، رحمه الله وجزاه خيرا.

وقد ظل ود الشيخ أحمدين لي موصولا، حتى قدمت إلى الدراسات العليا، وقبلت في شعبة التفسير والحديث أو علوم القرآن والسنة. وفي السنة الثانية كنت الطالب الوحيد الذي نجح في الشعبة، وأذكر أن فضيلة شيخنا الشيخ صالح شرف، الذي كان في ذلك الوقت السكرتير العام للجامع الأزهر والمعاهد الدينية، كان يمر بالدراسات العليا وطلابها، ومر بي وأنا مع الشيخ أحمدين فقال له: هذا الشيخ يوسف القرضاوي، لو كان الأمر بيدي لأعطيته الأستاذية من الآن! فسبحان مقلب القلوب.

وكان الشيخ صالح شرف هو الذي فررت من لجنته خشية أن يجور علي، وما كنت أحسب أن الشيخ على علم بما جرى، أو أنه يتذكره. ولكن بعد نحو عشرين سنة، كنت عضوا بمجلس إدارة بنك فيصل الإسلامي، وكان البنك قد أقام حفلا بمناسبة ما، ودعا إليه عددا من كبار العلماء، وكان منهم الشيخ صالح شرف، وقد سلمت على الشيخ ورحبت به، وقال لي: يا شيخ يوسف، أنا لي حق عندك، فقد أسأت الظن بي بغير دليل، ولو كان امتحانك عندي لأعطيتك حقك.

قلت له: يا فضيلة الشيخ أرجو أن تسامحني، واعتبر هذا لونا من حدَّة الشباب وطيشهم، وعفا الله عما سلف. وأنا والله لا أكنّ لك إلا الحب والتقدير، فقد درستني علم التوحيد بكلية أصول الدين.

قال الشيخ: كل شيوخ الأزهر، يسمعون عن نشاطك وجهودك في خدمة العلم والدين، ويعتزون بك، ويدعون لك، فجزاك الله عن الأزهر وعن الإسلام خيرا.

وقفه مع مناهج كلية أصول الدين:

لقد اخترت كلية أصول الدين، لأنها تضم العلوم النقلية والعقلية، ولما في مناهجها من تنوع تُثري به معارف الطالب، وتتسع مداركه وآفاقه.

ولا غرو أن درسنا التفسير والحديث والتوحيد طوال سنوات الكلية، وكذلك درسنا الفلسفة في جميع السنوات، ابتداء بالفلسفة الشرقية القديمة، ومرورا بالفلسفة اليونانية، ثم الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب، وانتهاء بالفلسفة الحديثة.

كما درسنا التاريخ في كل سنوات الكلية ابتداء بالسيرة النبوية، مرورا بعصر الراشدين ثم بالدولة الأموية والعباسية، وانتهاء بتاريخ الأندلس.

كما درسنا أصول الفقه والمنطق وعلم النفس واللغة الإنجليزية، ولا شك في أن هذا أعطانا أرضية ثقافية واسعة، ازدادت اتساعا بدراستنا لعلوم النفس والتربية في تخصص التدريس.

ولكن مع هذا كان هناك قصور في هذه المناهج ذاتها أو في تدريسها، أذكره في الملاحظات التالية.

ملاحظة عامة:

قبل أن أبدي ملاحظاتي التفصيلية على المواد والمقررات الدراسية، أود أن أبدي ملاحظة عامة وأساسية على طريقة التدريس.

فقد وجدت أن طريقة التدريس في الكلية هي نفس طريقة التدريس في المعاهد الثانوية، العمدة فيه كتاب مقرر يشرحه الأستاذ، وتدور طريقة الشرح حول الألفاظ، أكثر مما تدور حول المعاني والأفكار، وكثيرا ما يكون الامتحان فيما قرئ من الكتاب، لا فيما هو مقرر فعلا. وبهذا يضيع على الطالب فقرات كبيرة من المقررات ربما لا يعوضها قط.

لم تكن كليات الأزهر، مثل كليات الجامعة في مصر وفي غيرها، تعتمد على الموضوع لا على الكتاب، وتدور على المعنى لا على اللفظ، وتشرك الطالب مع الأستاذ، وتهتم بالبحث يقوم به الأساتذة، ويتعوده الطلاب.

لم يكن هناك فرق بين المعهد والكلية إلا أن الكتاب في الكلية أكبر كمًّا، وأكثر تعقيدا، وهذا ليس فرقا مؤثرا، ولو طُعِّم النظام القديم والطريقة الأزهرية، ببعض هذه التوجهات الجامعية الحديثة لكان في ذلك خير كثير على الأزهر وأبنائه.

أما الملاحظات المفصلة على المواد، فأجملها فيما يلي:

علم التفسير:

كان التفسير كله على «الطريقة التحليلية» للألفاظ، مع اهتمام بالغ بالجانب اللغوي والبلاغي، ماضيا كله على نهج التفسير بـ«الرأي»، وكنت أود:

أولا: أن يكون هناك جزء من هذا التفسير التحليلي على طريقة «التفسير بالمأثور» كما عند ابن كثير مثلا، ليجمع الطالب بين الطريقتين، ويحوز الحسنيين.

ثانيا: أن يستفاد من بعض «التفاسير الحديثة» مثل «تفسير المنار» بما فيها من نظرات تجديدية إيجابية، كبعض التوجهات الإصلاحية في بيان هداية القرآن، وبعض الإشارات واللفتات (العلمية) غير المتكلَّفة.

ثالثا: أن يكون هناك جزء من مقرر التفسير لما سمي «التفسير الموضوعي» مثل العلم في القرآن، الإيمان في القرآن، المال في القرآن.. إلخ.

رابعا: أن يقرر تدريس قدر مناسب من «علوم القرآن» ومنها: أصول التفسير ومناهجه، فهذا لازم لثقافة الطالب المتخرج في أصول الدين.

علم الحديث:

في كلية أصول الدين كان الكتاب المقرر هو صحيح مسلم بشرح النووي طوال سنوات الكلية الأربع، ولكن كان هناك أبواب كثيرة ومهمة من الكتاب لا تدرس ولا تقرأ، كما أن شرح النووي عدا الأجزاء الأولى من الكتاب كان خفيفا وغير مشبع، وكنت أود:

١ـ أن يقرأ متن الصحيح كله بأسانيده، ليتعود الطالب ذلك.

٢ـ أن يحتل «فقه الحديث» مكانا أكبر، ولا تهمل أحاديث الأحكام، على تقدير أن ذلك من اختصاص «كلية الشريعة»، فكل كلية يجب أن يكون لها حظ من الفقه بوجه من الوجوه.

٣ـ أن يستفاد من بعض النظرات الحديثة في شروح الحديث.

٤ـ أن يُمرَّن الطالب على فن «التخريج» ويعرف أصوله نظريا، ويدرب عليه عمليا.

٥ـ أن يأخذ من «علوم الحديث» قدرا أكبر مما هو مقرر في الكلية، مع الاهتمام بالتطبيق.

٦ـ أن يتدرب الطالب على معرفة «الحديث الموضوعي» بدراسة بعض الموضوعات في السُّنَّة مثل «الزواج» أو «الأسرة» أو «الجهاد» أو «الحكم» أو غير ذلك.

علم التوحيد:

كان علم التوحيد يدرس في الكلية على أنه من «العلوم العقلية» وكانت دراسته رياضة ذهنية، ودربة عقلية، في قضايا نظرية متفرعة عن مسائل الفلسفة القديمة، التي أصبحت قضايا تاريخية، ولم يعد لها وجود مؤثر في العقل الحديث.

ولهذا كان معظمها ردودا مباشرة أو غير مباشرة على بعض الفلاسفة أو بعض الفرق التاريخية من معتزلة وجهمية أو كرامية أو خارجية.. إلخ، حتى إن أول

جملة في كتاب التوحيد المقرر (العقائد النسفية) تقول: حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق، خلافا للسوفسطائية.

وفي رأيي: أن عَدَّ التوحيد من العلوم العقلية البحتة أمر خاطئ، فالإسلام عقيدة وشريعة، والعقيدة هي الأساس، والشريعة هي البناء. وإذا كانت الشريعة وفقهها من علوم الدين، فكيف لا تكون العقيدة، (وهي الأساس) من علومه؟

صحيح أن العقيدة في الإسلام تقوم على منطق عقلي سليم، خصوصا في العقيدتين الأساسيتين: وجود الله، وإثبات النبوة، إذ لابد أن يثبتا بالعقل، ولكن هذا لا يخرج علم التوحيد من عَدِّه من العلوم الدينية، بل هو أصلها وعمدتها.

لهذا كان الواجب دراسة العقيدة من القرآن أولا، لا على أنه مجرد أخبار، بل بوصفه مشتملا على آيات ودلالات وبراهين عقلية، رد بها على المخالفين من الدهريين ومن الوثنيين، ومن أهل الأديان الأخرى.

ومن أهم من يجب الرد عليهم في عصرنا هم: جماعة «الماديين» الذين ينكرون كل ما رواء الحس، وما بعد الطبيعة.

ويمكننا الاستعانة في الرد عليهم بالعلوم الحديثة التي قام كثير من أقطابها بدور غير منكور، في التدليل على وجود الله تعالى من خلال تخصصاتهم، كما في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» و«العلم يدعو إلى الإيمان» و«مع الله في السماء» و«الله والعلم الحديث» إلخ.

علم مقارنة الأديان:

وبهذه المناسبة، هناك علم كنا نحب أن نأخذ عنه فكرة كافية، وهو: علم مقارنة الأديان، وهو يدرس بعد ذلك في تخصص الدعوة والإرشاد، باسم «الملل والنحل»، وكان الأولى أن يأخذ طالب الكلية حظا ملائما منه، خصوصا الأديان

الكبرى مثل : اليهودية والمسيحية من الأديان الكتابية، والبوذية والهندوسية من الأديان الوثنية .

الفلسفة الإسلامية:

لا أنكر أن دراسة الفلسفة في كلية أصول الدين دراسة قوية ومستوعبة إلى حد كبير، ومع هذا يظل هناك تحفظ على الفلسفة التي سموها «الفلسفة الإسلامية» وهي التي تُعَبِّر عن المدرسة الفلسفية المشائية من المسلمين، ومن تبناها من كبار الفلاسفة أمثال الكندي والفارابي وابن سينا، ومن دار في فلكهم من بعدهم .

فهذه الفلسفة هي فلسفة اليونان، أو قل فلسفة كبيرهم والمعبر عنهم أرسطوطاليس . الذي عَدَّه الفلاسفة المسلمون «المعلم الأول» والذي عَدَّه بعضهم يمثل قمة الكمال العقلي البشري، بحيث لا يتصور الخطأ فيما قال، بل يؤخذ قوله على أنه قضية مُسَلَّمة .

ولهذا كان موقف الفلسفة الإسلامية تأويل «محكمات النصوص» القرآنية ـ فضلا عن النبوية ـ لتوافق ما قرره أرسطو .

وعلى كل حال، فإن مقولات الفلسفة الإسلامية أو ما سمي فلسفة إسلامية، إنما هي ظلال لفلسفة اليونان، تتأثر بها، ولا تخرج عن دائرتها .

وقد قال شيخ مؤرخي الفلسفة الإسلامية في عصرنا الشيخ مصطفى عبد الرازق : إن علم أصول الفقه أولى بالتعبير عن فلسفة المسلمين من الفلسفة الإسلامية .

المهم أن هذه الفلسفة الإسلامية ليست هي فلسفة الإسلام بحال، وأعتقد أننا بحاجة إلى مادة جديدة تتحدث بعمق عن «فلسفة الإسلام» في عقائده وشرائعه وأخلاقياته، ونظرته إلى الله والكون، وإلى الإنسان والشيطان، وإلى الدين والحياة .

دراسة التصوف:

ومن العلوم التي غابت في الكلية، وكان ينبغي أن يأخذ الطالب فكرة عنها: علم التصوف، أو السلوك.

فهو لا شك من علوم التراث الإسلامي، وله مصادره وكتبه، ورجاله وأعلامه، كما له مدارسه واتجاهاته، فمنه السني والمبتدع، والمستقيم والمنحرف، والنظري والعملي.

وبعضه يمثل «علم الأخلاق» أو السلوك الإسلامي، كما نقل ابن القيم عن بعضهم: التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في التصوف.

وبعضهم خرج عن هذا الإطار، وأصبح التصوف لديه: نظريات فلسفية في الحلول والاتحاد.

وأحسب أنه ينبغي لطالب أصول الدين أن يأخذ فكرة كافية عنه، وأن يزن موروثة بميزان القرآن والسنة.

علم التاريخ:

ومن مزايا كلية أصول الدين اهتمامها بعلم التاريخ، الذي يدرس في جميع سنوات الدراسة، وحتى كان في شُعَب تخصص الأستاذية بالكلية قديما: شعبة للتاريخ. وكان يدرسه لنا أساتذة أقوياء، ومن أعظم الذين درسوا لنا التاريخ: الدكتور محمود فياض، الذي درسنا تاريخ الخلفاء الراشدين.

ولكن كان ينقص المنهج: دراسة التاريخ الحديث، وعلى الخصوص «حاضر العالم الإسلامي» ومشكلات الأمة المسلمة المشتركة، وقضايا أوطانها الساخنة، فهذا هو الذي يربط الطالب بأمة الإسلام، ودار الإسلام، والمؤمنون إخوة، ومن لم يهتم لأمر المسلمين فليس منهم.


النادي الشبابي

الفهرس

رقم الايداع ١١٨٧١/٢٠٠٢
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-0837-1



مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

ابنُ القريَة والكُتّاب

ملامــح سيــرة ومسيــرة

هذا هو الجزء الأول من الكتاب الذي سجل فيه شيخ الأمة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي ملامح مهمة من مسيرة حياته الحافلة والمباركة، بعد أن ألح عليه بعض الإخوة الكرام الذين يعتز بهم ويقدرهم كي يكتب هذه المسيرة بقلمه لما فيها من خير كثير للقراء، وخصوصا للأجيال الواعدة الصاعدة من أبناء الأمة الذين سيجدون في سيرته ومسيرته ما يستحق التسجيل والرصد والنشر، ليتخذ منه الناس عبرة، ويتخذ منه الشباب حافزًا للعمل، وباعثا للأمل.

وقد اجتهد المؤلف الكبير ما استطاع أن يقول الحق، ويتحرَّى الصدق، ويكون قواما بالقسط شهيدا بالله ولو على نفسه، وألا يجرمنّه شنآن قوم على ألا يعدل، مستعينا بالله تعالى، معتصما بحبله، لائذا بجنابه، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم.

وفي هذا الكتاب يحاول الكاتب الكريم أن يركز على الإيجابيات لتحسن القدوة بها والأسوة فيها، ومع هذا فإنه لا يغفل السلبيات، بل يذكرها كي يؤخذ منها العبرة، وتجنبا للوقوع في مثلها، وتحقيقا للإنصاف مع النفس ومع الأجيال القادمة.



دار الشروق
القاهرة، ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
e-mail:dar@shorouk.com